سِتّون عاماً بين الشّرق والغرب

التخطيط والمثابرة والتنفيذ

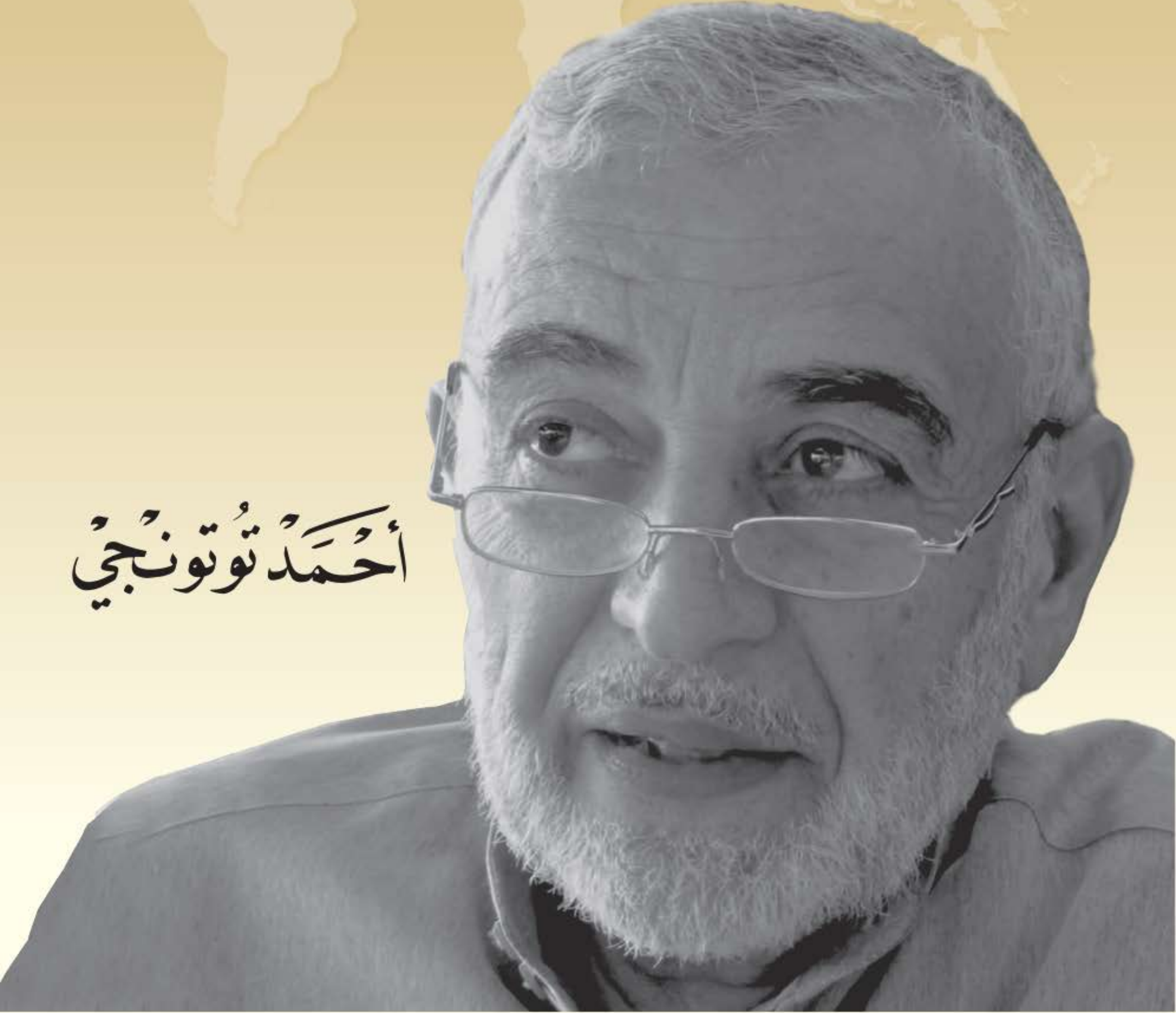

أحمد توتونجي

ستون عاماً بين الشرق والغرب

التخطيط والمثابرة والتنفيذ

أحمد توتونجي

ستون عاماً بين الشرق والغرب

التخطيط والمثابرة والتنفيذ

أحمد توتونجي

ترجمة

جمال الجزيري

مراجعة

حجاج أبو جبر

©أحمد توتونجي، اسطنبول، تركيا
الطبعة الأولى ١٤٤٤هـ /٢٠٢٣م

ستون عاماً بين الشرق والغرب التخطيط والمثابرة والتنفيذ

تأليف: أحمد توتونجي

ترجمة: جمال الجزيري

مراجعة: حجاج أبو جبر

موضوع الكتاب

١- سيرة ذاتية
٢- الدعوة
٣- التخطيط
٤- العمل الإسلامي
٥- المنظمات الطلابية
٦- المؤسسة

ردمك (ISBN): ٩٧٨-١-٩٤٥٨٨٦-٠٧-٢

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

تصميم وإخراج

DARFAN.COM الأردن - عمّان +96265658787

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

شكر وتقدير	٨
تمهيد	١٠
شهادات	١٣
الفصل الأول: مرحلة الطفولة	٣٣
الفصل الثاني: طريق واحد ودروب كثيرة	٤٥
الفصل الثالث: هبوب رياح جديدة	١٠٣
الفصل الرابع: المركز الروحي	١٥١
الفصل الخامس: الانتشار العالمي	١٧٣
الفصل السادس: شق درب جديد	٢٣٣
الفصل السابع: آثار أقدامٍ في الصحراء	٢٥١
الفصل الثامن: حول العالم مع إمامين	٣٠١
الفصل التاسع: أفريقيا	٣٢٧
الفصل العاشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي في طور التأسيس	٣٥٣
الفصل الحادي عشر: طلبُ رضا الله	٣٧٥
الفصل الثاني عشر: نُبل السلوك القويم	٣٩٥
خاتمة	٤٢٣
صور مناسبات اجتماعية وأحفال تكريم	٤٢٥

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه إلىٰ يوم الدين.

الحمد لله العلي القدير علىٰ نعمه التي لا تُحصىٰ، ومن نعمه إكمال هذا العمل المهم. الحمد والشكر له دائماً وأبداً.

أشكر والديّ، أبي محمد توتونجي وأمي عطية شريف (رحمهما الله) علىٰ رعايتهما ومحبتهما ودعائهما وصبرهما. لقد غرسا فيَّ وفي إخوتي وأخواتي أسس الإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ، وكانا قدوة لي في تعاملهما مع الآخرين.

كما أتوجه بعظيم الشكر وأصدقِه إلىٰ رفيقة دربي وملهمتي زوجتي ميسون الطالب التي ملأت حياتي بحياتها، وشاركتني كل شيء في السراء والضراء.

وأشكر أبنائي وبناتي (محمد وإلهام ومحمود وعمر وهدىٰ) علىٰ صبرهم ومحبتهم وتفهّمهم ورعايتهم؛ إِذْ إنني كرستُ حياتي لخدمة هذا الدين القويم. وأتوجه بشكر خاص لابني محمد توتونجي الذي تطوّع بمرافقتي ورفع عن كاهلي عبء هذا الكتاب، حفظه الله ورعاه.

كما أتوجه بالشكر من أعماق قلبي لأخي ورفيق دربي الدكتور هشام الطالب علىٰ صداقته الغالية، وتشجيعه وتوجيهه الدائم، ومساندته لي علىٰ الدوام علىٰ طريق «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وأتوجه أيضاً بالشكر إلىٰ الأستاذ الدكتور عمر حسن كاسولي علىٰ تعاونه التام ومساعدته ونصائحه المخلصة ودعمه المتواصل. وكذلك شكري الكبير إلىٰ رفيق الدرب الدكتور عبد الحميد أبو سليمان «رحمه الله» علىٰ دعمه وعنايته بالأفكار والأشخاص.

وأتوجه بالشُّكر للسَّند المُتَّصل في العمل الفكري والدعوي الذي تمكَّنا معه وبتوفيق الله سبحانه وتعالىٰ إنجازَ ما كُلّف به المسلم من أداء رسالته الحضارية والإصلاحية في هذه الحياة، ولا يسعني هنا ذكرهم جميعاً، ولكنني أخصُّ منهم صفوَ الحياة إخواني الدكتور إسماعيل الفاروقي والدكتور جمال البرزنجي والدكتور طه جابر العلواني رحمهم الله؛ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾ [الأحزاب: ٤٧]

وأخيراً، أود أن أُعرب عن تقديري وامتناني لكل من أسهم بوقته أو جهده أو تعليقاته أو آرائه في خروج هذا الكتاب إلىٰ النور. أنعم الله علينا بالنجاح، وهدانا إلىٰ الصراط المستقيم.

حفظهم الله أجمعين، وحفظ كل من هو عزيزٌ علىٰ قلبي، حيث لم يسعفني الوقت هنا لأذكر أسماءهم فرداً فرداً، فعند الله خير الجزاء. وحفظهم الله جميعاً من كل مكروه، ورزقهم الصحة والعافية.

أحمد توتونجي
٣٠ تموز/ يوليو ٢٠٢٢م
١ محرم ١٤٤٤هـ
إسطنبول، تركيا

تمهيد

ليس الإيمان مجرد فكرة نظرية؛ بل هو قناعة يعيش بها المرء، وهي تقترن بالعمل الدؤوب الذي يستوعب شتى جوانب الإيمان، ويسعى المرء لتحقيقها في كل تصرفاته، طلباً لرضا الله جل وعلا. نحن كائناتٌ لم يخلقنا الله سبحانه وتعالى عبثاً؛ بل لغاية إلهية. وهذا الكتاب سيرة عجيبة لرجل أدرك هذه الغاية وتشعباتها الواسعة في مرحلة مبكّرة من حياته، وسعى لأن يجعل حياته كلها تتمحور حول هذه الغاية، فعندما خطا والدي (حفظه الله) أولى خطواته على طريق أسلوب حياة قائم على الإيمان في بلاد غريبة بعيدة عن الوطن، بدأ رحلة اهتماماته المدنية وخدمته للآخرين؛ وهو الأمر الذي أوصله إلى تكريس حياته كلها لتحقيق ذلك.

في هذا التطواف المكتوب، يشارك والدي القراء رحلته، وهي رحلة أبحر فيها على أمواج كثيرة من التحديات والصراعات إلى أن نجح في تأسيس منظمات إسلامية في مختلف أنحاء العالم، واكتسب خبرة مباشرة كبيرة وثمينة في القيام بالأعمال الدعوية على المستوى الفردي والمستوى المؤسسي على حدٍّ سواء، وهو الأمر الذي مكّنه بوجه عام من أن يحسّن أحوال الطلاب المسلمين والجاليات المسلمة في مختلف قارات العالم بخبرته في فهم آليات المشكلة والحل والفرص المتاحة التي ينبغي اغتنامها في الوقت المناسب.

يؤمن والدي «حفظه الله» إيماناً مطلقاً بالعمل الجماعي المنضبط، وهذا الكتاب يكشف لنا عن نجاح تلكم الأنشطة الجماعية القائمة على وضوح الرؤية والوسائل والغايات والأهداف.

إن العمل الجماعي والرؤية الواضحة هما أساس البناء والقيمة في حياتنا؛ إذ يوجهان أعمالنا الوجهة الصحيحة، ومع الصبر والمثابرة والجهود المنظَّمة تتحقق الغاية المنشودة. لقد أدركَ والدي ضرورة الإتقان في أعمالنا، ولكنه في الوقت نفسه كان يُدرك أنَّ الرغبة في الوصول إلىٰ الكمال في أعمالنا ينبغي ألا تبدد جهودنا وتعطّلنا. فعلىٰ المرء أن يفعل ما في استطاعته، وسيشعر الآخرون بأثر أفعاله بشكل أو بآخر.

تركز النصائح الواردة في هذا الكتاب علىٰ العاملين في مجال الدعوة والذين يقومون بأعمال تطوعية. ومع أن هذا الكتاب مفيد لهذه النوعية من الناس، فإنه مفيد لغيرهم كذلك، ومنهم أصحاب المناصب القيادية. فهذا الكتاب يُبين المبادئ والمناهج التي بنىٰ والدي عليها حياته وعمله، وكيف قادته إلىٰ طريق النجاح. وعندما نطبق هذه المبادئ في حياتنا وأعمالنا، يمكننا أن نحيا حياة أكثر نفعاً وإنتاجاً، حين تقترن فيها أعمالنا بغاياتنا، ويصير فيها عملنا التطوعي أكثر فاعلية، ويتسم فيها أسلوب عملنا بالعدل والشفافية والإحسان.

ومن المبادئ الأساسية الواردة في هذا الكتاب مبادئ التعاون، والشمول، والاحترام، والإنصاف، والصبر، والتنظيم، والشفافية، والدأب، والمثابرة، والإيجابية، والتركيز علىٰ ما يؤدي إلىٰ تحسين أحوال حياة الآخرين. وكل هذه المبادئ تدعم الهدف الأساس الرامي إلىٰ نشر السلام والتفاهم وإرساء العلاقات الطيبة بين البشر.

يمكن للقرّاء أن يستخلصوا الدروس والعِبر من هذا الكتاب، فهو كتاب ينتقل بهم من تحدٍّ إلىٰ آخر، وسأذكر هنا بعض هذه الدروس والعِبر.أن نخلص النية لله في الأعمال كلها، وإن الامتثال لله سبحانه وتعالىٰ وتجسيد التقوىٰ تجسيداً عمليّاً في حياتنا يؤديان بنا إلىٰ تحقيق إنجازات روحية داخلية وخارجية علىٰ حدٍّ سواء. وعندما نُخرج أحسن ما فينا، نصبح دون أن ندري قدوة للآخرين في المجتمع،

وعلينا أن نفعل الخير في أهله وفي غير أهله، وعلينا أن نعامل الناس بما نحب أن يعاملونا به. وألا نؤجل عمل اليوم إلىٰ الغد، وأن ننشر السلام بين أنفسنا، وأن نصالح المتخاصمين، وأن نغلّب المصلحة العامة علىٰ المصلحة الشخصية، وأن نأمر الناس بالمعروف، وأن نكون خادمين في مواقع القيادة لأن خادم القوم سيدهم، وأن نحاسب أنفسنا قبل أن نتعرض للحساب في الدنيا والآخرة، وأن نجتهد في إيجاد الحلّ لكل مشكلة ولا نيأس، وأن نعمّر مساجد الله ونستشعر معيته.

آمل أن تكون هذه السيرة الذاتية مصدر إلهام لنا، وأن نستلهم منها ما يمكّننا من أن نضع أساساً سليماً وصلباً وعمليّاً لأنشطتنا الخيرة ولحياتنا جمعاء، وأن تساعدنا علىٰ أن نكون أكثر إنتاجاً ونجاحاً في هذا الجانب وفي كل مساعينا في الحياة. وأيّاً كان ما نفعله، ينبغي أن نفعله بطريقة نبيلة تسعىٰ إلىٰ رضا الله سبحانه وتعالىٰ.

«وعلىٰ الله قصد السبيل»

محمد أحمد توتونجي

شهادات

هشام يحيى الطالب
واشنطن ٢٠١٩

أحمد توتونجي رجلٌ بأمّة

التقيتُ بأحمد توتونجي لأول مرة عام ١٩٥٩ في كلية التقنية بمقاطعة كورنوول التي تزخر بالمناظر الطبيعية الفاتنة، وهي تقع على ساحل إنجلترا الجنوبي الغربي. وكان مغترباً عن وطنه للدراسة مع زملائه المبتعثين العراقيين الآخرين. وسرعان ما عرفت قدراته الفكرية الفذة، فقد كان من أوائل الطلبة على مستوى العراق في امتحانات الثانوية العامة، ولم يمضِ وقت طويل حتى عرفتُ مهاراته التنظيمية اللافتة ورؤيته الأخلاقية الذاتية.

كان أحمد يتّسم بالرزانة وصفاء القلب، وتربّى تربية إيمانية، وكان تقيّاً محافظاً لحدود الله، مواظباً على الصلاة والذهاب للمسجد بانتظام. كما أنه كان مستقلاً وليس له انتماءات حزبية، وكنتُ حريصاً على تطوير صداقتي به، فدعوتُه لحضور أول اجتماع لجمعية الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية الذي كان من المقرر انعقاده في إجازة «الكريسماس» وعيد رأس السنة في ليفربول، وأسعدني قبوله لدعوتي. وكان ذلك بداية لأكثر من ستين عاماً من الصداقة والعمل الدعوي الإسلامي واسع الانتشار، الذي أدّى إلى تأسيس مؤسسات وجمعيات في مناطق عدّة، وما زالت هذه المؤسسات والجمعيات تؤتي أكلها كل حين حتى يومنا هذا.

جمعَنا حبُّ الله، فكنّا شابين لدينا رؤية متشابهة، وكبرنا معاً ونحن نعمل على تحقيقها إلى الآن ولله الحمد.

الناس يُوصَفُون بأعمالهم، فالأعمال تشير إلى النيات، والنيات تعبّر عن المبادئ. وتدل المواقف التالية على كرم روح أحمد ومستوى التزامه. ففي يوم من الأيام، دخل مساعده (أكبر مير أحمد) مكتبي في مقرّ المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن العاصمة، وعلى وجهه ترتسم علامات الدهشة فقال: «الدكتور أحمد إنسان متميز». فسألتُه: لماذا؟ فقال لي: «إنه يساعد الناس كثيراً». فسألتُه: «وما التميز في ذلك؟» فقال لي شارحاً: «ما أقصده أنه حتى في المواقف التي لا يقدر على تقديم المساعدة فيها شخصياً، يحاول أن يعمل قصارى جهده مع الآخرين ليتأكد من حصول الناس على المساعدة التي يحتاجونها.» ذكّرتْني هذه الملاحظة بما قاله النبي محمد ﷺ: «أحبّ الناس إلى الله أنفعهم للناس...» جعلنا الله وإياكم منهم.

هو مستبشر دائماً بمستقبل المجتمع الإسلامي على مستوى العالم، ويركز على التقدُّم، وعلى الجوانب الإيجابية في كل من يرتبط به. قال ذات مرة: «كل شخص لديه نقاط قوة ومهارات، ولذلك لا بد أن نستفيد منها بأكبر قدر ممكن، وأن نساعد الناس على التغلب على نقاط ضعفهم». وهذا طبع أصيل فيه، فتجده دائماً يرتبط بالآخرين ارتباطاً إيجابيّاً. ومن الأشياء اللطيفة التي كان معتاداً على ترديدها: «لا تقل: فلان شخص جيد فعلاً، ولكن... الغِ كلمة «لكن» من رأسك وقاموسك».

تعلمتُ منه الكثير، وكل من يقرأ هذا الكتاب سيستفيد منه كثيراً أيضاً. وكلما عرض عليه شخص فكرة أو مشروعاً قابلاً للتنفيذ، قام أحمد بإقناع ذلك الشخص بلباقة أن يكون هو المسؤول عن الفكرة وتنفيذها، ثم يعده بأنه سيقدم أقصى جهده لدعمه ومساعدته في التغلب على أية عقبات قد تعترض طريقه. ونتيجة لذلك، نما عمله الخيري نمواً كبيراً، فكان يستثمر قدرات الناس الفردية المحدودة ويحولها إلى إنجازات مجتمعية كبرى.

وكان حريصاً على إفادة الآخرين بخبرته، فكان النموذج العملي للناصح الأمين، وشعاره الشخصي يقول: «الدين النصيحة». وكلما التقى بشباب يخططون للزواج،

كان ينصحهم بحماس معتمداً على حياته الزوجية السعيدة ومبادئه الراسخة. كما كان ينصح الطلاب بالحصول على درجاتهم العلمية بأسرع ما يمكن، قائلاً: «حاول أن تنتهي من دراستك قبل موعد إكمالها بيوم، أو حتى قبله بساعة...». وإذا رد عليه طالب قائلاً إنه يريد أن يتفرغ للدعوة الإسلامية كان ينصحه بالتخرج أولاً، ثم يعمل في الدعوة بعد ذلك. ونتيجة لذلك تحسن مستوى كفاءة العاملين معه تحسُّناً ملحوظاً، ونجا العمل من الكثير من المشكلات التي كانت من الممكن أن تحدث لولا الله ثم مواقفه الرائعة.

كلما نصح الدكتور أحمد شخصاً بعدة بدائل للموضوع الواحد، كان يعطي ذلك الشخص الحرية الكاملة في اختيار الأنسب له؛ فلم يكن يُملي على الناس ما ينبغي عليهم فعله. فلنضرب مثلاً، لن أنسى ما حييتُ حكمته في التعاطف مع أتباع إليجا محمد (مؤسس حركة «أمة الإسلام» الداعية إلى سيادة السود) في سبعينات القرن العشرين، إذ اعتاد بعض الإخوة في الولايات المتحدة الأمريكية على الصدام مع أعضاء هذه الحركة بسبب معتقداتها الخاطئة، وعلى انتقاد ممارساتها الغريبة بشدة، وكان الدكتور أحمد على النقيض منهم؛ إذ رأى أن الأسلوب الأمثل هو أن نتجنب إعلان الحرب على معتقداتهم، وأن نركز بدلاً من ذلك على العمل التصحيحي البنّاء. وأثبت الزمن والتجربة صحة موقفه، فأُقِيمتْ برامج مكثفة تتناول معتقدات الحركة وتساعد أعضاءها على تصحيح مسارهم، وغدا كثيرون من أتباع حركة أمة الإسلام أعضاء أتقياء في المجتمع الإسلامي العالمي المعتدل.

قررت مجموعة من المؤسسات الإسلامية في واشنطن العاصمة أن تكرّم الدكتور أحمد بقلادة تُعرف باسم «جائزة القيادة النموذجية». فكلّفني باستلام القلادة نيابة عنه في حفل رفيع المستوى، وألقى فيه متحدثون متميزون كلمة، من أمثال محمد علي كلاي ورالف نادر. فقلتُ في كلمتي: «مع كامل التقدير لجهود لجنة الاختيار، أشعر بالحرج

وأنا أستلم جائزة القيادة هذه، لأن الدكتور أحمد، لا يعتبر نفسه قائداً». شوّق كلامي كل الحاضرين وجعلهم يترقبون بلهفة بالغة ما سأقوله بعد ذلك. ولكنني أضفتُ قائلاً: «ولكن تمشياً مع الحكمة: «سيد القوم خادمهم»، يشرفني أن أستلم الجائزة نيابة عن الدكتور أحمد لأنني متأكد من أنه سيشعر بالفخر والتواضع لاعتباره خادماً للآخرين». وكان رد الفعل مذهلاً!!.

يتميز أحمد بالاهتمام بكل من يلقاه أو يتعامل معه، ولديه القدرة على أن يجعل كل فردٍ يشعر وكأنه يخاطبه وحده مباشرة وكأن اهتمامه ينصب عليه بغض النظر عن مكانته؛ فهو لا يهمل أي أحد، صغيراً كان أم كبيراً.

إنني متأكد من أن القارئ لهذه السيرة التي زار فيها أحمد أكثر من مائة وخمسين دولة سيتفق معي على أنه لا ينقصه شيء من مؤهلات القائد الروحي الواقعي؛ إذ إنه ليس شخصاً تقياً دؤوباً لا يَكلُّ من العمل فحسب، بل هو يجد راحته في عمله، ويجد سعادته في جهوده المستمرة لمساعدة غيره.

أطال الله عمره، وبارك في جهوده في عمل الخير، وأسعدَه بزوجته وأبنائه وأحفاده، وجعله قدوة لكل الأتقياء الذين يخشون الله عقيدةً وعملاً.

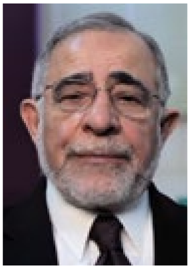

جمال البرزنجي (١٩٣٩-٢٠١٥)
واشنطن ٢٠١٣

أحمد توتونجي الذي أعرفه

التقيتُ أحمد للمرة الأولى في ليفربول في مخيم جمعية الطلبة المسلمين السنوي في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية في إجازة نهاية العام سنة ١٩٥٩. كان هشام الطالب قد زاره قبل ذلك في جنوب غرب لندن. ولاحظتُ أن أحمد لديه صفات قيادية، بما فيها قدرته على تحمُّل المسؤولية بشفافية وإنصاف وجدية. وأهّلتْه هذه السمات لانتخابه في مسجد برمنجهام في المخيم السنوي عام ١٩٦١ لأن يقود عمل جمعية الطلبة المسلمين بالمملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية.

بعد تخرّجه من جامعة برمنجهام ذهب أحمد إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٦٣، وكان انتقاله قفزة واسعة وصفَها أحمد بأنها انتقال من «قرية» إنجلترا إلى الفضاءات المفتوحة الواسعة بأمريكا الشمالية. وبمجرد أن استقر به المقام في الولايات المتحدة الأمريكية، بدأ في استعمال قدراته القيادية، فانطلق في مجال الدعوة الإسلامية بالحماس الذي بدأت شعلته تتقد في مساجد ليفربول وبرمنجهام، ونتج عن هذه الجهود تأسيس اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا عام ١٩٦٣.

أنعم الله على أحمد بقدرة فريدة ولافتة على العمل المثمر مع المسلمين من جميع أنحاء العالم - من الهند وباكستان وماليزيا وإندونيسيا وأفريقيا - كما لو كان واحداً منهم. وأتقن التحيات والسلامات بعدة لغات، مما ساعده على أن يتبادل المجاملات مع أناس من مختلف الألسنة، وجعلهم يفتحون له قلوبهم وعقولهم من أول لقاء، كما أن أحمد نفسه كان يتحدث التركية والكردية والعربية والإنجليزية بطلاقة.

تفوق أحمد علينا جميعاً في التواصل مع الجيل الثاني والثالث من أبناء الجيل الأول المهاجرين، وكذلك في التواصل مع المسلمين المحليين والمسلمين الجدد. وبعد حصوله على درجة الدكتوراه في هندسة البترول، انتقل إلى مسجد الأمين في مدينة جاري Gary بولاية إنديانا، وأسس هناك أول مقر لاتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا في عام ١٩٧١. واستطاع من هناك أن ينقل أنشطة اتحاد الطلبة المسلمين من مستوى المكاتب الصغيرة المتنقلة في بيوت وشقق الطلبة إلى أول مقر دائم بأمريكا الشمالية.

لم يفرض فضاء أمريكا الشمالية قيوداً على اهتمامات أحمد العالمية، وذهب بعد عامين من تخرجه إلى جامعة الفاتح في ليبيا لينشئ كلية هندسة البترول فيها. وفي ذلك الوقت تعرّف على الشيخ محمود صبحي رئيس جمعية الدعوة الإسلامية. وعمل آنذاك مع زملائه على التخطيط لأول مؤتمر للشباب المسلم العالمي وعقدِه، وحضر المؤتمر أكثر من أربعمائة مشارك من مختلف أنحاء العالم. لقد كان حدثاً تاريخيّاً أثبت الدور الرائد الذي قام به الدكتور أحمد في توحيد شباب المسلمين والمفكرين في القرن العشرين. ولذلك لم يكن من المستغرب أن لقّبه مولانا المودودي (رحمه الله) بلقب «إمام الشباب».

قبل شهرين من موعد انعقاد المؤتمر، بدأ القذافي تردده المفاجئ ما بين الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، والوحدة العربية الناصرية، والثورات الشعبية، والنظرية العالمية الثالثة. وتم إرسالي آنذاك من الولايات المتحدة الأمريكية إلى ليبيا لتقويم الوضع. وتوصلتُ في التقرير الذي كتبتُه أثناء إقامتي هناك لمدة أسبوعين إلى أن الوضع برغم تطوراته المتعاقبة المفاجئة يعطينا حرية دعوة أي شخص نراه مناسباً للمؤتمر، ويتيح لنا مواصلة الإعداد للمؤتمر؛ مما أتاح لنا فرصة نادرة للتواصل لأول مرة مع قادة الشباب المسلمين والمفكرين من مختلف أنحاء العالم. وكانت المشاركة ناجحة للغاية في المؤتمر الذي عُقد في طرابلس في صيف ١٩٧٣. وهكذا أدّت جهود أحمد في غضون أقل من سنتين إلى نتائج لافتة، بما فيها توسيع عمله المتواصل وشبكة تواصله العالمية.

سافر أحمد إلى المملكة العربية السعودية؛ إذ دعاه وزير المعارف الراحل الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ للتدريس في جامعة الملك سعود. لم يَرُقْ لأحمد أن الجامعات وكليات الهندسة في الدول المنتجة للبترول -بما فيها «جامعة البترول والمعادن» في الظهران- لم يكن فيها كلية أو قسم للبترول وهندسة المعادن، ومن ثمَّ قام بمساعدة الأطراف المعنية، بدءاً من وزير التعليم حتى عميد كلية الهندسة، بالبدء في إنشاء قسم لهندسة البترول في جامعة الملك سعود، مثلما فعل مِن قبلُ في جامعة الفاتح بطرابلس في ليبيا.

تبدو إنجازات أحمد عبقرية، ولكن نظراً لسلامة مبادئه وصفاته القيادية وحسن إدارته وتفانيه وإبداعه في إحساسه بالانتماء للبعيد والقريب فتح الله له أوسع الأبواب، وأعانه بمساعدات من أناس غيورين على مصلحة المجتمع الإسلامي.

ومواصلةً لأعماله في خدمة الشباب، قرع أحمد وزميله الدكتور عبد الحميد أبو سليمان باباً جديداً. فحقّقا معجزة جديدة بمباركة الشيخ حسن آل الشيخ وأناس متفانين في وزارة المعارف، وأبرزهم الدكتور أحمد محمد علي والمرحوم الدكتور حمد الصليفيح. وهي تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي؛ وتم تقديم عدة توصيات وقرارات مهمة في المؤتمر الدولي الثاني للندوة العالمية للشباب الإسلامي؛ ووافق الملك فيصل على هذه التوصيات والقرارات، ومن أهمها تأسيس مقر دائم للندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، وتُشرف الأمانة العامة للندوة على تنفيذ أنشطة المنظمة في مختلف أنحاء العالم، وتنسيق الاتصالات، وتبادل الخبرات، والعمل المجتمعي.

إن السر وراء نجاح الندوة العالمية للشباب الإسلامي يتمثل في سياستها العامة بعدم التدخل في شؤون المنظمات والجمعيات الشبابية حول العالم. فدورها يقتصر على «دعم المنظمات الشبابية الإسلامية، مادياً وأدبياً لمساعدتها على أداء مهمتها، واستكمال ما يلزمها للارتفاع بمستوى برامجها، وتوفير متطلباتها لتمكينها من أداء رسالتها على

الوجه المطلوب». وبفضل سماحة أحمد وحبّه للآخرين، أثمرت إسهاماته حول العالم وخدمته لشباب المسلمين إثماراً رائعاً.

من فضائل أحمد التي قلما نجدها عند غيره أنه لا يتمسك بالوظائف القيادية. فبعد أن يؤسس منظمة ويوظّف الآخرين ويدربهم، يسلم لهم زمام القيادة، وينصرف لتلبية حاجة أخرى في مكان آخر في العالم الإسلامي. لقد فعل ذلك مرات ومرات. وبعد عمله هو والدكتور عبد الحميد أبو سليمان لعشر سنوات تقريباً دون أجر في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، سلّما قيادتها لفريق جديد من الشباب الواعدين، وما زالوا يقومون بهذا الجهد المحمود حتى الآن، والحمد لله؛ لأن ما تفعله لوجه الله يبقى ويستمر، وما تفعله لوجه الآخرين يذبل ويموت.

بدأ أحمد بخبرته الغزيرة وشبكة علاقاته يمد مؤسسات التنمية والمنظمات الخيرية بإرشاده ودعمه. ولعبت المملكة العربية السعودية دوراً مميزاً في تقديم المساعدات التنموية والمالية الدولية؛ ونتيجة لذلك تواصل معها عدد كبير من الأفراد والجمعيات والنوادي والمؤسسات طلباً للمساعدة على مر السنوات. وبعضهم كان أميناً، وبعضهم محتالاً، وبعضهم كان كفؤاً، وبعضهم غير كفء، وبعضهم كان صافي القلب، وبعضهم كانت دوافعه خفية؛ ولذلك عندما تزايد عدد الطالبين للمساعدات، قام أحمد بإنشاء قاعدة بيانات لإفادة الشيخ عبد العزيز بن باز ودار الإفتاء والدعوة والإرشاد وعدد كبير من المؤسسات الأخرى، ونتيجة لذلك حقق الإنتاجُ زيادة كبيرة جداً، ووثّق أحمد ما يخصّها من أدلة، وحفظ للعلماء والباحثين والدعاة هيبتهم ومكانتهم وترفّعهم عن الطَّلَب، ومن ثمَّ ردت جهود أحمد المكثفة الإحساس بالكرامة واحترام الذات الذي كان يفتقده العاملون في خدمة المسلمين، وتعليمهم أمور دينهم في مختلف دول العالم.

ومن إنجازات أحمد البارزة الأخرى قراره البصير بتأسيس مؤسسة سار الخيرية،

وهي مؤسسة فتحت الباب لطريقة جديدة في النظر إلى العمل الخيري العالمي، فاقترح أحمد ورفاقه أنه بدلاً من صرف كل المساهمات السنوية التي يتم تلقيها، يقومون بإحياء مبدأ الأوقاف الدينية الإسلامية، واستثمار ما يتم تجميعه من تبرعات، وإنفاق الأرباح التي يدرها رأس المال، ومن ثمَّ الحفاظ على أصل رأس المال وتنميته أكثر. وبذلك جمع أحمد ممارسات المساهمة والتوفير والاستثمار والربح والتنمية في عملية مؤسسية مدروسة جيداً. إضافةً إلى تدريب الشباب العاملين في مجال الدعوة وتنمية كفاءاتهم، طرحت هذه الممارسات البركة والخير في كل أنحاء العالم. وبذلك استطاع أحمد بفضل الله ثم بدعم أعضاء الفريق والمتعاونين المخلصين أن يكفل أكثر من ثلاثة آلاف مؤسسة ومشروع ومسجد ومركز في أماكن كثيرة.

حافظت المجموعة التي يتألف منها المعهد العالمي للفكر الإسلامي على وحدتها وتضامنها لمدة نصف قرن بفضل الله ثم بجهود أحمد المتأنية في تقوية الروابط بيننا. وأدّت هذه الوحدة إلى رفع مستوى العمل إلى مستوى التفاني التام في إصلاح الفكر الإسلامي في مجالات البحث والتعليم والنشر من خلال مؤسسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الفريق الذي كان أحمد وما زال عضواً فيه فريق لا يتكرر، ولا يمكن الاستغناء عن أي عضو من أعضائه، فالواحد منهم يكمل الآخر، ولكن أحمد يتفوق علينا جميعاً في قدرته على التواصل مع الأشخاص ذوي النفوذ، مما حمّله مسؤولية أعفى منها زملاءه.

أدعو الله أن يمنح أخي أحمد المزيد من النجاح والتوفيق والقبول في كل أعماله. حفظه الله وأسرتَه، وأدام خدماتهم المثمرة للمجتمع الإسلامي وللإنسانية جمعاء. اللهم آمين.

عبد الحميد أبو سليمان (١٩٣٦-٢٠٢١)

الرياض ٢٠١٢

إنسان أصيل الفكر كوّن فِرق عملٍ

تمثِّلُ حياة أحمد المعروضة في هذه الصفحات بداية مرحلة جديدة للمجتمع الإسلامي؛ إذ تميّزت بتشكيل فرق عمل ومنظَّمات وجمعيات تمتد بطول العالم الإسلامي وعرضه. وتشمل هذه الفِرق والمنظمات والجمعيات كل أنواع القدرات والمهارات اللازمة لتلبية مختلف احتياجات المجتمع الإسلامي على مستوى العقيدة والفكر والتربية والتعليم من منظور سليم الأساس وأصيل ومعاصر في الوقت نفسه. بمعنى آخر تقوم هذه الهيئات بالجمع بين الإسلام بوصفه دين العدل والتضامن والتراحم والكرامة وإتقان العمل، والإسلام بوصفه دين العلم والأخلاق الرفيعة وحسن الإدارة والتنمية.

تقدم لنا سيرة أحمد حياة غير عادية، وتكشف لنا عن إنسان غير عادي، فهو إنسان متمكّن وبارع تكنولوجيّاً، ويعمل بلا كلل على تحقيق رؤية مستنيرة، وعلى تنظيم فكر الشباب المتعلمين ومعتقداتهم. عمل هذا الرجل جنباً إلى جنب مع المنظمات الدعوية الإسلامية، وتلك المنظمات التي تسعى للدفاع عن حقوق المجتمع الإسلامي في مختلف الأماكن. وقد أسس مؤسسات ودورَ نشر مخصصة لإصلاح الفكر الإسلامي، كما أسس جامعات ومؤسسات عالمية نموذجية للبحث الأكاديمي الذي يستلهم رؤية المجتمع الإسلامي وعقيدته، وكان يهدف من وراء ذلك كله إلى أن يشكّل قيادة

متمكنة تلتزم بالإصلاح والعمل البنّاء، وتستفيد من إنجازات الحضارة الإنسانية في الشرق والغرب وإسهاماتها، فتُطَوِّر هذه الإنجازات والإسهامات، وتستغلها في خدمة رؤية الإسلام الرامية إلى بناء المجتمع سلمياً. باختصار، قصة حياة هذا الرجل دليل حي على الدور الذي يمكن للمؤسسات أن تلعبه في تمكين المجتمع الإسلامي، مجتمع الرحمة والسلام.

أتمنى أن يتأمّل شباب اليوم وقيادتهم حياة أحمد، وما تقدمه من دروس يستفيد منها جيلنا والأجيال القادمة، حتى ينجو المجتمع الإسلامي، والمجتمع الإنساني الأكبر الذي هو جزء منه، من المزيد من المعاناة والظلم. لا يمكننا أن نضيّع لحظة واحدة. لا بد أن نكافح، على غرار أحمد، ونجتهد ونلتزم بإخلاصنا لله عز وجل ومبادئ ديننا، دون إفراط أو تفريط، حتى نحقق أهدافنا، الصغيرة منها والكبيرة.

أدعو القراء للتنبّه لكوننا جميعاً مسؤولين أمام أنفسنا، وأمام شعوبنا، وأمام الإنسانية جمعاء، وفوق كل ذلك أمام الله تعالى، في هذه الدنيا وفي الآخرة. ندعو للشخص الذي نحتفي بسيرة حياته، وندعو الله أن يمنحه المزيد من التميز، وأن يجازيه خير الجزاء على هذا التميز. وندعو الله أيضاً بالتوفيق والرشاد للمجتمع الإسلامي وكل من يكافحون في سبيل تنميته.

والحمد لله رب العالمين

طه جابر العلواني (١٩٣٥-٢٠١٦)
القاهرة ٢٠١٢

عقلُ مهندسٍ وقلبُ مؤمنٍ

كلما خطر أحمد توتونجي ببالي، فكرتُ في بيت شعر يقول:

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدٍ وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَى

إذا كنتُ أعرف شخصاً ينطبق عليه الشطرُ الثاني من هذا البيت، فهو أحمد توتونجي. وهذا هو انطباعي عنه منذ أن عرفتُه، سواء أكان في لقاءاتي به في قسم البترول الذي أسسه في كلية الهندسة بجامعة الملك سعود، أم في الندوة العالمية للشباب الإسلامي التي ساعد في تأسيسها وعمل بها مساعداً للأمين العام، أم في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أم في أي مكان آخر. يقول المؤرخون: إن خالد بن الوليد رضي الله عنه، في حملاته العسكرية في بلاد الشام والعراق وغيرها، طلب من أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يرسل له ألف فارسٍ. ولم يكن أبو بكر عنده حتى نصف هذا العدد من الفرسان، فأرسل له فارساً يُدعى القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه، قائلاً: «طلبتَ مني ألف فارس، ولذلك أرسلتُ لك فارساً بألف. فلو تقدم الجيش سيكون هو في المقدمة، ولو تقهقر سيكون في المؤخرة».

لا أبالغُ عندما أقول إن أحمد توتونجي رجل بألف رجل. فيمكنه أن يعمل بمفرده عمل منظمة دعوية إسلامية كاملة. اتفقتُ واختلفتُ معه حول أمور كثيرة، ولكنني لم أتخلّ، ولو لثانية واحدة، عن حبي واحترامي وتقديري له، إنه يتحلى بفضائل قلما نجدها في هذا العصر. ولو أوكلتْ لي مهمة تدريب وتخريج القادة المسلمين المعاصرين، سأقدم أحمد توتونجي على

أنه القدوة والمثال. إنه متبحّر في العلم، ولكنه متواضع، وهو مغامر ولكنه عاقل. فهو يعرف متىٰ يُقدِم ومتىٰ يُحجِم. وقلبه يسع كلَّ الناس. فلم ألتقِ بشخص لا يحبه؛ بل العكس يحترمه ويريد أن يوثّق علاقته به.

لم ألتقِ بقائد مسلم له قدرة أحمد توتونجي علىٰ الوصول إلىٰ عدد كبير من الأشخاص. أحياناً أضحك عندما أراه يتكلم مع أكثر شخص مكروه بابتسامة علىٰ وجهه. وهو يتعاطف مع الأمريكيين والبريطانيين والهنود والفرنسيين أو أي جنسية أخرىٰ كما لو كانوا أفراداً من العائلة نفسها. وعندما يتحدث باللغة الإنجليزية مع إخواننا الهنود ألاحظُ أنه يتكلمها بلكنة هندية قليلاً.

وصف مولانا المودودي أحمد توتونجي ذات مرة بأنه «إمام الشباب». وهذا اللقب كان يناسبه جداً عندما كان شابّاً. والآن يمكنني أن أرقّيه إلىٰ رتبة «إمام الشيوخ». إنه يحب الجميع، ولا يذكر الآخرين إلّا بمحاسنهم. وإذا ذكر أحد نقاط ضعف شخص أو عيوبه فإن أحمد توتونجي لا يركز عليها. في الواقع يُخرِس كل من يتكلم عنها، قائلاً له: «فلنتكلم عن محاسن فلان». وربما يذكر فضائل أو نقاط قوة لا يعرفها الشخص ذاته عن نفسه. ولو كان علماء الاجتماع قد اخترعوا شيئاً يُطلق عليه «فن الانسجام مع الأشخاص الصعاب»، لكان أحمد توتونجي أستاذاً في هذا الفن، فهو أستاذ في فن الانسجام مع الناس، وأستاذ كذلك في كسب تأييدهم لقضيته، وهو إنسان زاهد في الدنيا، فالمتع الدنيوية تأتي إليه، لكنها لا تستحوذ علىٰ روحه. وهو يعدّ كل شخص يتعامل معه أخاه (وأعد نفسي منهم) ، ويشعر بأن له نصيباً مثله تماماً، وربما أكثر في هذه المتع المادية. رزقه الله زوجة ممتازة لا تقل عنه نشاطاً في خدمة الخير، وهي رفيقة عمره، ورزقه الله أيضاً أبناء محترمين يتبارون في الاستقامة، وفي خدمة أولئك الذين خدمهم أبوهم.

أحمد توتونجي إنسان بسيط وطيب القلب لدرجة أن أصحاب الشخصيات المشبوهة قد يرونه إنساناً ساذجاً يمكن استغلاله بسهولة، ولكن لديه قدرة كبيرة علىٰ تمييز الأشخاص. فإذا أحسّ بأن الشخص الذي يتكلم معه يبالغ في شأن نفسه كثيراً، يحاول أن يزرع في لاوعي ذلك الشخص قيمة التواضع، وإذا فشلتْ محاولته هذه، قد يجد طريقة أخرىٰ لتعليم ذلك الشخص درساً في التواضع دون أن يؤذي مشاعره.

الشخص الوحيد الذي عرفته وكانت لديه القدرة على التعاطف مع الحاكم والمحكوم بالدرجة نفسها، كان شيخي الراحل أمجد الزهاوي. سافرتُ مع أحمد إلى لاهور لحضور جنازة المودودي في عام ١٩٧٩، وكان هناك أكثر من مليوني شخص في جنازته. ولكن الناس تعرَّفوا على أحمد بنفس سهولة تعرُّفهم على المشاهير الآخرين الحاضرين في الجنازة، وأعربوا عن تقديرهم لمجيئه. ألقينا نحن وعائلة المودودي ورفاقه المقربين نظرة وداع على جثمانه قبل أن ينتقل إلى مثواه الأخير، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها المتوفى ورأسه مكشوف، وكان كثير من الحاضرين يتذكر أن الشيخ قد لقّب أحمد بـ «إمام الشباب».

يهتمّ أحمد اهتماماً شغوفاً بالمصلحة العامة للعالم الإسلامي كله، ورؤيته عالمية حقّاً. فعقله المتأثر بدراسته للهندسة يكون دائماً في خدمة قلبه المؤمن، وهو يغنيه ويقويه بالأفكار وبالاقتراحات العملية. وهو شعلة متّقدة بالغيرة على الإسلام والمسلمين، فإذا رأى أي شيء قد يفيد أية جماعة من المسلمين في أي مكان في العالم، فمن المؤكد أنه سيسعى لتحقيقه. وفي أي وقت تتم دعوة أحمد لفعل أي شيء يخدم الإسلام والمسلمين، يقبل الدعوة على الفور من دون أدنى تردد. ولم يربط نفسه بأي حزب سياسي أو طائفة دينية؛ لأنه كان إنساناً عظيماً لا يمكنه أن يحصر نفسه في مصلحة ضيقة.

حتى عندما تشكّلت المجموعة الصغيرة التي أسست المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لم يكن من السهل على أحمد توتونجي أن يقصر نطاق اهتمامه على ما كانت تفعله هذه الفئة الصغيرة. وعندما كنتُ مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي، اعتمدتُ على اثنتين وثلاثين مؤسسة كبرى في الولايات المتحدة الأمريكية، وبعضها كان أكبر حتى من المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مثل الاتحاد الإسلامي في أمريكا الشمالية. وأنشأ أحمد علاقات بينها وبين المعهد العالمي للفكر الإسلامي، علاقات تضمنت مسؤوليات كبرى، بالإضافة إلى العلاقات القائمة بالفعل بين المعهد والمؤسسات الإسلامية الأخرى حول العالم.

كان أحمد منهَلاً دائماً للطاقة المتجددة. فقد كان منظَّماً في تفكيره، وعنده القدرة على سرعة التصرف، وكان يعرف ما يريده، ويعرف كيف يجمع الموارد التي يحتاجها لإنجازه.

ولم يكن يسمح للأمور العظيمة أن تصرف انتباهه عن الاهتمام بالأمور الصغيرة، كما أنه لم يدع انشغاله بالتفاصيل يُغيِّب الصورة الكبرىٰ عن باله. إنه إنسان متواضع للغاية، وفي الوقت ذاته واثق بنفسه، ورأىٰ أن من واجبه أن يساعد الآخرين علىٰ تحقيق أهدافهم أيضاً، وكان متمكناً من العمل بمفرده ومع غيره لتحقيق أهداف المجتمع الإسلامي.

وأسس مع جماعة صغيرة من الإخوة اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا وقادَها من غرفة واحدة كان يعيش فيها في الجامعة آنذاك، وبميزانية أولية مقدارها مائتا دولار أمريكي فقط. وكان النجاح حليفه في كل شيء يفعله، وفي كل قرار يتخذه. وكان كلُّ من رآه يعمل مع المؤسسات الإسلامية، سواء أكانت تلك التي تعاون معها أم ساعدها أم ساعد في تأسيسها، مثل الندوة العالمية للشباب الإسلامي، واتحاد الطلبة المسلمين، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، يقول لنفسه: «لا بد أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يبرع فيه». وكل من رآه يدير قسم البترول الذي أسسه في جامعة طرابلس في ليبيا، وجامعة الملك سعود كان يقول: «لا يمكن لهذا الرجل أن يكون بارعاً في شيء إلا تخصصه هذا». إنه عدة مؤسسات مجتمعة في شخص واحد!.

أحمد توتونجي نموذج يستحق الدراسة، ولهذا السبب ينبغي عليه الآن أن يفرغ نفسه لتعليم مجموعة من الشباب الموهوبين؛ لضخ قدراتهم وإمكاناتهم في عروق المجتمع الإسلامي. فلا بدّ لأحمد أن ينقل علمه وخبرته بنفسه إلىٰ الجيل التالي، وأتمنىٰ أن يقوم بعض تلاميذ أحمد النابهين بإبراز مواهبه وإنجازاته، وأن يفرّغ أحمد ما تبقىٰ من حياته لتدريب مناصرين أكفاء للإسلام قادرين علىٰ الجمع بين التراث الإسلامي الأصيل والحداثة. هذا هو الواجب الديني الملقىٰ الآن علىٰ عاتقه. ومن هنا ينبغي علىٰ كل من يعرفه أن يشجعه علىٰ المضي قدماً في هذا الاتجاه. أحمد توتونجي مثال نموذجي علىٰ الشخص المتميز اللافت.

حفظه الله ورزق المجتمع الإسلامي أمثاله، إنه سميع مجيب.

محمد أحمد توتونجي

جدّة ٢٠١٣

وكان أبوهما صالحاً

أحمد توتونجي، رجل عرفته حق المعرفة، رجل أستطيع قراءة أفكاره، رجل أتطلع لرؤياه ولقضاء الوقت معه، رجل أستمتع بما أقضيه معه من أوقات، إنه إنسان متفانٍ في خدمة الآخرين كباراً كانوا أم صغاراً؛ منطلقاً من أن: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس»، ويتعاطف مع المحيطين به، وبيتُه هو العالم بأَسْرِه.

معرفتي به كانت وما زالت عن قُرب؛ فأنا ابنه، وقد رافقته مسيرة ما يربو على خمسين عاماً في مسيرة حياته. زاملته في مراحل حياتي المختلفة؛ أذهب إلى المدرسة صباحاً، وأتتلمذ على يديه في مدرسة الحياة بعد العصر؛ طفلاً في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ومراهقاً في مكتب شارع العروبة، وشاباً في مكتب الربوة في الرياض وفي مؤسسة (سار) الخيرية وفي المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن.

تباعدنا خلال سنوات دراستي الجامعية؛ إذ آثر تطوّري العلمي على مرافقتي له. ترافقنا بعدها في الرياض لسنوات عدة وافترقنا بعدها عند انتقالي إلى جدة.

عرفته أباً ومعلماً وصديقاً وزميلاً. يهتم لاهتماماتي ويحرص عليها أكثر مني، ويتابع إنجازها بلا كَلَل ولا مَلَل.

أتساءل مع نفسي إنْ كان هذا خاصاً بي كوني ابنه، ولكنّني أراه لا يفرّق بين ابنه والآخرين، بل أراه حريصاًعلى الآخرين حرصه على أبنائه.

من مبادئه في الحياة:

- «اصنع المعروف إلى مَنْ هو أَهلُه، وإلى مَنْ ليس أَهلَه، فإن أصبت أَهلَه فهو أَهلُهُ، وإن لم تُصب أَهلَه فأنت مِن أَهلِه».
- «عاملوا الناس بمثل ما تحبون أن يعاملوكم به».
- «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد».
- «أفشوا السلام بينكم».
- «إصلاح ذات البين».
- «تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وإن كانت على حساب المصلحة الخاصة».
- «الصدقة، وما قاله رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم فيها».
- «الدين النصيحة».
- «سيد القوم خادمهم».
- «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا».
- «توجد فرصة في كل مشكلة».
- «قلبه معلق بالمساجد»، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ...﴾ [التوبة: ١٨]. وعمارة المساجد الحقيقية تكون في تفعيل دورها في المجتمع.

واجهتُ مواقف عدة في مقتبل شبابي وبداية حياتي العملية؛ إذ رأيتُ مَنْ هُم أكثر خبرة وأكثر تدرجاً في السُّلم الوظيفي الإداري حائرين فيها، فيبحثون عن حلٍّ أراه بدهياً ويسيراً، فأعجب لترددهم وكثرة تفكيرهم وكثرة تشاورهم. أتساءل بيني وبين نفسي كيف ذلك؟ أعرض الحلَّ عليهم فأرى علامات تعجب واستغراب: كيف لهذا المبتدئ أن يأتي بمثل هذا؟ تكررت المواقف تلو الأخرى، وعندما سُئلت مباشرة كيف ذلك؟ من أين أتيت بهذا الحلّ؟ فكرتُ ملياً وأمعنتُ التفكير محاولاً ربط هذا، أسوةً بمن تعاملت معهم في مدرسة أو جامعة أو عمل أو مدير أو مدرب، فيأتيني الجواب واحداً لا ثاني له، تعلمت ذلك من والدي. تتالت المواقف والأسئلة وكان الجواب واحداً مرة تلو الأخرى.

أحمد توتونجي منهجيّ الرؤية، منظّم التفكير، سريع التنفيذ، متقبل للنقد، حريص على النتيجة، دائم التطوير، مبدع في الحلول، تراه مفتخراً عندما يقول: «تعلمتُ هذا من فلان».

يُشعِرُ كل شخص على أنه أهم شخص في العالم، كبيراً كان أم صغيراً، بالغاً كان أم طفلاً، غنياً كان أم فقيراً، عالماً كان أم أميّاً، لا يفرق بين أحد وآخر لمنصب يشغله.

ترى كل من كان حاضراً معه في مجلس يخرج وهو مقتنع بأنه كان وحده دون سواه أهم شخص في المجلس، وعندما تسأله لماذا ذلك؟ ترى الجواب متمحوراً حول: ألم ترَ كيف كان ينظر إليَّ، يتحدث معي، يتعامل معي، سلّم عليَّ ...

أتساءل بيني وبين نفسي أحياناً: أكانت سنوات البكالوريوس متبوعة بالماجستير أَوْلى أم مزاملة وملازمة الدكتور أحمد توتونجي أَوْلى؟ تتتابع الأفكار وأرى أن هذه السنوات الدراسية وما تلاها من خبرة عملية قد أفادت في تطبيق وممارسة وفهم ما تعلمته في مدرسة أحمد توتونجي.

وجدتني أتساءل: ما الذي يميز أحمد توتونجي؟ ما سر نجاحه؟ كيف اختلف عن غيره؟ ...

تداركت ما أعرفه عن نشأته وعمّا سمعته، فقد نشأ في بيت تاجر، تربّى وترعرع على أن الرجل -بني الإنسان عموماً- يُربط من لسانه، حمّله والده المسؤولية مرة بعد أخرى، إلى أن بنى فيه الإحساس بالمسؤولية، علّمه أن الأمانة لا نقاش فيها، أصّل فيه قراءة القرآن الكريم وصلاة الجماعة.

والدته ذات قلب رحيم وبيت مفتوح لمن طرقه، لسانها رَطِب عَطِر بذكر الله.

تميز في دراسته، وترك بيت والده في أربيل إلى بغداد طلباً للعلم، ألحقها ببريطانيا قبل أن يكمل مساره العلمي في أمريكا، وعند رحيله من العراق إلى بريطانيا ودّعه والده بجملة واحدة: (كن مع الله).

رزقه الله زوجة صالحة، آمنت برسالته وأدركت هدفه وغايته في الحياة، ودعمته بكل ما تستطيع لإعانته وتمكينه في مسيرته، فكانت خير رفيق للدرب وخير معين.

عندما حطّت قدماه في بريطانيا أدرك مخاطر الغرب والغُربة على الشباب المسلم، فكرّس جُلّ وقته وجهده لحمايتهم من الفساد. رأى أن مجهوده آتى أكله فجعل هذا هدفاً لحياته، وباع حياته خير بيعة لخير مشترٍ.

أخلص النية لله عز وجل وأحبّه، فأحبّه رب العزة وأخذ بيده من خير إلى أخير. أدرك أن المجهود مع الأفراد مثمر ولكنه مجهود مرتبط بمكان ما يحدّ من تأثيره، فأبقى

الأفراد محل تركيز، وأخذ على عاتقه المؤسسات، متغلباً بذلك على حاجز المكان.

شجّع المؤسسات القائمة، وقام ومن معه من إخوة ببناء المؤسسات وتمكينها وتسليمها لمن يقوم بها وينهض بها، متغلباً بذلك على حاجز الزمان.

يؤمن بأن عمل الفريق أكثر فاعلية وأصح وأقوم وأدوم من عمل الفرد، ولكنه أيضاً يؤمن بأن الفريق يتكون من أفراد، وأن فاعلية الفريق تأتي من قوة أفراده.

عمل عملاً مؤسسيّاً؛ إذ استعان وأعان فريق العمل الذي وضع مستقبل الأمة نصب عينيه، متجرداً من الدنيا ساعياً في طلب الآخرة.

أحمد توتونجي ليس كغيره من الرجال، تميّز وبرع فيما يفعله من أمور الدنيا، تجارة، ودراسة، وزوجاً، وأباً، وأستاذاً، ومديراً، وقائداً ...

كلماته بسيطة، ومفاهيمه واضحة، وأسسه ثابتة، ونتائج أعماله مضاعفة بفضل ومِنّة من الله عز وجل.

نظرته إيجابية، يبحث عمّا يمكن أن يمتدح به مَنْ يقابله؛ إذ يعظّم ويكبّر، فيتخلّق المُمتدَحُ بالصفات التي مُدح بها ويتمثلها إلى مرحلة اللاعودة.

وهب نفسه لله فحمل همّ الأمة وعبئها، وأخلص النية، وعمل بما اقتنع به، فأجاده، وأتقنه، وطوّره. قبل منه الله ذلك، فبارك له وأيّده بنصر من عنده.

آمن إيماناً شديداً بأنّ «ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل»، وبالحكمة التي تقول: «ما تفعله لوجه الله يبقى ويستمر، وما تفعله لوجه الآخرين يذبل ويموت».

أرى نفسي مُحْرَجاً مما كتبت، فكيف لابن أن يكتب عن والده، لتلميذ عن أستاذه، لفرع عن أصله.

صَعُبَ عليّ أن أمسك القلم للبدء بتسطير هذه الكلمات، تأخرت في بدايتي أشهراً، تثاقلت من الحياء. لكنني على الرغم من ذلك قررت أن أجاهد نفسي لأُظهر ما قد يخفى على الكثيرين من النواحي الإنسانية لأحمد توتونجي، دمعت عيناي من الحرج وأنا أسطر هذه الكلمات، فقد لا أفي أحمد توتونجي حقّه.

أسأل الله له القبول، وأن يبارك له الله فيما يعمل، وأن يكتب لهذه الأعمال الاستمرارية والدوام، وأن يتقبلها ومعها هذا الكتاب وقفاً لوجهه الكريم ولنصرة دينه الحنيف.

اللهَ نرجو أن يستفيد من هذا الكتاب كلُّ من يحمل على عاتقه خدمة هذه الأمة.

والله الموفق لما يحبه ويرضاه.

الفصل الأول

مرحلة الطفولة

من أدَّبَ ولَدَه صَغيرَاً سُرَّ بِهِ كَبيرَاً

حكمة عربية

يغمر ذكرياتي الأولى إحساسٌ بالقديم والجديد، إحساسٌ نابعٌ من المدينة التي نشأتُ فيها، ومن الشغف المزدوج بالإيمان والمعرفة اللذين كانا شاهداً عليّ وأنا أتقدم في العمر سعياً لتحقيقهما. غالباً ما يقول الناس إنهم يحملون داخلهم عبء ذاكرتهم عندما يتقدمون في السن، ولكنني أنظر إلى حياتي بهيبة أقل وبدهشة أكبر، ربما لأنني أعدّ نفسي محظوظاً، ليس فقط لأنني نشأتُ على حُبِّ الله لا تخبو جذوته، ولكن أيضاً لأنني التقيتُ بالناس الذين التقيتُ بهم فعلاً في حياتي، ولأنني سافرتُ وعشتُ على شواطئ وثقافات بعيدة عن شواطئي وثقافتي. أظنُ أنني اخترت أن أركّز على عين الإعصار وليس على العاصفة؛ لأن الحياة حتماً دوّامة من الابتلاءات، ولكن الطريقة التي نختار بها أن نتغلب على هذه الابتلاءات ونستطيع أن نفهم معناها في نهاية المطاف هي التي تحدد ما إذا كنّا سنقيمُ وداخلنا عامرٌ بالسلام، أم أننا سنقيمُ وسط اضطرابات. فإمّا أن نتعلم من الحياة أو نجلس ونعدّ خيباتنا، وقد اخترتُ أن أتعلم من الحياة، وآمل أن أنقل الدروس التي تعلمتُها، والحكمة التي اكتسبتُها، والخبرة التي راكمتها، إلى أولئك الذين يقرؤون هذه الصفحات، لعلها تفيد الناس وتنفعهم.

مع اتساع العالم فيما وراء ما كنتُ أستمتعُ به من دفء الحب والحماية في كنف والديّ، تدفق أناس كثيرون في حياتي: أشقاء وشقيقات، وأجداد وجدات، وعمّات وخالات، وأعمام وأخوال. ولم يتوقف هذا التدفق الإنساني قط. لقد أنشأتني تجربتي المبكرة وإيماني تنشئةً اجتماعية جيدة، وساعدني ذلك على أن أفهم نقاط ضعف الناس، وأن أبحث عن الخير داخلهم، وأن أسعى لأن أنمّي هذا الخير وأرعاه، في حين أن غيري ربما قد سلك الطريق السهل، وابتعد عن هذا الطريق الصعب. ألستُ ابن بيئتي؟ كيف لا أتشبَّع بطابع موطني الذي يتسم بتعدد الثقافات؟ إنني أتحدث عن بلاد الرافدين؛ وهي مهدٌ من مهاد الحضارات القديمة؛ وموطنُ أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وبوتقةُ انصهار كبيرة لشعوب ومجتمعات، ومعتقدات وممارسات مختلفة أيما اختلاف، تتعايش معاً منذ آلاف السنين، وهي شاهدةٌ على تنوع كبير في الأفكار التي تنساب في حركة من المد والجزر على مر الزمان.

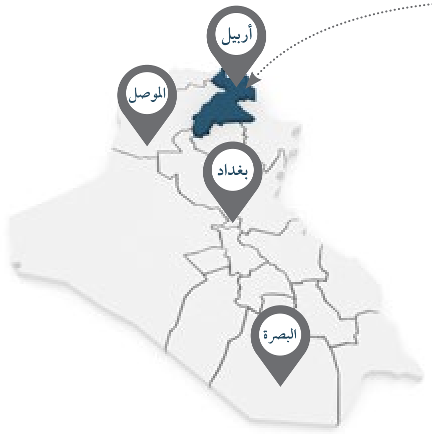

ولدتُ عام ١٩٤١ في مدينة أربيل، التي تقع على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً شمالي بغداد، وتتسم بمعالم مشهورة مثل قلعة أربيل، وهي تلة مأهولة، ترتفع ما بين خمسة وعشرين واثنين وثلاثين متراً عن السهل المحيط بها. وهذه التلة قديمة جداً، وتُبيّن الاكتشافاتُ الأثرية أن عمرها ستة آلاف سنة. فهل هي من طبيعة المكان أم من صُنع الإنسان أم أنها مستوطنة آشورية قديمة؟ ما زال علماء الآثار مختلفين في هذه المسألة. لكن الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أنها مأهولة بالناس منذ آلاف السنين حتى العصور الحديثة، ويُقال إنها من أقدم المدن المأهولة بالسكان حتى الآن؛ ويرجع ذلك إلى أن جدران القلعة الهائلة التي تحصّنُها الأبراج قد حمت المدينة جيداً، وصدّت هجمات كثيرة، بما في ذلك محاولات إمبراطورية المغول المتكررة لاحتلالها. ومن المدهش أنَّ بيتَنا كان واحداً من تلك البيوت الموجودة في هذا المكان!

أربيل في عام ١٩٥٧ تقريبا، وتُظهر الصور بعض المباني التاريخية القديمة.

منارة المظفريّة التي يبلغ طولها ١١٨ قدماً، وبُنيت في الفترة ١١٩٠-١٢٣٢م.

أربيل المدينة القديمة والجديدة. في الصورة قلعة أربيل الشهيرة المسجلة في قائمة التراث العالمي منذ ٢١ حزيران/ يونيو ٢٠١٤.

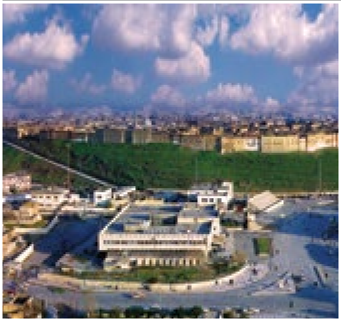

كانت أربيل نموذجاً للتعايش بين المجتمعات المختلفة؛ إذ تعدَّدتْ فيها الثقافات واللغات والأعراق، وكان أغلب سكانها من التركمان (سبعين بالمئة)، إضافة إلى جماعة كردية كبيرة (ثلاثين بالمئة)، علاوة على نسبة ضئيلة من العرب وغيرهم من الجماعات العرقية. وكان المسيحيون، واليزيديون، والآشوريون يعيشون في القرى المجاورة، وكثيراً ما كانوا يترددون على أربيل.

تربَّينا على القرآن الذي شكَّل جزءاً كبيراً من حياتنا. فقد كان والدي شيخاً بارزاً وتاجراً، وكان الناس يحترمونه لتقواه وعلمه وأمانته، وكان له تأثير عميق في تكوين شخصيتي. وكثيراً ما أتذكَّرُ الوقت الذي بدأتُ فيه صلاة الفجر عندما كنتُ في الخامسة من عمري. كان صوت الأذان ينساب في الهواء، وكان أبي الحبيب يصلي، ثم يتلو آيات القرآن الجميلة بعد أن ينتهي من صلاة الفجر. كانت هذه التجربة تُحرك شغاف قلبي؛ كان حب أبي للقرآن متّقداً، وورثْنا عنه شغفه بالقرآن، وسواء أكنّا في الشتاء أم في الصيف، كان أحد إخوتي وأخواتي يقرأ القرآن بينما يستمع بقيتنا

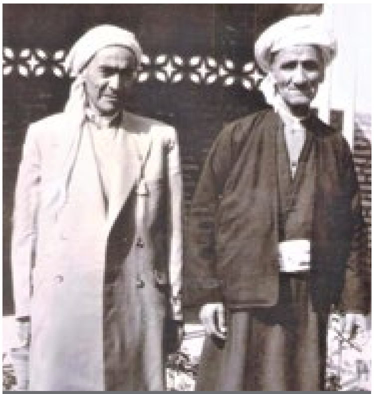

أعلاه: ١٩٦٥. أربيل، العراق. والدي الحاج محمد توتونجي على اليسار في حديقة بيتنا مع صديقه وجاره الحاج نادر. وهما يلبسان اللباس التقليدي

١٩٥٠. أربيل، العراق. والدي الحاج محمد توتونجي على اليمين، وعمي يحيى توتونجي على اليسار.

وينصتون. وتعلمتُ في النهاية أن أفعل الشيء نفسه، بأن أقرأ ما حفظتُه من القرآن، وأحرص على اجتناب أي خطأ في القراءة. لقد أصبحتُ طَلِقاً في قراءتي، وهو الأمر الذي أسعدني كثيراً. وحتى يومنا هذا ما زلتُ أجد راحة بالغة في تلاوة القرآن الذي يشكِّلُ جزءاً لا يتجزأ من حياة المسلمين الأتقياء. إنني أدين لوالدي بدين كبير؛ لأنه قرأ معنا القرآن كاملاً قبل أن نلتحق بالمدرسة الابتدائية. وعند دخولنا المدرسة، كنتُ وإخوتي وأخواتي نجيدُ قراءة اللغة العربية بالفعل، حتى إن قراءتي للقرآن فاقت قراءة أستاذي في بعض الحالات!

علَّمَنا والدي القرآن، ودّربنا على صيام شهر رمضان. وغالباً ما يقترن الصيام بتلاوة القرآن. فلم نكن نصوم ساعات النهار فحسب، بل كنّا أيضاً نقرأ ما تيسر من القرآن، ونشأنا على أن نحبهما معاً. كيف تعلمنا الصيام في الصِّغر؟ لقد تعلّمناه على مراحل، فعندما كنّا في روضة الأطفال بدأنا بالصيام حتى وقت الظهر، ثم أخذنا في زيادة ساعات الصيام بالتدريج إلى أن وصلنا في العام التالي إلى الصيام حتى العصر، وواظبنا على ذلك حتى بلغنا هدفنا، وصرنا نصوم النهار كله من الفجر حتى غروب الشمس.

أمّا أمي الحبيبة فقد زرعتْ فينا أيضاً حبَّ القرآنِ، وكانت من قبيلة تركمانية تعيش في شمال العراق منذ أجيال، لكنها، على عكس ما كان عليه والدي، كانت تتحدث العربية بلكنة تركية. أتذكر باعتزاز استماعي لها وهي تقرأ آيات القرآن الجميلة آيةً تلو الأخرى، وتطلب منا أن نصحح لها أخطاءها في النطق أثناء القراءة، وكان من النادر أن تسمح أمٌّ لأطفالها بأن يصححوا لها أخطاءها. وعلى الرغم من عدم معرفتها العربية بصورة تساعدها على فهمها، إلا أنها كانت تعي لغة القرآن الكريم في سياقاته المختلفة، وتستشهد بآياته في مواقف متعددة. كنتُ أحب سماع صوتها؛ إذْ كانت تقرأ سورة الكهف كلها صباح كل جمعة، وكانت تدعونا للاستماع إليها أثناء قراءتها لسورة المُلك وسورة الواقعة. لقد كانت أمي قدوةً غرست فينا تقديراً عميقاً للقرآن، وواظبتُ

علىٰ قراءة آياته بعد صلاتي الفجر والمغرب. وما زلتُ كذلك أتنسم صدىٰ الآيات التي كانت تصدح بها أمي، وأدرك أهمية مدىٰ تأثيرها في ذاك الصغير؛ إذ ساعدتني لغة القرآن الكريم علىٰ تشكيل هويتي منذ الصغر، ولفتت انتباهي إلىٰ جمالية اللغة العربية وانسيابيتها، وإيقاعها الجذاب، وجرسها الأخاذ، حتىٰ للذين لا يعرفون اللغة العربية وأسرارها. ولقد ساعدتني لغة القرآن -بالوعي واللاوعي- علىٰ وضوح رؤيتي للعالم، وصوغ منهجي في الخطاب منذ الصغر؛ إذ أتمثل مستويات الخطاب القرآني في مخاطبة فئات المجتمع المتنوعة، بصورة بليغة يفهمها الجميع.

كان القرآن وما زال رفيقي الدائم في الحياة. لقد ساعدني علىٰ أن أتجاوز ابتلاءات الدنيا، وهو الدستور الذي يحكم كلَّ جوانب حياتي في عبادة الله. إنه يمنحني الهدوء والقوة عندما تلوح الشدائد في الأفق، ويغرس شعوراً قوياً بالفضيلة ينجّيني من الوقوع في الرذيلة. إنني أشعر أن العالَم مكان بلا روح من دون القرآن.

١٩٦٢. في زيارة لعائلتي في أربيل في بيت العائلة عندما كنتُ أدرس في المملكة المتحدة. أمي في منتصف الصف الثاني، وأنا علىٰ يمينها، وأختي كلثوم علىٰ يميني. وعلىٰ يسار أمي أختي الكبرىٰ وأصغر أخواتي مكية. في الصف الأول الأحفاد. وفي الصف الأخير من اليسار زوجة أخي نظمية، ثم الحفيدة الصغرىٰ فريدة، ثم زوجة أخي صبحيّة، ثم حفيدة أخرىٰ.

أول خطوة على طريق طويل

بغداد، مدينة المنصور العريقة (١٩٥٧ -١٩٥٨)

في العراق في خمسينات القرن العشرين، كان على الراغبين في الالتحاق بالتعليم العالي الانتقال إلى بغداد التي كانت فيها الجامعة الوحيدة في العراق آنذاك. فكان الطلاب الحائزون على البكالوريا الإعدادية يدركون أن كل الطرق ستؤدي في النهاية إلى هذه المدينة العظيمة. ولكنني كنتُ قد سافرت إليها قبل أقراني، ورافقتُ والدي في زياراته التجارية القصيرة هناك، وكان أخي طالباً يدرس الطب في عامه الأول في الجامعة، وشعر والداي أن أخي لا ينبغي أن يكون وحده في بغداد، ولذلك كان عليّ أن أنتقل إلى بغداد لأكون أنيساً له في غربته. كان الانتقال من أربيل إلى بغداد خطوة كبيرة إلى حد ما آنذاك، ولذلك تقدمت بأوراقي في الوقت المناسب لأفضل مدرسة ثانوية في بغداد وهي المدرسة الإعدادية المركزية، وغمرتني السعادة عندما تمَّ قبولي فيها. ومن النِّعم الأخرى التي أنعم الله بها عليّ أن مدرستي الجديدة كانت قريبة من كلية الطب التي يدرس فيها أخي، وبذلك أصبحت حياتي وانتقالي أسهل بكثير.

أفادتني هذه التجربة كثيراً، وأشعر دائماً أن أية رحلة يقوم بها المرء إلى أي مكان لها فوائد عظيمة، وتمثل فرصة اكتساب خبرات جمّة يصعب على المرء إدراكها إذا لم يكن قد عاشها حياة وممارسة. وقد انطلقت رحلتي من عالم الكتب؛ فقد كانت المدرسة على مسافة قريبة أقطعها مشياً على الأقدام من شارع يزخر ببعض أفضل مكتبات بيع

الكتب في المدينة؛ وهو شارع المتنبي. في ذلك الشارع وجدتُ إلهامي الحقيقي؛ إذ كل هذه المعرفة في متناول يدي: أغلفة جذابة، وكتب مجلّدة تجليداً جميلاً، وكتب تعلوها طبقة رقيقة من الغبار، وكتب جديدة لم تلمسها يد. كما أنني كنت محظوظاً؛ لأن المدرسة كانت قريبة من مبنى المستنصرية على ضفاف نهر دجلة، وهو مبنى تاريخي في بغداد لجامعة من أقدم الجامعات في العالم، وقد بنيت في عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله (توفي: ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م) وافتتحت عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م، وكانت تتضمن مدرسة للفقه على المذاهب السنية الأربعة، ومدرسة للقرآن ومدرسة للحديث ومدرسة للطب، بالإضافة إلى علوم اللغة، والرياضيات والفلسفة والحيوان، وعلوم الصحة. علاوة على ذلك، كانت بغداد تزخر بأسواق بديعة، بجميع أنواعها وأحجامها، تبيع مجموعات متنوعة وهائلة من السلع. كانت أربيل مدينة إقليمية كاسدة عندما أقارنها ببغداد، وكان سوق الشورجة (في بغداد) أكبر هذه الأسواق، وهو سوق كبير وصاخب ومزدحم في قلب بغداد. امتلأت عيناي بالدهشة، وما أن تلاشت الرهبة حتى أصبحتُ بارعاً في التعامل مع التجار، من أجل توريد كل ما يحتاجه والدي في تجارته. وبينما كنتُ فخوراً بتقديم مساعدتي لوالدي بهذه الطريقة، كنت أتعلم أيضاً فن الأعمال التجارية وفن التواصل. إن فن المساومة هو حقاً فن التفاوض، وكانت كلمة المساومة نفسها بالنسبة لي دائماً اسماً على غير مسمّى إلى حد ما. لقد علّمني التفاوض في الأعمال التجارية بهذه الطريقة مهارات أفادتْني في حياتي لاحقاً، كما علّمني العمل الذي قدّر الله لي أن أخطط للقيام به.

في البداية، كانت بغداد مخيفةً إلى حد ما، لاسيّما أنني تركت حاضنة العائلة الحامية، وكنتُ أراها محيطاً ممتداً عند مقارنتها بالحوض الصغير الذي كنت أعيش فيه. لقد كانت بغداد مدينة متطورة بما فيها من طرق واسعة، ومبانٍ عالية، وأناس يندفعون في كل صوب، وضوضاء، وازدحام. وحيثما نظرت كنتُ أشعر بعظمتها وبضآلتي في الوجود. لكن بعض المناظر الخلابة خفّفتْ من ذلك الإحساس تخفيفاً جميلاً. فكان نهر دجلة

العظيم يشطر المدينة إلى شطرين: الرَّصافة والكَرْخ، وكانت هناك مطاعم أسماك رائعة بامتداد ضفافه المورقة. وهناك كنتُ ألتهمُ الأسماك الطازجة المطهوّة ببراعة، وكنت أتذوقها بلذة أكبر؛ لأن السمك كان وجبة نادرة في أربيل التي كانت تخلو من الأنهار.

عرفتُ المزيد عن تاريخ بغداد التي أسسها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في القرن الثامن الميلادي. ولم تكن مدينة عادية، بل قادت العالم في عهد الدولة العباسية، وكان فيها أحد أعظم صروح العلم آنذاك، وعاش فيها حيناً من الزمن أحدُ أعظم العلماء في التاريخ الإسلامي، وهو الإمام أبو حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م).

إن إنجازات بغداد المجيدة جعلت منها مكاناً أسطورياً، فكانت غنية بالعمارة والفنون ورسوم فن الخط والمكتبات، حتى إن إسهاماتها في الحضارة مميزة وفريدة. ومع أن بغداد تتفاخر بأمجاد شامخة، فإنها عانتْ أيضاً من مآسٍ هائلة، ومن أشهر هذه المآسي قيام قوات هولاكو بنهبها وتدميرها حتى عمَّ الخرابُ المدينةَ، وصارت مياه نهر دجلة سوداء من جرَّاء الحبر المتسرِّب من آلاف المخطوطات التي تم إلقاؤها في أعماقه دون اعتبار لمحتوياتها الثمينة، وضاعت هذه المخطوطات إلى الأبد. ولذا كانت بغداد في الوقت ذاته تسحرني وتخيفني بعض الشيء، وكنتُ أشمُّ في كل ركن منها عبق التاريخ.

أَلِفتُ البيئة الجديدة، وبدت بغداد مختلفة عن أربيل على نحوٍ لم أكن أتوقَّعُه. فقد نشأتُ في مدينة محافظة، حيث لا تزال النساء يلتزمن بارتداء الحجاب. ولكن بيئة بغداد كانت حديثة للغاية، ونادراً ما كنتُ أرى النساء محجبات، وكنتُ أراهن جزءاً لا يتجزأ من حياة العمل اليومية، وكنّ يرتدين ملابس على الموضة الأوروبية. كان هناك اختلاف آخر، فقد كنتُ تركمانيّاً غير ناطق بالعربية من أربيل، ومعظم سكان بغداد من أصل عربي. ونظراً لأنني أنتمي لمجتمع صغير غير عربي، اعتقد زملائي العرب أنني ربما أواجه صعوبة كبيرة في التهيؤ لمستوى التعليم المتوقع من الطلاب في مدرسة

من أفضل المدارس في بغداد. ومع ذلك، لا شيء يذكي شعلة الدافعية لدى المرء أكثر من التحدي، لذا قررتُ أن أُظهِر لهم أن مستوى أدائي في الدراسة سيكون أفضل من مستوى أدائهم. وكما كان الحال عند انتقالي إلى مقاطعة كورنوول الإنجليزية في مرحلة لاحقة من حياتي، كنتُ في البداية غريباً عن المجتمع حولي إلى حد ما، فكنتُ هدفاً للنكات والطرائف والتعليقات الساخرة. ولكن الأمور بدأت تتغير بعد أن حصلتُ على الدرجة الكاملة في امتحان الرياضيات، الذي كان يتعين على الطلاب جميعهم أن يجتازوه، ومن ثمَّ "كسبتُ" احترام زملائي، وتوطدت علاقتنا وأينعت ثمارها؛ إذ كنتُ أساعدهم في بعض الأحيان عن طيب خاطر في الواجبات الدراسية والمذاكرة استعداداً للاختبارات. وتمكّن "الريفي" القادم من أربيل من أن يثبّت قدميه وأن يكسب احترام كلِّ زملائه وتقديرهم. كما أن مُدرِّسي المدرسة وإدارتها قدَّروا احترامي لأساتذتي وموقفي تجاه زملائي، وكذلك إنجازاتي اللافتة للنظر (ولا فخر).

كانت بغداد تبدو مختلفة من الناحية الدينية. وبغض النظر عن مظهر النساء، سرعان ما تعرّفتُ على جانب أكثر أهمية، وهو الحضور الشيعي في المدينة؛ إذ كان المجتمع البغدادي المتسامح في تلك الفترة يلفظ من يثير الفتنة بين مكوناته العرقية والدينية، لا سيما بين المكونين: السني والشيعي؛ فقد تعايش السنة والشيعة في وئام وسلام ومؤاخاة؛ ففي مدرستنا على سبيل المثال، كنّا نمارس أمور حياتنا اليومية في انسجام تام وكامل، ولم تكن مسألة كونك سُنيّاً أو شيعيّاً مهمة على الإطلاق، ولم يكن هناك أي شيء من العداوة والكراهية اللتين تتفشيان في العالم الإسلامي اليوم، ولا سيما في العراق. لقد تعرّفتُ أيضاً على مسيحيين عراقيين، وكنّا بوجه عام نتعايش في مناخ يسوده الاحترام. ونظراً لأن بغداد كانت تضم سفارات مختلفة وشركات دولية، فقد تعرفت أيضاً على أشخاص من ثقافات وجنسيات أخرى كانوا بمثابة نافذة أطلُّ منها على العالم الخارجي، واختلطتُ بهم حتى صُقلت "مهاراتي الاجتماعية". وأفادتني هذه التجربةُ الغنية أيما إفادة في السنوات اللاحقة، لأنني سافرتُ في النهاية وعشتُ في الخارج.

وكانت بغداد مدينةً متسارعة النمو وكثيرة الرخاء؛ إذ كان الاقتصاد منتعشاً، والأعمال التجارية مزدهرة، وأعمال الإسكان الحكومي والتخطيط وعمليات التنمية الأخرى تنتشر بسرعة هائلة. وكانت هناك خدمة صحية وطنية رائعة تضمن رفاهية السكان. وثمة نظام تعليمي من أفضل أنظمة التعليم في المشرق العربي كله، إن لم يكن أفضلها على الإطلاق. ولا عجب أن الطلاب العراقيين الذين تم ابتعاثهم للدراسة في الجامعات الغربية، ومعظمهم درسَ في المملكة المتحدة (UK) والولايات المتحدة الأمريكية (USA)، عادوا إلى وطنهم بعد أن حصلوا على أعلى الدرجات العلمية وتفوَّقوا في مجالات دراستهم.

فجأةً وقعت الكارثة. ففي الرابع عشر من يوليو/ تموز عام ١٩٥٨، أطاحت ثورة عبد الكريم قاسم وعبدالسلام عارف بالحكم الملكي، وسيطرت على البلاد. وعلى الرغم من نجاحات التنمية الاقتصادية في أثناء العهد الملكي، فقد دعمت الثورة شريحةٌ كبيرة من العراقيين، تذمُّراً من بعض الأخطاء الحكومية الثانوية، ولكن السبب الأكبر كان يتمثل في الدعاية الشيوعية المنظّمة الشرسة التي شنَّتْها وسائلُ الإعلام السوفيتية القوية وكذلك الحركاتُ القومية العربية المدعومة من رئيس مصر آنذاك جمال عبد الناصر. ونتيجة لذلك، تدهورت أوضاع العراق بشكل كبير. وانتهى ذلك الوقت القصير من الأمل والازدهار، وحلَّ محله انهيار اقتصادي، وانحدار في مستوى التعليم، وتقهقر بوجه عام في كل جوانب الحياة التي تراجعت بشكل مأساوي يشبه مناخ الخوف والترهيب. وقد مهَّدَ ذلك المناخ الطريقَ لثورات وانشقاقات دمّرت العراق، وبلغت ذروتها في الوضع الكارثي الذي تعاني منه الآن هذه الدولة التي كانت شامخة من قبل، وهي أسوأ فترة يعيشها العراق منذ الغزو المغولي. إنني أندب، مثل كل العراقيين، الأحلامَ التي حققناها تقريباً، وأبكي من الكابوس الذي صارت إليه بغداد وكل العراق الآن.

ولكن بالعودة إلى الأيام الخوالي، لم أكترث بالقتامة التي تتجمّع في الأفق، واجتهدتُ في دراستي، وآتى كل ذلك الاجتهاد ثمارَه في النهاية، وسعدتُ أيَّما سعادة عندما أصبحتُ من أفضل خمسين طالباً اجتازوا امتحانات البكالوريا على مستوى العراق عام ١٩٥٨. شعرت بنشوة غامرة، وكانت إدارة المدرسة فخورة بي، وحظيتُ بإعجاب الجميع، والأهم من ذلك كله أن والديّ فرحا بذلك أيّما فرحٍ.

لقد كان وقتاً مجيداً، وتقدمت على الفور بطلب للحصول على منحة للدراسة في الخارج، ونجحت في الحصول عليها، وجهّزتُ حقائبي للسفر إلى بلاد جديدة. وبدلاً من الطريق من أربيل إلى بغداد، صارت مسيرتي الآن ممتدة عبر القارات، وكانت المملكة المتحدة تناديني.

١٩٥٨. في أربيل. لهذه الصورة معنى خاص في حياتي، أنا في محطة القطار مسافراً إلى بغداد لأركب الطائرة المتوجهة إلى لندن.

الفصل الثاني

طريق واحد ودروب كثيرة

"من علامة كمال العقل علوّ الهمة !
والراضي بالدُّون دنيء"

ابن الجوزي

لندن، إنجلترا

كان ذلك في عام ١٩٥٨. سافرتُ بحماس بالغ إلى المملكة المتحدة للمرة الأولى، وتركتُ ورائي للأسف عراقاً ينوء بالاضطرابات والأثقال. لقد استمعت من قبل إلى إذاعة بي بي سي BBC العالمية، وكنت على دراية عامة بتاريخ الإمبراطورية البريطانية، وأُقدّر إنجازاتها الأدبية (من منّا لم يسمع عن شكسبير؟!)، وكنتُ متشوّقاً لمزيد من المعرفة. وعند وصولي إلى مطار لندن، كان في استقبالي ممثلون عن رابطة الطلبة العراقيين ونادي الطلبة العرب. كانت لحظة مثيرة أن تطأ قدماي أوروبا، ومع أنني كنتُ بعيداً عن الوطن، فقد كنتُ أشعر بثقة تامة، أو على الأقل لم أكن متخوفاً من شيء، فكنتُ قد تشرّبت كثيراً من العادات الإنجليزية، وبدت البيئة الجديدة مألوفة ومختلفة على نحو عجيب. كان مضيفونا، والأسماء الجديدة، والوجوه الجديدة، متحمسين لوصولي، بقدر حماسي لأن تطأ قدماي هذه المدينة العظيمة. كنّا شباباً مفعمين بالحيوية والنشاط، ولذلك اقترحوا على الفور أن نخرج في زيارة قصيرة إلى ميدان بيكاديلّي Piccadilly. بالطبع لم يكن ميدان بيكاديلّي أفضل مكان يمكن للمرء أن يحسّ فيه بعظمة التاريخ والإمبراطورية البريطانية، لكنه كان بالتأكيد يناسب شباباً

١٩٥٨. لندن، أنا في ميدان بيكادلّي، وزرتُه في أول رحلة لنا من كورنوول.

يريدون أن يقضوا ليلة في المدينة. إن ميدان بيكاديلّي معلم سياحي كبير يتوسطه تمثال إغريقي على قمة نافورة (يشير الجميع إلى هذا التمثال باسم إيروس على الرغم من أن اسمه في الواقع هو أنتيروس). يحمل "إيروس" قوسه، ويقف منتصباً، وتحيط به أضواء النيون الحديثة وحركة المرور الكثيفة، وكان كثير من الناس يُعِدّون هذا الميدان قلب منطقة ويست إند West End في لندن، وهو ميدان يعج بالناس والحركة والنشاط والصخب، وهو من أكثر الميادين ازدحاماً ونشاطاً في لندن.

ألمحَ بعضُ الطلاب إلى أشكال الترفيه المتنوعة في هذا الميدان، مما هو منافٍ لديننا الحنيف، واقترح بعضهم أن نذهب لما هو غير ذلك مما يُطلق عليه "الترفيه"، وقد ذُهلت من هذا الاقتراح؛ إذ لندن التي استهوت على عقلي هي تلك التي يضرب تاريخها بجذوره في العصر الروماني وما قبله، وتلك التي اشتُهرت بهندستها المعمارية الرائعة، ومسارحها، ومتاحفها، وهي المدينة التي كنت حريصاً على أن أندمج فيها. فأنا بالتأكيد لم أقطع كل هذه المسافة حتى أجعلها هدفاً لزيارة تافهة أو نزوة عابرة، أو هدفاً أقضي فيه ساعة لهو بداعي المرح. كما أن ذلك الاقتراح كان يتنافى مع مبادئ الإسلام، ويستهين بالدين ولندن على حد سواء. لم أكن قد وصلت إلى المملكة المتحدة بمفردي، بل مع مجموعة من الطلاب. ولحسن الحظ، أجاب نيابةً عنّا جميعاً طالبٌ تصادف أنه مسلم يحافظ على أصول دينه، وقال بوضوح لأولئك الذين قد يلعبون برؤوسنا: "من يريد أن يذهب إلى ميدان بيكاديلّي فالطريق أمامه مفتوح! سنذهب إلى فندقنا ونفعل ما يُمليه علينا ضميرُنا". وبعد أن عبّر ذلك الزميل عن موقفنا، توجّهنا إلى الفندق مباشرة. كان ديننا هو الحصن الذي نحتمي به، ولذلك أخذنا حمَّاماً ساخناً، ونمنا في أَسرَّة دافئة بدلاً من الخمور والإغراءات! لم أكن غاضباً ولا مستاءً من الطلاب العرب. ولكنني بالطبع شعرتُ بخيبة أمل، فعلى الرغم من أنني قدّرتُ استعدادهم لاستقبالنا في المطار وعرضهم لنا بأن نزور أحد معالم لندن، فإن عصيانهم لله أثار فيّ غصةً لم أستطع أن أتجاهلها.

لم يكن ذلك يرجع إلىٰ أنني شِختُ قبل الأوان، بل إلىٰ ذلك الوازع الأخلاقي القوي الذي يكتنفني، ولا يمكن لأي صديق ولا عدو أن يهزه. لذلك بدأتُ بعد وصولي مباشرة أتعلم بالفعل شيئاً عن حقائق الحياة، وعن الطبيعة البشرية، وعن الناس ودوافعهم، وبالطبع عن مكانة الدين في الحياة. لا أسعىٰ هنا إلىٰ تقديم مواعظ، بل إلىٰ التحليل، لأنني كنت شاباً لديه اهتمامات جادة، لا سيما بأمور الدين والمعرفة. ولذلك أزعجني موقف زملائي العرب من بني جلدتي الذين يتّبعون المثل القائل: "عندما تكون في روما افعلْ ما يفعله الرومانُ"، وهو الأمر الذي دعاني إلىٰ مزيد من التفكير والتساؤل: هل كان الطلاب العرب فعلاً يُلبِسون الرذيلة ثوبَ الفضيلة؟ ماذا عن مضيعة الوقت في ميدان بيكاديلي بهذه الطريقة بالذات، أو تحويل التسلية المشينة إلىٰ وسيلة بريئة من وسائل تقضية الوقت، تحت مسمّىٰ الترفيه؟ هل العمل في ظل هذا التوهّم سيساعدهم في أن يُحصِّلوا تعليماً جيّداً أو يتخرّجوا في القريب العاجل؟ هل يعيش الناس بهذه الطريقة حقاً، ويضيّعون الوقت الثمين في نشاط ترفيهي عديم الفائدة؟ أليس ذلك السلوك سلوك مُراهقين غير ناضجين، وليس سلوك رجال بالغين يدمِّرون هويّتَهم وأخلاقَهم في لهو غير مقبول؟ لا بد أن يكون هناك سبب ما لهذا التهاون السهل في مبادئ ديننا وقيم ثقافتنا. للأسف، لم يكن من الصعب العثور علىٰ إجابة، ولم تتغير الإجابة إلا قليلاً علىٰ مرّ الزمن. إن من لم يجدوا غضاضة في دعوة ضيف عربي مسلم من بني جلدتهم لسهرة طوال الليل كانوا أنفسهم نتاج المجتمعات العربية التي خانت تقاليدها الإسلامية، ومن ثمَّ كانت سبباً في أن يقوم أبناؤها بخيانة هذه التقاليد؛ فمن الواضح أن هؤلاء الأبناء كانوا يستهينون بتقاليدهم. خمّنتُ كل ذلك بسرعة، وأدركت أنهم يشعرون بأنهم بلغوا من النبوغ مبلغاً يَحُول دون الإيمان بالتقاليد أو المعتقدات، ولذلك اختاروا أن يظهروا بمظهر "الإنسان العصري"، وتبنَّوا أيديولوجيات شديدة الليبرالية، وتباهوا بها.

للأسف، كان ذلك حال نسبة كبيرة من أعضاء نادي الطلبة العرب. آنذاك، كان هذا النادي من أكثر الجماعات الطلابية نشاطاً في المملكة المتحدة، وكان يتألف من طلاب عراقيين، وسوريين، ولبنانيين، ومصريين، وسودانيين وغيرهم من مختلف أنحاء العالم العربي. ومع أن النادي كان يزخر بمجموعة متنوعة من الأنشطة، لم

يكن أيٌّ من هذه الأنشطة يحترم الثقافة العربية أو الدين الإسلامي. ومن المحزن أن المسلمين المتدينين الذين يحترمون الثقافة العربية الإسلامية لم يكونوا محل ترحيب في نادي الطلبة العرب، في حين أنَّ النادي فتح ذراعيه ليحتضن اليساريين والقوميين المتطرفين (من أمثال البعثيين والناصريين).

تحديات دينية

لكل شخص مطلق الحرية في أن يكوّن آراءه السياسية التي تروقه، وأن يعيش وفقاً لمبادئه الأخلاقية الخاصة، وحاشا لله أن أقوم بدور الواعظ أو أفرض على غيري ما ينبغي عليهم أن يفعلوه وما لا ينبغي أن يفعلوه. فأنا أؤمن بالتحاور والنقاش المحترم حول الآراء ووجهات النظر، ولا أؤمن بفرضها فرضاً. كان لديَّ شغفٌ وحبٌ متقد، وكان حُبي هو الإسلام. وهكذا، واظبتُ على الصلوات الخمس، وحاولتُ قدر استطاعتي أن يكون القرآن منهج حياتي. ومع ذلك، لم ينضم إليّ في الصلاة في البداية إلا عدد قليل من زملائي المسلمين، واكتشفتُ أن ما هو محبَّب لي ليس بالضرورة أن يكون محبَّباً لغيري، وعلى الرغم من أن زملائي قادمون من مجتمعات ذات ثقافة إسلامية، أدركتُ أنَّ بعض المسلمين لا يرون هذه الثقافة الإسلامية تواصلاً روحيّاً مع الله، بل يرونها عبئاً كريهاً أو ثقيلاً نحملُه على عاتقنا بلا داعٍ. وكانوا يقولون ساخرين: "هل أنت رجْعِيٌّ متخلّف؟" "أمَا زلتَ تصلّي وأنت في المملكة المتحدة؟" لا أدري من هو الأكثر اندهاشاً: هل هم المندهشون من ارتيابنا المفترض في معنى التقدُّم، أم نحن المندهشون من قلة إيمانهم بالله؟ هذا الموضوع برُمّته مشحون بالعاطفة، وكنتُ أتوق إلى أن أصحِّحَ هذه الطريقة في التفكير، وإن كنتُ أتوقع أن يحدث صدام حتمي بيننا، لكني اخترتُ الطريق الأكثر حكمة، ولم أدخل في مناقشات أخرى حول هذه القضايا، وفي الوقت نفسه حافظتُ على وُد العلاقة معهم.

كنتُ حريصاً على اجتناب الصدام منذ اللحظة التي وطأتْ قدماي شواطئ إنجلترا الجميلة. ولم يكن الأمر شديد الصعوبة لأن الجدال لم يكن من الأشياء التي طبعني الله عليها. لقد جئت إلى بريطانيا طَلَباً للعلم، وفضَّلتُ أن أنظرَ إلى جوانب الخيرِ في الناس، فنهلتُ من كل علم وجدتُه في طريقي. وازداد عدد المسلمين الذين يُصلُّون معنا، وبدت صلاتنا نشاطاً "غريباً" في نظر بعض الأشخاص، وكانت موضوعَ "مداولات جادة"، وكان لزاماً علينا توضيح الأمور، وقُلنا لأولئك المسلمين الذين كانوا يصدوننا عن الصلاة: "ألسنا مسلمين؟ ألسنا من مجتمع يلتزم بدينه؟ هل ينبغي أن نتخلّى عن إيماننا في أول فرصة تُتَاح لنا؟ "

كورنوول Cornwall وستينات القرن العشرين

كانت المملكة المتحدة وجهة طلاب عراقيين كثيرين ممن حصلوا على مِنح دراسية حكومية في الخمسينات والستينات من القرن العشرين لأسباب متنوعة. وتوزَّع هؤلاء الطلاب في الكليات في مختلف أنحاء الجزر البريطانية، وأصبحوا على دراية بالثقافة، والناس، والطعام، والمطر الذي لا مفر منه. وكان الطقس حديث المدينة، وكانت الشمسيّات (المظلّات) سلاحنا الذي يلازمنا، وكنّا نتحدى البرد برشفات الشاي الساخن، وكنّا نتعجب من روعة المساحات الخضراء في كل مكان حولنا. كنت محظوظاً بشكل خاص؛ لأنه انتهى بي المطاف في مقاطعة كورنوول الخلّابة التي تقع على الساحل الجنوبي الغربي لإنجلترا. إنها مقاطعة في قمة الجمال؛ ولذلك كانت مَعلَماً شهيراً من معالم الجذب السياحي، ساحِلُها صخريٌّ

غير مستوٍ، ويتكون من خلجان رائعة وشواطئ رملية، وينتهي بشبه جزيرة في أقصى طرفه الجنوبي المعروف باسم لاندز إند Land’s End (نهاية الأرض)، وهي معلم شهير ورائع. إلى جانب هذه الطبيعة الجميلة والتضاريس البديعة، وما كنّا ننعم به من الآيس كريم الكورنوولي الرائع، والكعك، والشاي بالحليب على الطريقة البريطانية، كان هواء كورنوول رطباً، بل كان رطيباً. ولما كانت كورنوول تتسم بهطول الأمطار الغزيرة، فقد دأب البريطانيون آنذاك على المزاح قائلين: "تعال إلى كورنوول المشمسة، ولكن أحضر شمسيّتك (مظلتك) معك"!

١٩٥٨. كلية كورنوول التقنية بالمملكة المتحدة قبل دخول الجامعة.

١٩٥٨. كلية كورنوول التقنية في المملكة المتحدة، قبل دخول الجامعة مع بعض الأصدقاء. أنا في الوسط.

١٩٥٩. في كورنوول بالمملكة المتحدة. من اليمين محمد الخادم غالب، الذي تقلد عدة مناصب وزارية في اليمن، بما فيها عضو اللجنة الرئاسية. وأنا الثاني من اليمين.

١٩٦٠. في لقاء جمعية الطلبة المسلمين، من اليمين: أحمد توتونجي، عصام الألوسي، هوشيار الزيباري، طلال النائب، محمد الخادم غالب. والجالسون: طالب حمادة من اليمين، ثم أحمد العاني

كان جميع الطلاب المبتعثين من الحكومة العراقية في عام ١٩٥٨ يحصلون على راتب شهري قدره أربعون جنيهاً إسترلينيّاً. وبالطبع يبدو هذا المبلغ زهيداً في وقتنا الحالي، لكنه كان مبلغاً مجزياً في تلك الأيام، وأتاح لنا عيشة مريحة إلى حد ما، بل وكنّا ندّخر جزءاً منه. من الصعب أن نتخيل الآن أن إنجلترا كانت فقيرة، لكنها كانت في الخمسينات من القرن العشرين مكاناً أفقر بكثير من المقاطعات المزدهرة التي نراها اليوم. فقد كان للحرب العالمية الثانية تأثير كارثي، وعانى البريطانيون من نظام الحصص الغذائية في زمن الحرب، ولم تكن البلاد قد تعافت تماماً عند وصولنا. وهذا يعني أننا كنّا نسبيّاً أفضلَ حالاً من زملائنا الإنجليز.

تغيرت المملكة المتحدة كثيراً على مدار العقود الماضية، لكنها كانت تتميز آنذاك بالصبر على المشاق، وتقوم على مبدأ "أصلحْ واستخدم البديلَ"، للتغلب على شظف العيش برباطة جأش، ووجدت أن الأمر يستحق الإعجاب بشكل خاص. لم تكن النزعة الاستهلاكية قد أفسدت الأجيالَ بعد، وكانت اللغة التي يستخدمها الناس لغة مهذبة، ومع أن الفروق الطبقية كانت كبيرة، لم يزل الناس يتوقون إلى مُثل عُليا في السلوك والأخلاقيات. بالطبع كان التحول الكبير في الثقافة قد بدأ عندما وصلتُ إلى المملكة المتحدة، وكنّا نشهد موت النظام القديم، وهو الأمر الذي كان يمهد الطريق لمذهب اللذة الجديدة والجامحة الذي ساد في الستينات من القرن العشرين؛ إذ صار الجنس والمخدرات والموسيقى الحديثة الآلهةَ الجديدة على نحو متسارع. باختصار، تميزت إنجلترا في العصور السابقة بممارسة ضبط النفس، أي الصبر في وقت الشدة بلا تذمُّر، في حين أن إنجلترا في العصر الجديد كانت تدعو إلى انغماس الذات في الملذّات.

لقد أفدت من فرص عدة في المملكة المتحدة، وفي يوم من الأيام قررتُ أن أتعلم السباحة. ولِمَ لا؟ فقد كنتُ أعيش في منطقة ساحلية، والشاطئ لم يكن يبعد مسافة كبيرة عن مكان سكني. مع أن النهرين العظيمين؛ دجلة والفرات، يمران عبر العراق من الشمال إلى الجنوب، كانت أربيل بعيدة جداً عنهما، ولم تُتَحْ لي الفرصة قط لأن أتعلم السباحة. وهكذا ذهبت أنا وأصدقائي بحماس كبير إلى الشاطئ للمرة الأولى

في حياتنا، واتضح أننا لم نكن مستعدين لذلك إلى حد كبير. أظنُ أننا توقعنا أن نرى مشهداً لا نهاية له من الرمال والبحر والأُسَر والطعام والقوارب الشراعية والصيادين، ولكننا وجدنا بحراً لا نهاية له من الأجساد. من الصعب أن نتخيل الأمرَ الآن، ولكن ما لم نتوقعه هو أن الرجال والنساء يتجهون بحماس إلى شاطئ البحر، ليستمتعوا بدفء الشمس من بين مآرب أخرى! النساء الكاسيات العاريات كنّ في كل مكان، وكان الإغراء كبيراً لنا نحن أبناء السابعة عشرة من العمر؛ إذ تبدأ الغرائز بالحديث. وكما قال شكسبير ذات مرة: "العمل فصاحة". ولما كنت فصيحاً للغاية، تراجعتُ بسرعة، ودعوتُ الله أن يحميني، وتحجّجتُ بأنني نسيتُ شمسيّتي (وهو عذر يناسب كورنوول تماماً، حتى في فصل الصيف)، وغادرت بسرعة إلى المنزل، ولم أعد إلى هذا الشاطئ مرة أخرى، ولم أتعلّم السباحة طيلة حياتي مع الأسف!

مشكلات اللغة تواجهني من جديد

التحقت بكلية كورنوول التقنية في الحرم الجامعي الرئيس، حيث درستُ بعض المواد: اللغة الإنجليزية، والفيزياء، والرياضيات، والكيمياء. درستُ أيضاً في السنة الأولى مواد إضافية تأهيلية لامتحانات المستوى العادي. وفي السنة الثانية، درستُ مواد إضافية تأهيلية لامتحانات المستوى المتقدم. وكان النجاح في امتحانات المستوى المتقدم يتيح لنا التأهُّل للقبول في الجامعات. اجتزت امتحانات المستويين بتفوق، وبدأتُ السنوات الثلاث التالية من دراستي الجامعية. على الرغم من أنني كنتُ طالباً متفوّقاً (ولا يمنعني التواضع من قول ذلك لأني أعلم أن كل شيء من عند الله)، كنتُ ما زلت بحاجة إلى تحسين مستوى إجادتي للغة الإنجليزية. في ذلك الوقت، لم تكن هناك برامج دراسية لتعليم اللغة الإنجليزية كلغة ثانية؛ ولذلك اضطررت إلى الاعتماد على مجهوداتي الخاصة، وأخذتُ أعلّم نفسي قدر استطاعتي. أبتسمُ الآن عندما أتذكر أنه طُلب منّي، خلال الأسابيع الأولى من دراستي الجامعية، أن أقرأ فقرة باللغة الإنجليزية، وتلعثمتُ عندما وصلتُ إلى كلمة cosmetics (مستحضرات التجميل)، وسألت المعلمة عن معنى هذه الكلمة الغريبة، فأجابت: "ألا تعرف؟"

فقلتُ لها: "لا." فأجابت بأنها تعني "مكياج". فسألتُها: "ما هذا؟" وشعرت بالحرج من الضحك المكتوم، ولكنني رفضتُ أن أترك الإحباط يسيطر عليّ، وأصررتُ على المثابرة، وآتى صمودي ثماره. تتفاوت اللكنات واللهجات البريطانية تفاوتاً كبيراً من منطقة إلى أخرى، وهو الأمر الذي يمثل جانباً من سحر البلد. وكان هذا الموقف هو الأول في سلسلة كبيرة رسّخت لدى الطلاب البريطانيين انطباعاً إيجابياً عن الطلاب المسلمين. وبتوفيق من الله أدّتْ محاولاتنا الجادة وأخلاقيات العمل القوية إلى إثبات خطأ الصورة النمطية السائدة عن المسلمين بوصفهم أناساً كسالى وغير أكفاء. وكوّنّا صداقات جيدة مع زملائنا البريطانيين الذين ساعدونا على تعلم اللغة الإنجليزية، وهو الأمر الذي يشعرني بالامتنان لهم دائماً.

كانت مادة الرياضيات سهلة لي ولكثير من الطلاب العراقيين في المستوى الذي كنّا ندرسه في المملكة المتحدة؛ إذْ كان مستوى التلاميذ العراقيين عالياً إلى حد ما في المدارس العراقية آنذاك. ولذلك كنّا نشعر بالملل ونفاد الصبر من المنهج الدراسي، وطلبنا ذات مرة من الأستاذ الذي كان يدرّسنا الرياضيات في كورنوول أن يتخطّى الفصل الذي كان يدرّسنا إياه، وأن يسمح لنا بأن ننتقل إلى فصل أصعب. ولكنه رفض ذلك، ووقعنا في مأزق، فمن ناحية كان مستوانا أعلى بكثير من المستوى الذي كنّا نتلقاه، ولكننا من ناحية أخرى لم نكن في وضع يسمح لنا بتجاوز هذا المستوى نظراً لضعف مستوانا في اللغة الإنجليزية وفي بعض المواد الأخرى، ونظراً لوضعنا كطلاب أجانب وجدد. لقد عانينا من الازدراء عندما كنّا نفشل أحياناً في الوصول إلى المستوى المطلوب في اللغة، ولكننا أرجعنا هذا الازدراء بشكل تلقائي إلى العنصرية، وكانت عنصرية خفيفة من بعض البريطانيين، ولكنها لم تصدر عن البريطانيين كلهم بالتأكيد، وهو الأمر الذي أكّد وضعنا بوصفنا مجرد طلاب غرباء لا ينتمون للمكان.

على أية حال، بعد أن رُفض طلبنا، فتحْنا الموضوع من جديد. وفي هذه المرة قدّمنا التماساً لأستاذ الرياضيات بأن يأذن لنا بأن ندرس مقرر رياضيات أعلى، ولم نستغرب عندما رفض هذا الطلب أيضاً. ولم يبق أمامنا سوى خيارين؛ فإما أن نثابر أو نترك الأمور على حالها، ولأننا لم نكن من الأشخاص الذين يمكنهم أن يتخلوا عن هدفهم بهذه السهولة، فقد اتخذنا قراراً حاسماً بالتمسك بمثابرتنا، وقررنا تجاوز الأستاذ والذهاب إلى

مسؤول أعلى منه؛ ولذلك توجّهنا للعميد. وآتى إصرارنا ثماره؛ إذْ كنتُ مع طلبة عراقيين آخرين من أفضل الطلاب في مادة الرياضيات، فقمنا بعرض الأمر على العميد، ووافق على الفور. وتمكّنا في نهاية المطاف من دراسة المستوى الذي يناسب قدراتنا، وساعدنا أستاذُ الرياضيات نفسه في الانتقال من المستوى الذي كنّا ندرسه إلى المستوى الأعلى.

لحسن الطالع، سرعان ما سنحتْ لنا الفرصة لإثبات صحة هذه الخطوة بأننا حصلنا على أعلى الدرجات وأعلى ثلاثة تقديرات في امتحان مهم جداً بعد ذلك بفترة وجيزة (بتقديرات ٩١٪ و٨٥٪ و٧٥٪ على الترتيب)، فغمرتْنا السعادة. والأهم من ذلك أننا تعلّمنا درساً، وهو أن المثابرة الحكيمة والإصرار الرزين يتغلّبان على جميع التحديات. لقد استطردت كثيراً في هذا الموضوع لأن هناك لحظات في الحياة تطوِّر الشخصية تطويراً حقيقيّاً أو تُبرز القدرات الكامنة التي ربما لا نكون واعين بوجودها فينا، وما أن نضعها على المحك حتى تصير قوة دفع تجعلنا نصمد أمام التحديات والعقبات التي ستلقي الحياة حتماً بها في طريقنا. لقد فهِمْنا بحقٍّ معنى العدالة، ومعنى دفاع المرء عن حقوقه إلى أن يحصل عليها، وهو الأمر الذي منحنا الثقة والقدرة على تحقيق أهدافنا ومواجهة تحديات المستقبل بنظرة واسعة وعزيمة واضحة.

سيدتان طيّبتان

كنّا نعيش في منزل سيدتين بريطانيتين عجوزين، وكنّا ندفع لهما إيجار السكن وثمنَ الطعام. تميزت كل واحدةٍ منهما بشخصية رائعة ولطيفة، شخصية تتوقع أن تجدها في المقاهي، تتفرّج على الدنيا حولها، أو تجدها تخبز في المنزل، أو تجدها تفرش الموائد بمفارش نظيفة منسوجة من الدانتيل. لقد كنّا محظوظين، وأحتفظُ بذكريات جميلة عن سلوكهما الهادئ اللطيف، ولم نشعر معهما بأننا غرباء في بلاد غريبة. كانتا بعيدتين عن التزمّت وضيق الأفق والرسمية في التعامل، ووجدنا منهما رعاية وطيبة حقيقيتين، حتى إننا سرعان ما أصبحنا أكثر من مجرد مستأجرين، واستمتعْنا كثيراً بصحبتهما ومودتهما. والأهم من ذلك كله أنهما كانتا تتعاملان معي كما لو كنتُ ابنهما، وهزت إحداهما مشاعري بقوة في يوم من الأيام عندما قالت لي فجأة: "أنت مثل ابن

لي، وسأعاملك على هذا الأساس". وكانت تعني ما تقول. وحرصت السيدتان على تلبية كل احتياجاتي، حتى إنهما كانتا تصران على غسل ملابسي وكيّها. فاق كرمُهما ما يمكن أن أتوقعه من أي مُضيف، وكنتُ أغتنم أيَّة فرصة للتعبير عن امتناني لهما، وما زلت أشعر بالامتنان لهما. فقد كانتا نافذة مذهلة أُطِلُّ منها على الشخصية البريطانية، وعلى تقلبات الطبيعة البشرية؛ إذ يمكنك أن تجد التحامل مستقرّاً في شخص، وتجد الدفء الإنساني الأصيل مستقراً في غيره. للأسف، اكتشفنا أن كثيرين من كبار السن ممن يستضيفون المستأجرين كانوا يعانون من وحدة وعزلة فظيعتين، ويرجع ذلك في جانب منه إلى الشيوع المتزايد لمفهوم الأسرة النواة، وإلى عمل الأبناء في مدن أخرى، وإلى الترمُّل، وغيرها، ويرجع في جانب آخر إلى الحرب. وكانت العزلة المفروضة عليهم مدمِّرة لمشاعرهم وأحاسيسهم، وقد حاولنا تخفيف بعض هذه الآثار المدمرة بقضاء أكبر وقت ممكن مع صاحبتيّ البيت العجوزين، وكان ذلك ما يمكننا فعله.

لكنني تعلّمتُ درساً آخر. فقد اكتشفت في داخلي هدفاً وباعثاً لتطوير علاقات إنسانية مع كثيرين غيرهما من كبار السن. وفي أثناء ذلك، طوّرتُ مهاراتي في اللغة الإنجليزية بدرجة كبيرة مكنتْني بعد سنة واحدة من العمل مترجماً للطلاب الدوليين الوافدين، على الرغم من أن هذا لم يكن في حسباني من قبل.

فجأة تُوفِّيتْ صاحبة المنزل الكبرى. تألمتُ كثيراً، وكانت تجربة التأقلم مع موتها صعبة للغاية. ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد كان علينا أن نتكيف مع العادة البريطانية بأن نرى مع العائلة والأصدقاء جثة المتوفاة في المنزل قبل نقلها إلى المقبرة لدفنها. ودّعنا صاحبة البيت العجوز العزيزة، وأدينا واجب العزاء كما ينبغي، وتبعنا موكبَ الجنازة إلى المقبرة. ولكنّني ودّعتُ روحَها وداعاً حقيقيّاً نابعاً من أعماق قلبي، عندما أنزلوا جسدها في القبر. تلك اللحظة محفورة في أعماق ذاكرتي. لقد بكيتُ في داخلي على انقطاع الصلة الوشيجة التي نشأتْ بيننا، وودّعتها الوداع الأخير بكل احترام وتقدير، ودعوتُ لها بالرحمة. لقد كان وقتاً ويوماً عصيبين، وأحضرتُ أكبر باقة من الزهور تمكّنتُ من شرائها وقدَّمتُها لها عند قبرها تعبيراً عن حبي وتقديري لها.

بَذْرُ بذور العمل الجماعي:
نشأة فكرة إنشاء جمعيات الطلبة المسلمين

تشتهر بريطانيا بحياتها الليلية الصاخبة. وفي حقبة الستينات، استوردتْ بريطانيا ما يُعرف في الولايات المتحدة الأمريكية باسم موسيقى سكيفل skiffle، وهي أحد أنواع موسيقى الجاز التي يعزف فيها مجموعات من الأشخاص على آلات موسيقية غير معهودة، في حين يستمع غيرهم إلى عزفهم. ولكن هذا شيء لا يُذكر عندما أقارنه بما بات وشيكاً. فقد كانت بريطانيا تشهد تحولاً ثقافياً كبيراً، وكنّا على أعتابه، وصرنا نشهد نقطة تحول رئيسة في تاريخ بريطانيا.

كانت الستينات من القرن العشرين بمثابة فترة انفجار، كانت ثورة اجتماعية قضت على قرون من المحرمات الدينية والاجتماعية. وفي المملكة المتحدة، كانت لندن في قلب هذا الحدث. وحددت الستينات هوية "بريطانيا العصرية" وهوية المستقبل. وجسّدت "الستينات الراقصة" ثقافةَ الشباب في شكل موسيقى وترفيه وموضة، بفرق موسيقية مثل فرقة البيتلز The Beatles بالشعر الطويل للرجال والتنانير القصيرة للنساء، مما عصف بالمملكة المتحدة، ثم بالعالم أجمع. فجأة أصبحت اللغة العامية عصرية، وغرقت فضيلتا ضبط النفس والحشمة في الثقافة المضادة الجديدة المتمثلة في "السلام" و"الحب الحر". وكان ظهور "حبوب منع الحمل" إعلاناً عن بداية عصر السُّعار الجنسي، ولن تبقى الأمور كما كانت عليه أبداً. لم يكن الأمر كله سيئاً بالطبع، بل انطوى هذا العصر على قيم تستحق الإشادة؛ إِذْ أبدى رفضاً حقيقيّاً للمادية والعنصرية والحرب. ولم يكتفِ الشباب بالمناقشات في الأماكن المغلقة الدافئة، بل دشّنوا حملات مؤثرة من أجل عالم أفضل من خلال الاحتجاجات السلمية، والاعتصامات داخل الحرم الجامعي، والمسيرات، إلخ. لقد تأملتُ في هذه الفلسفة عندما كنت شاباً، ولكن لأنني أهتدي بديني، فقد توصَّلْتُ إلى نتيجة أكيدة مؤدّاها أن السلام الحقيقي لا يأتي من المخدرات والموسيقى والهالة الشخصية، ولكنه ينبع من شيء داخليٍّ أصيل في الروح، من روحانية تهتدي بهدى الله، وليس بالانغماس في ملذات الحواس وشهواتها.

بالطبع لم يرضخ عموم البريطانيين لهذا الاتجاه. فكان هناك كثيرون في مقدمة عامة البريطانيين من المسيحيين الذين يحافظون على أداء شعائر دينهم، وانتقدوا بلا جدوى هذا الاندفاع المتهور نحو مذهب اللذة، واصفين إياه بأنه انتهاك رهيب لتعاليم الكتاب المقدس، واعتناق خطير للخطيئة. وتعلّمتُ مرة أخرى درساً جديداً؛ نحن -المسلمين- نتعاطف مع الحُجج التي يقدّمها المسيحيون تبريراً لانتقاداتهم هذه، وفي الوقت نفسه وجدتُ أن كثيراً من أخلاق المسيحيين وقيمهم تعكس إلى حد كبير أخلاق الإسلام وقيمه في ردة الفعل إزاء هذا العصر الجديد. ولذلك لم تكن ممارساتي أنا فحسب كمسلم تتناقض تناقضاً مباشراً مع أسلوب الحياة الجديد هذا، بل كانت ممارسات كثيرين من المسيحيين كذلك أيضاً. أسعدني هذا الاكتشاف. ولكن كان هناك فَرق واحد. فبينما كنتُ أنا ورفاقي المسلمون الذين يلتزمون بشعائر دينهم نلجأ إلى الصحبة حصنَ أمان لنا نستمد منه القوة، كان رفاقنا المسيحيون يقاومون بنشاط في الخارج ويلتحمون بالمجتمع ككل ويقومون بمبادرات لإقناع عامة الناس بأن الكثير من قيم الثقافة المضادة الجديدة تضر بأرواحهم وبالمجتمع على حد سواء. كانت معركة خاسرة بالطبع، فما أن انفتح صندوق الشرّ، لم يكن لأي تحذير أو إقناع أن يعيد غلقه بإحكام من جديد.

كنتُ وزملائي شباباً في مقتبل العمر، ولا أريد أن أظهر بمظهر المدَّعي عندما ألفتُ الانتباه إلى أنه كان يتعين علينا أن نحذر من الانسياق وراء غوايات قوة الجذب الشديدة التي اتسم بها أسلوب الحياة الشعبي الكاسح آنذاك. ولذلك كان ينبغي علينا أن نقوّي أنفسنا، كي لا يجرفنا ذلك التيار، فعزمنا على أن نجتمع معاً كل يوم أَحَد ونُسلّي أنفسنا تسليةً مختلفةً تماماً. فكنّا نتردد على المطاعم والحدائق والمتاحف. كانت هوايات مهذّبة قوّت الروابط التي تجمعنا، وبمرور الزمن اشتد عودها وبذرت فينا بذور شيء أكبر بكثير مما كان أي منّا يستطيع أن يتخيّله في ذلك الوقت. وأعني بذلك أن التطورات التي كان المجتمع يمر بها آنذاك صارت قوة دفع لنا أدّت بنا في نهاية المطاف إلى أن ننشئ لاحقاً جمعية الطلبة المسلمين. ولذلك، صارت حلقات الدراسة المنتظمة كل يوم أَحَد في برنامجهم (التي كنتُ أَدرس فيها بالجامعة في ذلك الوقت) ذات معنى كبير بالنسبة لي، وكانت بداية وعي ازدهر وتبلور لاحقاً في شكل محاولات صادقة من جانبي لأن أجعل العالَم مكاناً أفضل. وها أنا الآن أتذكر بعرفان وفخر كبيرين تلك الأيام الأولى من الصداقة، والوعي المتنامي بالحاجة إلى إنشاء روابط قوة ووحدة بين الناس.

لقاء غيّر حياتنا

"أَخاكَ أَخاكَ إِنَّ من لا أخا لَه   كساعٍ الى الهيجا بغير سلاحِ "

مسكين الدرامي

"الأخُ الصَّالحُ خيرٌ مِنْ نَفْسِك؛ لأنَّ النَّفْسَ أمارةٌ بالسُّوء، والأخُ الصَّالحُ لا يَأمرُ إلّا بِالخيرِ" ابن أبي أصيبعة

كان هشام الطالب شابّاً طويل القامة، دمث الخلق، مرِحاً، يتّسم بخفة ظل محبَّبَة، كثير الابتسام والمجاملة، ذكيّاً مفعماً بالحيوية، وغزير الأفكار، وفوق ذلك كله كان رجُلاً يحب اللهَ وتنبعث منه أصداء تراحم وروحانية. التقيتُ به في كورنوول بعد مرور سنة من وصولي إلى إنجلترا عن طريق زميل من الموصل كان قد دعا هشاماً (وهو من الموصل أيضاً) لتناول طعام العشاء في أحد الأيام. فُتِنْتُ في الحال بصوته الرقيق وتبسُّطه وأريحيته وقدرته على جعل الآخرين يرتاحون له، فقد كان هشام شخصية محبوبة للغاية (وكأنه المعني بقول الرسول ﷺ: "إذا أحب الله العبد نادى جبريل إنَّ الله يحب فلاناً فأحببه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض". ولاحظتُ وراء ابتساماتِه ونكاتِه وطرائفه عقلاً أريباً وحبّاً للعمل الجماعي سرعان ما ينتقل منه للآخرين. لقد لمس إيمانُه وشخصيتُه المتوازنة وقيمه المحافظة شغافَ قلبي، وابتدأت صداقة وأخوة بيننا ما زالت متواصلة حتى الآن.

كان هشام قد جاء إلى المملكة المتحدة في شهر آب/ أغسطس عام ١٩٥٨ لدراسة الهندسة الكهربائية في جامعة ليفربول Liverpool University، وكان قد انخرط قبل مجيئه في العمل الإسلامي في مسقط رأسه في الموصل. وعلى الرغم من أنه كان يكبرني بعام واحد فقط، فقد كانت لديه خبرة كبيرة بالفعل في تنظيم شباب المسلمين،

وكان مُطّلعاً على الكتابات الإسلامية المعاصرة، وعلى سعةٍ ودراية بما يصدر من كتب ومقالات آنذاك.

دُعي هشام إلى لقاء جماعة الأحد في برمنجهام، كما دُعي آخرون، وبلغ عددنا في النهاية خمسة عشر طالباً، ومعظمهم طلاب عراقيون. وكان أعضاء جماعة الأَحَد ينخرطون في مناقشات كثيرة مفعمة بالحيوية، وشعروا بالحاجة إلى اللقاء كشكل من أشكال التحصُّن الأخلاقي، وكانوا يشعرون بالرغبة في أن يفعلوا شيئاً أكبر من مجرد اللقاءات والمناقشات (صار أحد أعضاء الجماعة فيما بعد وزيراً، ومن ثَمَّ عضواً في مجلس الرئاسة في اليمن). كان حماس هشام للعمل الجماعي وحكمته التي شاركنا إياها عاملَ تحفيز لنا. فكنّا ننصت باهتمام شديد لما كان يقوله لنا، وفي المقابل كان ينصت لنا بأدب، وكان يرد على أسئلتنا الكثيرة بعقلانية وبتفاهم، وفي الوقت نفسه كان يغذّي فينا جانب الإيمان الممزوج بالعاطفة الجياشة. أجّج حضورُه خيالَنا، وانقضى المساء بطوله ما بين أسئلة متَّقدة ومناقشات وإجابات مضادة. وبمجرد انصراف الآخرين، طلب هشام مني ومن زميلين آخرين أن نبقى. وواصلنا نقاشاتنا حتى آخر الليل والساعات الأولى من صباح اليوم التالي، دون أن يفكر أي منّا في النوم. هكذا كان الرابط الذي تشكّل في تلك الليلة؛ إذ التقت فيه العقول والرؤى المشتركة، ونبتتْ في تلك الليلة بذرة اتحاد ستُحقّق فيه مشروعات، وستُنشأ فيه منظمات وأنشطة لا حصر لها، أفادت كثيرين على مرّ السنوات والعقود القادمة.

منهجٌ دراسيٌّ كُلّيٌّ

جمعنا القَدَرُ، ويخال إليّ الآن كما لو كان ذلك اللقاء حدث بالأمس. وكان اللقاء الأول في سلسلة لقاءات ممتدة مع هشام على مرّ السنوات. وفي كل تلك اللقاءات، كان هشام يدعمنا بصبر، ويدعم تطور دراستنا ومعارفنا الدينية، وكنّا جميعاً نضع الغاية النهائية نصب أعيننا دائماً، وهي مسؤولية الإنسان أمام الله رب العالمين وخدمته للبشرية. في تلك الأيام الأولى، بدأ هشام يشجّعنا بلطف على أن نشكّل إحساساً بالمسؤولية تجاه الأشخاص الذين يوجدون خارج

نطاق جماعتنا الصغيرة، وهم الطلاب الذين يواجهون التحديات نفسها التي كنّا نعاني منها عند وصولنا. ولكنه كان في الواقع يرفع سقف تطلعاتنا الروحية ويوجهنا لأن نوسّع مداركنا الفكرية باستمرار، ومن ثَمَّ تتطور لدينا المعرفة والسماحة اللتان نحتاجهما نحن -الأفراد- لكي ننمو نموّاً إسلاميّاً. التغيرات الصغرى تؤدي إلى تغيرات كبرى وهائلة، وكان هشام يفهم ذلك فهماً يقوم على الحدس. وبهذا الأسلوب قام بتمكيننا وتقويتنا، فقد تعهد بتنمية قوة الشخصية وقوة الالتزام لدينا، وغيرهما من الخصال والسمات التي كنتُ واعياً ببعضها، وكل ذلك جعلنا نقف على أرض صلبة طوال حياتنا، وجعل أنشطتنا تتوافق مع رؤيتنا، ومع الأهداف التي وضعناها لتحقيق هذه الرؤية. وأدّت تلك اللقاءات المهمة إلى تطويرنا أفراداً وجماعةً، وكان هشام لا يبخل علينا بوقته ولا بعلمه؛ ولذلك أشعر بأنني مدين له بالكثير.

بينما كنّا ننمو فكريّاً، كان هشام لا يكف عن إرسال المزيد من الكتب والمجلات لنا، فدعمتْنا هذه الكتب والمجلات ونحن نسير على الدرب، وعرّفتنا على أفكار ونظريات ومعارف غير تلك التي كنّا ندرسها في المحاضرات، وكانت من المحطات الأساسية على طريق نموّنا بوصفنا أفراداً مسلمين. وبينما كنّا نقرأ وندرس وكان الأساتذة العظماء يتركون فينا بصمات لا تُمحى من خلال كتاباتهم وليس من خلال احتكاكنا المباشر بهم، اكتسبنا في الواقع منهجاً دراسيّاً كليّاً، مما أتاح لنا أن ندرس تخصصين جامعيين في آن واحد، أحدهما علمي متخصص والآخر روحي. وفي أثناء ذلك، اكتسبنا معارف متطورة جداً، وكان علينا أن نطبّق ما اكتسبناه، فطبقناه، ووفَّقْنا بين النظرية والتطبيق والفكر والعمل. ازدهرت معارفنا وتطورنا أفراداً وجماعةً، وبزغت غاية بدأت تتجسد بالتدريج؛ فلم نكتفِ بممارسة ديننا ممارسةً أعمق بكثير مما قبل، بل سعينا سعياً إيجابيّاً لمساعدة الآخرين في المجتمع حولنا، فاكتملت الصورة ما بين الفرد والمجتمع، وما بين الرؤية والأهداف القابلة للتطبيق.

أدرك هشام الطاقات الكامنة فينا. وبعض الكتب التي نصحنا بقراءتها أدّت إلى تغيير مجرى حياتنا، ومنها كتاب ترك فيّ أثراً كبيراً، وهو كتاب "**روح الدين الإسلامي**" لعفيف طبارة؛ فقد ولّد هذا الكتاب لديّ الحاجة إلى شيء أوسع وأشمل وأكثر توازناً؛ إذْ كان يتناول دور العلم في الإسلام ودور المرأة في الإسلام. وكان هذان الموضوعان من الموضوعات المثيرة للجدل آنذاك، كما هو الحال الآن، وكانا نقطة خلاف يصدر عنها التشكيك في الدين، وكانا يشكلان

إلى حدّ كبير الحجة الفكرية التي يستخدمها المتشككون ضد الدين. وكان من المهم جداً أن أصل إلى فهم سديد للإيمان، وأن أُفسح لهذين الموضوعين مكاناً مناسباً في تكويني العقلي والروحي حتى أواصل حياتي بفهم أصيل لجوهرهما، وهو الأمر الذي وسّع الآفاق أمامي في اتجاهين. فمن جانب، انفكّ التعارض المفتعل بين العلم والدين؛ لأن العلم والدين كانا في نظر المسلمين منذ البداية وجهين لعملة واحدة، وليسا على طرفي النقيض. ومن جانب آخر، كنتُ وما زلتُ أقدّر دور المرأة والمكانة العظيمة التي منحها الإسلام إياها، بالإضافة إلى دورها في التاريخ الإنساني.

قد يبدو هذا الكلام من البدهيات للقارئ الآن، ولكننا كنّا شباباً في مقتبل العمر آنذاك، وكنّا نحاول التكيّف مع العالم الأوسع من حولنا، وكنّا مندهشين من كمّ المعارف التي بدأنا نقدّر أهميتها في ذلك الوقت. ولا عجب في أنني كنت أود أن أشارك الآخرين هذه المعرفة، ولذلك كرّستُ جهودي للقيام بهذا الأمر، وكنتُ أدرك أنني أنتقل من مرحلة "السلبية" المتمثلة في النهل من المعرفة للاستفادة الشخصية إلى مرحلة الإيجابية المتمثلة في نقل هذه المعرفة إلى الآخرين. لم أكن أدرك ذلك آنذاك، لكنْ ما تعلمتُه من هشام ومن الكتب التي كنتُ أقرَؤها أوقد فيّ شعلة العمل المجتمعي التي قادتني إلى عدة اتجاهات مهمة فيما بعد؛ فعلى سبيل المثال، حصلتُ بعد سنوات على إذْن من أصحاب حقوق النشر بترجمة كتاب "روح الدين الإسلامي" من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية حتى يمكن لهذا الكتاب أن يكون سبباً في تطور الآخرين على المستويين الفكري والروحي.

جامعة برمنجهام University of Birmingham

كنتُ آنذاك في كورنوول. وعلى الرغم من كثرة الأنشطة التي كنتُ أقوم بها بعيداً عن مجال دراستي، فإنني تفوقتُ في كُليتي في كورنوول، وحصلتُ بعد فترة قصيرة على قبول في جامعة برمنجهام، ونجحتُ في أربعة مقررات دراسية من مقررات المستوى المتقدم مع أن المطلوب كان

النجاح في ثلاثة مقررات منها فقط. كانت كورنوول في الجنوب، في حين أن برمنجهام كانت في وسط إنجلترا في منطقة تُعرف باسم الأراضي الوسطى Midlands. كان المكان مختلفاً تماماً، فهو يقع في قلب الثورة الصناعية في بريطانيا، وكانت المدينة تُعرف في وقت من الأوقات بأنها رائدة صناعة المنتجات المعدنية في العالم. ولكنّ القليل من يعرف أن برمنجهام مدينة تزخر بالمكتبات والجامعات والمتاحف، وتشتهر باختراعاتها ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر: الكاميرا، وجهاز الأشعة السينية، وآلات تصوير الورق، ومقياس الطيف الكُتْلَوي، والمكنسة الكهربائية، وفرن الميكروويف، وأول كمبيوتر في العالم.

إن تاريخها حافلٌ بالابتكار في مجالي الصناعة والعلوم؛ ودليل هذه المكانة العلمية المتوارثة أن برمنجهام في عام ٢٠٠٠ قدَّمت ٢٨٠٠ براءة اختراع من بين ٤٠٠٠ براءة اختراع مسجلة في المملكة المتحدة. وقال بيتر كوجليت من مكتب براءات الاختراع: "تُدهشنا برمنجهام كل عام بتقديم آلاف الاختراعات. من المستحيل تفسير ذلك، ولكن يبدو أن الناس في تلك المنطقة لديهم قدرة عجيبة على توليد الأفكار وتكريس أنفسهم لتوليدها". وقد وردت هذه التفاصيل وغيرها في مقال بعنوان "لماذا برمنجهام أمُّ الاختراع"، في صحيفة التليجراف بتاريخ ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠٠٠. إن برمنجهام مدينة العقول والأفكار، وكانت مكاناً مثاليّاً أواصل فيه دراستي العليا.

كانت مكتبة جامعة برمنجهام تحتوي كنزاً معرفياً حضارياً فريداً يُسمّى "مجموعة منجانا Mingana لمخطوطات الشرق الأوسط". واقتنت المكتبة هذه المجموعة حتى ترفع مكانة برمنجهام بوصفها مركزاً فكريّاً للدراسات الدينية. وتتكون مجموعة "منجانا" مما يربو على ثلاثة آلاف مخطوط من مخطوطات الشرق الأوسط بأكثر من عشرين لغة، منها العربية، والسريانية، والإثيوبية، والجورجية، والعبرية، والسومرية، والأرمنية. وقام ألفونس منجانا Alphonse Mingana (١٨٧٨-١٩٣٧) باقتناء هذه المجموعة الفريدة والثرية في عشرينات القرن العشرين، وهو قسيس كلداني وُلد بالقرب من الموصل واستقر في إنجلترا.

لكم أن تتخيلوا مدىٰ اندهاشي وسروري عندما عرفتُ أن هذه المجموعة من المخطوطات أصلها من العراق ومرتبطة أيضاً بالموصل مسقط رأس هشام، وربما كان هذا أحد الأسباب التي دعتني للإشارة إلىٰ هذه المجموعة.

كانت روحي وعقلي في حاجة إلىٰ الانتعاش، وكانت برمنجهام مدينة العلوم والدراسات الدينية أرضاً خصبة، فوجدتُ نفسي محاطاً بحدائق شذية وجميلة ومناظر طبيعية بديعة من مزارع ووديان وتلال وحقول. كما أنها كانت مدينة حضرية تتجلّىٰ فيها قدرتها الصناعية القديمة، بما فيها من مصانع ومبانٍ مصنوعة من القرميد، وقنوات الماء التي ربما يفوق عددها قنوات الماء في مدينة البندقية، ولكنها قنوات تُستخدم هنا في مجال الصناعة وليست للترفيه. كنتُ محظوظاً للغاية ومُوفّقاًمن الله، لأنني وجدتُ سَكناً لي داخل الحرم الجامعي، إِذْ كان السكن الجامعي لا يستوعب إلا ثلاثمائة طالب من بين أربعة آلاف طالب يدرسون في الجامعة.

شهر رمضان

استقر بي المقام في برمنجهام بسهولة، وتشكلتْ عاداتي في العمل والعبادة والدراسة رويداً رويداً. كانت وجهة نظري الشخصية ما زالت في طور التشكُّل، واحترمتُ الطلاب الذين كانوا يسْعون جاهدين للمساعدة المتبادلة في العلم. ولاحظتُ أن الطلاب الذين كانوا معي يمثلون نموذجاً لفهم أوسع لخدمة الدعوة. ومن جوانب النمو والتطور اللذين مررنا بهما نتيجة المنهج الدراسي المتوازن والكلّي أن يُولّد فينا وعيٌّ بالغاية التي نسعىٰ لتحقيقها، فلم تقتصر هذه الغاية علىٰ تعلُّم الدين أو الحفاظ علىٰ المؤازرة الداخلية السائدة في مجموعتنا فقط.

لقد ارتقىٰ وعينا بذاتنا وبالآخرين، وتعاظم إحساسنا بالمسؤولية الفردية تجاه ذاتنا وتجاه مجتمعنا، وارتقينا من مرحلة بناء الذات إلىٰ بناء المجتمع؛ لأننا صرنا نفهم أن الحياة الروحية تكمن في إحساسنا بالمجتمع وفي مسؤوليتنا تجاهه وتجاه كل البشر،

وليس تجاه جماعة تنغلق على نفسها، لتحافظ على نفسها ومصالح بقائها. ولذا درسنا الأمر بدقة وعناية. ومع أننا كنّا جماعة صغيرة من الطلاب المسلمين، بدأنا تطبيق المعارف النظرية وممارستها، وعرضنا مساعداتنا على أناس خارج نطاق دائرتنا، لا سيما بعض الطلاب البريطانيين المسلمين وغير المسلمين ممن كانوا يواجهون صعوبات في دراسة مادتي الكيمياء والفيزياء.

١٩٦١. جامعة برمنجهام بالمملكة المتحدة. لقاء مع الطلاب غير المسلمين.

بالطبع كان ذلك مخاطرة من جانبنا، ولكنها مخاطرة أفادتنا كثيراً. وحدث شيءٌ عجيب عندما امتدت دروبنا بهذه الروح الإيجابية نحو غيرنا. فعندما مددنا يد المساعدة إلى زملائنا البريطانيين، مددنا في الواقع يد الصداقة، فكوّنا علاقات تقوم على أصدق الروابط، وهي الثقة.

وحدث كل ذلك عندما كان شهر رمضان على الأبواب. كنّا نُعد وجبات السحور والإفطار، وبعد الإفطار والصلاة كنّا ننهمك في المذاكرة حتى آخر الليل. وكان زملاؤنا البريطانيون يرون كل ذلك شيئاً مميزاً، وأعجبهم نظامنا والتزامنا. دعوناهم لتناول الإفطار معنا، وطهونا لهم أطعمة شرق أوسطية مثل الأرز والدجاج، وجهز الطلاب من جنوب آسيا وشرقها وجبات يُستخدم فيها الكاري والبرياني. وكانت رائحة الطعام المميزة تنتشر عبر سكن الطلاب في الحرم الجامعي ليلة وراء ليلة، فتملأ الهواء برائحة خليط منعش من التوابل الشرقية. ولكي نعرف كيف أسالت هذه الروائح لعاب البريطانيين، علينا أن نتذكر أن التوابل والثوم وزيت الزيتون كانت أشياء غريبة على النظام الغذائي البريطاني في تلك الأيام، وكان من أسباب ذلك ما سببته الحربان العالميتان من دمار. ومع ذلك كنّا ما زلنا نحب الأكلة البريطانية المشهورة سمك وبطاطا Fish and Chips، وأظن أنهما لم يحظيا بما يستحقانه حتى يومنا هذا.

كان شهر رمضان مباركاً فعلاً، فبمرور الأيام توثقت عُرى الصداقة، وتشكّلت جسور تصل ما بين الأديان والثقافات، ولم تفرق ديانة شخص أو ثقافته ونحن نجلس ونستمتع بوجودنا معاً، ونأكل ونشرب معاً، ونناقش شتى الموضوعات ونحن نستمتع بالطعام الجيد والصحبة الطيبة. فكنّا نبسط يد الراحة ويؤنس بعضنا بعضاً، وهو الأمر الذي عمّق الروابط بيننا. ومرت أيام رمضان سريعةً.

إجازة عيد الميلاد "الكريسماس: Christmas"

وجاءت مفارقة الكريسماس. كان الكريسماس للبريطانيين وقتاً تزداد فيه الروابط الاجتماعية وتلتقي فيه العائلة والأصدقاء ويستمتع الجميع فيه بوقتهم. أمّا نحن -الطلاب الوافدين- فلم ننعم بوقت "نمرح فيه"، فقد أغلقت الجامعة أبوابها طوال فترة إجازة الكريسماس، واختفى كل طالب في سكنه، وشعر جميع الطلاب الأجانب بوحدة لا تطاق. كان كثيرون منا صغاراً جداً في السن، بعيدين عن عائلاتهم لأول مرة في حياتهم، مما زاد إحساسهم بالعزلة. ولكن المرء بيده أن يتدثر بعباءة البؤس أو ينفضها ويستمتع بوقته. واخترنا الخيار الثاني، وقررنا أن ننظّم برنامجاً في ليفربول مدته أسبوع للطلاب المسلمين الأجانب حتى نرفع من حالتنا المعنوية.

كان ذلك البرنامج بديلاً ترفيهيّاً وتعليميّاً لأيام الفراغ الطويلة التي كان كثيرٌ من الطلاب المسلمين يشعرون بها. وعندما أتأمل الماضي، أشعر بالفخر من قدرتنا على ابتكار مثل هذه البدائل. فما أن قررنا أن نبتكر شيئاً، حتى فعلنا ذلك بعزم وحماسة، ليكون تجربة جديرة بالاستمتاع والتذكُّر. ولذلك انغمسنا في المشروع باستمتاع كبير، ووضعْنا برنامجاً للعطلة اشتمل على أنشطة متنوعة تناسب ذوق كل شخص بأقصى ما في استطاعتنا، فنظّمنا المحاضرات الهادفة، والفقرات الترفيهية، ومارسنا التمارين الرياضية الجماعية، وخرجنا في نزهات، وأدّينا صلوات جماعية. كما جهزنا وجبات عربية للطلاب الذين كانوا يفتقدون الوجبات المجهزة في المنزل. وأقمنا المخيم في مكان متواضع، وهو مسجد الزاوية العلوية للحاج علي حزام من اليمن -رحمه الله-

في مدينة ليفربول التي يدرس فيها هشام الطالب. ومع أن المكان متواضع، فإنه كان يقع في موضعٍ رائع للغاية، مقابل كاتدرائية من أكبر كاتدرائيات بريطانيا وأوروبا.

أرسلنا دعوات رسمية بالمكان والتاريخ (كريسماس ١٩٥٩)، ولبّى أربعون طالباً الدعوة، وكان البرنامج زاخراً بالمحاضرات والصلوات والأنشطة الجذابة، وشارك كل فردٍ من الحضور بهمّة ونشاط. وكان البرنامج حافلاً حتى إن جميع الطلاب لم يغادروا المسجد طوال اليوم، وأقمنا مواضع للمبيت بحيث يستطيع كل المشاركين المبيت في أرض المسجد معاً. ورتّبنا كل شيء ببراعة بحيث يتولى كل طالب مسؤوليةً ما، مثل تجهيز الطعام والنظافة والتنقل والمحاضرات والصلوات والمسابقات والألعاب والزيارات والأنشطة الأخرى، وسارت الأمور على ما يرام، بل فاقت ما كنّا نتوقعه، ومما زاد من قيمة النشاط أننا ربطنا النظر بالعمل والفكر بالواقع والحلم بالمُمكن. لذلك كنّا أثناء تناول الطعام وممارسة الأنشطة والتجهيز للنوم ننخرط في نقاشات ومناظرات وأنشطة فكرية. وكانت الأسئلة التي طُرحت في أثناء ذلك تدور حول التحديات الأخرى التي تواجه الطلاب المسلمين.

عندما أقف الآن خارج الدائرة وأتأمل الماضي من نافذة الحاضر، تتبدى عظمة هذا التَّراحم، وهذا التجمع بروح الأخوّة، وهذا الإظهار للوحدة، وتوحيد الجهود، وفرصة النقاش الحُر المنضبط، والمناظرة، والتعلُّم. كل ذلك كان يشكّل شخصيتنا، ويعلمنا كيف نتواصل مع الآخرين، ويبدد مخاوفنا الناتجة عن كوننا أقلية في بلد ليست بلدنا، ويقوي عزيمتنا على التماسك الجماعي، ما يجعل إحساسنا بالهدف أكثر أُلفة وواقعيةً. وكان هناك سؤالان تتمحور حولهما كل أنشطتنا، وكل ما تمخض عنها من نقاشات: كيف نعبد الله عبادةً أفضل؟ وكيف نقوم بالدعوة إلى الله بطريقة أمثل؟

هدانا الله إلى الطريق الصحيح، فكان يُعلمنا دون أن ندري ذلك ساعتها، وكان يهدينا إلى إدراك إمكاناتنا وقدراتنا، وهدانا إلى الشعور بوحدتنا حتى نستطيع أن نتعلم كيف نجتمع على الخير، وكل ذلك يتضح لي بجلاء الآن، فلا أملك إلا أن يفيض قلبي بشكر الله.

كنّا ندرك ضرورة إيجاد منفذ عملي نطبق فيه ما تعلمناه وما طوّرناه تطبيقاً يلمس الواقع كما يعيشه المجتمع، حتى يكتسب تعلمنا وتطورنا معنى حقيقيّاً. وهنا يكمن الرضا الحقيقي، فكانت هذه قضيتنا الأخلاقية الحقيقية؛ لأننا كنّا نهتم بالناس اهتماماً أصيلاً. وعلى الرغم من انغماسنا بالأنشطة الفكرية والروحية والمعرفة الدينية لما لها من أهمية في بنائنا الفكري والروحي، إلا أننا لم نكتفِ بهذا، بل مزجنا ذلك بالسعي لعمل جماعي يحقق مصلحة الجميع ويؤثر في العالم الخارجي؛ لأننا أدركنا أن العالم يتسم بالضعف والحاجة. وكان الطلاب يعرضون مشاكلهم وما يُقلقهم في تلك اللقاءات المبرمجة والعفوية، فكانت ملاذاً لهم يتخلصون فيه مما يُثقل قلوبهم. كما كانت هذه اللقاءات ملاذاً للتعلُّم المكثّف، فانخرط الجميع انخراطاً تاماً في أنشطة متنوعة وعلى مستويات عدة، وناقشنا كيف نجتهد، وكيف نُخرج أفضل ما فينا، وكيف نتطور ونُحسّن أداءنا، وفي الوقت نفسه نحافظ على التوازن ونتفوق في حياتنا المعاصرة. كانت مناقشات جادة، وكانت مشاركتي فيها من العلامات الفارقة في حياتي.

إنشاء مَدْرَسَة للجالية المسلمة

كل تلك اللقاءات والأحداث وتنظيم الأنشطة كانت انعطافاً في دروب التعلُّم التي سلكناها، فاكتسبنا خبرات لا تقدر بثمن، كما أننا جنينا ثمار ذلك في اتجاه لم نكن نتخيله عندما وصلنا إلى إنجلترا لأول مرة. فعلى مستويات عدة، حققنا الكثير من العلامات الفارقة التي لا يمكن وصفها؛ لأن هذا الوصف سيختزل إحساسنا ساعتها بالنضج والقوة والوجود والمجتمع والتفاؤل. ولا يمكن لكل هذا أن يُقاس بالأرقام، ومع ذلك رأينا أنه من الأفضل أن نراجع ما أنجزناه حتى ذلك الوقت ونسعى للوصول إلى ما هو أفضل منه بالتخطيط الجيد للمستقبل.

أدركنا أننا لا بد أن نؤسس مدرسة تخدم الجالية المسلمة من المهاجرين، فعقدنا النية على أن ننفذها، وكل ما كنّا نحتاجه هو الأرض لبنائها. ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن بسبب التركيبة الثقافية والعرقية الواسعة والمتنوعة للجالية المسلمة التي تعيش

في برمنجهام. ومن ضمن الجاليات المهمة التي كان علينا أن نضعها في الحسبان آنذاك الجالية البنغالية، والجالية اليمنية. التقينا بسهيل الرفاعي من سوريا في جامعة برمنجهام، وكان قد سبقني إلى الدراسة بعام واحد، وكان يدرس الهندسة الكيميائية، وتناقشنا في مقترحات المكان الأفضل لبناء المدرسة، وقررنا في النهاية أن تكون المدرسة في الحي الذي يسكنه المسلمون البنغال.

اتضح أن ذلك الخيار كان أفضل خيار لسببين: أحبّت الجالية اليمنية مشروع المدرسة كثيراً لدرجة أنهم بادروا بإنشاء مدرسة في منطقتهم، واقترحوا إنشاء برنامج دراسة يوم الأحد في أحد المساجد اليمنية. فكما يقول المثل البريطاني: "من صغار الجوز تنبت أشجار البلوط الهائلة". ومع أن ما قمنا به لا يمكننا وصفه بأنه "هائل"، إلا أننا شاهدنا الفسيلة التي غرسناها تنمو وتثمر.

كان الشيخ محمد قاسم -رحمه الله- إماماً عظيماً في أوساط الجالية اليمنية في برمنجهام. وعندما علم بما حققتْه أنشطتنا من نجاح في مسجد الزاوية العلوية في ليفربول دعانا إلى المركز الذي يُعلِّم فيه القرآن والصلاة والموضوعات الإسلامية الأخرى. وكنّا نطبق البرنامج ذاته الذي كنّا ندرّسه في مسجد الجالية اليمنية.

اشتهر البرنامج في أوساط الجالية اليمنية، ووجدنا أنفسنا نقوم بالتدريس حتى للأطفال الصغار المتحمسين. وكان هؤلاء الأطفال من الجيل الثاني من المهاجرين، ولذلك حرصنا على تحسين مهاراتهم في القراءة والكتابة، وحتى في نطقهم للعربية، وفي قراءة القرآن. ومن ثمّ اتخذ وجودنا وخدمتنا الدعوية أبعاداً أهم بكثير مما كنّا نتخيل، وسرعان ما توسعت المدرسة لتستوعب أربعين طالباً، ثم ثمانين، ثم مائة وعشرين بعدها.

وكلما زاد عدد الطلاب وتوسعت مدرستنا الصغيرة، توسعنا في مجال الموضوعات التي نقوم بتدريسها، فلم يقتصر التركيز على اللغة، بل توسع لتعليم الأطفال مبادئ

الدين وبعض الأناشيد والابتهالات الإسلامية. وكنّا نرى ذلك إنجازاً كبيراً، لأننا كنّا نلبّي الاحتياجات الكبرى للجالية المسلمة. وفي أثناء ذلك تمكنّا من أن نمد نطاق مساعدتنا ليتجاوز مجال الطلاب الذين كانوا محط اهتمامنا حتى ذلك الوقت. ولم نتوقف عند ذلك الحد، فطوَّرنا منهجاً دراسيّاً شمل شرائح جديدة من المجتمع، مما فعّل مفهوم العمل الجماعي بل حتى الوعي الجماعي؛ فقد دعم كثيرون من الآباء والأمهات جهودنا وتعاونوا مع أفراد كثيرين من الجالية المسلمة. وأدّى تضافر الجهود والموارد إلى تحوُّل الجزر المسلمة المنعزلة إلى جماعة واحدة كبيرة تلبي الاحتياجات المشتركة، وتحقق الأهداف العامة، وكانت طريقة التفكير والتصور الجديدة والمتوسعة دافعاً لنا في كل ذلك.

الاحتفال بالعيد في عالم مختلف

"عيدٌ بِأَيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ" المتنبي

كانت حياتنا في المملكة المتحدة تعني أننا بعيدون عن الوطن وعن عائلاتنا، وعن الأحداث الجارية في المشرق العربي. ولاحظنا أن المملكة المتحدة صارتْ وطناً لبعض أعضاء الجالية المسلمة، وأنهم استطاعوا التكيّف مع الحياة تكيُّفاً معقولاً، في حين أن آخرين كانوا يجدون صعوبة بالغة في تحرير أنفسهم من بيئة المشرق، وطريقة تفاعلهم مع الحياة هناك بما يكفي لأن يعيشوا حياتهم بشكل كامل في المملكة المتحدة، وشهدنا مثالاً على ذلك في العيد.

العيد وقت أحاسيس غامرة؛ لأن الاحتفال يعزز الروابط بين العائلات والأصدقاء والناس، وينمّي الإحساس بالمجتمع والانتماء أيّاً كان المكان الذي نوجد فيه. وهو وقت فرحة وسعادة، مثل كل المناسبات الكبرى، ولكننا فكرنا في عدم الاقتصار على الاحتفالات، فقررنا أن نستثمر فرصة حلول العيد في دعوة أصدقائنا غير المسلمين، ليشاركونا فرحتنا، وليتعرفوا على الإسلام.

ألقى الشيخ قاسم -من مسجد الزاوية العلوية- خطبة ممتازة عام ١٩٦١، ولكنه اختتمها خاتمةً غريبةً لم نكن نتوقعها، وأوقعنا في حيرة. فعلى الرغم من أننا كنّا نحتفل بالعيد في المملكة المتحدة، فقد دعا الله أن يبارك في الزعيم اليمني آنذاك الإمام حميد الدين وفي قوات الإمام البرية والبحرية وأن ينصره في حربه. وهي الحرب التي أطاحت فيها القوات العسكرية اليمنية -مدعومة بالرئيس المصري جمال عبد الناصر- بالإمام حميد الدين الذي كان يحكم اليمن الشمالي. وعلى الرغم من أن ذلك الحدث كان حاسماً في تاريخ المنطقة كلها؛ لأن العالم كله كان ينظر إليه بعين الاهتمام، فإننا كنّا نشعر بأنه لا علاقة له بالمقيمين في المملكة المتحدة الذين لا يعيشون في اليمن. إن إدخال السياسة في دعاء لا علاقة له بالواقع الذي كنّا نعيشه في بريطانيا، وفي يوم عيد كنّا نشارك جميعاً في الاحتفال به، فتح أعيننا على مسألة خطيرة.

الخطب الدينية باللغة الإنجليزية لأول مرة

مع ذلك، ألقى الشيخ قاسم خطبةً استمتعنا بها واستفدنا منها. وعندما هنأناه، اقترح علينا اقتراحاً لم نكن نتوقعه، قائلاً: "لماذا لا تُلقي خطبة العيد التالية، يا أحمد؟" كانت دعوة كريمة منه. ومع أنني أحسستُ بأن ذلك ثناء عليّ، قلتُ على الفور من دون تفكير كلاماً مفاده إنني أقدّر هذا الشرف الذي تمنحني إياه، ولكن من الأفضل أن ينال هذا الشرف طالبٌ أكبر مني سِناً. ولكن الشيخ قاسم أصرَّ على أن أُلقي الخطبة بنفسي. ولم يكن بإمكاني أن أرفض، فوافقتُ واقترحتُ أن ألقيها باللغتين العربية والإنجليزية. كان كثيرٌ من الحاضرين، وخاصة الأولاد الذين يمثلون الجيل الثاني من المهاجرين، لا يعرفون اللغة العربية، لذلك شعرتُ أنه من الصواب أن أخاطبهم بلغتهم الأم؛ أي باللغة الإنجليزية. وكانت الخطبة التي ألقيتُها بلغتين أول خطبة عيد في تاريخ برمنجهام تُلقى بلغتين، باللغة العربية أولاً، ثم باللغة الإنجليزية. ويُسعدني أن أقول: إن هذا الأسلوب صار عادة استمرت بعد ذلك. واكتشفتُ أن ذلك مهم جداً لأي مسجد في أية مدينة في المملكة المتحدة. وكان رد الفعل إيجابيّاً

للغاية. فالأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، وحضروا الخطبة بالإنجليزية قدّروها كثيراً، وأدّت الخطب اللاحقة إلى مجيء المزيد من الناس الذين كانوا يريدون التعرّف على الإسلام.

في خدمة الدعوة

اتضح لنا بمرور الوقت أن الأنشطة والمحاضرات والبرامج التعليمية التي ابتدأناها كانت تؤتي ثمارها بسرعة، وكانت تسير على ما يرام، وتطورت الأمور بشكل رائع. ولكننا في الوقت الذي كنّا نشعر بالنجاح الهائل الذي تحققه جهودنا، واجهنا تحديات جديدة. على سبيل المثال، في ذلك الوقت اعتنق أناس كثيرون الإسلام، وصاروا جزءاً من الجالية المسلمة، وكانوا في حاجة لأن يتعلموا المزيد عن دينهم، ومن ثمَّ كان على الجالية أن تدعمهم. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أُدركُ فيها أن عملنا الجماعي يتطلب منّا أكثر مما كان بإمكاننا القيام به. لقد انهمكنا في إلقاء الدروس وفي تنفيذ المشروعات، واستنفد ذلك كل وقتنا وطاقتنا، لكن لم يكن بوسعنا أن نتجاهل احتياجات الآخرين. وهنا جلست مجموعة منّا لتدرس هذه المسألة من جميع جوانبها، وتوصلنا إلى قرار تاريخي؛ إذ تولّد شيء داخلنا، وقررنا أن نكرّس أنفسنا لخدمة المحتاجين إلى مساعدتنا. ومع أنني أقول هذا بكل بساطة وفي جملة عابرة، إلا أنني لا أريد أن يؤخذ الموضوع ببساطة. فقد كان ذلك في الواقع هدفاً تاريخيّاً غيّر حياتنا؛ لأنه تضمّن تقويماً لمكاننا في كون الله، و تأكيداً لطبيعتنا الإنسانية بصفتنا خلفاء في الأرض، وتأكيداً للمطلوب منّا في هذا الصدد، ابتغاءً لمرضاة الله وحسن الثواب في الآخرة؛ إذ هو أفضل من أية مكاسب دنيوية.

وتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغيرٌ وَفِيكَ انطَوى العَالَمُ الأَكْبَرُ

صارت خدمة البشرية أولويتنا، وصرنا نقدم يد العون لمن يحتاج إلى مساعدتنا. وبعد أن شهدنا بأنفسنا المكاسب الكبيرة التي يمكننا أن نحققها بخطوات قليلة، أدركنا أننا بمجرد أن نطلق العنان لهذا الشغف بالخدمة التي تبتغي وجه الله فلن

يتوقف شغفُنا أبداً. وأؤكد هنا من جديد على أن ذلك لم يكن مجرد إحساس عابر، فقد كنا نقصد ما نقوله. وحتى نتعامل مع الموقف بحكمة، قرر كثيرون منا أن يؤجلوا حياتهم المهنية، واخترنا بدلاً من ذلك أن نضحي بساعات كثيرة من أوقات نومنا حتى نكون أهلاً للتحديات التي تواجهنا ونلبي احتياجات الجالية المسلمة التي كانت في تزايد وتنام متواصل. وكانت هذه تجربة فارقة في حياتي، تجربة غالية لا يمكنني أن أفرط فيها أبداً.

على الرغم من صغر حجم مسجد برمنجهام، فإنه كان يستوعب سبعين مصلّياً مرةً واحدةً، وكان ذلك يكفي حاجتنا. وطورنا المسجد حتى يستطيع أن يخدم المجتمع خدمة أفضل، فجعلناه مكاناً للصلاة وللعمل الجماعي الإيجابي. وتزايدت أعداد المصلين، وتطور فهم الناس للإسلام وتطورت ممارستهم له. لم يكن المعتنقون للإسلام حديثاً هم الوحيدون الذين يحتاجون إلى الدعم في الجالية المسلمة، فكان كبار السن والأطفال يحتاجون أيضاً إلى الدعم، وهنا أدركنا أهمية توسيع وعينا باحتياجات الجميع. فوسّعنا دعمنا حتى يلبّي كثيراً من الاحتياجات والقضايا الأخرى الناشئة. على سبيل المثال، كنّا نوفر مواصلات للأطفال كي ننقلهم كل يوم أحد من بيوتهم إلى المسجد حتى يتلقوا دروساً عن الإسلام. وتكاتفت الجالية كلها، ليقدم كل مسلم ما يمكنه من مساعدة. وعندما طلبنا من كبار السن الدعم المالي والنصائح المفيدة لأنشطتنا، لم يترددوا قط في دعمنا ونصحنا. في الواقع، لم يكمن نجاحنا في توفير المواصلات والدعم الإضافي والأنشطة، بل في الوعي بالهدف والخدمة العامة اللذين كانا يوجهان كل أفراد الجالية، ليتكاتفوا في سبيل تحقيق مبدأ الخدمة وجعل هذا المبدأ جزءاً من تكوينهم.

الصلاة في كنيسة

تزايد تفاني الجالية وتزايدت أعدادها، كما تزايد عدد الطلاب المسلمين الذين جاءوا للدراسة في جامعة برمنجهام. ومع تزايد أعداد الطلاب المسلمين، كانت هناك حاجة ماسة إلى مكان يستوعب أعداد المصلين في صلاة الجمعة. وكان المبنى

الوحيد الذي يستطيع أن يستوعب أعدادنا المتزايدة هو كنيسة مشتركة بين الأديان في الجامعة. وعرفنا أن الكنيسة تكون في العادة فارغة يوم الجمعة، ولذلك التقينا بكبار رجال الكنيسة واستأذناهم في أن نستخدم مبنىٰ الكنيسة. وسمحوا لنا بأن نحجز وقتاً في الكنيسة لأداء صلاة الجمعة. وخصصوا لنا ساعتين في الأسبوع؛ ساعة للصلاة وساعة نلتقي فيها بعد الصلاة. وكنّا ممنونين لهم للغاية، فقد كانت بادرة سمحة منهم، وشعرتُ بقوة الرباط الذي يربط الديانتين السماويتين.

لكنَّ طريقنا لم يكن مفروشاً بالورود، فقد واجهتنا مشكلة، وكان علينا أن نجد لها حلًّا سريعاً يُرضي جميع الأطراف، وهو الأمر الذي تطّلب منا الصمود، وتسيير دفة سفينتنا بحذر مراعاةً لحساسية الموقف. وعندما أتذكر الموقف الآن يتضح لي أن بعض الأشياء ليست سهلة علىٰ الإطلاق، وتتطلب فكراً راسخاً وسلوكاً هادئاً حتىٰ ينظر المرء في حلول للمشكلات، ولا يتوقف عندها، وهذا الأسلوب يصنع المعجزات. تساءل بعض المسلمين عمّا نقوم به، وشكك بعضهم في جواز الصلاة في كنيسة، ولا يمثل ذلك إهانة من جانبهم لإخوتنا المسيحيين، بل يدل علىٰ أن فكرة المسجد متجذّرة في عقولهم لدرجة أنه بدا من الغريب لهم أن يفكروا خارج نطاق هذه الفكرة. وكان علينا أن نتعلّم أن تلك الاستفسارات ستحلُّ كثيراً من الأسئلة والمآزق المستقبلية التي تواجه المسلمين الذين يعيشون في دول ذات أغلبية غير مسلمة. عرضنا القضية علىٰ عدد من علماء المسلمين، وجاء التوفيق بأنْ أفتونا بجواز صلاة المسلمين في الكنائس.

في الوقت نفسه، حصلنا علىٰ فتاوىٰ تخصُّ مجموعة من القضايا الأخرىٰ التي طرأت علينا. علىٰ سبيل المثال، سرعان ما ظهرت قضية اللحم الحلال في دولة غالبيتها غير مسلمة، وهي قضية ما زال حولها خلاف حتىٰ الآن. وبعيداً عن أهل الكتاب، هل يجوز للمسلمين أن يأكلوا طعام غير المسلمين (باستثناء الطعام المحرّم بالنصّ في القرآن الكريم، أي لحم الخنزير والخمور، وما أُهلّ به لغير الله، ولحم الضواري والجوارح، وكل ذي ناب إلخ)؟ من هُم أهل الكتاب في هذه الحالة؟ شعر بعض المسلمين أن اللحم حلال، في حين أن غيرهم رأوه حراماً. واختلف العلماء في هذه القضية، وقال بعضهم:

إن اللحم الذي يذبحه المسلمون فقط هو الذي يجوز أكله. وكان علينا أن نعلم أن مثل هذه التحديات ستواجه المسلمين الذين يعيشون في بعض الدول الأوروبية وأمريكا الشمالية وفي الغرب بوجه عام. كما واجهتنا مجموعة من القضايا الأخرى لاحقاً، بما فيها قضية تحديد بداية شهر رمضان وجواز زواج المسلمين من غير المسلمين. كانت كل قضايا المسلمين في بلدان جديدة تحتاج إلى فقه جديد يناسب احتياجاتهم. ومع أننا لم نكن نستخدم ذلك المصطلح آنذاك، كنتُ أرى أننا نحتاج إلى فقه للأقليات، وهو مصطلح ومفهوم تبلور بعد ذلك بعقود، وكُتبتْ عنه الكتب وعُقدت حوله المؤتمرات.

حل قضية حرجة: العزلة أم الاندماج؟

اتسم عملنا الجماعي بملمح ثابت، وهو صنع القرار والتشاور حول كوننا أقليات في دولة ذات غالبية غير مسلمة، وحول الأعمال التي تناسبنا بوصفنا مسلمين مستقيمين وأعضاء في مجتمعنا الجديد. كان علينا أن نتوصل إلى حلول لمختلف القضايا، ولكنني أود هنا أن أسلط الضوء على قضية واحدة، وأثير الأسئلة الآتية: هل ينبغي علينا أن نعزل أنفسنا عن المجتمع غير المسلم حولنا، ونعيش حياة منفصلة في معظم الأوقات؟ أم ينبغي علينا أن نتفاعل مع أفراد المجتمع الأكبر حولنا ونندمج فيه بشكل عملي؟

قادنا حدسُنا إلى أن نستوعب قضية ستثير الجدل بعد عقود من الزمان في المملكة المتحدة، وفي مختلف أنحاء قارة أوروبا بأكملها، وصارت في السنوات الأخيرة من أهم نقاط الخلاف الخاصة بوجود المسلمين في الدول الغربية. وتحكُم هذا الجدل الآن قضيةُ التطرف وقضية الراديكالية، فيُتَّهَم المسلمون بأنهم ينعزلون في جالياتهم بدلاً من أن يؤمنوا بمبدأ التعددية الثقافية داخل الثقافة الغالبة. وصارت هذه القضية برمتها قضية معقدة، ويذهب بعضهم إلى أن الحكومات الغربية ووسائل الإعلام والخطابات الثقافية بوجه عام تميل إلى التركيز على الراديكالية ومواجهة الإرهاب بدلاً من مساعدة الأفراد والجماعات على أن ينجحوا في الاندماج في مجتمع متسامح عرقيّاً وثقافيّاً ودينيّاً. يشعر المسلمون أنهم معرضون للخطر ويخشون التعرض

لعمليات انتقام عرقي في كل مرة يحدث فيها حادث مأساوي تُوَجَّه فيه أصابع الاتهام إلى الجالية المسلمة ككل، وليس إلى بعض الأفراد المجرمين. هل حاولت الجاليات المسلمة والحكومات الغربية من جانبها محاولةً جادة بما يكفي لأن تتناول قضيتي الراديكالية والاندماج؟ هل هناك إقصاء اجتماعي يمكننا أن نحمّله جزءاً من المسؤولية عن ذلك؟ وما زال الجدل مستمراً.

تمكّنّا في تلك المرحلة المبكرة من أن نضع في دائرة الضوء عوامل التقاليد والثقافة التي تواجه الجاليات المهاجرة، وانطلقنا من هذه النقطة لنؤكد على أهمية أن ننحت لنا هوية تتضمن اندماجاً إيجابيّاً مع سكان البلد الأصليين، ولكن دون ذوبان وفقدان لهويتنا الإسلامية. وكنّا نعرف أننا عندما نقوم بذلك لن نبدو الآخر الغريب الذي يمثل مصدر تهديد ثقافي واجتماعي، بل سنبدو أعضاء مندمجين في المجتمع كله. ولذلك اخترنا طريق الاندماج بعد نقاشات ومداولات كثيرة، ونظرنا إلى الناس من حولنا بصفتهم مضيفين جديرين بكل الاحترام. بالطبع كانت القضية حرجة في ذلك الوقت، ولكن خفّت وطأتها كثيراً مع ظهور أجيال مسلمة جديدة في المملكة المتحدة وفي الغرب عموماً، ومرت هوية أبناء الأجيال الجديدة بتغيرات، وصاروا ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم مواطنين كاملي المواطنة في مجتمعهم. وكان هناك جانب مهم آخر لنا، وهو أننا بوصفنا مسلمين مطالبون بأن نشرح معتقداتنا وثقافاتنا لغير المسلمين. وكان من الواضح أن السبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو أن نختار الاندماج في المجتمع حولنا، لا أن نعزل أنفسنا وراء جدران هويات دينية وثقافية. وكنّا ندرك أن هوياتنا الدينية والثقافية لن تضعف من جراء هذا الاندماج، بل سيتم تعزيزها تعزيزاً إيجابيّاً. لقد طوّرنا حياتنا في المجتمع البريطاني، وشاركنا بإيجابية في أنشطة جيراننا، وشاركنا في المناسبات الاجتماعية المقبولة، وأمدّنا ذلك كله بفرصة القيام بواجباتنا وتقديم أنفسنا بصفتنا أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم حقّاً، وبصفتنا جيراناً داعمين لجيرانهم ومجتمعهم. وكنّا في ذلك كله نتّبع تعاليم سيدنا محمد ﷺ ونتشارك الحياة مع جميع البشر على أساس المحبة والألفة.

براعم بذور اتحاد الطلبة المسلمين

١٩٦٠. في ليفربول بالمملكة المتحدة. الطلاب المسلمون الذين ساعدوا في تأسيس جمعية الطلبة المسلمين.

أسّسنا منظمة تهدف إلى خدمة الطلاب المسلمين الذين يدرسون في المملكة المتحدة وأيرلندا، وكنّا نُطبق الفكرة بشكل عملي منذ وقت طويل من خلال الأنشطة الكثيرة التي كنّا نقوم بها بالفعل، ورأينا أنشطتنا تمدّ جذورها وتتبرعم في مستوى تنظيمي أعظم وأروع. فكان مسجدنا المحلّي في برمنجهام يسع أربعين مُصلِّياً، في حين أن المنظمة الطلابية التي أسسناها كانت تتسع للآلاف. وأدركنا أهمية وجود آليات للتواصل الفعّال مع الطلاب المسلمين، ولذلك قررنا أن نُصْدر نشرة دورية أسميناها اسماً كنّا نحس بأنه يليق بنا في ذلك الوقت، وهو "الغرباء".

كان كثير من أعضائنا طلاباً أجانب يُبحرون في تقلبات دولة غريبة عليهم. ووضعنا الحديث الشريف الآتي على غلاف النشرة: "بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء". وفي رواية أخرى: قيل: "يا رسول الله! من الغرباء؟" قال: "الذين يصلحون إذا فسد الناس"، وفي لفظ آخر: "هم الذين يصلحون ما أفسد الناس من سُنَّتي". فكنّا ننظر إلى أنفسنا بوصفنا مصلحين لا ثوريين، على العكس من بعض زملائنا من القوميين العرب الذين كانوا ينادون بالانقلابات العسكرية، واستخدام العنف في الإطاحة بحكوماتهم في أوطانهم. أخرجنا العدد الأول من النشرة بعد سهرة استغرقت الليل كله. ولم تكن التكنولوجيا الحديثة في الطباعة قد ظهرت آنذاك، فكنّا نطبع على ورق شفاف كربوني أو بلاستيك يسمى بـ "الاستِنْسِل" Stencil ونجهز الورق المشمّع ثم نشغّل آلة الطباعة اليدوية (الرونيو)، وطبعنا في النهاية خمسين نسخة، لأن ميزانيتنا كانت محدودة. وجمعنا تبرعات من إخواننا لشراء الطوابع والمغلفات، ثم أرسلنا النسخ بالبريد إلى مختلف أنحاء المملكة المتحدة.

انتخابات الجامعة وفتح آفاق جديدة

بعد طباعة العدد الأول من نشرتنا، انخرطنا بسرعة في أنشطة عدة لتلبية احتياجات الطلاب المسلمين. كنّا قد دخلنا في ستينات القرن العشرين بالفعل، وشاركتُ في انتخابات اتحاد الطلبة في جامعة برمنجهام. في الواقع، ترشحتُ لمنصب ممثل الطلبة الدوليين بإلحاح من طالب ماليزي اسمه سهيمي قمر الدين. وصار هذا الطالب فيما بعد زعيم جناح الشباب في الحزب الحاكم في ماليزيا، وهو حزب الهيئة الوطنية للماليزيين المتحدين UMNO، وذلك حالما انتهى من دراسته في المملكة المتحدة وعاد إلى بلده. وقد فزتُ في الانتخابات بفضل الله، ونتيجة لذلك صرنا أكثر قدرة على خدمة الطلاب المسلمين في الجامعة.

١٩٦١. المملكة المتحدة. تأسيس جمعية الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية. أنا الرابع من اليمين.

١٩٦٣. جامعة برمنجهام University of Birmingham عند تأسيس اتحاد جمعيات الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية FOSIS . من اليسار محمد علي داود (من بروناي)، حسين الشهرستاني (من العراق)، سهيمي قمر الدين (من ماليزيا، وهو أول رئيس منتخب FOSIS)، وعرفان عبدالحميد في الوسط وزملاء آخرون.

بعد ذلك النجاح، شرعنا في توسيع جهودنا في دعم الطلاب المسلمين والتواصل معهم فيما وراء المملكة المتحدة. تواصلتُ في عام ١٩٦١ مع بعض الطلاب المسلمين في فرنسا وألمانيا والنمسا، وقررنا أن نعقد مؤتمراً في مدينة (آخن Aachen)، وكانت

آنذاك مدينة صغيرة في ألمانيا. وقمنا فيما بعد بتأسيس مسجد في آخن، أسميناه "مسجد بلال". واتضح أن اختيار مدينة آخن لعب دوراً كبيراً في دعم عدد كبير من الطلاب المسلمين الذين تقلدوا مناصب مهمة فيما بعد. على سبيل المثال، كان يدرس فيها الدكتور نجم الدين أربكان ـ رحمه الله ـ، الذي تقلّد منصب رئيس الوزراء في تركيا من عام ١٩٩٦ إلى عام ١٩٩٧. ودرس فيها كذلك بحر الدين يوسف حبيبي، الذي تولّى رئاسة أندونيسيا من عام ١٩٩٨ إلى عام ١٩٩٩.

خطبة الجمعة مؤسسة إرشاد

حدثت كل هذه التطورات وازداد إحساسنا بالمسؤولية. ومع نجاح كل مشروع جديد، وضعنا إستراتيجيات لتطوير المهارات التي كنّا نعتقد أنها تلزم كل واحد منا بوصفه قائداً للشباب. واتفقنا على أولوية ثلاث مهارات أساسية: العلاقات العامة، والخطابة، وإتقان اللغة الإنجليزية. ولم تتغير هذه الأولويات كثيراً على مرّ الزمن، فما زالت هذه المهارات أساسية، هذا إن لم تكن قد ازدادت أهميةً. فظهور وسائل الإعلام الجماهيري ووسائل التواصل الاجتماعي وتغلغلها في كل أنحاء العالم شهد تغيُّراً جذريّاً في مفهوم الاتصال. ونحن الآن في حاجة ماسة إلى مسلمين مفوهين بارعين في هذه المجالات، وقادرين على أن يستغلوا إمكاناتها في تقديم أنفسهم بصورة إيجابية، وعلى أن يتواصلوا مع الصحافيين ومع غيرهم تواصلاً فعّالاً. فالحمد لله لقد كانت عندنا بصيرة استشرافية تستبق الزمن إلى حد ما.

كان الدافع الأولي للبدء في تعلّم هذه المهارات هو إلقاء خطبة الجمعة بالإنجليزية بطريقة جيدة ومناسبة ومفيدة. فقد شعرنا في ذلك الوقت أننا في حاجة ماسة إلى أشخاص يستطيعون إلقاء خطبة الجمعة باللغة الإنجليزية، وكنّا قد بدأنا تطبيق ذلك بالفعل. وكان الخطيب في حاجة أيضاً لأن يلمّ بالقرآن والأحاديث والتاريخ

الإسلامي وعادات المسلمين إلماماً معقولاً. واستغرقنا وقتاً طويلاً على المستويين الفردي والجماعي في تطوير هذه المهارات المهمة؛ فصار عندنا بعض الشباب القادرين على التعريف بالإسلام، ومناقشة الأحداث الجارية، والمناظرة بصورة تتسم بالحكمة والتبصُّر بوصفهما مبدأين أساسيين. وقررنا أن هذه المهارات الثلاث ضرورية لكل واحد فينا، ولذلك شرعنا في تطوير أنفسنا حتى نستطيع جميعاً أن نتحمل أية مسؤولية قد تطرأ علينا في المستقبل.

أولينا اهتماماً بخطبة الجمعة، ونظّمنا أنفسنا. وكنّا نجهّز الخطبة مُسبقاً، ووضعنا جدولاً بموضوعات الخطبة على مدار العام، ووصل عدد الموضوعات إلى ما يقرب من خمسين موضوعاً. وحرصنا على ألّا نكرّر الموضوعات، وألّا نتناول موضوعات وقضايا مُسْتَهْلَكَة، فأولينا محتوى الخطبة عناية خاصة، وحوّلنا خطبة الجمعة إلى مؤسسة إرشاد تلبّي احتياجات الجالية، وتتناول القضايا الملحّة التي تهمّنا جميعاً. كنّا نطبع الخطبة قبل إلقائها ونوزعها على نطاق واسع، ليستفيد منها جميع أبناء الجالية، حتى أولئك الذين لم يتمكنوا من حضور الخطبة.

وبذلك كانت موضوعاتها مناسبة لهم؛ إذ تعلمهم مسائل تفيدهم في حياتهم وواقعهم. كما أننا كنّا نستغل الخطب في الإعلان عن الاجتماعات وبرامج التنمية. وبما أن صلاة الجمعة فرض على الرجال من المسلمين على الأقل، فكنّا نعرف أنه سيكون لدينا جمهور أكبر من الجمهور الذي يحضر المناسبات الأخرى، وكنّا نريد أن نستفيد من وجود هذا العدد الكبير بأقصى قدر ممكن. وعندما أتأمل الماضي وأتذكّر أعمارنا آنذاك، أتعجب من الإمكانات البشرية الكامنة داخلنا التي تدفعنا لأن ننجز ما شرعنا في القيام به منذ بداية شبابنا حتى الآن. إن نعمة العزيمة والتفكير الواضح والتخطيط الجيد والاجتهاد والتركيز تصنع المعجزات بفضل الله.

الارتقاء الروحي

"أشَدُّ ما أثَّرَ في حياتِي نَصيحةٌ سَمعتُها مِن أَبِي: يَا بُنيَّ اقرَأ القرآنَ كأنَّه أُنْزلَ عليك".

محمد إقبال

واصلنا مجاهدة النفس لنخرج من نطاق السهل والمريح إلى نطاق التحديات التي تصقُل مهاراتنا وقدراتنا، وبهذه المجاهدة عزّزنا تقوانا. إننا لم ننخرط في العمل الجماعي بغية تحقيق النتائج أو التغييرات المرجوة في حد ذاتها فحسب، بل بغية تزكية النفس في أثناء هذا الانخراط. يقسّم القرآنُ الناسَ ثلاثةَ أنواع: المؤمنون، والكافرون، والمنافقون كما يظهر ذلك في سورة البقرة في الآيات من (١-٩). المؤمنون هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة والصدقات، ويؤمنون بكل الكتب السماوية، ويوقنون بالآخرة. يُروىٰ عن سيدنا علي رابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، أنه وصف تقوىٰ الله قائلاً: "التقوىٰ هي الخوفُ من الجَليل، والعملُ بالتنزيل، والاستعدادُ ليوم الرَّحيل". أمّا الكافرون فهم أولئك الذين يروّجون الأكاذيب عن الدين ويثبّطون غيرهم عن الإيمان بالله. والمنافقون يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكُفر.

كنتُ أعي ذلك كله، واخترتُ أن أركز بعزيمة أكبر على تقوىٰ الله، وأن أطلب محبة الله ورحمته وعفوه. فنذرتُ نفسي لله، وتجدد هذا النذر عندما ركزتُ على وعيي بوجود الله ومحبتي له وعلى تطهير نفسي. وعند قيامي بذلك، تمحورت أفعالي ولغتي وعملي حول تقوىٰ الله، فحمدتُ الله وشكرتُه، وأعانتني محبتي للخالق على تعميق امتثالي لأوامره ونواهيه. كنّا نعيش في زمن كانت فيه تقوىٰ الله والورع مجرد رياء، فكانا مجرد فكرة نظرية في عقول عدد غير قليل من المسلمين، ولكن أعمالهم لم تصدّق أقوالهم. وقد اجتهدت في أن تكون تقوىٰ الله والأخلاق القويمة جزءاً لا يتجزأ من تكويني على مستوىٰ الفكر والعقيدة، والفعل والعمل الجماعي. هناك فرق بين أن يقرأ المسلم القرآن مجرد قراءة وأن يطبق ما يتعلمه منه في سلوكه وأفعاله كلها.

لذلك قطعنا على أنفسنا عهداً بأن نطبق القيم المكتسبة من القرآن الكريم، وتبين لنا أثناء ذلك أن التجارب الحياتية والخبرات المكتسبة من هذه التجارب تعين الإنسان على السمو الروحي والأخلاقي.

ومن أهم مقومات هذا الفهم والتطبيق الإيمانُ بيوم الحساب؛ لأن ذلك يقوّي الإيمان بالله ويعمق الوعي بالمسؤولية. فلا مكان في حياتي لأي فعل مشين أو مكروه أقوم به في السر أو العلن. وعندما يزداد وعيي بيوم الحساب يزداد حرصي على فعل الخير وتزداد رغبتي في أن يتحول العالم نحو الأفضل. في الواقع، حفّزنا الإيمان بيوم الحساب على أن نتسابق في الخيرات. علاوة على ذلك، حرص كثيرون من بيننا على تقوية إيمانهم وأعمالهم بالمواظبة على حضور حلقات منتظمة من التدارس والمُدارسة. وأذكر أن إحدى هذه الحلقات كان يقيمها محمد نسيم، وهو طبيب من باكستان وُلِدَ في الهند، وكان أحد تلاميذ الشيخ أبي الأعلى المودودي رحمه الله (رئيس الحركة الإسلامية في باكستان والمعروفة باسم الجماعة الإسلامية).

تمكّنّا بفضل هذا النمو الروحي والقناعة الداخلية من أن نتطلع إلى القمم، إلى الارتقاء الروحي وفطرتنا الربانية، نتقرب إلى رب العالمين ونتقيه، ونتيجة لذلك حققنا أشياء رائعة وكبيرة.

الرحمة والعفو

شعر كثيرون بهذه الإنجازات الكبيرة وانتشوا بالارتقاء الروحي الذي تحقق، وأظن أن بعضنا نسي من جراء ذلك أننا جزء من العالم من حولنا، ونسوا أن قناعاتنا الروحية يمكنها أن تؤثر في الآخرين. في الواقع، قد نجد أنفسنا أحياناً في مفترق طرق، وعلينا أن نختار شيئاً من بين خيارات عدة في أية لحظة، وعلينا أن نتحلى بالحكمة في اختيار أنفع الخيارات لنا ولغيرنا. على سبيل المثال، في مساء يوم من أيام رمضان كنا نصلي

صلاة التراويح في غرفتي بالسكن الجامعي في جامعة برمنجهام، وسمعنا طرقات على الباب. وعندما فتحنا الباب، وجدنا أن زميلاً من زملائنا اسمه حسن، يبكي. شعرتُ بالصدمة، وأمسكتُ بمنديل وأسرعتُ نحوه لأعطيه المنديل، ثم اصطحبته للخارج ووضعتُ يدي على كتفه وسألتُه: "ماذا حدث؟" فقال: "هل صحيح أن الله يقول في القرآن الكريم: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟ [الفرقان: ٧٠]. رددتُ عليه بصوت لطيف قائلاً: "الله يقبل توبتنا ويسعد بسماعنا ونحن نتوب ونتطهر من ذنوبنا. الله واسع الرحمة والمغفرة حتى إنه يُبدّل كل السيئات التي ارتكبناها قبل توبتنا حسنات. وهذه نعمة من أعظم النعم التي منّ بها الله علينا."

عندما سمع هذه الكلمات، تهللت أساريره وانشرح قلبه. وعرضتُ عليه أن يصلي معنا، وعُدنا إلى غرفتي لنلحق بالآخرين. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، تدبّرتُ رحمة الله وكرمه. إن الله يُبدِّل سيئات التائبين حسنات، ولذا ينبغي أن لا نيأس من رحمة الله.

مجتمع متعدد الثقافات

بدأ نوع من الوعي يتشكّل داخلي، وفي يوم جمعة بعدما ألقى الإمام الخطبة داخل الكنيسة في الجامعة، أدركتُ فجأة بعين قلبي كيف أن العادة قد تطمس قلوبنا وتُعمي عيوننا، فاهتزت مشاعري، ورأيتُ بدلاً من الخمسين مصلّياً خمسين وجهاً من مختلف الجنسيات والثقافات والبيئات والعرقيات وقد اتحدوا في السجود لوجه الله. كنّا كلنا نسعى لتحقيق الهدف نفسه، بإيمان وحماس وهبنا الله إياهما. وبينما كنّا نجاهد أنفسنا لننال رضا الله سبحانه وتعالى، ألّف بيننا، ووضع بيننا الوحدة والمحبة. لقد غمرني الإحساس بالمحبة والألفة، وأدركتُ أن هذا الإحساس نعمة الإيمان بالله. وأدركتُ في أعماق قلبي أن الإحساس العميق بهذه النعمة لم يكن صُدفة.

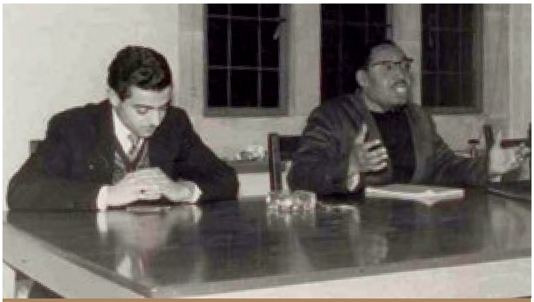

١٩٦٢. جامعة برمنجهام University of Birmingham. نظمت جمعية الطلبة المسلمين سلسلة محاضرات. والمتحدث عمر عبد الله، العالم المسلم الكبير من زنجبار.

بذلنا أقصى وسعنا حتى نحرص على أن تكون الاجتماعات والتجمعات مفتوحة للجميع، وفي معظم الأحوال كنّا نُجري مناقشاتنا باللغة الإنجليزية؛ فقد كنّا نُدرك أن الطلاب المسلمين الذين يحضرون المناقشات والاجتماعات التي ننظّمها جميعهم يفهمون اللغة الإنجليزية. وكانت عندنا رابطتنا الخاصة، وهي جمعية الطلبة المسلمين المحلية في جامعة برمنجهام، Muslim Students Society (MSS) وكان لنا أعضاء في الجماعة الأكبر، وهي اتحاد الجمعيات الطلابية الإسلامية في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية.

Federation of Student Islamic Societies (FOSIS)

بالإضافة إلى ما سبق، كان معظم قادة جمعية الطلبة المسلمين في برمنجهام من غير العرب. وأول رئيس لهذه الجمعية كان أخاً ماليزيّاً كثير النشاط اسمه سهيمي قمر الدين (الذي مرّ ذكره سابقاً)، وكان زميلي في الغرفة أيضاً. وصار فيما بعد وكيل وزارة التعليم في ماليزيا.

١٩٦٣. جامعة برمنجهام بعد صلاة الجمعة. الأول من اليمين سهيمي قمر الدين من ماليزيا وهو أول رئيس لاتحاد جمعيات الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية، ثم بيهين عبد العزيز من بروناي أول رئيس حكومة لبروناي بعد الاستقلال. وأنا أرتدي القبعة، والأول من اليسار محمد علي داود، الذي أصبح أول وزير خارجية لبروناي.

وفي السياق التأريخي والتوثيقي لتأسيس الجمعيات والاتحادات الطلابية، يجدر الذكر بأن المملكة المتحدة وأيرلندا كانتا مهوى الطلبة المسلمين الذي كانوا يفدون للدراسة من معظم بلدان العالم الإسلامي، التي خضعت للاستعمار البريطاني، لا سيما الهند والباكستان وإيران وماليزيا، ومصر والسودان والعراق وجزيرة العرب والأردن، وذلك نظراً لأن الدراسة تكون باللغة الإنجليزية، وهي اللغة الثانية في البلدان المذكورة. بينما كان يفضل الطلبة من بلدان المغرب العربي الذهاب إلى فرنسا، ويفضل الطلبة الأتراك الذهاب إلى ألمانيا. لكن الطلبة كانوا ينتشرون في الجامعات البريطانية. والذي نعرفه على وجه التحديد أن الطلبة المسلمين كانوا لا يجدون في بداية الأمر غير المساجد المتواضعة التي تستعملها الجاليات المسلمة التي أتت مبكراً من القارة الهندية وتمارس نشاطاتها بلغة الأُردو. لكن الطلبة العرب أخذت أعدادهم بالتزايد في خمسينات القرن العشرين، فبدأوا يؤسسون جمعيات واتحادات طلابية إسلامية، ولعل أول جمعية طلابية كانت جمعية الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية MSS.

ومع تزايد عدد الطلبة المسلمين الذي وفدوا إلى المملكة المتحدة وأيرلندا، في خمسينات القرن العشرين وتنامي الوعي الديني لديهم، أخذوا يشكلون جمعيات طلابية محلية في جامعاتهم، بعناوين مختلفة، وجرى التواصل بين عدد من هذه الجمعيات الإسلامية. لكن الحاجة إلى مظلة عامة لجميع هذه المؤسسات الطلابية الإسلامية كانت تشتد يوماً بعد يوم، فتوجهت جمعية الطلبة المسلمين في جامعة برمنجهام بدعوة إلى الجمعيات الطلابية في الجامعات المختلفة للاجتماع في برمنجهام عام ١٩٦٣، وشاركت في الحضور جمعيات طلابية من جامعات متعددة من المدن الرئيسية لا سيما: شفيلد وليدز، ولندن، وبرستول ودبلن، إضافة إلى برمنجهام. وجرى الاتفاق على إنشاء اتحاد عام لهذه الجمعيات تحت اسم اتحاد الجمعيات الطلابية الإسلامية في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية Federation of Student Islamic Societies (FOSIS) وهي المنظمة التي أصبحت اجتماعاتها ومنشوراتها بيئة مهمة لتنمية الهوية الإسلامية للطلبة وغيرهم، وأصبحت فيما بعد من أهم المنظمات المعبّرة عن الحضور الإسلامي في

بريطانيا؛ إذ تلجأ إليها المؤسسات البريطانية الرسمية ووسائل الإعلام لإبداء الرأي في المسائل التي تخصُّ الإسلام والمسلمين.

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الطلبة الذين شاركوا في نشاطات FOSIS في بريطانيا قد عادوا إلى بلدانهم محمّلين برغبة عارمة في استمرار التواصل فيما بينهم، مما أسهم في تهيئة الفرصة المناسبة لتأسيس الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية تحت مسمى International Islamic Federation of Student Organizations (IIFSO) (وسنتحدث عن الاتحاد لاحقاً). وقد عقد الاجتماع التأسيسي للاتحاد في مسجد بلال بمدينة آخن الألمانية عام ١٩٦٩، بحضور منظمات طلابية من عدد كبير من الدول، وكان من الأهداف الأساسية للاتحاد تمثيل الصوت الطلابي والشبابي الإسلامي في المحافل الدولية. وقد اهتم الاتحاد اهتماماً خاصاً باختيار كتب فكرية وثقافية إسلامية وترجمتها إلى لغات مختلفة، وقد تمت ترجمة حوالي خمسمائة كتاب من هذه الكتب إلى أكثر من ثمانين لغة. ويقدر عدد نسخ الكتب التي طبعت بحوالي عشرة ملايين نسخة. وقد سعدت بأن أكون أول أمين عام لهذا الاتحاد المبارك.

خارطة الطريق

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ...﴾

[يوسف: ١٠٨]

مع تقدمنا في عملنا الخيري، أدركنا أنه ينبغي علينا أن نطور مهارات القيادة لدينا حتى نواصل نمونا ونحقق أهدافنا. فشرعنا في تجديد العزم والنية على خدمة المجتمع والدعوة، وهنا سألنا أنفسنا سؤالين مهمين: من نحن؟ وماذا نريد؟ اتفقنا على إجابة تعبّر عن هويّتنا، وهي أننا طلاب مسلمون في دولة أجنبية. كما اتفقنا على أننا نريد أن نعرف ديننا، ونحافظ عليه ونعرّف به الآخرين. وعندما تدبّرنا الموضوع أكثر، تجددتْ رغبتنا المشتركة في أن نحقق هدفين: خدمة ديننا، والنجاح في دراستنا. ولكن النجاح

في هذين المسارين لن يتواصل كما كان من قبل إذا كنّا أقل تنظيماً. وإن الرغبة في أن نحقق أقصى ما نستطيع في دراستنا وفي مجتمعنا الإسلامي دفعتْنا لأن نطوّر أنفسنا باستخدام أدوات فعّالة منها:

أولاً، وضعنا بعض الإرشادات العامة التي ستساعدنا في تحقيق هذين الهدفين بمزيد من الكفاءة والفاعلية. وعندما كان علينا أن ننتخب اللجنة التنفيذية لاتحاد جمعيات الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية، اعتبرنا هذه الانتخابات فرصة مواتية؛ فاتخذنا قراراً واعياً بأن نستغل فرصة العمل في اللجنة التنفيذية لتكون بمثابة ساحة تدريب للشباب على اكتساب مهارات القيادة. وكان نظامنا الداخلي ينص على أن تكون مدة المنصب سنة واحدة فقط بحيث نسمح لأكبر عدد من الأعضاء أن يكتسبوا خبرات قيادية مهمة.

ثانياً، حددنا أولوياتنا، فلا يمكننا أن نخدم كل شخص، ولا يمكننا أن نفعل كل المطلوب منّا، ولذلك طرحنا على أنفسنا سؤالاً: كيف نُدير عبء الأعمال المتزايدة؟ وتمخضت عن النقاشات مراجعة أساسياتنا وأساليبنا، وتوصّلنا إلى التأكيد من جديد على عاملين: تحديد الأولويات، وإدارة الوقت. فكرّسنا أنفسنا لأداء مهام معينة، وكانت كل مهمة تتطلب مستوى معيناً من المجهود والوقت والمال. وكان يتعين علينا تمييز أولوية المهام من عدمها.

ثالثاً، للمزيد من الكفاءة والفاعلية، حددنا العوائق التي من الممكن أن تواجهنا؛ فاتفقنا على اجتناب الخوض في الصراعات السياسية والمذهبية تماماً، فنحن لم نرَ عملنا الجماعي صادراً عن أسباب سياسية، بل عن أسباب اجتماعية؛ إذ كنّا نسعى للاهتمام بصالح شباب المسلمين والمجتمع الإسلامي. وبعد مزيد من النقاشات والمداولات، اتفقنا على أن تعاليم الإسلام يجب أن توجّه كل جوانب حياتنا، سواء أكانت هذه الجوانب نفسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية. وفي الوقت نفسه، اتفقنا على الابتعاد عن الصراعات السياسية والمذهبية، لاسيما تلك الصراعات التي قد تؤثر سلباً على ترتيبنا.

إن النأي عن المشاحنات والتجاذبات السياسية لم يكن يعني عزلةً عن قضايا الأمة؛ إذ كانت هناك بعض القضايا السياسية التي تتطلب أن نعبّر عن رأينا فيها، ومنها على سبيل المثال، اتفقنا جميعاً على ضرورة حل الصراع في كشمير حلّاً سلميّاً، وعلى وجوب حماية حقوق الكشميريين؛ المسلمين منهم وغير المسلمين على حد سواء. وأنشأنا تجمعاً وتشكُّلاً مستقلاً ومنفصلاً خاصاً بالقضايا السياسية، ولم نضغط على أحد للانضمام إلى تلك الجماعة السياسية، بل اعتمدنا على تحمُّس أعضائنا لخدمة مجتمع طلابنا متعددي الثقافات من خلال جهودهم الرامية إلى التعليم وتلبية الاحتياجات الناشئة دون أن نتدخل في شيء، فلم ندخل في جدل أو خلاف حول القضايا المطروحة مع أولئك الذين لهم آراء مناقضة ومعارضة لآرائنا.

الابتعاد عن السياسة

مع مرور الوقت، صادفتْنا ابتلاءات وعوائق، ولكنها كانت جزءاً من عملنا البنّاء، وبذلنا أقصى ما في وسعنا حتى نكون على مستوى التحديات. ولكن القضايا السياسية لم تقع في صلب اهتماماتنا، ولذلك عزمنا على أن نترك شؤون السياسة وأن نغلق باب السياسة بإحكام. ومع ذلك ساندنا تجمعاً مماثلاً كان يدافع عن حقوق الإنسان في كشمير. لكن الأمور سرعان ما تعقدت مثلما يحدث حتماً في القضايا السياسية؛ ففي الوقت نفسه، كان هناك تجمّعٌ آخر في جامعة برمنجهام يمثّل حوالي مائة طالب من الهند. وقد هيَّجَتْهم قضيةُ كشمير أيضاً، ولكنهم كانوا يميلون إلى الدفاع عن موقف الحكومة الهندية، ويطالبون بأن تبقى كشمير كلها جزءاً من الهند ولا تستقل عنها، وقاموا بدعوة متحدثين مثل السفير الهندي للترويج لموقف الهند الرسمي الذي يعارض انفصال كشمير عن الهند.

وبسبب ذلك اضطر أعضاء كثيرون من تجمعنا للترويج بكثافة لوجهة النظر المناصرة لكشمير. فقد انزعجوا من الترويج والدعاية للحكومة الهندية. وأدّى ذلك إلى قيام بعض أعضائنا بحضور اجتماعات جماعة الطلبة الهنود، لكي يفنّدوا الحُجج المناصرة للهند. فغضب الطلاب الهنود من نوعيات الأسئلة التي كان بعض أعضائنا يثيرونها في تلك الاجتماعات، وغضبوا كذلك من الأفكار المعادية للحكومة الهندية. وكما هو متوقع، حدثت بعض المواجهات بين بعض أعضائنا وبعض الطلاب الهنود.

كنّا قد اتفقنا قبل ذلك على ألّا ننخرط في السياسة أو ندخل في صراع مع أي طرف، ولكن حدث بعد ذلك أن معظمنا أصرّوا على وجوب تقديم وجهات النظر المختلفة حول قضية كشمير. ولذلك قمنا بدعوة السفير الباكستاني ليقدم لنا وجهة نظر بلده حول الصراع في كشمير. وجذبت اللقاءات التي نظّمناها عن كشمير طلاباً أكثر من اللقاءات التي نظّمتها جماعة الطلبة الهنود. وأدّى هذا بدوره إلى تضايق بعض الطلاب الهنود، حتى إنهم تقدموا بشكوى ضدنا لإدارة الجامعة. ووصلت الشكوى إلى وزارة الخارجية البريطانية، وخرجت القضية عن نطاق السيطرة، واتُهمنا بإهانة دولة أجنبية صديقة، حسب ما ورد في الشكوى.

ونظراً لشغفنا العام بصلاح المجتمع وحقوق الإنسان، لم نستطع أن نضبط بعض أعضائنا من الابتعاد عن السياسة. ونتيجة لكل ذلك، دُعي رئيس جمعية الطلبة المسلمين بالجامعة للقاء رئيس الجامعة ونائبه، وردّ عليهما قائلاً: "يا سيدي، لقد حضرنا ندوة عامة عن قضية كشمير نظّمها الطلابُ الهنود، وكنّا نعتقد أننا بصفتنا حاضرين في الندوة من حقنا أن نثير الأسئلة ونشارك في النقاش المفتوح، أليس ذلك من حقنا؟" كما أنه رجا رئيس الجامعة بأن يعيد النظر في أحقية الأشخاص الذين لا يؤمنون بالديمقراطية في إقامة ندوات لهم في الجامعة. وأقرّ رئيس الجامعة بحق الطلاب في المشاركة في النقاش المفتوح، وبذلك تحوّل الموقف إلى انتصار سياسي، كما أن رئيس الجامعة تعهّد بأنه سيردُّ بنفسه على وزارة الخارجية، وانتهى الموضوع.

الصراعات العربية الداخلية

كنّا طلاباً جامعيين يافعين، وتعلمنا ضرورة الحوار والنقاش من هذه التجربة ومن النجاح الذي حققناه في نيل حقنا في النقاش الديمقراطي حول قضية كشمير. والتزمنا بالديمقراطية أداةً من أدوات تعزيز رسالتنا؛ لأن الديمقراطية تتيح للجماعات المختلفة فرصةَ الدفاع عن القيم والتعبير عن الآراء التي تدعم صلاح المواطنين وروح الحضارة الإسلامية وأخلاقياتها.

ولكن يبدو أن هذا التصوّر فيه بساطة شديدة؛ لأن الديمقراطية أداة قد يُساء استعمالها، فيمكن للإنسان أن يختار العمل من خلالها أو يختار الوسائل العنيفة لفرض معتقداته وأفكاره حول ما يعتقد أنه الطريقة المثلى لإدارة العالم. وللأسف سرعان ما رأينا اجتماعات منظمة الطلبة العرب القوميين تسقط في هوة التلاسُن، ووصل الأمر إلى التَّعارُك في بعض هذه الاجتماعات، وازداد الوضع سوءاً على مرّ الزمن. وعلى الرغم من أن ذلك العنف صار أكثر انتشاراً وسيلةً لإدارة الخلافات، فإن ما أنقذ جماعتنا من الانحدار إلى ذلك المستوى هو تمسكنا بمبادئ الإسلام التي تحمي تقوانا وتوجِّه سلوكنا، وكذلك اتباعنا للمبادئ الديمقراطية التي التزمنا بها منذ فترة قريبة.

كان هناك غياب واضح للتعددية وحرية الفكر بوجه عام في العالم العربي، ومال عدد لا بأس به من الطلاب العرب إلى تفضيل العنف على التفاعل المتناغم. وكنّا قد بدأنا نقابل عدداً كبيراً من أولئك الطلاب العرب البعثيين واليساريين والشيوعيين، ممن كانوا متطرفين في تفكيرهم وفي قناعاتهم، وكانوا يحاولون أن يفرضوا وجهة نظرهم على غيرهم. وصارت جاليات الطلاب العرب عنيفة باطّراد، وكانوا يكرهون من يخالفونهم الرأي، وكان كل واحد منهم يشعر بالطمأنينة والحصانة من خلال التمسك برأيه والتعصب له، بدلاً من الانخراط في نقاشات ومناظرات صحية؛ فصار الوضع يدعو للحزن، وأدّت المواقف السياسية إلى تقويض الجسور التي كنّا نقيمها على الدوام من أجل التواصل والحوار والنقاش والتقارب.

هل تريد أن تبني مسجداً في كنيستنا؟

تزايدت التوترات التي واجهتنا بسبب بعض العقبات التي اعترضت طريقنا على جبهات أخرى. شهدت الستينات من القرن العشرين زيادة كبيرة في أعداد الطلاب المسلمين القادمين إلى المملكة المتحدة. وزادت أعدادهم في جامعة برمنجهام إلى ٨٠٠ طالب مسلم، ولم تستوعب كنيسة الجامعة الأعداد المتزايدة من الطلاب الذين يصلّون صلاة الجمعة فيها؛ فأصبحنا بحاجة إلى مكان أوسع لنصلي فيه، وسرعان ما وجدنا أنفسنا من جديد نتفاوض مع كبار رجال الكنيسة على توسيع مكان صلاتنا.

١٩٩٩. بيهين عبد العزيز عمر من بروناي (رئيس وزراء بروناي السابق) في بيت طه العلواني للغداء ويقف وراءه فتحي ملكاوي.

قاد النقاشات أخونا بيهين عبد العزيز عمر، وهو شخص لديه قدرات هائلة، وصار فيما بعد وزيراً للتعليم، ثم وزيراً للصحة، ثم كبير وزراء بروناي قبل استقلالها. وقدّم بعض الاقتراحات للقسيس الذي كان مسؤولاً عن الكنيسة، لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الطلاب المسلمين الوافدين، فاقترح تخصيص مكان يصلي فيه المسلمون بانتظام، ومكان خاص بالوضوء، وبعض سجادات الصلاة للاحتفاظ بها في الكنيسة.

قال له القسيس: "يا عبد العزيز، هل تريد أن تبني مسجداً في كنيستنا؟" فردّ عليه عبد العزيز قائلا: "أليست كنيسة مشتركة بين الأديان؟"

كانت الكنيسة أيضاً في طور توسعة، وبناء عليه كشف سؤال عبد العزيز عن صعوبات قد تواجه خطة التوسعة. قامت قيادة الكنيسة بإحالة الموضوع لجامعة برمنجهام، فاستدعى رئيس الجامعة سهيمي قمر الدين إلى مكتبه حتى يردّ على موقف الكنيسة. ومن توفيق الله لنا أن سهيمي كان خطيباً مفوّهاً، فقد فاز بالمركز الثاني في مسابقة المناظرات الجامعية، ولذلك ردَّ على رئيس الجامعة بفصاحة وطلاقة قائلاً: سيدي، أنا أتفهّم وجهة نظر الكنيسة، وكذلك أتفهم وجهة نظر الطلاب المسلمين. أليستْ كنيسة مشتركة بين الأديان؟ لقد تمت دعوتنا لعبادة الله فيها ولبينا الدعوة، ونحن لا نريد أن نتسبب في أية مشكلات لأصدقائنا المسيحيين. إنهم يريدون أن يعبدوا ربهم، ونحن ندعمهم في ذلك وبارك الله فيهم. وطلبوا منا أن نكون جزءاً من مجلسهم ووافقنا على ذلك وانضممنا لمجلسهم. واقترحوا فكرة التوسعة ونحن وافقنا على هذه الفكرة ودعمناها. لقد تقدمنا بطلبنا الذي يُلبّي احتياجات المصلين

المسلمين، وكل ما نطالب به مساحة صغيرة نؤدي فيها صلاتنا ومكاناً صغيراً للوضوء حتى نتطهّر قبل الصلاة. وإذا كنتم تشعرون أن ذلك ليس من حقوقنا، ففي هذه الحالة ربما ينبغي ألا يُطلق عليها كنيسة مشتركة بين الأديان، وأعدكم بأننا لن نزورها ولن نضايق أيَّ أحد، وسنبحث لنا عن مكان آخر نصلي فيه.

سرعان ما حُلّت المشكلة، وسُمح للطلاب بأن يصلّوا بانتظام في الكنيسة؛ انطلاقاً من أن الكنيسة مشتركة بين الأديان. وكلنا احترمنا نظرة الكنيسة المنفتحة وكرمها في توفير مكان لصلاتنا.

الأمراض الاجتماعية في الجالية المسلمة

دخلنا مرحلة جديدة من مراحل تطورنا الشخصي وخدمتنا للجالية المسلمة خدمةً لا تقتصر على مساعدة الطلاب المسلمين في جامعة برمنجهام؛ إذ قررنا أن نُجري حصراً للجالية المسلمة في المملكة المتحدة كلها، مما ساعدنا في أن نتعمق في فهم القضايا التي تخصها. ولم نندهش كثيراً عندما اكتشفنا أن الجالية بحاجة إلى أشياء كثيرة وعلى مستويات عدة.

من المهم للجالية أن تكون تقيّة وفي حالة صحية جيدة لكي تحافظ على مصلحتها الخاصة، وحتى تكون نموذجاً يُظهر جمال الإسلام. فقد أسعدنا مجيء العديد من غير المسلمين ليتعرفوا على هذا الجمال، وكوّن عددٌ كثيرٌ فكرة جيدة عن الإسلام بعد تعاملهم مع مسلمين مستقيمين يتسمون بالصدق والاعتدال. وكما ذكرتُ من قبل، توصلنا إلى أن جاليتنا تنقصها بعض الأشياء. ويؤسفني أن أقول: إننا بوجه عام ألحقنا الضررَ بالمجتمع البريطاني، وليس العكس. كان هناك مسلمون منكبّون على جمع المال لدرجة أنهم لم يراعوا أمور دينهم. وكان هناك مسلمون منشغلون بالسعي وراء المتعة فلم يلتزموا بواجباتهم الدينية والاجتماعية. وكان هناك مسلمون يجهلون الإسلام،

ولا يستطيعون أن يقدروا النعم التي يمنحها لهم الإسلام. وكان هناك بعض المسلمين ممن يلعبون القمار، وممن يشربون الخمور، وممن اختاروا حياة الإجرام. وكان يتعين علينا أن نعرف عن الجاليات المسلمة في المملكة المتحدة أكثر مما كنّا نتصوّر.

المسؤولون ومنظمو الحملات الاجتماعية

لم نكن بالطبع المنظمة الوحيدة التي تمثل الإسلام، فكان هناك منظمو حملات اجتماعية آخرون مثلنا، وكان هناك أيضاً مسؤولون حكوميون يمثلون الإسلام رسميّاً. وعلى الرغم من وجود بعض المشكلات مع مسؤولين حكوميين من دول مسلمة، فإننا قررنا من حيث المبدأ أن نتعاون مع الجميع. المشكلة أن بعضنا كانوا يتوقعون من قادة المؤسسات الإسلامية، مثل مسجد ريجنتس بارك Regent's Park في بيكر ستريت Baker Street في لندن، أن يقودوا الجهود الرامية إلى تقديم صورة أكثر إيجابية عن الإسلام، وأن يقدموا الدعم والتوجيه للجالية المسلمة. في الواقع، كان القادة المسلمون الرسميون في بعض الأحيان أقل الأشخاص الذين يمكننا أن نتوقع منهم أن يدعموا الجالية المسلمة أو المجتمع المضيف أو حتى يتفاعلوا معهم.

كان مسجد ريجنتس بارك منحة مقدمة من الحكومة البريطانية للعالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الثانية، وكان يشرف عليه مجلس من سفراء الدول الإسلامية. وكان النشطاء المسلمون ممنوعين من المشاركة في أنشطة المسجد، خوفاً من أن يتم تسييسه. ومن ثمّ اقتصرت أنشطة المسجد على أداء الصلوات وبعض الاحتفالات الرسمية.

لقد أخذنا على عاتقنا أن نتعاون مع كل التنظيمات التي تمثل الإسلام، وتعاونّا مع كل المسؤولين الحكوميين من أجل خدمة الجالية المسلمة في المملكة المتحدة كلها. ولذا حاولنا التواصل مع القائمين على مسجد ريجنتس بارك وأن نصادقهم. ونجحنا في مدّ جسور تواصل مع قيادة المسجد، وسُمح لنا بالاشتراك في أنشطته، وطُلب مني أن ألقي بعض خطب الجمعة في الأوقات التي أكون فيها في لندن، وقررنا أن نراعي تعليماتهم.

عملية هندسة مدّ الجسور

"الرِفقُ يُمنٌ وَالأَناةُ سَعادَةٌ فَـتَـأَنَّ في أَمرٍ تُلاقِ نَجاحا"

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

كنّا نتوقع أن نجد أسساً مشتركة تجمعنا بأولئك الذين يعلنون أنهم يخدمون الجالية المسلمة ويمثلونها. ولكننا واجهنا صعوبات عندما بدأنا في تكوين علاقات مع بعض أعضاء الجالية المسلمة أنفسهم. وعلى مدار المراحل الأولى من قيامنا كطلاب بتنظيم حملات تسعى إلى تحقيق الإصلاح في المملكة المتحدة، اكتشفنا عملية أسميناها هندسة مدّ الجسور بين مؤسسات الجالية المسلمة.

بعض الأشخاص الذين واجهنا صعوبة بالغة في التعامل معهم كانوا ينتمون أيضاً لتنظيمات الطلاب العرب. فعندما حاولنا أن نتواصل مع عدد من قادة نوادي الطلاب العرب، واجهنا عداوة ومقاومة وإكراهاً على التخلي عن وجهة نظرنا. وعندما رفض كثيرون من قادة الطلاب العرب حقنا في الاختلاف معهم وفي إقامة علاقات ودية، شرعنا في القيام بعملية مدّ الجسور، فسعينا بالتدريج لأن نكوّن اتصالات ودية بسيطة في البداية، ثم انتقلنا إلى إقامة علاقات أفضل. وتعلمنا كيف نتقن هذا الفن جيداً، فبحثنا في البداية عن نقاط الاتفاق، ثم حاولنا إشراكهم في تحقيق هذه الأهداف المشتركة. ولم نتخلَّ عن مبادئنا ومعتقداتنا قط، ولم نتحول إلى الصدام عندما كانت معتقداتنا تتعرض للتحديات. وبمرور الوقت، توصلنا إلى فكرة أو وجهة نظر يمكن لكلا الطرفين الاتفاق عليها.

مع ذلك، لم يكن الأمر بهذه السهولة. فلكي نصل إلى نقطة اتفاق وتعاون، كان يتعين علينا أن نطور بعض الإستراتيجيات، ومن بينها فتح قنوات الاتصال بين الجماعات في صورة نقاشات مستمرة ومناظرات ودية. على سبيل المثال، عندما كنّا نضطر لأن نرد على وجهة نظرهم بوجهة نظر مختلفة، كنّا نقترح إمهالنا بعض الوقت وعدم الرد في الحال، وهو الأمر الذي كان يتيح لنا وقتاً نتدبر فيه وجهة نظرهم، وفي

الوقت نفسه نُبعد عنهم الشعور بأنهم قدموا تنازلات. وأدّىٰ كل ذلك إلىٰ مزيد من التفاهم، وظلت قنوات الاتصال مفتوحة علىٰ الدوام، فآتت جهودنا أُكلها في النهاية.

دائماً ما كنتُ أؤكد علىٰ أنني تعلمتُ منهم، وأن اهتمامي بنشر معارفي كان من أجل الصداقة، وليس من أجل ضم الآخرين لنا، أو من أجل أي مكسب شخصي آخر. فعلىٰ الرغم من اتخاذنا موقف الدفاع في القضايا السياسية، كنت حريصاً من أعماق قلبي علىٰ مد يد الصداقة، وحاولتُ أن أنمّي داخلي مبدأ الصداقة، وأن أضعه فوق أي اعتبار آخر. وساهم ذلك في تكوين شخصياتنا جميعاً. ولحسن الحظ، أدّىٰ هذا الأسلوب إلىٰ تحسن كبير في علاقاتنا مع اتحادات الطلبة العرب، حتىٰ وصل الأمر بعدد كبير منهم إلىٰ أن يصبحوا أعضاء في جمعية الطلبة المسلمين. وعلىٰ الجانب الآخر، كانت عملية مد الجسور في الوقت نفسه عملية تطهُّر فردي وارتقاء روحي، وقد علّمنا فن التفاوض، وفن تكوين العلاقات الودية، وفن التخلص، من أن التنافس ينبغي أن يكون لصالح الاتحاد والتعاون. كل واحدٍ منّا لديه قدرات كبيرة، وإذا تمكّنا من أن نحشد القوىٰ البشرية والموارد، عندئذ سنحقق خيراً وفيراً.

عمالقة بين الشباب الذين قابلتهم في المملكة المتحدة وأوروبا

بالإضافة إلىٰ مد جسور المرونة، تعلمتُ أهمية التعلُّم ممن سبقوني. فأدركتُ أن هناك أساليب مختلفة في القيادة وطرقاً مختلفة لتنفيذ المهام. واتضح لي ذلك عندما بدأتُ أدرك كيف يتصرف الأشخاص المتقدمون عليّ وكيف يقودون غيرهم، فقررتُ أن أدرس الطريقة التي تمكّنهم من النجاح في برامجهم، وأن أحلل الطرق والتقنيات التي يقومون بها بأعمالهم الاجتماعية. فقد كانوا يخدمون الجالية المسلمة بتمكُّن وجدارة وبمستوىٰ عالٍ من الاحترافية، وكانوا أساتذة لي، علىٰ الأقل فيما تعلمتُه منهم من خلال ملاحظتي لهم ولأساليبهم في القيادة والإنجاز.

دائماً ما أعود إلىٰ نموذج هشام الطالب. فقد حصل علىٰ شهادة الدكتوراه في الهندسة الكهربائية في عام ١٩٧٤. وكان لي شرف التعرف عليه ورؤية جهوده الدؤوبة في التواصل مع الآخرين في سبيل خدمة الجالية المسلمة بداية من عام ١٩٥٩. وكان رجُلاً قوي الإيمان، وترك بصمة في حياتي وحياة الآخرين من خلال أخلاقه وروحانيته، وحاولتُ أن أقتدي به وأن أنمّي داخلي مثل هذه الأخلاق والروحانية، ولذلك أشعر دائماً بالامتنان له. كُنّا نقف علىٰ أكتاف عمالقة، وكان هشام واحداً من هؤلاء العمالقة. فدائماً ما أتذكر، حتىٰ وأنا أكتب هذه السطور، صوته الجميل في تلاوة القرآن بطريقة تطمئن بها القلوب، وتخشع لها النفوس، وتعلو بها الهمم.

ومن الشخصيات العظيمة الأخرىٰ شخصية جمال البرزنجي ـ رحمه الله ـ الذي وافته المنية في ولاية فرجينيا يوم ٢٦ سبتمبر / أيلول عام ٢٠١٥، وكانت وفاته خسارة شخصية كبيرة لي بوصفه صديقاً وزميلاً، وخسارة كبيرة للمجتمع الإسلامي كله لما بذله من جهود عظيمة في سبيل تحسين أحوال حياة المسلمين. كان جمال أخاً آخر لنا من الموصل، ونشأ في عائلة سنيَّة كردية محافظة، وحصل علىٰ شهادة الدكتوراه في الهندسة الكيميائية عام ١٩٧٤ من جامعة ولاية لويزيانا Louisiana State University. وكما تعلمتُ من هشام، تعلمتُ من جمال أيضاً، فاستفدتُ كثيراً من أسلوبه الهادئ وعلمه الغزير، وكان جمال متعدد المواهب وموسوعيّ العلم والثقافة، وكان منهجيّاً في طريقة تفكيره، ويقرأ بغزارة، ويقدّم يد العون بلا كلل أو ملل، فأثّر في أشخاص كثيرين، ولا تستطيع الكلمات أن توفيه حقه هنا.

أود أن أستطرد سريعاً هنا وأقول: إنه في عام ١٩٦٨ وعام ١٩٦٩ كان هشام الطالب وجمال البرزنجي يعملان في شركة بترول العراق في كركوك بعد أن التقينا لآخر مرة في المملكة المتحدة في عام ١٩٦٢. وبعد الانتهاء من دراستهما للبكالوريوس في المملكة المتحدة، عادا إلىٰ العراق للإيفاء بالتزاماتهما تجاه الحكومة العراقية؛ لأنها هي التي كفلتهما وأرسلتهما في بعثة دراسية للخارج. وللأسف أخبراني بأن الوضع في العراق كان يزداد قمعاً، وانقشع وهمهما بعد أن شهدا ما شهداه، فقررا مغادرة العراق

وإكمال دراستهما العليا بالخارج. كان الاثنان في وضع ممتاز فيما يتعلق بالوظيفة المرموقة والراتب الكبير، ولكنهما قررا أن يستغنيا عن ذلك وأن يأتيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإكمال دراستهما. كان قراراً صعباً وقاسياً أن يفارقا العائلة والأصدقاء والوطن العزيز، ولكن نيتهما والواقع العملي كانا يتطلبان أن يتركا كل ذلك ويسافرا إلى الخارج لإكمال الدراسة.

إنما الأعمال بالنيات. وعلى هذا الأساس عقد هشام وجمال نيتهما وهاجرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. لقد آثرا طلب العلم والقدرة على خدمة دين الله في بيئة أفضل تضمن الحريات الأساسية فوق كل الرغبات وأسباب الراحة الأخرى التي كانت في الوطن. وشاء الله أن نلتقي نحن -المهندسين- الثلاثة لننفذ مشيئة الله وإرادته. هذه ثاني مرة نعمل فيها معاً، ولم نكن ندرك من قبل أن عملنا الجماعي سيستمر لنصف قرن آخر. حصل هشام على قبول في برنامج الماجستير في الهندسة الكهربائية في جامعة سينسيناتي University of Cincinnati في عام ١٩٦٨، وحصل جمال على قبول في جامعة ولاية لويزيانا Louisiana State University في عام ١٩٦٩. وكان شخصاً عظيماً قلما يجود الزمان بمثله. رحمه الله كم أفتقده!

وممن يُذكرون في هذا السياق حسين الشهرستاني، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة النووية. وقد تقلّد منصب رئيس اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا بعد أن انتهت فترة ولايتي للمنصب.

ومن الذين تعاونت معهم أيضاً أحمد الألوسي، وهو شخصية قوية جداً، ولم يتردد قط في دعم أنشطتنا مهما كانت قوة منتقدينا.

أذكر أيضاً سهيل الرفاعي ـ رحمه الله ـ، فقد عمل بعد تخرجه من جامعة برمنجهام في شركة بترول كبيرة، وساعد في بناء مسجد في نيوجرسي في الولايات المتحدة الأمريكية. واستمرت أخوّتنا على مر السنين وصارت رابطاً أقوى من روابط القرابة والدم. وساعدني في تصحيح قراءتي للقرآن الكريم، واعتنى بي، ولم أنزعج من تصويبه

لأخطائي، بل ارتفعت مكانته في نظري بسبب ذلك.

كما أذكر بإعزاز رضا عُبيد، وهو أول طالب سعودي قابلتُه في برمنجهام، وحضرتُ معه ندوة في ألمانيا. وحصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء، وكان واسع الاطلاع في مجال الفكر الإسلامي، وساعدني في تعويض ما ينقصني من معرفة في مجال الشريعة الإسلامية (وهو مجال لم نكن ندرسه في المدارس العراقية).

١٩٦٢. في جامعة برمنجهام University of Birmingham مع رضا عبيد من المملكة العربية السعودية الأول من اليسار، وزميل من باربيدس في وسط الصورة، وأنا على يمين الصورة.

ويصل بي المطاف أخيراً إلى سيد محمد يحيى ـ رحمه الله ـ. كانت شمسه مشرقة دائماً، واستمتعتُ بدفء صداقته. كان سيد محمد من باكستان الشرقية (قبل أن تصير بنجلادش)، وتخصص في مجال الرياضيات. وكان عالماً مشهوراً، ورجع بعد ذلك إلى المملكة المتحدة ليدرس الدكتوراه في جامعة كامبريدج University of Cambridge. لقد قضى معنا وقتاً طويلاً في برمنجهام، وكانت لقاءاتنا ممتعة ولله الحمد.

في الواقع، هناك أشخاص آخرون كنتُ أعدّهم أساتذتي وقدوتي ومصدر إرشادي، وتعلمتُ منهم أن أُخرج الطاقات الكامنة داخلي. ويرجع الفضل في المكانة التي وصلتُ إليها وفيما لديّ من مهارات ومعارف إلى الأشخاص الذين التقيتُ بهم وتعاملتُ معهم، فقد أدركوا إمكاناتي واهتموا ببعض سماتي، وطوروا سمات أخرى في شخصيتي، وفي النهاية جعلوني مسلماً أكمل وإنساناً أفضل. إنني أفتقد من رحل منهم عن دنيانا أيما افتقاد، وما زلتُ على تواصل مع من بقي منهم بيننا في هذه الدنيا.

مرض الطائفية الفتّاك

نظراً لما نشهده اليوم من انقسام بين سُنّة وشيعة، أرى أنه من الضروري أن أذكر أننا عندما كنّا في برمنجهام في ذلك الوقت لم نشعر بأي نوع من أنواع الشقاق والكراهية، مما نجده اليوم في العلاقات بين السُّنة والشيعة. ولم يخطر ببالنا إمكانية وقوع أي شقاق من هذا النوع، فسارت أعمالنا في طريقها دون صراعات. وحاول بعضهم إثارة قضية الصراعات التاريخية بين السُّنة والشيعة، ولفتوا الانتباه إلى كلام وارد في مخطوطات تاريخية يسيء للسُّنة والشيعة على حد سواء. لكن ذلك كان مجرد عاصفة في فنجان، فلم نسمح لهؤلاء الأشخاص بأن يعترضوا طريق أهدافنا المشتركة.

اتفقنا فيما بيننا على أن ندعم كل ما يقوّي إيماننا، وأن نتجنب كل ما قد يضر به أو يعرقل ما كنّا نسعى لتحقيقه. وعندما أتأمل الماضي، أندهش من مرونتنا ونحن في مقتبل شبابنا. وكنّا نتحلى بالحكمة، ولا نسمح بأية ثغرة يتسلل منها أحد إلى مناطق قوتنا واتحادنا؛ كنّا نعرف جيداً أن هناك أشخاصاً يريدون أن يستغلوا أية نقطة ضعف فينا ليفرّقوا بيننا.

استطعنا أيضاً أن نبصر الصدوع التي تفرق بين المسلمين في المملكة المتحدة. ويمكنني أن أصف تلك الصدوع بأنها كانت أزمة إيمان وأزمة هوية. لقد اتبع فريق من المسلمين سلوكات أدّت إلى إضعاف إيمانهم، وتهميشه في حياتهم، فكان استشعار الله فكرة هامشية في حياتهم، ونسوا أوامره ونواهيه، وفضلوا أن ينصهروا انصهاراً تاماً في الثقافة المهيمنة دون أن يضعوا حدوداً تحافظ على إيمانهم، وبذلك خلطوا بين الانصهار والتكامل. وهناك فريق آخر من المسلمين اختاروا أن ينعزلوا في مجتمعاتهم وثقافاتهم، وقلما كانوا يتعلمون ويتعاملون مع أبناء الثقافة المهيمنة، فرفضوا تكوين صداقات مع غير المسلمين، ولم يهتموا بإتقان اللغة الإنجليزية، ولم ترَ عيونهم المزايا العظيمة التي تقدمها لهم الثقافة البريطانية. وأظن أن خوفهم قد أعماهم، وأنهم كانوا لا يثقون في إيمانهم أو لم يكونوا واثقين بما يكفي لأن يحافظوا على حدود إيمانهم عند التعامل مع العالم الخارجي. ومن ثمَّ لم تصبح المملكة المتحدة التي يعيشون فيها وطناً لهم.

أتذكر أننا التقينا ببعض غير المسلمين ممن كانوا حريصين على أن يجعلونا نعتنق الديانة المسيحية. احترمناهم، وفي الوقت نفسه لم ندخل في نقاشات حامية معهم. ففي كل تلك المجالات التي كان من الممكن أن تتولد عنها الصراعات والخلافات والطائفية، كنّا نتذكر أولوياتنا، وكانت أولوياتنا هي خدمة المجتمع المسلم، والحفاظ على إيماننا، وجعل العالم مكاناً أفضل. ولذلك لم نهتم بالفوز في الجدال، بل كنّا نركز في عملنا على أهدافنا وعلى المستفيدين منها. ولم نقلق عندما لم نحقق أهدافنا بالسرعة المثالية. لقد أعاننا إيماننا على المُضي قُدماً في طريقنا، أيّاً كانت النتيجة. لقد كان الإيمان شغفي، وكنتُ أخدم عباد الله.

باقون في قلبي

أنظر لذلك الزمن نظرة اشتياق وحنين، فقد كانت تجربة دينية عظيمة في المقام الأول، كما أن ذلك الزمن كان زمن التضحية الشخصية؛ فكنّا نضحي بكثير من الأمور الشخصية، وهو الأمر الذي صهرنا، وخرجنا منه بغاية جديدة وقضية أخلاقية ووحدة لم أكن أتخيل عندما خرجتُ من أربيل أن أكتب عنها في سيرتي الذاتية. فقد كافحنا، وسهرنا الليالي، وروّضنا الأشخاص الذين كان من الصعب التعامل معهم، ونظمنا اللقاءات والمناسبات والأحداث، وأطلقنا الطاقة في المسلمين الضعفاء ومجتمعهم. كل ذلك خفيفٌ على قلبي، ولا أتذكر الإرهاق الذي عانينا منه، وإنما أتذكر السعادة التي كانت تغمرنا لأننا كنّا نقوم بشيء ذي قيمة. وكان النجاح الهائل الذي حققناه يرضينا، لكن هذا الرضا لم يكن مداهنة للذات، بل كان رضاً نابعاً من أن كل نجاح لنا كان يعني أننا ساعدنا شخصاً آخر، وأننا كنّا نطلب رضا الله فأنعم علينا بالرضا. تُلازِمُنا هذه الذكريات القديمة دوماً، لأن كثيراً مما حدث آنذاك حدد ما حدث لاحقاً. وبالطبع أقمت علاقات كثيرة، وصارت علاقاتي بالأصدقاء وثيقة كما

لو كانوا من أهلي، وأحاول حتى يومنا هذا أن أبقى على اتصال بهم، فلا يمر أسبوع أو أسبوعان دون أن أتواصل بالمكالمات أو الرسائل مع واحد على الأقل من الإخوة الذين قاسمتُهم كثيراً من الشغف والنجاح والمِحن.

ذكرتُ الصراعات الخارجية، ولكن كانت هناك صراعات داخلية أيضاً. فمن الصعب التغلب على النفس. ولا أستطيع أن أنكر أنه كان من السهل جداً لي أن أكتفي بإكمال دراستي والتركيز على وظيفة تُدرُّ لي دَخلاً كبيراً. كنتُ أحياناً أشعر بإرهاق شديد لدرجة أن كان يخطر ببالي أن أسلك الطريق السهل، ولكنني لم أعهد نفسي خائناً لقناعاتي، ولذلك كنتُ سرعان ما أُخرج نفسي من وحل الأفكار السلبية؛ لأننا كنّا نريد أن نفعل الخير، ونجحنا لأن دوافعنا كانت صادقة وخالصة لوجه الله. وعشنا حياتنا في خدمة الطلاب المسلمين الذين صرنا ننظر إليهم كما لو كانوا أبناءنا "التائهين في الأرض" ويحتاجون إلى الحماية وإلى الإرشاد وإلى طريق الخروج من التيه. وكنّا في كل ذلك نطلب رضا الله؛ لأن رضا الله جزاؤنا، وكان جزاءً عظيماً وفريداً في نظرنا. وكانت هذه الرؤية الجميلة قاسماً مشتركاً بين الجميع، ولذلك ساعد كل منا بما يستطيع في تحقيقها. واستخدمنا نقاط قوتنا في المؤازرة المتبادلة، وفي صون أنفسنا بأقصى ما نستطيع، كي لا تتحول نقاط ضعفنا إلى عوائق تعترض طريق نجاحنا.

كانت الأُخُوَّةُ بيننا تقوم على الإيثار والإخلاص والاستقامة الروحية. ولم نكن نسمح للدوافع المادية أن تقف في طريقنا. فالمتعة التي كنّا نحس بها -ونحن نعمل معاً في خدمة الإسلام- كانت تفوق أية متعة مؤقتة قد يجدها غيرنا في أفعال باطلة من قبيل لعب القمار أو شرب الخمر أو مغازلة النساء.

إن الكل يتكون من مجموع الأجزاء، وتشكّلت أخوّتنا ومحبتنا من أعمال بسيطة تنم عن الرفق: الأطباق التي يغسلها زملائي نيابة عني عندما كنتُ أذاكر، والطعام الذي يطهوه زملائي لي عندما أكون مضغوطاً في العمل، والملابس التي يغسلها زملائي

لي بينما أكون في الاجتماعات، والابتسامات وكلمات التشجيع عندما أكون محبَطاً، والمواساة في أوقات الحزن، والمسارعة بإخراج مال فائض عندما نكون في حاجة إلى بعض المال لسد العجز في ميزانية أنشطتنا. كنّا نخصص تقريباً ربع راتبنا للأنشطة الاجتماعية. إن الجهود المخلصة والتخطيط الجيد وصدق نياتنا وأعمالنا هي التي مكّنتْنا من أن ننجز كل الأهداف التي خططنا للقيام بها في مجتمعاتنا. ومع أننا كنّا بعيدين عن أوطاننا وكنّا نفتقد عائلاتنا بشدة، فإننا أنشأنا عائلة جديدة تقوم على روابط قوية تكاد تفوق روابط الدم.

كنتُ موفقاً لأنني استطعتُ أن أزور العراق في الأعوام ١٩٦٠، ١٩٦٢، ١٩٦٦. وطوال فترة ابتعادي عن الوطن، كنتُ أحافظ على وجود عائلتي في قلبي، وكنتُ أشتاق لأن أسمع صوت أمي وأبي ونصائحهما لي ومشورتهما الحكيمة. وكانا فخورين بي للغاية. وما زلتُ أترنّم قول والدي رحمه الله "خلِّ الله وياك، لا تخلِّ الله وراك".

حاولتُ دائماً أن أحافظ على دفقة الحياة في أصل جوهرنا، جوهري وجوهر كل رفاق دربي، وكنّا مؤمنين دائماً بما استخلَفَنا الله للقيام به في الأرض.

الفصل الثالث

هبوب رياح جديدة

"ما كان مُقدراً لك سيأتيك ولو كان بين جبلين، وما لم يكن مُقدراً لك لن يأتيك ولو كان بين شفتيك."

الإمام الغزالي

وتدور الكرة الأرضية من جديد

هناك فَرق شاسع بين الحياة التي عشتُها في إنجلترا وأنا مفعم بتفاؤل الشباب، وبمستقبل كنتُ أرسمه مما أقرؤه في الكتب ومما أعاينه في أساتذتي، وبين الحياة التي عشتُها بالفعل وأنا أدرك احتياجات الآخرين ونقاط ضعفهم. وأدركتُ تماماً أن الوجوب العقلاني لمسار الحياة لن يتوقف على ما أخطط للقيام به أو على خارطة الطريق التي أضعها لنفسي، بل على ما قدّره الله لي، ولذا عزمت أن أُسخِّر وجودي كله للدعوة إلى الله بطريقة تقوم على المبادرة والإيجابية، بالطبع في حدود فهمي للمشيئة الإلهية. تحوّلت الأيام إلى شهور، والشهور إلى سنوات، وسرعان ما انتهى وقتي في برمنجهام. وفي أوقات التأمل والهدوء، كانت رحلتي إلى المملكة المتحدة تتراءى لي رحلةً في داخل الروح، فكانت عبارة عن وعي بالذات، وإمكاناتها الكامنة في أعماقها. وكانت في الوقت نفسه رحلةً في العالم الخارجي، فكنتُ أعي احتياجات غيري من البشر، كما كنتُ أعي قيمة الوقت والموارد المستخدمة في تحسين أحوال حياة الناس لوجه الله تعالى، وكان لذلك عظيم الأثر في تحقيق الصالح العام، وتجاوز الأهداف الشخصية.

بالطبع لم ندرك أننا ننضج، لاسيّما في السنوات الأولى من مرحلة البلوغ في أواخر فترة المراهقة وبداية العشرينات من العمر. ولكنني أقصد بالنضج أكثر من مجرد المعنى المعتاد، فالنضج هنا نمو النفس والفطنة وحسن التمييز؛ لأن الرحلة إلى الذات أكبر من مجرد البلوغ الجسدي. فيمكننا أن نتخبط في خضم الحياة ومشاغلها بتصور سطحي عن الله ونقنع بكوننا مسلمين، أو يمكننا على الجانب الآخر أن نعبد الله ونحن واعون بالمطلوب منّا، وواعون بالقدر والمصير وبما يشاء الله لنا، وكأن كل ذلك شيء ملموس بالنسبة لنا كالهواء الذي نتنفسه. وقد لا يُحس المرء بذلك إذا أراد أن يُعمي عينيه، فالإنسان إمّا أن يختبئ وينسى نِعم الله عليه وينسى مشيئته سبحانه وتعالى، أو أن يسعى بكل ذرة في قلبه لأن يحقق مشيئة الله العلي القدير. وكنت أرى أن الخيار الثاني يعبّر عن امتثال النفس تماماً لمشيئة الله، وعن النضج الحقيقي.

لم يكن في نيّتي أن أذهب إلىٰ أمريكا، لكن القدر الجميل الذي نقلني من مدينة صغيرة في الريف العراقي، ثم إلىٰ مدينة بغداد الكبيرة، ثم إلىٰ إنجلترا، قد حتّم عليّ القيام بدور آخر في بلاد جديدة وفي قارة مختلفة تماماً. وجهّزتُ نفسي لوداع إنجلترا والإبحار هذه المرة إلىٰ أمريكا؛ أرض الفُرص. وعندما دارت بي الأرض دورة أخرىٰ، لم أكن أدرك أنني سأبدأ فصلاً من أهم فصول حياتي، وأنني علىٰ مشارف رحلة ستجمعني برجلين قويين كان لهما عظيم الأثر في حياتي حتىٰ يومنا هذا، وكان لهما منزلة كبيرة ورؤية عظيمة تتجاوز كثيراً رؤيتي المتواضعة لِمَا يمكن تحقيقه. ولو لم ألتقهما ما كنتُ أصبحت ما أنا عليه الآن. لكن الحديث عن ذلك سابق لأوانه وسأعود إليه فيما بعد.

خير بلا حدود

في البداية، تقاطرت مجموعة أحداث دون أن أدري. فبينما كنتُ أستعد للعودة إلىٰ العراق بعد أن حصلتُ علىٰ درجة البكالوريوس، وكنتُ أشعر بغصّة في حلقي، لأنني كنتُ مضطراً لأن أرحل عن المكان الذي صار عزيزاً علىٰ قلبي، كانت هناك خطط جريئة تتشكل علىٰ مهل وتفتح أعظم الآفاق لمستقبلي. كان أحد أساتذتي في جامعة برمنجهام قد كتب خطاب توصية لعالم مشهور في الولايات المتحدة الأمريكية يوصيه بأن أكمل دراستي العليا هناك، وأشاد في ذلك الخطاب بأدائي الدراسي المتميز بوصفه سبباً كافياً، وأكد فيه أنه سيكون من الخسارة الكبيرة إذا لم أحصل علىٰ منحة الماجستير والدكتوراه من جامعة أمريكية، وكان هذا كرماً بالغاً منه. وتلت ذلك لفتة كريمة أيضاً من سهيل الرفاعي، فقد أتبَع ذلك بخطاب تزكية يشيد بأهليتي للحصول علىٰ منحة دراسية. وبفضلهما ابتدأ فصل جديد من فصول حياتي، وفتح لي آفاقاً لم تخطر ببالي من قبل، ولا أعتقدُ أنني كنتُ سأسير في ذلك الدرب من تلقاء نفسي، وما زلتُ مُمْتَنّاً لهما لاهتمامهما بمصلحتي. فما أروع الأشياء البسيطة التي تنمّ عن العطف والمعروف والفضل بين البشر! إنها تتجمع لتشكّل أعمالاً كبيرة تصبُّ في صالح الآخرين. فبهذه الطريقة أنجزنا كثيراً عندما كنّا نحاول أن نساعد الجالية المسلمة في المملكة المتحدة.

ودارت العجلة بسرعة عندما تواصل سهيل الرفاعي مع أستاذ جامعي اسمه سيد محمد فاروق علي، يعمل في جامعة ولاية بنسلفانيا State University of Pennsylvania. وبادر فاروق علي بالتواصل مع رئيس قسم هندسة البترول في الجامعة، وبذلك تمّ قبولي في برنامج هندسة البترول، واستلمتُ خطاب القبول من جامعة ولاية بنسلفانيا، واندهشتُ عندما علمتُ أن الجامعة قدمت لي منحة دراسية. وتطورت الأمور بسرعة كبيرة لدرجة أن الوقت لم يسعفني لأن أتمهل في التفكير في الموضوع أو أستوعبه كاملاً. فقد لفت انتباهي الآن بأن التكنولوجيا ربطت العالم كله، لكن الأمور آنذاك لم يكن بالإمكان إدارتها أو تنفيذها بأسرع من ذلك، فالحياة كانت بسيطة ووتيرتها بطيئة. ولم أصدّق نفسي عندما علمتُ أنني سأذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة هندسة البترول في جامعة ولاية بنسلفانيا، وأنني سأبدأ دراستي في العام الجامعي ١٩٦٣-١٩٦٤.

عندما بدا كل شيء يسير بسلاسة وعلى ما يرام، أدّى الروتين والوثائق المطلوبة والبيروقراطية وكل ما هو مطلوب من المسافرين في كل مكان إلى تعطيل الأمور. ففي ذلك الوقت، كان كل جواز سفر عراقي به قائمة بالدول المسموح للعراقيين بالسفر إليها، ولم تكن الولايات المتحدة الأمريكية من بينها، ورفضت السفارة العراقية في لندن طلبي السفر إلى الولايات المتحدة، فأحسستُ بالإحباط والسُخف من وقوف القواعد والتنظيمات البيروقراطية حائلاً بيني وبين طموحي، فجرَّةُ قلمٍ تتقيد بالروتين والإجراءات الشكلية قد تغيّر المستقبل دون أي اعتبار لآمال البشر وأحلامهم وطموحاتهم. ولكنني لم أكن ممن يرضخون للأمر الواقع، فقد اكتسبت خبرة كبيرة في التعامل على مدار السنوات الماضية مع المواقف الصعبة والأشخاص الذين يصعب في العادة التعامل معهم؛ فلم أبكِ على اللبن المسكوب، كما يقول المثل، ولم أُهدر وقتي. فسارعتُ إلى السفارة الأمريكية في لندن، وعرضتُ مشكلتي على المسؤولين فيها، على أمل أن أحصل منهم على رد إيجابي يمكّنني من أن أتقدم بطلب للحصول على تأشيرة طالب. راجعَ القنصل العام الأمريكي طلبي لدقائق، وأحسستُ بأنها ساعات طويلة مليئة بالعذاب، ودُهشتُ لموافقته على الطلب! وعلى الجانب الآخر، استغرقت السفارة العراقية في لندن أربعة شهور للرد على طلبي، وبما أن مستقبلي كله كان يتوقف على هذا الرد، فلم يكن أمامي إلا أن أقضي هذه الشهور في الانتظار والأمل.

نظرات ثاقبة: فلسفة أكثر حكمة

وصلتُ إلى الولايات المتحدة الأمريكية في صيف ١٩٦٣، وكنتُ شابّاً في العشرينات من عمري، وكنتُ أكثر نضجاً وحكمةً من الشاب الغِرّ الذي جاء إلى مطار لندن البارد الرطب، منذ فترة تبدو لي طويلة جداً، وعيناه مليئتان بالدهشة والفضول. لقد غيّرتني تلك السنوات الخمس التي قضيتُها في إنجلترا. فبالإضافة إلى العُمْر الذي نما، توقدتْ داخلي شعلة قوية ومفعمة بالشغف مثل إيماني بالله، واكتشفتُ أنني لا أخاف من الوضع الجديد إلا قليلاً، لأنني كنتُ أمضي في الحياة بثقة وسط عالم مليء بالناس، وكنت أحسُّ بنعمة التغيُّر وبقدرتنا على تحسين الأمور.

لم يكن هذا التغيُّر في طريقة التفكير وفي درجة الوعي يرجع إلى التجارب الكثيرة التي مررتُ بها في إنجلترا فحسب، بل الأهم أنه كان يرجع إلى الخيارات الصعبة التي كان ينبغي أن أقوم بها؛ إذ هي خيارات تتطلب اتخاذ قرارات حاسمة في أمور معقدة وأحداث عابرة. وأدّى اضطراري الدائم لأن أحل المشاكل بنفسي إلى تطوير فنّ التفاوض، والتدرُّب على النظر بعقلانية في الأمور المشحونة بالعواطف، وعلى تحسين مهارات التواصل. وسرعان ما أدركتُ أن التحديات مِنْحَة في شكل مِحْنَة، وأنني عندما أخرج من حاضنة الأمان التي أعيش فيها وأجد نفسي في وسط البحر، سأضطر لأن أتعلم العوم وأكتسب مهارة حياتية جديدة؛ فالبشر يرتاحون لعاداتهم ويحسُّون بالأمان عندما يحيطون أنفسهم بالمألوف الذي يستطيعون التحكم فيه، وينحصر تطلعهم للنجاح في نطاق مريح خال من التحديات. ولكن ليست الراحة طريق النجاح، فإذا كان المرء يريد أن يشارك مشاركة مهمة في مراحل الحياة، وأن تكون لديه رؤية متسعة وقناعات واضحة، عليه أن يضع أسساً قوية لشخصيته والتزامه وتفانيه واجتهاده وشجاعته، ولا يتأتى ذلك إلّا من إحساس كبير بالمسؤولية، ومن عدم الخوف من الصور الضبابية وغياب اليقين. فعندما لا تواجهنا تحديات، يصيبنا الضمور ونحن نبدد طاقتنا في الحفاظ على وجودنا الضئيل وعلى تكديس المقتنيات، ونعجز عن التفكير على مستوى أوسع وعن إخراج إمكاناتنا الحقيقية. ففي هذه

الحالة، تخلو الحياة من الحركة الحقيقية، وتفتقر إلى الاستباق والمبادأة، وتصير حفاظاً على الوضع القائم فحسب، وهذا يتنافى مع غاية الاستخلاف ومقصد العمران.

أعود وأقول: إن التغيير يتطلب شجاعة الالتزام بمواجهة التحديات حتى يمكننا أن نُحْدِث تطويراً وإصلاحاً. حاولتُ أنا وزملائي أن نبذل قصارى جهدنا للوصول إلى هذه الغاية. ومع مرور الوقت بدأنا نُدرك أمرين: أولهما أن هذه الغاية لا تتحقق، وثانيهما أن النجاح يأتي بعد مواجهة التحديات. وكان النجاح يدفعنا للأمام دفعاً حقيقيّاً؛ لأنه حفّزنا على أن نعمق الإيمان بغايتنا ونواصل جهودنا من جديد حتى نواجه كل التحديات التي ستظهر حتماً في طريقنا. ومن هنا تعلّمنا فن التجديد الدائم لوسائلنا بغية الإتقان مهما كلفنا ذلك من جهد وتضحية بالمال.

بمجرد أن تشكلت الصورة في رأسي واتخذت قراراً حاسماً في طريقة تحقيق هذه الصورة على أرض الواقع، كان عليّ أن أخطو الخطوة التالية، وأطرد الأفكار السلبية للأبد، وأواجه الشكوك الداخلية التي تحاول أن تثنينا عن تحقيق غايتنا بمجرد أن نتخذ قراراً بالقيام بشيء إيجابي محدد. وكثيراً ما كنتُ أصطدم بأشياء تدعوني لأن أكف عن العمل الذي بدأتُه. فليس الطريق هيِّناً، ولكنني قبلتُ هذه الصعوبة، وواصلتُ مواجهة التحديات، وعقدتُ عزمي على أن أواجه الأمور بقوة وإصرار. واتضح لي أن دربي هو درب النمو الروحي، فكانت روحي تشتاق للنمو، ولا شيء يستطيع أن يُشبع روحي مثل خدمتي لرفاقي في الإنسانية. وعندما سرتُ على هذا الدرب، بدأتُ أكتشف آخرين على الدرب ممن التزموا مثلي بالأهداف التي وضعناها معاً. ومن جوانب هذا النمو الروحي أنني صرتُ لا أعتمد على الأفراد بقدر اعتمادي بشكل متزايد على الأفكار التي ننشرها، وعلى العمل الجماعي في حد ذاته. أؤمن بأن مشيئة الله تتمثل في أن ينمو الإنسان، وأن عملية النمو والتطور تتضمن في العادة تهيئة الظروف التي تجعل المرء ينتقل من مكان إلى آخر. فنحن نغيّر وسائلنا وأساليبنا عندما نتحرك باستمرار، والغرض من ذلك أن تتزايد فرصنا في النجاح في المكان الجديد.

العالم الجديد

أمريكا، يا لها من عالَم جديد! لقد استحوذت على حواسّي، فهي حديثة وأسطورية وشاسعة ومزدحمة ومفعمة بالحركة والنشاط، ولكنها تعطيك إحساساً طاغياً بالغرب الأمريكي الجامح، إحساساً بعالم جديد لا يعرف الترويض ولا القيود. لم يكن عالم رعاة البقر والهنود الحمر شديد البُعد عن عالم وول ستريت المليء بخليط عجيب من البشر الذين يعيشون حياة المال والاقتصاد والشركات على جانب، وعلى الجانب الآخر أناس يرعون الأبقار ويتنافسون في مسابقات الفروسية. كنتُ مفتوناً بتلك المظاهر، وكان لوجودي في أمريكا عظيم الأثر في شخصيتي، وأضاف المزيد إلى ما تعلمتُه من قبل. كانت بريطانيا هادئة عندما أقارنها بالولايات المتحدة الأمريكية؛ فإنجلترا مثل امرأة عجوز وحكيمة، أمّا أمريكا فقد كانت تعطيني شعوراً بالقوة والحيوية والنشاط والحماس والشباب. فقد شعرتُ بالقوة بمجرد وصولي؛ لأنني كنتُ أعرف أن معارفي ومداركي ستتطور كثيراً بسبب وجودي في أمريكا، وأنني سأشارك في بعض المشروعات والأعمال المهمة للغاية. وتدفّق من داخلي في هذه البيئة شعورٌ متجدد بالطاقة والثقة؛ لأنني كنتُ متهيئاً للمهام التي تنتظرني، وللعمل الذي يتعين عليّ أن أقوم به. الجِدَّة تزيد المرء حيوية وقوة وإصراراً على التحدي والإنتاجية، وكنتُ أشعر بأن أمريكا جديدة بما للكلمة من معنى.

جامعة ولاية بنسلفانيا

State University of Pennsylvania

كانت جامعة ولاية بنسلفانيا في الستينات لها أربعة وعشرون حرماً جامعيّاً، ويعمل فيها سبعة عشر ألف عضو هيئة تدريس وموظف، ويدرس بها مائة ألف طالبٍ. وبها

مستشفىٰ جامعي يخدم أكثر من مليون مريض سنويّاً. وتخرَّج فيها أكثر من نصف مليون طالب يعملون بهمّة ونشاط حول العالم. ولها حرم جامعي افتراضي علىٰ الإنترنت يستفيد منه أي طالب علم يسعىٰ لإكمال دراسته في أي وقت ومن أي مكان، بالإضافة إلىٰ وجود أكبر منظمة خيرية يديرها الطلاب علىٰ مستوىٰ العالم.

تقع الجامعة في ولاية بنسلفانيا، وهي من ولايات الساحل الشرقي في الولايات المتحدة الأمريكية (جهة الشمال)، وتشترك في حدودها مع ولاية نيويورك. وكان موقعها مثاليّاً بالنسبة لي، لأنني كنتُ أستطيع الوصول بسهولة إلىٰ المركز الحقيقي لأمريكا وللعالم أجمع؛ مدينة نيويورك، وهي مدينة ذات تأثير عالمي هائل، وبوتقة تنصهر فيها كثير من الثقافات والشعوب المختلفة. لم أصدق أن الله كتب لي أن ترسو سفينتي هنا من بين كل الأماكن الأخرىٰ في العالم، لا بد أن تكون هناك حكمة إلهية من وراء ذلك. وبالفعل كانت هناك حكمة عظيمة؛ لأنه تحت سماء مدينة نيويورك التي تُلقّب بالتفاحة الكبيرة، قدّر الله لي أن أكوّن بعض العلاقات المتينة، وأن أعمل مع جاليات مسلمة كثيرة، وبمجرد أن استقر بي المقام في وطني الجديد خرجتُ للبحث عن هذه الجاليات.

وبعيداً عن صخب حياة المدينة وإيقاعها المتسارع، كانت المناظر الطبيعية تفوق الوصف، وكانت تختلف عن المناظر الطبيعية في إنجلترا التي تتميز بالتلال الرقيقة المتموجة، وكان لها جمالها الخاص بالطبع، ولكن جمالها مختلف عن جمال المناظر الطبيعية في أمريكا حيث الطبيعة الساحرة والأسطورية من وجهة نظري. تمر سلسلة جبال الأبالاش (Appalachian) بوسط بنسلفانيا، وهي جبال مهيبة، وتتدرج الأشجار علىٰ المنحدرات في بحر مترامٍ علىٰ مرمىٰ البصر من أشجار شديدة الخضرة؛ مثل الأشجار الراتنجية (الصمغ) وأشجار الدردار، وعشرات الأنواع الأخرىٰ من الأشجار التي تأوي مختلف الأنواع العجيبة من الحيوانات، والطيور، والحياة البرية، والأسماك التي تعيش في بحيرات واسعة شفافة يترقرق فيها الماء. وتبرز هنا وهناك تشكُّلات صخرية ضخمة وصلبة، رمادية اللون وشديدة الانحدار، تخلو من الخضرة. كانت راسية، وبدا لي منظرها كأنها تنتمي لعصور ما قبل التاريخ، ففيها مَشاهد خلابة لكل شيء تقريباً.

أنا وقلمي

أمريكا كبيرة وتتطلب التفكير على مستوى أكبر. وفي مساء أحد الأيام بعد وصولي بفترة وجيزة، أحسستُ فجأة بالرغبة في الكتابة، فأمسكتُ قلمي، وهو قلم جميل ذو سن ذهبي ماركة شيفر Sheaffer، نظرتُ في دفتري وبدأتُ الكتابة. لم أكن أكتب شيئاً محدداً، كنتُ فقط أضع على الورق أفكاري وانطباعاتي وأحاسيسي. وجاد عليّ قلمي حينئذ بكلمات غزيرة، فأنا وقلمي صديقان منذ فترة طويلة وكنتُ أعتز بصداقته. صغنا معاً على الورق أفكاراً مجردة ومنحناها شكلاً ملموساً (ربما كان ذلك شيئاً عاديّاً، لكنه كان معجزة بالنسبة لي)، وشهدنا معاً إنجازات كنتُ أشعر بأنها ستتواصل دون أن تضمر أو تفتر، ما دمتُ قد اخترتُ أن أسير على درب التغير والنمو الفكريين.

قد تستغربون تشخيص القلم بهذه الطريقة، ولكن دعوني أشرح لكم الأمر أيها الأحبة الأعزاء. من عيوب ثقافتنا الاستهلاكية طغيان الأشياء المادية علينا، فنحن نسعى لتكديس "الأشياء"، وسرعان ما ننصرف عنها عندما تظهر أشياء أجمل أو أفضل منها، ولكننا أيضاً سرعان ما نحس بالملل. ويرجع جزء من هذه المشكلة إلى أن عملية الاقتناء سهلة، ولا تربطنا بالأشياء التي نقتنيها علاقة رمزية. وما أن نقتني هذه الأشياء لا نُضفي عليها أية قيمة حقيقية غير القيمة المالية عديمة الروح، ولكن قلمي (شيفر) لم يكن كذلك، فكان يرمز إلى لحظة خاصة جداً في حياتي ولذكرى عزيزة عليّ. فقد حصلتُ على هذا القلم بمناسبة فوزي بالمركز الأول في مسابقة الخطابة الوطنية في منطقة شمال العراق، وإن الاستعداد لهذه المسابقة التي يُقْبِل عليها كثيرون تطلب منّي أن أبذل جهداً مضنياً وأن أتبع نظاماً صارماً، وصار هذا القلم رمزاً لمكافأة على ما أبذله من كدّ واجتهاد وتفانٍ، وكان سبباً في أول فرحة لي على طريق الإنجازات، ولذلك صار فوزي بالقلم في تلك المسابقة القديمة رمزاً لقيمة غالية وسيظل كذلك دائماً.

عُقدت المسابقة في مسقط رأسي مدينة أربيل، وهي عاصمة إقليم كردستان في شمال العراق، وكان الفائزون بالمراكز الأولى يسافرون إلى بغداد، وهي عالم جديد تماماً علينا، وكما ذكرتُ من قبل ذهبتُ إلى بغداد في البداية بصفتي طالباً، ثم بصفتي تاجراً لاحقاً.

كنت أشعر أن رحلتي إلىٰ بنسلفانيا تتبع مسار السَّفر والدراسة، وكنتُ أحسُّ بأن هذه الرحلة ستغيّر حياتي، مثلها مثل كل رحلاتي السابقة. كان هواؤها مشبَّعاً بالإحساس بالإمكانات والوعود. يقول الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

تتردد في رأسي دائماً أربع كلمات موجزة غيرت مسار التاريخ والحضارة في كثير من البلدان، وهي ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. هذه الكلمات تحمل في طياتها وضوح الرؤية ووضوح الإيمان ووضوح المسائل علىٰ حد سواء. فالحياة الحقيقية هي التي تتشكل وفقاً لما تنطوي عليه هذه الكلمات، إنها تبلور توجُّهي ومساري في الحياة كلها، وبفضلها ركزتُ كل جهودي ونفسي ومالي لخدمة الأنشطة التي تطور العمل المؤسسي وكنت بذلك أجاهد في سبيل الله، وهذا عكس ما كنت كانت عليه رحلاتي التجارية إلىٰ بغداد.

واجتمع شمل الأصدقاء القدامىٰ في مسجد

أمدّتْني الشهور الأولىٰ التي قضيتها في هذه البيئة الجديدة بفرص ونظرات تقترن عادة بتغيير مكان الإقامة، فكل شيء جديد ومفعم بالحيوية والروح، ولكن الماضي لم يكن بعيداً تماماً، وسرعان ما أمدّني بأجواء من الألفة والمؤانسة، وكان بصحبتي قلمي الصدوق الذي يرافقني طوال هذه التحوّلات، وما تتضمنه من تغيّر الأماكن. وجاء في أعقابه أشخاص من أصدقائي القدامىٰ الذين لم أكن أظن قط أنهم موجودون بالقرب مني في المكان الجديد.

في يوم جمعة سافرتُ إلىٰ العاصمة واشنطن لزيارة المركز الإسلامي، وكانت صلاة الجمعة تُقام في المركز، كنتُ أفكر في المستقبل دائماً، ولذلك أردتُ أن أتعرف علىٰ أعضاء الجالية المسلمة، وأعرّفهم بنفسي، بهدف تكوين شبكة قوية من العلاقات

الإنسانية. وكنت جالساً في المركز الإسلامي في صف من صفوف المصلين أقرأ القرآن قبل خطبة الجمعة. وفجأة شعرتُ بيد على كتفي وسمعتُ صوتاً مألوفاً. اندهشتُ أيّما اندهاش، وسعدتُ أيّما سعادة عندما وجدت أن الشخص الذي شعرت بيده وسمعت صوته هو صديقي الطيب وزميلي أحمد الألوسي! غمرتني سعادة بالغة، فقد رأيته آخر مرة في المملكة المتحدة. يا له من لقاء رائع!

كنّا سعيدين جداً، لأننا التقينا من جديد، وما أن انتهت خطبة الجمعة والصلاة؛ حتى جلسنا وتجاذبنا أطراف الحديث. كان لديه الكثير ليقوله، وأنصتُّ إليه باهتمامٍ ومتعة، وكنت محتاراً على وجه الخصوص وأنا أستمع لأخبار الزملاء القدامى الذين انخرطوا الآن في السياسة. وكثيرون منهم صاروا نشطاء، أو انضموا لهذا الاتجاه أو ذاك، لاسيّما أن المناخ السياسي في ذلك الوقت كان حامي الوطيس، بما في ذلك تطوّر الحركة الناصرية. أطلتُ التفكير في الدروب المختلفة التي اختار بعض زملائنا السير فيها، وتعجبتُ من الدروب المتنوعة التي قادتنا إليها الحياة، وافتقدتُ الأيام الخوالي. ولكنني تخلصت من كل هذا التنازع العاطفي الذي جال في فكري، عندما اصطحبني أحمد مساءً لزيارة صديق مشترك كوّنت معه علاقة متواصلة، وكنتُ أُكنُّ له التقدير الجليل، وهو الصديق العزيز أحمد فريد.

الأستاذ فاروق علي

تخرّج الدكتور فاروق علي في مجال هندسة البترول في جامعة برمنجهام، والعجيب هنا أن دروبنا تقاطعت من جديد. كان فاروق بجانبي منذ اللحظة التي وصلتُ فيها إلى جامعة ولاية بنسلفانيا،

١٩٨٠. فاروق علي مشرفي في رسالة الماجستير في عام ١٩٦٤ ورسالة الدكتوراه في عام ١٩٧٠ وابني محمد على يمينه وابنتي إلهام على يساره.

وكان حريصاً على مساعدتي ومخلصاً وكريماً، كما أنه كان رجلاً عمليّاً بشكل رائع، ووفّر عليّ الجهد والوقت، واختصر معاناة تأقلمي مع البيئة الجديدة في الحياة الجامعية الأمريكية، وقام على الفور بالترتيب لأن أعمل في قسم هندسة البترول قبل أن أبدأ حضور المحاضرات في فصل الخريف. وكان الأجر الذي يتقاضاه الموظف في معمل الجامعة آنذاك دولاراً واحداً في الساعة. وقد يبدو هذ الأجر زهيداً الآن، لكنه كان مبلغاً كبيراً آنذاك. كنت أعمل لثماني ساعات يوميّاً في المعمل طوال أيام الأسبوع، ومكّنني راتبي من تغطية نفقاتي، كما كان يعطيني إحساساً بالكرامة، فكان إحساسي بأنني أجني ثمار عملي إحساساً رائعاً. كما كان لذلك ثمار إضافية، فتعلمتُ من المشاريع البحثية التي كانت تُجرى في المعمل كيف أُجري البحوث بنفسي، وكان لذلك عظيم الأثر على المدى الطويل، فقد سرّع وتيرة إنجازي وحصولي على درجة الماجستير في العلوم، وأكملتُ المقررات اللازمة للحصول على هذه الدرجة في تسعة أشهر فقط، دون أن أخلّ بجودة عملي، وتمكنت من أن أحصل على درجات ممتازة في المواد الدراسية كلها.

لم يكن فاروق عقلية عادية، بل تجلَّتْ عقليته الفذة في أسلوبه المتفاني والصريح والكريم، وكان من أهم ثلاثة متخصصين في مجال هندسة البترول في الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت، وقد حظي بالتقدير والتكريم، دون أن يغترّ بنفسه، وكانت لديه أعباء كثيرة تشغل وقته، فكيف اقتطع من وقته فسحاتٍ من الزمن ليساعدني؟ وكان إيثاره الفريد هو الإجابة الشافية. على سبيل المثال تمَّ الإعلان عن امتحان قبول في برنامج الدكتوراه لي ولمجموعة من طلاب الدكتوراه الآخرين، فما كان من فاروق إلا أن شجعني على دخول الامتحان قبل أن أحصل على درجة الماجستير، معلِّلاً ذلك بأنه سيوسع آفاقي ويسهّل حياتي على المدى الطويل. ولم أكن قد فكّرتُ في ذلك الأمر، لأنني كنتُ مضغوطاً في العمل لثماني ساعات يوميّاً، كما أنني لم أكن متأكداً تماماً من أنني مؤهّل لاجتياز ذلك الاختبار، ولكن فاروق هدّأ من مخاوفي؛ لأنه كان مقتنعاً تماماً بأن مستواي لا يقل عن مستوى الطلاب الآخرين الذين سيؤدون ذلك الاختبار، ولن أنسى أبداً يده اللطيفة وهي تربت على كتفي وتطمئنني، وهو يحثّني بهدوء وثقة على أن أمضي قُدماً وأدخل الامتحان، ولم يكن بإمكاني أن أرفض وأنا أراه يحثني ويشحذ

عزيمتي كما لو كان يطلب منّي أن أصنع له معروفاً، وأحسستُ بأنني سأكون غير مهذب لو رفضتُ طلبه.

كان فاروق يتميز بتواضع أصيل، فما الذي سيفرق معه إذا نجحتُ أنا في الحياة أم أخفقت؟ كان يحاول أن يشكّل تطوُّري، وكان يرعاني وهو يرتدي عباءة البساطة، في حين أنه كان بإمكانه أن يهشَّني كما يهش الذبابة، وكان بإمكانه أن يركز على أمور أهمّ مني تناسب عقله الكبير. كان هناك آخرون يتباهون بتقديم مساعدات للآخرين أقل من ذلك بكثير، وكان الغرور ينضح منهم في كل حين، وكانوا ينتفخون بالإحساس بالعظمة. أمّا فاروق فكان عالِماً يحظى بالتقدير في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان رائداً في المجال الذي اختاره، وكان عبقريّاً في إتقان اللغات. وكلمة "عبقري" لا توفيه حقه؛ لأنه كان يتحدث بطلاقة لغات متعددة، ومنها: الإنجليزية والروسية والعربية والأردية وبعض اللغات الهندية الأخرى والألمانية والفرنسية والبرتغالية والإسبانية وقدراً من اللغة الصينية. وقلّما يقابل المرءُ في حياته مثل هذه القامة، والأندر أن يقابل المرء شخصاً لم تفسده كلُّ هذه المؤهلات والمَلَكات. فقد كان فاروق يتحدث ويسير في الأرض كما لو كان أقلَّ شخصٍ عاديٍّ في العالم كله. ومع أن الناس كانوا يمتدحونه ويثنون عليه دائماً، فإن هذا الثناء لم يفسده. كما أنه لم يُغرق نفسه في عالم الكتب والأكاديمية، مثلما يقع العلماء في هذا الفخ بسهولة، وينسون الناس واحتياجاتهم. فقد كان يسعى وراء الناس ليمد لهم يد المساعدة، وكان صادقاً في مساعدته، وكان يتمنى لهم النجاح من كل قلبه. ولذلك كنتُ آخذ بنصيحته دائماً. وأتذكر أنه طلب منّي ذات مرة أن ألتحق بدورة في القراءة السريعة، فلم أتردد في الالتحاق بها. واتضح لي أن لها عظيم النفع والأثر في تسريع وتيرة تعلُّمي.

أشرف فاروق طوال حياته على ما يربو عن مائة وخمسين رسالة دكتوراه، وعلى رسائل ماجستير أكثر من ذلك، وحصل على ملايين الدولارات لتمويل أبحاثه. وكنت دائماً أثق بكلامه. ولذلك دخلتُ امتحان قبول الدكتوراه كما نصحني، ولدهشتي نجحتُ في الامتحان، وشعرتُ بالارتياح، لا لأنني نجحتُ فحسب، ولكن لأنني لم أخذل (فاروق) أيضاً، وكان مجرد التفكير في خذلاني له شيئاً مخيفاً. وازدادت دهشتي عندما وجدتُ أنني

لم أستغرق في الامتحان إلا ساعتين ونصفاً فقط (بالمقارنة بمعظم الطلاب الذين استغرقوا في حل أسئلة الامتحان حوالي ست ساعات)، وحصلتُ على أعلى الدرجات بفارق كبير بيني وبين الطالب الذي تلاني في الترتيب (فقد حصلت على ٩١ درجة في حين أن أعلى درجة بعدي كانت ٦٧). من الواضح أن فاروق كان يقدّر قدراتي بما يفوق تقديري لها، وهز رأسه بانتصار عندما سمع الخبر، قائلا: "ألا ترى؟ كنتُ واثقاً تماماً أنك ستتمكن من النجاح بتفوُّق". لا أقول ذلك للتباهي، بل لأبيّن درساً لا بدَّ أن نضعه جميعاً في اعتبارنا. كم من مرة في حياتنا فشلنا في أن ننمو نموّاً شخصيّاً سليماً لأننا دمرنا أنفسنا بسبب فقدان الثقة بالنفس، والشكِ في قدراتنا، وتخيُّل أسوأ السيناريوهات، وعدم قدرتنا على الثقة بقدراتنا وصحة تقديرنا للأمور ونتائجها المرجوة. عندما نقول لأنفسنا: إننا لن ننجز ما نصبو إلى إنجازه، نكون جبناء، لأن ما نشعر به فعلاً هو الخوف. والتغلب على الخوف خطوة مهمة على طريق نجاح أي شخص، وهو أحد العوامل المهمة في تحقيق التغيير.

كانت دراستي في جامعة ولاية بنسلفانيا تستغرق ست سنوات، وبفضل الله كانت منحتي الدراسية تُجدَّد سنوياً بشكل تلقائي. لقد لعب ذلك الرجل دوراً كبيراً في حياتي، ومهما تكلمتُ فلن أوفيه حقه. لقد كان خير مثال على الخير والفضيلة في العالم، وتجلّى ذلك في حرصه الواضح واهتمامه بنجاحي وسير أموري على ما يرام، من دون مكسب سوى أن يراني ويرى الآخرين ناجحين.

١٩٦٤. الأستاذ الدكتور ستال رئيس قسم هندسة البترول في جامعة ولاية بنسلفانيا. نناقش هندسة الخزانات.

١٩٦٤. الولايات المتحدة الأمريكية، جامعة بن ستيت، أمام مبنى قسم هندسة البترول مع أصدقائي الخريجين. وأنا الثاني من اليمين.

١٩٦٤. الولايات المتحدة الأمريكية، قسم هندسة البترول في جامعة ولاية بنسلفانيا University of Pennsylvania. بجانب معدات التجارب في المعمل.

١٩٦٤. الولايات المتحدة الأمريكية، حفلة تخرج الماجستير من جامعة بنسلفانيا University of Pennsylvania. وأنا على اليسار مع فاروق فوزي من مصر، وهو أول رئيس لاتحاد الطلبة المسلمين في جامعة ولاية بنسلفانيا. وتمثال الأسد في الخلفية رمز الجامعة.

تأسيس اتحاد الطلبة المسلمين في جامعة ولاية بنسلفانيا

تم تأسيس أول اتحاد للطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية Muslim Student Association (MSA) في جامعة إلينوي في مدينة تشامبين إربانا (Champaign-Urbana) عام ١٩٦٣. وتطور هذا الاتحاد من بداياته المتواضعة إلى أن صار بعد ذلك مؤسسة طلابية كبرى مسجلة رسمياً، وتندرج تحتها مؤسسات عدة في أمريكا الشمالية. ويقوم اتحاد الطلبة المسلمين بعقد المؤتمرات والمخيمات وأسبوع التوعية الإسلامية في الحرم الجامعي، ويناقش موضوعات متخصصة، وينظم المحاضرات والمناسبات الاجتماعية المختلفة، كما أنه يجمع تبرعات للأعمال الخيرية، ويلبّي احتياجات الطلاب المسلمين بوجه عام. ولكن ذلك الاتحاد على عهدي آنذاك كان صغيراً يتلمس طريقه، ومع ذلك كنّا نريد أن نؤسس فرعاً لاتحاد الطلبة المسلمين في جامعة ولاية بنسلفانيا.

كانت جامعة ولاية بنسلفانيا تشترط وجود عشرين عضواً على الأقل في أي اتحاد حتى يكون اتحاداً مسجلاً وتابعاً للجامعة. وعند تأسيس فرع اتحاد الطلبة المسلمين في الجامعة، تمكّنّا من تجميع سبعة عشر عضواً، ولكننا للأسف كان ينقصنا ثلاثة أعضاء، وبحثنا كثيراً، ولكننا لم نستطع أن نعثر على أي مسلم آخر في الجامعة. وكان علينا أن نفكّر خارج الصندوق أمام تلك العقبة المفاجئة. وناقشنا إمكانية أن نتواصل مع بعض الطلاب غير المسلمين لنرى إذا كان بإمكانهم مساعدتنا للخروج من هذا المأزق. ولم يمض وقت طويل، واستطعنا أن نسجل أسماء طلاب غير مسلمين للوصول إلى العدد المطلوب. وبذلك وُلد اتحاد الطلبة المسلمين في جامعة ولاية بنسلفانيا، واستطعنا أن نؤسسه في غضون ستة أشهر من وصولي إلى الجامعة.

الصلاة في كنيسة مرة أخرى

على أية حال، بعد أن تمَّ إنشاء اتحاد الطلبة المسلمين، بدأنا في الانتقال للخطوة التالية، وهي إيجاد مكان نصلي فيه صلاة الجمعة. صُدِمَ أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين عندما اقترحتُ أن نصلي في الكنيسة. كان التفكير خارج الصندوق قائماً، ولكن تلك الفكرة كانت خارج الصندوق تماماً، واعترض الأعضاء؛ لأن الاقتراح كان من وجهة نظرهم اقتراحاً غريباً للغاية. ولكنني قلت: "ما المانع؟" وحكيتُ لهم عن تجربتنا في برمنجهام، وعن كرم زملائنا المسيحيين. لحسن الحظ، أيّد فاروق الفكرة، وبذلك رجحت كفة حُجتي. وتقدمنا بالتماس للكنيسة الصغيرة في الجامعة، ولم يمرّ وقت طويل حتى وجدتُ نفسي أصلي صلاة الجمعة من جديد في كنيسة.

تقدمنا خطوة أخرى للأمام، وكانت المهمة التالية تتمثل في تعيين رئيس للاتحاد. وعُقدت الانتخابات، وفاز فيها الطالب فاروق فوزي، وصار أول رئيس لاتحاد الطلبة المسلمين في جامعة ولاية بنسلفانيا. وعندما تخرج فاروق فوزي في الجامعة،

عقدنا انتخابات رئاسة الاتحاد من جديد، وفاز برئاسته هذه المرة عباس جباري، وكان عباس على النقيض تماماً؛ إذ كان شيعيّاً من إيران. واستغرب بعض الطلاب السُّنَّة من أن يصير طالب شيعي رئيساً للاتحاد، فبدأوا في التشكيك في نتائج الانتخابات. وعندما كانت الأقلية أعلى صوتاً من الأغلبية، قررتُ أن أقضي على هذا التشكيك في مهده بسرعة، فلفتُّ الانتباه إلى أنه لا السُّنة ولا الشيعة يعرفون كل شيء عن الإسلام، وقلتُ: إننا ينبغي علينا أن نستغل الفرصة في التعلُّم قبل أن نزعم أي زعم. وكان عباس جباري واعياً تماماً بالانقسامات السياسية التي على وشك الغليان، ولكنه كان حكيماً هادئاً وتجنب الدخول في الصراع. في الواقع، استطاع عباس أن يوحّدنا فكريّاً في أثناء فترة توليه لرئاسة الاتحاد، وكان قدوة رائعة في صواب الرأي وحكمة القيادة.

١٩٦٥. في بيت فاروق علي في بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية. فاروق فوزي الأول من اليمين، وهو أول رئيس لفرع اتحاد الطلبة المسلمين في ستيت كوليج بنسلفانيا، وأنا يسار الصورة.

جذور اتحاد الطلبة المسلمين على مستوى أمريكا

بعد تأسيس أول اتحاد للطلبة المسلمين في جامعة ولاية بنسلفانيا، بدأنا في البحث عن اتحادات الطلبة المسلمين التي قد تكون موجودة في جامعات أخرى من الولايات المتحدة الأمريكية. عندما كنّا في المملكة المتحدة، أنشأنا اتحاد جمعيات الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية، وكان ذلك الاتحاد يضم سبع جمعيات طلابية، وكنّا نأمل أن نؤسس اتحاداً عاماً لاتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا الشمالية بمجرد ما حددنا أماكن بعضها.

١٩٦٥ . أثناء تخطيطنا لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، في مدينة كربونديل Carbondale في ولاية إلينوي. من اليسار: أنا (الرئيس المنتخب حديثاً لاتحاد الطلبة المسلمين) وإسماعيل أحمد من الموصل، وفيصل نائب رئيس اتحاد الطلبة المسلمين (من كركوك)، وإبراهيم كليزي من سوريا الرئيس المستقبلي لاتحاد الطلبة المسلمين في عام ١٩٧٠ .

أُرسلت دعوة للاتحادات من الحرم الجامعي الرئيس لجامعة إلينوي University of Illinois في تشامبين إربانا، وهي مدينة صغيرة في ولاية إلينوي، وتأسس في تلك الجامعة أول اتحاد للطلاب المسلمين. وكان الهدف من الدعوة تأسيس اتحاد للطلاب المسلمين يشمل كل اتحاد محلي للطلبة المسلمين في أمريكا الشمالية، ولذا صدرت نشرة عن اتحاد الطلبة المسلمين في جامعة إلينوي في حرم تشامبين إربانا الجامعي، وتضمنت اقتراحاً بتأسيس اتحاد على مستوى القارة لاتحاد الطلبة المسلمين في بداية عام ١٩٦٣، وهو العام الذي وصلتُ فيه إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

نتج عن تلك الدعوة اجتماع التقى فيه طلاب كثيرون يؤمنون بالرسالة والرؤية. وما زلتُ أذكر وقت اجتماعنا ومكانه ومناسبته. وكان من بين الحاضرين أخي العزيز الراحل أحمد صقر ـ رحمه الله ـ ، وهو لبناني كان يدرس الدكتوراه في تخصص التغذية، وحصل عليها فيما بعد، وصار ثالث رئيس لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، وعملنا معاً عن قرب لعدة سنوات على وضع حجر الأساس لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا.

كان مهدي بهادوري من إيران رائداً آخر، وصار أول رئيس لاتحاد الطلبة المسلمين على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية. وحصل فيما بعد على درجة الدكتوراه في الهندسة الميكانيكية. ولكن الأمور لم تكن سلسة، فقد تكررت التوترات نفسها التي نشأت عندما تولى عباس جباري

الرئاسة. إن الفُرقة التي عمرها قرون بين السُّنة والشيعة جعلت بعضهم يعرب على استحياء عن معارضتهم لتوليه رئاسة الاتحاد، ولذا استخدمتُ من جديد الأسلوب نفسه في تحييد الأمور، مثلما فعلتُ عندما تولى عباس جباري رئاسة الاتحاد في جامعتي، ونجحتُ باستخدام الحجة نفسها في القضاء على الانشقاق. ومن الواضح أنني كسبتُ ثقة الناس واحترامهم عندما فعلتُ ذلك، ولدهشتي صرتُ ثاني رئيس لاتحاد الطلبة المسلمين على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٦٥، وهو الأمر الذي أمدني بفرصة لتناول هذه القضية وقضايا أخرى.

يسعدني كثيراً أن أتأمل الماضي عندما أتذكر أن تشبعنا بروح الدين جعلنا نستطيع أن نحقق هذا المستوى العالي من التوافق والتضامن بين أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين، على الرغم من أننا ننتمي لبيئات متباينة وهويات ثقافية متغايرة، فركّزنا أكثر على تناول القضايا الملائمة التي كانت تظهر لنا في ذاك الوقت، والاستجابة للتحديات الكثيرة التي كانت تعترض طريقنا آنذاك. في الواقع، اتبعنا المعايير نفسها التي كانت تستند إليها جهودنا في المملكة المتحدة، واستنسخنا التوافق الذي صار أساس عملنا مع الجاليات المسلمة البريطانية المختلفة، بما فيها من سُنَّة وشيعة هناك. وكانت أرضية لإثبات الذات والبرهنة على أن المبادئ نفسها يمكن تطبيقها بالقدر نفسه من الكفاءة والنجاح في مكان آخر؛ لأن البشر هم البشر في أي مكان، ويعانون بوجه عام من نقاط الضعف نفسها. واكتشفتُ أننا إذا نحّينا أحداث الماضي والمخاوف السياسية جانباً، يمكن لطاقتنا الإيجابية أن تحقق خيراً كثيراً.

في الواقع، إذا كانت المبادئ سليمة، فيمكن أن تكون الحلول تلقائية تقريباً، وأي مبادئ سليمة أكثر من تلك المبادئ التي أقرّها القرآن الكريم! لقد حققنا التوافق، ولم يكن قاصراً على الصلاة، ولا سيّما في تلك الكنيسة الصغيرة في صلوات الجمعة، بل اتسع التوافق ليشمل العمل على تحقيق الأهداف نفسها؛ لأن كل شخص كان يعدّ نفسه عضواً في جسد واحد يعمل على تحقيق مصلحة الجميع، وكان كل واحد منا يعرف أن المنافع ستتراكم لمصلحة الجميع من خلال اتحاد الجهود والخدمة المتبادلة.

ولذلك، كنّا نشغل وقتنا، خارج وقت الدراسة، في كتابة الخطابات، وإجراء المكالمات الهاتفية، والسفر بكثرة في سبيل تحقيق هذه الأهداف المشتركة. ولم نُهدر أوقاتنا، فوصلنا إلى الولايات الشرقية من الولايات المتحدة الأمريكية، وصارت فيها جهودي أقرب لجهودي في ولاية بنسلفانيا التي أعيش فيها.

ما نتيجة كل هذا النشاط؟ أدّت جهودنا المشتركة إلى ترسيخ جذور اتحاد الطلبة المسلمين المتعددة، واتحاد الطلبة المسلمين على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، وتحولت من بداياتها المتواضعة إلى تنظيم جامعي وطني، مما أغنى حياة الطلاب المسلمين وتجاربهم الاجتماعية والدينية والثقافية والفكرية في جميع أنحاء أمريكا الشمالية.

اجتمع مؤسسو اتحاد الطلبة المسلمين على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا في ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٦٣، وتجمعوا تجمُّعاً أكبر بعد ذلك بأقل من سنة في سبتمبر/ أيلول عام ١٩٦٤. وحضر هذا الاجتماع الثاني أكثر من أربعين ممثلاً لاتحاد الطلبة المسلمين من مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، مما يدل على مدى نمو الاتحاد بالفعل. وعيّنتْني اللجنة التنفيذية مديراً للنشر. وتحولت الخطوات الصغيرة إلى قفزات طويلة، فاستطعنا بالعدد المحدود من فروع اتحاد الطلبة المسلمين أن نعقد في شهر يناير/ كانون الثاني عام ١٩٦٥ مؤتمراً على مستوى قارة أمريكا الشمالية، ثم عقدنا بعد ذلك أول اجتماع للجنة التنفيذية على مستوى القارة.

كنت أعمل مديراً للنشر في الاتحاد، وتم انتخابي في عام ١٩٦٥ رئيساً لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. كان ذلك تحوُّلاً كبيراً ومسؤولية هائلة، إذ كان عليّ أن أقوم بالدور الموكول إليَّ خير قيام وأن أوفيه حقّه، وأن أعطيه المجهود نفسه الذي أخصصه لدراستي. ولكن كيف يمكنني أن أقوم بواجباتي على المستويين دون أن يؤثر أحدهما سلباً على الآخر؟ جلستُ وأمعنتُ التفكير فترةً طويلة. كنتُ أريد أن "أجاهد في سبيل الله" دون أن تثقلني الأعباء، أو يغلبني الإرهاق، أو أعمل فوق طاقتي، أو أضر صحتي، أو أُقصر في عملي. فلا يوجد في قاموسي عدم إتقان العمل، بل أؤمن بضرورة إتقان العمل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى أحقق أفضل

نتيجة ممكنة، لاسيّما إذا كان هذا العمل يتضمن أشخاصاً وجاليات، ويولّد علاقات مثمرة بين المسلمين. كنتُ مُلْزَماً بأن أقوم بالمزيد من العمل الإسلامي بالإضافة إلى دراستي. وعلى الرغم من أن عملي ودراستي في الجامعة استمرا جنباً إلى جنب وكانت النتائج مشجِّعَة، فإنني تدبرت كل الأمور، وقررتُ أن أؤجل إكمال دراستي للدكتوراه حتى أعطي الأولوية لخدمة الأمة الإسلامية.

سيُصدم بعضُهم من هذا القرار؛ لأننا بالتأكيد لسنا في حاجة للتفاني بكل هذا القدر. فالدكتوراه شيء عظيم في الشرق، وينبغي ألّا يقف شيء في سبيل الحصول عليها، فهي توفر عملاً مناسباً، وحياة كريمة، ووجاهة اجتماعية، ومن يحصل عليها يحظى بالتقدير والاحترام على الفور. لا أنتقد هذا الاتجاه؛ لأنه من الواجب احترام المعرفة في حد ذاتها، ولكن هناك مُثُل أعلى من ذلك. فالتقدير الأساس الذي نسعى للحصول عليه هو تقدير الله سبحانه وتعالى لنا. وكانت رؤيتنا بوصفنا مسلمين تتمثل في تجسيد الفضيلة الإسلامية وفي الالتزامات والواجبات التطوعية التي سترفع من شأن الآخرين. في الواقع العملي، كان ذلك يعني مساعدة من يحتاجون إلى المعرفة وتوجيههم في الحياة، وكان منهم غير المسلمين، سواء أكانوا مهتمين باعتناق الإسلام أم محتاجين إلى الدعم الأخلاقي. كما كان يعني تأسيس مشاريع تطوّر العلاقات المثمرة وتُديمها.

كان رضا الله هو القوة الداخلية التي دفعتنا للقيام بكثير من الأعمال الخارجية. ولم يكن ذلك يعني أننا نستحق الثناء؛ لأن نقد الذات لعب دوراً مهماً في تقويمنا لما نقوم به، حتى وصل الأمر إلى التحاقنا ببرامج تنمية المهارات الذاتية حتى نتعلم كيف نتعامل مع نقاط ضعفنا ونتغلب عليها. لماذا ذلك؟ لأن أعمالنا الخارجية لا يمكنها أن تقل إتقاناً وخيراً عن مهاراتنا الداخلية. بمعنى آخر، لم نكن نحتاج إلى تفكير طويل حتى نستنتج أن عملنا الفعّال في سبيل ديننا يحتاج منا أن نطوّر أنفسنا أولاً. قليلون من الناس يولَدون بمهارات قيادية، وسنكون حمقى إن افترضنا أن ثقافتنا أودراستنا للدكتوراه ستكسبنا المهارات القيادية والتنظيمية، وستنعكس تلقائيّاً في ممارساتنا. ويسعدني أن أقول: إن فهمنا لدور القائد والممارسة القيادية قد تطوّر في وعينا قبل ممارساتنا الخارجية وتعاملنا مع الآخرين ودعوتهم لطريق الخير والفلاح.

أدّى الاجتهاد وشبكة العلاقات إلى زيادة عدد أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين وفروعه، ولكنهما ليسا المؤشرين الوحيدين على تنامي الاتحاد، ففي الواقع تجاوز تعاونُنا في العمل حدود أمريكا الشمالية، عندما سافر المرحوم حسين باشا، الذي أسس اتحاد الطلبة المسلمين في جامعة إلينوي (تشامبين إربانا)، إلى المملكة المتحدة لمساعدة اتحاد جمعيات الطلبة المسلمين هناك، فكنّا دائماً نتطلع للأمام، وركّزنا على تطوير أفكارنا وأساليبنا في العمل الخيري حتى نعزز فاعليتنا ونجاحنا. وفي الوقت نفسه، كنّا نسعى باستمرار إلى زيادة الأنشطة وتجديد التزامنا بها.

كانت نظرتنا للخطة الإستراتيجية متفردة، فكان تداول القيادة والإرشاد من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى نجاح اتحاد الطلبة المسلمين على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. كان الرئيس يشغل فترة واحدة لمدة عام فقط، وبمجرد أن يتنحى عن منصبه يظل عضواً في اللجنة التنفيذية بحكم منصبه السابق، مما أتاح للجنة أن تستفيد من خبرة الرؤساء السابقين، وأن تبني على إنجازاتهم. ولم نشذ عن هذه القاعدة إلا عندما طلبنا من مهدي بهادوري أول رئيس للاتحاد أن يبقى في منصبه لمدة عام آخر. وحَذَت المنظمات المشابهة لنا حول العالم حذونا في تغيير القادة على أساس دوري.

أطر العمل والأنشطة

كانت هناك أسباب أخرى وراء نجاحاتنا المتعددة، ومن العوامل الرئيسة في ذلك بناء مجموعة قوية من العلاقات بين أعضاء اللجنة التنفيذية، التي كانت تتكون من الرئيس ونائبه وسكرتير الشؤون الداخلية وآخر للشؤون الخارجية. وفي سبيل تخطيطنا الإستراتيجي، تدارسنا الأضرار والعواقب المحتملة حتى نتلافى أية نتائج سلبية، وكان وضوح الهدف عاملاً آخر. وحتى نحقق وضوح الهدف الأكبر، حرصنا على الاتفاق بالإجماع على كل الأمور الرئيسة، وربطنا كل ذلك بالهدف الأكبر في عملية اتخاذ القرار التي كان الجميع يشاركون فيها، وكنّا نستمع إلى كل الآراء، ثم نناقشها ونتفق عليها بما يرضي الجميع. وهذا إجراء معقد يتطلب صبراً من الجميع،

وإلى وقت طويل، ولكنه بفضله تعالى يحقق أفضل النتائج على المدى البعيد. كما كان يتعين على كل شخص أن يتعلم كيف يمارس القيادة، فكنّا نريد أن نبني على خبرات الآخرين ونستفيد من علمهم.

كما ذكرتُ من قبل، كان اتحاد الطلبة المسلمين يتكون من لجنة تنفيذية ينتخبها أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين الذين يقيمون في أمريكا الشمالية، وكانت اللجنة التنفيذية بدورها تنتخب من بين أعضائها رئيساً لها ونائب رئيس. وفي البداية، كانت كل الانتخابات تُعقد في الاجتماع السنوي لاتحاد الطلبة المسلمين. وفيما بعد، كانت الانتخابات تتم عن طريق الاقتراع عبر البريد. وبناء عليه كان الاتحاد منظمة شورية ديمقراطية وشفافة.

من المهم هنا أن نذكر أن الرئيس السابق كان يبقى مستشاراً أميناً للرئيس الجديد حتى نضمن الاستفادة من خبرة الاثنين وعلمهما. ومع مرور الوقت، حاولنا أيضاً أن نحدد الأدوار والمسؤوليات بوضوح، وكان سكرتير الشؤون الخارجية يجتهد لبناء الجسور مع المنظمات الأخرى والاستفادة مما لديها، وكان سكرتير الشؤون الداخلية يركز على أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين، ويواصل الاتصال بالطلاب المسلمين المنتشرين عبر القارة، ويساعد كل من يريد الانضمام إلى الاتحاد، سواءٌ أكانوا أفراداً أم جمعيات ومؤسسات.

كانت لدينا ميزانية تبلغ ٢٠٠ دولار أمريكي للبدء في أنشطتنا في عام ١٩٦٣، وهي كل ما استطاع أعضاء اللجنة التنفيذية التبرع به في اجتماعنا الأول. ونظراً لأهدافنا العظيمة والأثر الذي كنّا نريد أن نحققه، حددنا أولويات أنشطتنا. وكان الاتصال إحدى هذه الأولويات، ومثّل إصدار نشرة أحد الأساليب المثمرة لتحقيق هذا الهدف، والوصول إلى الناس، وإثارة النقاشات الفكرية وتبادل الآراء والأفكار. ولذلك، صارت النشرة من أولى أولوياتنا، فقد كانت وسيلة مهمة نتشارك من خلالها أخبار فروع اتحاد الطلبة المسلمين الكثيرة، وكانت تشمل أيضاً خطبة الجمعة، مما أمدّ الطلاب المسلمين بأمثلة على ما كنّا نقوم به، وزودهم بأفكار لتنظيم أنشطتهم. كما

أنني أعتقد أن النشرة حفّزت الطلاب المسلمين على مواصلة القيام بأنشطتهم، وكنتُ مسؤولاً عن تلك النشرة، مع مساعدة حقيقية من فاروق علي. وكانت نشرتنا باللغة الإنجليزية، وكنّا نرسلها بالبريد إلى الطلاب المسلمين في مختلف أنحاء أمريكا الشمالية.

أحلام وتطلُّعات

في ذلك الوقت، كان الطلاب المسلمون القادمون من الشرق للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية متميزين؛ لأنهم كانوا يمثلون صفوة الطلاب في بلدانهم، وكانوا حاصلين على درجات مرتفعة جداً، وحققوا مستويات تحصيل دراسي متميزة، وتم اختيارهم بعناية للسفر والدراسة في الخارج، وكانت تنتظرهم وظائف مرموقة عند عودتهم إلى بلدانهم. وللأسف كانت الغالبية الساحقة منهم من الذكور، ولا يرجع ذلك إلى عيب في قدرات الطالبات، ولكن إلى بعض المعايير الثقافية والقيود العائلية التي كانت تمنع النساء من السفر للخارج.

وهكذا اشترك الذين التقوا في بلد أجنبي بعيداً عن أوطانهم في ارتفاع مستوى الذكاء والقدرة على التفوق في التعليم. وبما أن عقولنا كانت متقاربة من هذه الزاوية، كنّا نتكلم بطريقة واحدة عن أهدافنا التي تتمثل في اكتساب المعرفة والتحصيل الدراسي، وكان كل منا لديه عزيمة وقوة في التمسك بالغاية المبتغاة حتى تؤتي أهدافنا ثمارها. كما كانت مجموعتنا الفريدة تتميز بشيء آخر، وهو الطموح؛ فلم تكن لدينا أحلام وتطلعات عظيمة فقط، وإنما كنّا نمتلك القدرة والدافع لتحقيق الأحلام والتطلُّعات.

كانت هناك قيود على حرية التعبير في أوطاننا، ولم نستطع أن نعبّر عن بعض هذه الأحلام والأفكار في أوطاننا، ولكن في الغرب كانت الفرص العظيمة سانحة أمامنا لتحويل تلك الرؤى والأفكار والأحلام إلى واقع ملموس. ولا أشير هنا إلى المجالات السياسية، بل إلى أبسط الأشياء من قبيل الالتقاء لتقديم الدعم الأخلاقي والمجتمعي بطريقة منظَّمة. فكلنا مسلمون نلتزم بفروض ديننا ونطبقها في أوطاننا، ولذلك كنّا نشعر -ونحن في الغرب- بأنه ينبغي علينا أن نحمي أنفسنا من خلال التكاتف والتكافل والالتزام بديننا الحنيف. وهذا

هو السبب الذي ساعدنا على أن نصطفّ وراء تطلُّعات وغايات ترتبط بالخدمة الاجتماعية والأخلاقية. فمن المهم أن نساعد زملاءنا، ولا سيّما أولئك الطلاب القادمين من مختلف مجتمعات المسلمين العربية وغير العربية على حد سواء، ولم تدعمهم مجتمعاتهم دعماً ملائماً يساعدهم على فهم دينهم وممارسته. فقد كان مستوى فهم الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلامي آنذاك يدعو للشفقة.

وكانت رؤيتنا تتجاوز ظروفنا الحالية لتتطلع إلى المستقبل البعيد. وسرعان ما أدركنا أن الشباب (والشابات) الذين كنّا ندرس معهم سيكونون في يوم من الأيام قادة مجتمعاتهم، وسيغدون رجالاً ونساء فاعلين ومؤثرين، وسيشكّلون جزءاً من أعمدة الفكر في بلدانهم، ومن ثمَّ سيصبحون كنزاً ثميناً وموردا قيّماً للدول الإسلامية. باختصار، سيُلقى على أكتافهم مستقبل العالم الإسلامي.

مسلمون غير ممارسين لدينهم: عملُنا الدعوي للجميع

١٩٦٧. نيويورك، أول فوج حجاج نظمه اتحاد الطلبة المسلمين. ألقيتُ عليهم خطبة الوداع في المطار، ولكنني لم أسافر معهم. في الصف الأخير من اليسار وارث الدين محمد، ابن إليجا محمد، الذي صار فيما بعد قائد حركة "أمة الإسلام" عام ١٩٧٥ بعد وفاة والده. الصف الوسط: الثاني من اليمين عدنان محتسب، ثم مرغوب قريشي، ثم حسين الشهرستاني، الجالسون من اليمين: محمد بن يوسف من الجزائر (وهو منظّم وقائد فوج الحج للرحلة) ثم أنا، ثم إبراهيم كليزي، والأخير عبدالحميد بن شيكو من الجزائر.

كانت الأمور تسير بطريقة جيدة، وإنْ شابتها بعض الصراعات. وعلى الرغم من الصعوبات التي تقترن بمنظمة يتزايد حجمها باستمرار، كنّا نشعر بأن الأمور تسير على ما يرام. وفي أحد الأيام واجهتنا قضية بسيطة في ظاهرها، ولكنها عميقة ومعقدة في باطنها، وأثرنا السؤال الآتي: هل ينبغي علينا أن نركز انتباهنا على المسلمين الملتزمين

الذين يمارسون فروض دينهم بالفعل، أم نشمل أيضاً الذين يقولون إنهم مسلمون، ولكنهم يجدون صعوبة كبيرة في الالتزام بأمور دينهم أو لا يمارسون دينهم على الإطلاق؟ بالطبع، كان العمل مع المسلمين الممارسين -وإن لم يكن سهلاً- أسهل بكثير من العمل مع المسلمين غير الممارسين الذين سيكونون بمثابة اختبار لنظامنا. فكما كان الحال آنذاك، التقينا في الأساس لحماية أنفسنا وتقوية أخلاقنا وتعضيدها في وجه التحديات الخارجية التي يفرضها علينا مجتمع علماني يعبّر عن نفسه بكل قوة حولنا، وكانت رسالته الإنسانية القوية وحدوده الأخلاقية الليبرالية تؤثر سلباً في إيمان غير المؤهلين فكريّاً للتعامل مع ذلك المجتمع. ولحسن الحظ، أدركنا أن الإيمان مسألة تتعلق بالقلب، ولكن حيويته أيضاً تنبع من الروابط القوية والهوية المشتركة والعمل الجماعي على تقوية العلاقات (وكانت صلاة الجمعة مثالاً مصغَّراً على ذلك). لقد سعينا لأن نقوّي هذه العلاقات، ونطوّر هوياتنا، ونُنشئ علاقات جديدة تقوم على مؤشرات إيمانية متينة وعلى تنظيم البرامج والأنشطة التي تدافع عن انتمائنا الديني وتعزز قدرتنا على الدخول في مناقشات مفتوحة حوله. ومما لا شك فيه أن ذلك كان يحفظنا ويحمي عقيدتنا عند مواجهة التحديات والصراعات المشتركة. ولكن ماذا بعد أن وصلنا إلى مرحلة الاستقرار النسبي وصرنا أقوياء ومترابطين مع أفراد منسجمين في أنحاء القارة وحتى خارجها؟ هل لدينا هدف أكبر وسبب للوجود غير تأسيس مؤسسات قوية لمن يدركون ضرورة الحفاظ على أنفسهم؟ هل كنا نحمل "الأمانة" حقّاً؟ علينا أن نكون صادقين تماماً مع أنفسنا.

يعيش في عالمنا الواسع مسلمون لا يأبهون بالإسلام، ومسلمون لا يمارسون فروضه ولا تعاليمه، ومسلمون لا يستطيعون أن يدخلوا في نقاش فكري حول تفاصيل الخطاب العلماني، ومسلمون يصارعون في سبيل الحفاظ على المبادئ الأخلاقية المطلقة. ولم يكن هؤلاء المسلمون في دائرة اهتمامنا حتى ذلك الوقت. وأدركنا أن أنشطتنا تلبّي الاحتياجات المباشرة لزملائنا الطلاب المسلمين الذين يمارسون أمور دينهم بشكل يومي، ولكنها لا تعيننا على الإلمام بالصورة الأكبر، ومن ثمَّ قد يضيع منا الهدف الأكبر وإن كان بدرجة أقل. كانت الستينات من القرن العشرين عصراً جديداً، وكانت معايير السلوك الأخلاقي وقواعده الراسخة تتهاوى من حولنا في زمننا المعاصر، وهو عصر لم يكن يتّسم فحسب

بثقافة شبابية جامحة تقوم على اللهو والموسيقى والجنس والمخدرات، بل يقوم أيضاً على خطاب علماني يتوافق تماماً مع التيار والاتجاه العام الحديث ويتحدث بلغة الشباب وميولهم، كما كان يتوافق مع التيار الأكاديمي الجديد في كل الأمور تقريباً، بداية من علم الاجتماع إلى الفيزياء والأدب. ولكنه يتغافل ويتعامى ويتجاهل خطاب العقيدة ومنظور الإيمان عند معالجة الأمور وفهمها. وأُخِذَ كثيرون على حين غرة، وأغواهم الخطاب العلماني بوعوده التي تسلبُ العقلَ. ولذلك لا عجب في أن ذلك العصر هو العصر الذي أنجب الملحدين الصِّدَامِيين أمثال ريتشارد دوكنز.

تناولنا الموضوع بشكل مباشر، وكنّا بوجه عام نقوّم ونقيّم أنفسنا على الدوام، وكنّا ننظر في أحوال اتحادنا النامي، وأدركنا أننا ينبغي علينا من آن لآخر أن نراجع موقفنا مراجعة شاملة، فنقوّم وضعنا الحالي، والوجهة التي نسير في اتجاهها. وما أن بدأنا في التفكير في الموضوع حتى اتضح لنا على الفور ضرورة إعادة تقويم عملنا على ضوء متطلبات العصر والتحديات الجديدة التي تواجهنا. كل ذلك بتوفيق من الله تعالى، مستلهمين المعية الإلهية التي ترشدنا، فقد وضحت الآية الكريمة ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فمن دون أن يتدارس أفراد الاتحاد أموره، ومن دون الانفتاح على الأدوار الجديدة التي عليهم أن يقوموا بها، يفقد الاتحاد معناه وهدفه وصِلته بالغرض المنشأ من أجله. ويُسعدني أن أقول: إننا كنّا نفهم ذلك، واخترنا أن لا نجلس راضين عن أنفسنا؛ لأننا قمنا بعملنا على أكمل وجه، في حين أن العمل الذي ذكرناه من قبل لا يمكن أن يكتمل أبداً.

أعتقدُ بصدق أن انشغالنا بتحقيق الأهداف الصغرى جعلنا نغفل الهدف الأكبر مؤقّتاً، فقد ركزنا على الأشجار وتناسينا الغابة كلها كما يقولون؛ إذ كنّا منشغلين بالحفاظ على الذات (عقيدتنا الإسلامية وأخلاقنا)، حتى إننا ابتعدنا كثيراً عن الآخرين الذين كنّا نظن أن الاحتكاك بهم سيكون اختباراً قاسياً لإرادتنا. لقد حان الوقت للخروج من هذا الانغلاق، وعلينا أن ننظر لأبعد من مجموعتنا، وأن ننكب على تحقيق أهداف أكبر،

وأن نحتك بأشخاص يفرضون علينا تحديات أكبر، أي بالمسلمين الذين يصارعون في سبيل الامتثال لأوامر دينهم. باختصار، على الرغم من أننا كنّا قد وضعنا هدفاً يشمل كل المسلمين، الممارسين منهم لأمور دينهم وغير الممارسين، بحيث ننفتح عليهم جميعاً وندعوهم للانضمام لنا، فإن هدف الشمول الأوسع لم يتحقق؛ لأننا حصرنا أنفسنا في تحيزات تتفشى حولنا، ولأننا كنّا نخاف من العالم العلماني من حولنا، ولأننا استجبنا لقضية البقاء مخلصين لديننا، فحوّلنا معظم جهودنا لحماية فضائلنا الثمينة وهوياتنا الدينية والحفاظ عليها. لقد اكتشفتُ بوجه عام أنه كلما نسي مجتمع من المجتمعات الله، وكلما ابتعد الناس عن ثوابت القيم والحدود الدينية، صار المتمسكون بدينهم أكثر محافظة؛ لأنهم يتمسكون بتقاليدهم بشدة وينشدون الإحساس بالأمان برفقة الأشخاص الذين يشبهونهم؛ ومن ثمَّ يتجنبون من لا يشبههم.

وما إن أدركنا ذلك الخطأ الذي وقعنا فيه من دون قصد وقررنا أن نساعد الآخرين بلا استثناء، لاحظنا تحوُّلاً فوريّاً. فقد حوّلنا اهتمامنا بسرعة من النقيض إلى النقيض نحو أولئك الذين يشربون الخمور أو يتناولون المخدرات. وأنشأنا بيئة آمنة لأولئك التائهين؛ إذ يمكنهم أن يرتاحوا فيها وربما يرحبون بها، بيئة لن يُصدر فيها أحدٌ أحكاماً أخلاقية عليهم أو يُنتقص من قدرهم؛ لأنهم يُخطئون في أمور العبادات.

في الواقع، كان ثمة طلاب لا يعرفون كيف يتوضؤون بطريقة صحيحة، هذا إن كانوا يتوضؤون بالأساس. ولم نعظهم بشيء، وانتهجنا موقفاً يقوم على الصبر والاحترام. وآتى الصبر والأسلوب العملي ثمارهما، وكانت النتيجة أن مجموعتنا تزايدت تزايداً كبيراً. لقد صنعنا بيئة إيجابية وجوّاً عامّاً، وشعر عدد غير قليل من الطلاب ممن كانوا مسلمين هامشيين بهذا التوسع وهذا الدفء، وسرعان ما صاروا مسلمين ممارسين لأمور دينهم. انشرحت صدور كثيرين للإسلام، وقرروا أن يقوّوا إيمانهم ويستعيدوا المعنى الروحي الذي فقدوه. ومن الجوانب التي تشرح الصدر وتثلجه في هذه التجربة أن عدداً من آباء الطلاب الذين أعادوا اكتشاف دينهم تواصلوا معنا وأعربوا عن امتنانهم، لأننا اعتنينا بأبنائهم وأعدنا لهم هويتهم الدينية، وأوجدنا لهم بيئة صالحة.

الاستدامة الذاتية: نقلة إستراتيجية

تزايدت ميزانية أنشطتنا بعدما كانت في السنة الأولى (سنة ١٩٦٣) مائتي دولار أمريكي فقط. ولم نتخيل آنذاك أن اتحاد الطلبة المسلمين سيقوى ماليّاً بهذا الشكل؛ إذ قفزت الميزانية في عام ١٩٦٤ إلى ألفي دولار. وفي السنة الثالثة، وهي السنة التي توليتُ فيها رئاسة الاتحاد، بارك الله في هذا الرقم وزاد إلى عشرين ألف دولار. وكان من الضروري أن نجد مصادر تمويل إضافية، وهنا استفدنا من تجربتنا في المملكة المتحدة؛ إذ بِعْنا بطاقات معايدة العيد، وولّدنا دخلاً بلغ حوالي عشرة آلاف دولار. كما أننا توسعنا في جمع التبرعات، وتواصلنا مع طلاب من دول الخليج العربي، وتحدث هؤلاء الطلاب مع عائلاتهم عن أفكارنا وعن مشاريعنا الإسلامية، وشجعوا عائلاتهم على دعم اتحاد الطلبة المسلمين، فاستجابوا لذلك وتبرعوا لميزانيتنا، لا سيما أولئك الذين بدأ أبناؤهم في ممارسة أمور دينهم من جديد، وكانوا حريصين على أن يعبّروا لنا عن امتنانهم وتقديرهم للدور الكبير الذي قمنا ونقوم به في مساندة أبنائهم في الرجوع إلى الدين.

واصلت ميزانيتنا التزايد؛ ففي عام ١٩٦٦، استطعنا أن نجمع مبلغاً ضخماً قدره مائتا ألف دولار لميزانية العام التالي. لقد قفز حجم الميزانية قفزة صاروخية تجاوزت حدود خيالنا، وتطلّبتْ منّا هذه الزيادة المفاجئة أن نعيد التفكير في مجمل عملنا، ومستوى الخدمة التي نقدمها، حتى تستوعب الزيادة في التمويل. ولذلك قررنا أن نضطلع بمسؤولية والتزام أكبر بكثير مما سبق؛ لأن العمل الذي كنّا نقوم به كان يتحول بسرعة إلى تنمية طويلة الأجل. في الحقيقة، في أواخر عام ١٩٦٧ بلغت الميزانية مبلغاً ضخماً لأضعاف ما كان عليه. أولاً: جعلَنا هذا التحوّل الفجائي تماماً في مسار الأحداث مرتعشين قليلاً فيما يتعلق بالمهارات الإدارية اللازمة لاستخدام هذا التمويل الاستخدام الأمثل. ثانياً: كان علينا أن نفكر في طريقة تجعلنا نطور هذا الاتحاد ونصل به إلى آفاق جديدة وأكبر. وعلى الرغم من أن عملنا تقدّم واتّسع، لم نواجه ضوائق أو أعباء مالية، وكان بإمكاننا أن نضع بثقةٍ خططاً لأنشطة مستقبلية ومشروعات أكبر على المستويين المحلي والقومي.

جلب نجاح كل هذا التمويل مستوىً جديداً من المحاسبة المالية للدخل والمصروفات، فالحسابات البسيطة لا تنفع في ذلك، لأن الميزانية كانت كبيرةً، والمشروعات كانت كثيرة للغاية. فكانت إدارة هذه المشروعات تستهلك وقتنا كله، ولم يكن وقتُنا يحتمل القيام بالمحاسبة المالية. وكان من المهم أن نحافظ على الشفافية في الأمور المالية حتىٰ يمكن تحديد البند الذي يُصرف فيه كل دولار. كنّا نبدأ يومنا ونحن منهمكون، وكنّا ننهيه ونحن منهمكون في التفكير، فنضع خططاً، ونطور إستراتيجيات، ونرسم ملامح المشروعات، ونُخضع أنفسنا لنظام صارم.

نموذج اتحاد الطلبة المسلمين

نمت أنشطتنا وامتدت لتشمل المسلمين الممارسين وغير الممارسين على حد سواء، وازدادت ميزانيتنا وأعدادنا. وكان كل ذلك مؤشراً على أن النموذج المؤسسي الذي نما نمواً عضويّاً -مع تطور الخبرة ونموها وتوظيفها في التصويب والترشيد- كان نموذجاً ناجحاً في مكوناته ووظائفه، وكان قادراً على أن يخدم الطلاب والأفراد وينير حياتهم. وقفز عدد اتحاد الطلبة المسلمين في جامعات أمريكا الشمالية من سبعة اتحادات في البداية إلى أربعين، وهو رقم مفرح. وعلى الرغم من أن ذلك كان يدعو للانتشاء، لم نجلس منتشين بنصرنا أو متأملين لإنجازاتنا بعين الرضا والاغترار، بل واصلنا اتصالاتنا وتفاعلنا مع الطلاب المسلمين، وزرنا أماكن جديدة عند الحاجة، وأكملنا وضع خططنا للمستقبل. ولم نكن نمارس أنشطتنا بهدف جذب أعداد غفيرة من الطلاب، ليكونوا أعضاءً في الاتحاد أو حتىٰ لتنمية اتحاد الطلبة المسلمين رغبة في زيادة الأعداد، فماذا يساوي الكم بجانب الكيف؟! كنّا نريد أن ننشئ شبكات تواصل فعّالة أساسها العلاقات التي تقوم على التفاعل المتبادل وقنوات الاتصال حتىٰ تنمو مشروعاتنا الجيدة بفعالية أكبر وجودة أعلى وفق القيم التي تحكمنا، وكذلك المساعدة والدعم في إطار مؤسسي منضبط.

كانت هذه هي المبادئ التي نعمل على أساسها، وكنّا نجددها باستمرار، وكانت دائماً

في تطور، فاستطعنا أن نؤسس فروعاً جديدة لاتحادات الطلبة المسلمين في العام التالي بنجاح هائل. وضعنا أهدافنا، وتابعنا تقدمنا، وعقدنا اجتماعاتنا، ثم انطلقنا للأمام واثقي الخُطا ومتوكلين على الله. وتطوَّرنا مع توسع أعمال اتحادات الطلبة المسلمين كمّاً وكيفاً، ومع تمكين الشباب من الحصول على وسائل يطورون بها أنفسهم، لأننا كنّا دائماً نمتلك الإرادة والعزيمة للعمل باجتهاد حتى نحقق الأهداف التي وضعناها لأنفسنا، وحتى نضع أهدافاً جديدة. كان عملنا يقوم دائماً على المحبة، وقد بارك الله لنا فيه؛ فمن بضعة اتحادات للطلبة المسلمين تطورنا وزاد عدد الاتحادات عن عشرة، ثم بلغ أربعين، ثم ثمانين إلى أن وصل إلى مائة وعشرين! وصارت الأهداف التي كانت بعيدة المنال واقعاً ملموساً، ووجدنا أنفسنا نصدّر تجربتنا إلى أماكن أخرى. في الواقع، أخبرنا الأعضاءُ الجدد في اتحادات الطلبة المسلمين أنهم خطوا خطوة أخرى في تطوير أنشطتهم لم نكن نظن أنها ممكنة، من قبيل أنهم طالبوا بحقوق وامتيازات من الجامعات المضيفة لهم.

عملنا بمعدل واقعي، ووضعنا أهدافاً عملية، وحققناها، ثم انتقلنا إلى خطوة أخرى، مما مكّننا من أن نعطي كل خطوة التركيز والاهتمام اللازمين لنجاحها ولفاعليتها في الخطة الإجمالية؛ فلم نكن مستعجلين للانتهاء من بناء الجدار كاملاً، بل كنّا نبنيه لَبِنَة لَبِنَة بدقة وتأنٍ حتى يكون أساس الجدار قويّاً، ليبقى صامداً أمام التقلّبات والمحن والشدائد. وكان ذلك سبباً من أسباب نجاح نموذجنا الناشئ، بالإضافة إلى مجموعة من العوامل الأخرى بالطبع، بما فيها قدرتنا على العمل وإرادتنا القوية للقيام به، وسيرنا وفق التوجيهات الربانية، فكانت كل أعمالنا تقوم على المحبة، مما جعلنا لا نستصعب شيئاً. وعندما كنّا نجد الوقت الذي يتيح لنا أن نجلس ونقوّم ما نقوم به، وأن نتأمل الماضي ونُبصر المسافة التي قطعناها حتى نصل إلى الحاضر، كنّا نشعر بالرضا والامتنان. فقد كبر طفلنا الذي تعهدناه بالرعاية المتأنية في طفولته إلى أن بلغ سن الرشد. لقد صار نموذجنا موجوداً في كل مكان، ونجح في كل الجامعات في أمريكا الشمالية، واستطاع أن يستثمر طاقات الأفراد، كلٌّ في جامعته، وبنى منها شبكة متكاملة ذات محاور ومراكز متعددة حسّنت حياة الطلاب، وقدمت لهم الدعم،

وأتاحت للإسلام أن يزدهر في بيئة علمانية بالأساس، وأثّرت بوجه عام في الطلاب تأثيراً إيجابيّاً هائلاً بطرق مختلفة. وبدأنا في استضافة المشاهير الذين يمكنهم أن يجذبوا اهتماماً أوسع.

بالطبع كانت عندنا مفاجآت رائعة وغريبة على الطريق. ومن بينها أننا تلقينا دعوة لحضور المؤتمر السنوي للاتحادات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا Federation of Islamic Associations (FIA) الذي عُقد في عام ١٩٦٤ في مدينة شيكاغو Chicago. وعلى الرغم من أنني كنتُ منتشياً بحضوري المؤتمر لأول مرة، لا يمكنكم أن تتخيلوا مدى امتعاضي عندما نظرتُ في برنامج المؤتمر، ولاحظت أن هناك ليلتين مخصصتين للرقص (إحداهما للرقص الشرقي والثانية للرقص الغربي)، وأنه كانت هناك في بعض المواضع إعلانات عن المشروبات الكحولية، وتقدمها محلات يمتلكها مسلمون! كلُّ حرٌّ في تصرفه، ولكنني اعترضتُ على دعوتي للمتعة واللهو تحت مسمى الإسلام. وتعلمنا من هذه الأمثلة أن أمامنا طريقاً طويلاً لتنمية الوعي، وأن علينا أن نقفز بالأنشطة التي نقوم بها إلى أعلى مستوى ممكن.

من الهوامش إلى المركز

في المؤتمر، حان وقت صلاة الظهر، ولكننا امتعضنا عندما وجدنا أن الحاضرين لا يلتفتون لذلك، وتساءلنا: "هل ستُقام الصلاة؟" ولم نجد الإجابة التي كنّا نتوقعها، بل وجدنا أنفسنا في موقف غريب؛ واضطررنا لأن نقترب من أحد الحاضرين القدامى ونستأذنه أن نصلي في أحد أركان المسرح، كما لو كنّا نفعل شيئاً يستحق أن نخجل منه. إن ترحيل هذا الركن الأساس من أركان الإسلام إلى الهامش كشف لنا كثيراً من جوانب الواقع. قال لنا الرجل: "نعم، لا مشكلة". ولذلك سرنا إلى ذلك المكان المخفي النائي، ووقف أحدنا ليرفع أذان الإقامة بصوت منخفض، مما يدل أيضاً على

أننا نفعل شيئاً مُسْتَرَقاً ولم نشأ أن نزعج أيَّ أحد. هل هذا تجمُّع إسلامي؟! انتبه الناس، وفجأة صارت البقعة الصغيرة التي نصلي فيها محط الاهتمام، فكانت الوجوه تنظر إلينا مفزوعة وكأننا نفعل شيئاً غريباً ولسان حالهم يقول: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. يؤسفني أن أقول: إنه لم يصلّ صلاة الظهر في ذلك اليوم سوى أحد عشر شخصاً منّا، في حين أن الآخرين كانوا ينظرون إلينا مندهشين. وعلى الرغم من أننا ختمنا صلاتنا، فإنهم واصلوا التحديق فينا، مستصحبين فداحة ما حدث للتو.

الإسلام إظهار للإيمان، والصلاة التي يمثل السجود ذروتها دليل ملموس على إيماننا بالله وعلى الرباط الذي يربط كل الأعمال في رباط روحاني كلي متكامل. الصلاة فرض، وهي شريان حياة المسلمين؛ ولذلك لا ينبغي أن تكون موضع نظرات غريبة كهذه. وتلا ذلك نقاش بين الذين كانوا يراقبوننا حول ما قمنا به للتو، وفي لحظات تجمّعت مجموعة من الناس حولنا، وأمطرونا فجأة بوابل من الأسئلة، مما جعلنا نشرح لهم الصلاة ومعناها والغرض منها والدور الذي تقوم به الصلاة في حياة المسلمين. كما أننا أعلنّا أننا سنصلي أيضاً صلاة العصر في وقتها، ودعونا من يرغب في الصلاة للانضمام إلينا. وعندما حان وقت صلاة العصر، تضاعف عدد المصلين. ثم رتّبنا أمور الصلاة، وقد اخترنا أحمد صقر إماماً لصلاة الظهر، واتفقنا على أن يؤمنا في صلاة العصر شخص آخر وهكذا.

أوصلْنا من دون أن نقصد رسالةً بسيطةً بنجاح، وهي ضرورة الصلاة. وبمجرد أن انتهينا من صلاة العصر، وجدنا رجلاً متقدماً في السن، ربما هز مشاعره مشهد المصلين، جاء نحونا وقال لنا: "تعلمتُ طريقة الصلاة، ولكنني صرتُ كسولاً جداً. في الحقيقة لا أصلي إلا في المناسبات أو عندما أكون في حاجة ماسة. أبنائي لا يعرفون كيف يصلون." كان اعترافاً صادقاً، وتأثرنا به لأنه من الصعب الاعتراف بشيء مثل هذا. ردّ عليه أحمد صقر بحكمته المعتادة قائلاً: يقول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. ثم شرح معنى الآية. وطلب منا شخصٌ

آخر أن نبقى على اتصال بتلك المجموعة حتى نعلّمهم الصلاة. ووجدنا أنفسنا نُجيب على كثير من الأسئلة. وفي صلاة المغرب انضم إلينا ستون شخصاً للصلاة. وكانت تلك اللحظات بالنسبة لنا أجمل ما في المؤتمر، فكم كان رائعاً أن نرى نور الفهم يشرق على وجوه الناس! وكم كان عجيباً أن روحانيتهم الكامنة لم تكن في حاجة إلّا إلى شعلة صغيرة لإيقاظها من سباتها! وهذا أيضاً يفسّر سبب أهمية صلاة الجماعة؛ لأن الصورة خير من ألف كلمة، ومن رأى بعينه خير ممن سمع، ولأن حركات الصلاة تحمل في طياتها إيماناً داخليّاً ووحدة يصعب التعبير عنها بالكلام. وكان الإمام حريصاً على ألّا يسبب إزعاجاً للحاضرين في المؤتمر، ولذلك أخفض صوتَه. ولكن هذه الصلاة جعلت الناس يتساءلون عن الصلاة وطريقة أدائها. ومن المفارقات أن تلك الجماعة الصغيرة التي انتبذت من أهلها مكاناً قصيّاً، نتيجة تعبيرها بشكل ظاهر عن إيمانها بالله، تمكنتْ من دون قصد أن تنتقل من الهامش إلى موضع الصدارة، وتعلّمت في أثناء ذلك درساً مفيداً، وهو أن تلك المجموعة المباركة يمكنها أن تطور أنشطتها أكثر من خلال إدخال فكرة تجميع الناس للصلاة. فقد أزلنا من أذهان الناس أن الصلاة عبء، وأظهرْنا أنها صلة روحانية ومتعة يسهل عليهم أن يدرجوها ضمن أنشطتهم، وأنها ضرورة وفرض. وهكذا أقام الأخ مرغوب قريشي في (بالو ألتو) في كاليفورنيا مخيمَ شباب بالقرب من جامعة ستانفورد Stanford University. وأرسلنا ثلاثة إخوة وأختاً لحضور المخيم، وكان لذلك أثر عظيم فيهم. وصار ذلك المخيم حدثاً سنويّاً، وما زال يخدم مسلمي أمريكا الشمالية منذ خمسين عاماً إلى الآن.

المساجد الأولى

قبلنا دعوة حضور التجمع السنوي للاتحادات الإسلامية لانتخاب لجنته التنفيذية. وبينما كنّا نجلس في الصف الأخير، تكلم رجل أبيض الشعر بتواضع، واتضح أنه من الشخصيات المهمة. لقد بنى مسجداً كبيراً في مدينة إدمونتون Edmonton في كندا،

وقال: "في إدمونتون، لم نكن نعرف حقيقة الإسلام، ولكن بعض الطلاب جاؤوا إلينا لاحقاً، وتعلمنا منهم أمور ديننا. لقد وجّهونا لنُحيي ديننا في نفوس الناس وتعاملاتهم، وأشكرهم على ما قاموا به، فلم يضايقونا أو يحرجونا. ولذلك أدعو هؤلاء الطلاب للمجيء إلى مدينتنا حتى نتعلم المزيد عن الإسلام".

كان الأمر يبدو كما لو كانت الدعوة موجهة لنا، وكنّا في المكان الصحيح في الوقت المناسب. فطلبتُ الإذن بالكلام في الحال واقترحتُ الآتي: "يُسعدنا أن نطلب من طلابنا في اتحاد الطلبة المسلمين في المدن التي يعيشون فيها أن يأتوا إلى مساجدكم ويعملوا معكم ويساعدوكم قدر استطاعتهم". رد أحد الحضور قائلاً: "لدينا شرط واحد، وهو ألا يسببوا لنا أية مشكلة؛ لأننا لسنا في وضع يؤهلنا للتعامل مع المشكلات." طمأنتُه قائلاً: "نحن شباب قد نرتكب الأخطاء؛ فإذا ارتكبنا أي خطأ نرجو لفت انتباهنا إليه، فنحن لا ننوي أن نسبب مشكلات." ومنذ ذلك الحين، كوّنا علاقات قوية مع المسلمين في إدمونتون ونتجت عن ذلك أنشطة كثيرة.

في الستينات من القرن العشرين، كان هناك أقل من ربع مليون مسلم في الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يكن لديهم إحساس كبير بهويتهم كمسلمين، وكان معظمهم مسلمين غير ممارسين. وكان عدد المساجد لا يزيد عن عشرين مسجداً بالإضافة إلى معابد (Temples) إليجا محمد؛ زعيم حركة "أمة الإسلام" Nation of Islam. وكانت المساجد مسألة هامشية في حياة المسلمين الأمريكان، ولم يكن من النادر والمستهجن في ذلك الوقت أن تُقام حفلات الرقص في الطوابق السفلية للمساجد، على الرغم من أن ذلك يبدو لنا غريباً.

كانت هناك استثناءات للممارسات الإسلامية المعهودة للتغلب على أوجه القصور لدى عامة المسلمين. على سبيل المثال، كنّا ذات يوم في أحد المساجد في ديترويت بولاية ميشيجان Michigan، وعند حلول صلاة العصر، كبَّر الإمام تكبيرة الصلاة، وكبّرنا معه حتى نبدأ صلاتنا خلفه. ودعوتُ دعاء الاستفتاح، وقبل أن أبدأ في قراءة الفاتحة

سرّاً، سمعتُه يبدأ في قراءة الفاتحة جهراً، فسألتُ نفسي: "نحن نصلي صلاة العصر، أليس كذلك؟" واقتربتُ من الإمام وأنا مشوَّش الذهن بعد أن انتهينا من الصلاة وسألته لماذا صلّى صلاة العصر جهراً؟ فقال لي: "يا أحمد، هؤلاء الناس لا يعرفون شيئاً عن الصلاة، ولذلك على الأقل ينبغي أن يسمعوا الفاتحة وبعض آيات القرآن حتى يكرروها ورائي". وأكمل كلامه قائلاً: "أعرف أن من لا يفهمون الغرض من وراء قيامي بذلك سينظرون لي نظرة اتهام". ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يخطر في بالي فعلاً أننا ينبغي أن ننظر إلى مقاصد الشريعة وأن نتلمس فِقه الواقع، وأن ننظر بعين الانفتاح الفقهي ونراعي بعض المواقف، لتحقيق مقصد رب العالمين ومصلحة الإسلام. بعبارة أخرى، علّمني هذا الإمام ضرورة أن نفعّل فقه الموازنة واعتبار المراحل وأن نصل إلى حلول وسط أحياناً حتى نتمكن من هداية الآخرين بما لا يتعارض مع المبادئ العقدية والأصول الكلية للإسلام. وأن نستذكر الأفعال النبوية في تأسيس الصحابة ومخاطبتهم بالصورة التي تحقق المقاصد التشريعية.

مبادئ الشورى والتعاون الفعّال في العمل

في أثناء تطويرنا لنموذج اتحاد الطلبة المسلمين، اكتسبنا مجموعة كبيرة من المهارات، وخاصة مهارات التعاون الفعال في العمل؛ وكان التعاون والتشاور من أهم المجالات التي أسهمت في نمو اتحاد الطلبة المسلمين. فقد امتثلنا لأمر الله بأن تكون الشورى أساساً لأعمالنا، بدلاً من أن ينفرد كلٌّ منا بقراره. وكانت الشورى أساس تعاوننا، فتفاعلنا وتعلمنا كيف نعمل معاً فريقاً واحداً، مما ساعدنا بدوره على النجاح. كما أن الشورى مكنتنا من أن نكون متوافقين وأن نتجنب الممارسات الاستبدادية أو العجرفة في عملنا. لقد لعب التوجُّه الجيد وأخلاقيات العمل الراسخة والتواصل الجيد دوراً كبيراً في تطوير مهاراتنا المَرِنة.

كما ذكرتُ من قبل، كانت طباعة نشرة لنا من أولى ثمار تعاونا في العمل، وكان ذلك التعاون جزءاً رئيساً من تطوّر النشرة. فكان هناك عشرة أشخاص في مناطق مختلفة من البلد يعملون معاً على صياغة مسودة النشرة ومراجعتها. وبما أننا كلنا شاركنا في إعداد النشرة، فإن اهتماماتنا وتخصصاتنا المختلفة تركت بصمة واضحة فيها، ومع ذلك كانت النشرة تنمُّ عن رؤية موحدة. كما أن النشرة تطورت؛ لأن كل واحد منّا أسهم بأفضل ما لديه في إنتاجها. فكان أحدنا يركز على الجوانب اللغوية، والآخر على الجوانب الفنية، ويركز ثالث على جودة المقالات وترتيب الموضوعات حسب أولويتها، ويركز رابع على التسويق، وهكذا. وكنّا نتشاور حتى نتأكد من أننا قمنا بتغطية مختلف الرؤى والزوايا، ومن أننا نستطيع من خلال النشرة أن نخاطب جمهوراً أكبر. لقد تعلمنا درساً عظيماً في فن العمل الجماعي.

كان إفساح المكان للتعبير عن أصوات السُّنَّة وأصوات الشِّيعة على حد سواء من أهم جوانب هذه الشورى وهذا العمل الجماعي. كانت نسبة كبيرة من الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت من الشيعة؛ لأن إيران في عهد الشاه كانت ترسل أعداداً كبيرة من الطلاب للدراسة في أمريكا. وكان عدد لا بأس به من الطلاب الإيرانيين مسلمين ملتزمين، فكانوا يواظبون على الصلاة يوميّاً، وكانوا يولون أهمية كبيرة للعبادات الإسلامية. كان الموقف حسّاساً، لكننا حافظنا على التوازن بلا صعوبات تُذكَر، لأننا ركّزنا على القواعد والأصول التأسيسية والمشترك الإسلامي، وليس على التاريخ السياسي الضيق، فلم يكن هناك تنافس بيننا، وجرؤنا على شرح مناطق الخلاف بين السُّنة والشيعة حول قضايا معيّنة، ومعظم الخلافات التي أوضحناها كانت تدور حول قضايا سياسية وتاريخية، وليست قضايا دينية. وبما أن تلك القضايا التاريخية مضى عهدها وانقضى، فلا حاجة لنا في عصرنا الحالي للاهتمام بها. وكان ذلك الأسلوب في حد ذاته منعطفاً تعليميّاً لنا جميعاً.

مالكوم إكس Malcolm X

"إنني كنت أسفل سافلين في قاع المجتمع الأمريكي، وعندما اهتديت إلى الله وإلى الإسلام تغيّر مجرى حياتي"

مالكوم إكس (مالك الشباز)

أشرتُ من قبل إلى حركة "أمة الإسلام" Nation of Islam، وكانت هذه الحركة منظمة فاعلة في صفوف السود الأفارقة في أمريكا وتزعمها منذ عام ١٩٣٤ إليجا روبرت بوول (١٨٩٧-١٩٧٥) حتى وفاته، وكان يُعرف باسم إليجا محمد Elijah Muhammad. كانت تُدار المنظمة بوصفها حركة دينية، ولكنها كانت في الواقع حركة اقتصادية وسياسية "صِدامية" تجتهد في سبيل تمكين السود وحقوقهم، وكان فهمها للإسلام محل خلاف كبير، فعقيدتها كانت تتعارض مع المعتقدات الإسلامية الأساس، لأنها كانت تدعو بشراسة إلى معاداة البيض، وكانت تعدّ السود أصل البشر، ومن ثمَّ كانت تعدّ الإنسان الأبيض قوة قمع شريرة. وكان ردّ فعلها الطبيعي لاستعلاء العنصر الأبيض هو استعلاء العنصر الأسود.

علينا الآن أن نضع الأمور في نصابها وسياقها. كانت الحركة في الستينات من القرن العشرين حركة واثقة وقوية جداً تدافع عن حقوق السود المدنية، وكانت فصائلها الكثيرة تحاول أن تقضي على العزل العنصري تحت قيادة الشخصية الكارزمية التي كان يتمتع بها مارتن لوثر كينج. وكانت رسالة إليجا محمد تستهوي الشريحة الفقيرة المحرومة التي لم تكن تحظى إلا بحقوق قليلة، وكان لديها هلع وقلق كبيران. كان تاريخهم مليئاً بالأهوال، وكانوا يرون في الانتقادات التي توجهها حركة "أمة الإسلام" تقويماً عادلاً لكل ما مروا به من معاناة تحت نير العبودية، وما زالوا يعانون منه بوصفهم فاقدي أهلية المواطنة. كانت أمريكا قد أسسها الرجال البيض الذين ينتمون للطبقة الوسطى، وكان إليجا محمد يرى أن هذا لا بدّ أن يتغير. وكانت نظرية إليجا تقوم على إعادة تكوين هوية الأمريكيين من أصل أفريقي. ولذلك أنشأ حركة تؤمن بالرجل

الأسود وليس الأبيض، والرجل الأسود هو الرجل المتميز. ولذلك ينبغي على السود أن يبذلوا قصارى جهودهم ليكونوا في صدارة المجتمع. وأيقظ إليجا محمد مثلَ هذا الإحساس بالهوية في مجتمع الأمريكيين من أصل أفريقي، وأعاد صياغة الرؤى بحيث يحصلون على ما يستحقونه في عصر حركة الحقوق المدنية. وكان إليجا محمد شخصاً يدور حوله جدل كبير، وسعى بدأب للحصول على اعتراف أكبر بحقوق الأمريكيين من أصل أفريقي بالعمل من خلال النظام القانوني الأمريكي.

في موضع سابق من هذا الفصل، ذكرتُ أنَّ الله كتب لي أن أقابل في الولايات المتحدة الأمريكية شخصين مرموقين للغاية، كان لهما عظيم الأثر في حياتي على مدار عشرات السنين. أحدهما هو مالكوم إكس، الذي نشر سيرته الذاتية بعنوان "**السيرة الذاتية لمالكوم إكس**"، كما يرويها الصحفي أليكس هيلي؛ إذ تُوثّق حياته ببراعة. كان مالكوم الشاب مجرماً، فلم يمضِ وقتٌ طويل إلا ودخل السجن. أخبره أخوه الأصغر ريجينالد بأنه من الممكن إطلاق سراحه في الحال إذا انضم إلى حركة "أمة الإسلام". ويبدو أن ذلك كان دافعه الأوّلي. وفي السجن تغيرت حياة مالكوم بشكل لافت للنظر؛ لأنه علّم نفسه بنفسه فجأة، وأكثر من قراءة الكتب، واستغرق في دراسة الإسلام، وخرج من السجن قوةً يمكن التعويل عليها، وصار خطيباً مفوَّهاً وذا كاريزما ومثقّفاً أريباً وقارئاً جيداً. ويدل حرف "إكس" في اسمه على اسم قبيلته الضائعة، ويرمز إلى أنه حُرم من معرفة أصوله وسلالته في أفريقيا. وصار شخصية بارزة في حركة أمة الإسلام، وكان من أهم نوّاب إليجا محمد الأساسيين إلى أن انفصلا عندما صار مسلماً سُنّيّاً وغيّر اسمه إلى الحاج مالك الشباز بعد أداء فريضة الحج. كان مالكوم قادراً على لفت انتباه وسائل الإعلام بطريقة سابقة لعصره. وكان ناقداً لا يخشى لومة لائم، وكان شجاعاً في دفاعه عن الحقيقة، ويعبّر عن رأيه بصراحة حتى وهو يتحدث في ملتقى جامعة أكسفورد المرموق في مناظرة نهاية الفصل الدراسي في المملكة المتحدة في عام ١٩٦٤.

كان مالكوم من أقوى مناصري حركة أمة الإسلام، ولعب دوراً كبيراً في جلب مناصرين للحركة، إلى أن اعتنق الإسلام السُّني وتبدد افتتانه الموهوم بإليجا محمد، فترك الحركة، مما تسبب لها في بعض الانتكاسات. في عام ١٩٦٤، أنعم الله عليه بفرصة أداء فريضة الحج، وفي مكة التقى بالملك فيصل، ووجه الملك فيصل دعوة لمالكوم لزيارته في قاعة استقباله التي يدعو إليها في العادة شخصيات من مختلف أنحاء العالم في موسم الحج. وكان التباين لافتاً؛ ففي الولايات المتحدة كان الكثيرون من الأمريكيين من أصل أفريقي تُساء معاملتهم ويُنظر إليهم باحتقار، ولكن في السعودية كان مالكوم إكس الأمريكي من أصل أفريقي في ضيافة الملك، مع أهم الشخصيات في العالم الإسلامي في ذلك الوقت. فرجع إلى الولايات المتحدة الأمريكية شخصاً مختلفاً تماماً عمّا كان عليه من قبل.

بعد أن انتهى مالكوم من أداء فريضة الحج ورجع إلى أمريكا، بدأ يتكلم عن خبرته مع المسلمين البيض الشُّقر ذوي العيون الزرقاء الذين يسجدون لله تعالى بجانب المسلمين الأفارقة سُمر البشرة، دون أية تفرقة على أساس اللون أو العِرق، وتحدث عن شعوره لأول مرة في حياته بالمعنى الحقيقي للأخوَّة بين البشر. وشرع في السعي لتصحيح المغالطات في العقيدة التي روّجها إليجا محمد. فبدأ مالكوم يعلّم الناس إسلاماً مختلفاً عن رسالته السابقة، فهاجم العنصرية، ولكن هذه المرة ليس من منظور تفوق الجنس الأسود ودونية الجنس الأبيض، بل على أساس حقوق الإنسان للجميع، فآمن بأن البشر سواسية، ولا تميز بينهم إلا بأعمالهم. واستغل قدرته الفائقة على الخطابة في الكشف عن الأيديولوجية العنصرية التي تقوم عليها حركة أمة الإسلام، وانتقد إليجا محمد، وتكلم وكتب بطلاقة وفصاحة عن تجربته في الحج (انظر الفصل الخاص بالحج في سيرته "**السيرة الذاتية لمالكوم إكس**"). وكان الطالب أحمد صديق عثمان السوداني هو الذي شجعه على البدء في رحلته التاريخية إلى مكة، ومن مفارقات الحياة أن أحمد هو الذي رافق أرملة مالكوم (بِيتي الشباز) في رحلة مماثلة لأداء فريضة الحج في عام ١٩٦٥ بعد اغتيال مالكوم.

أكتب الكلمات التالية بخليط من الشرف والحزن العظيمين؛ فقد حظينا بلقاء مالكوم إكس في نيويورك قبل اغتياله المأساوي بشهر واحد. وكان في قمة قوته وشهرته، ولن أنسى المحادثة التي دارت بيننا ما حييتُ. لقد شعرنا بقوة وكاريزما شخصيته بمجرد أن سلّمنا عليه، كما شعرنا برقته العجيبة وبتواضعه. تحدث مالكوم عن جهوده مع إليجا محمد، وعن تكريس وقته لتصحيح المفاهيم الخاطئة التي تم ترويجها باسم الإسلام، ولم يكن خائفاً من القيام بذلك، قائلاً: إنه تمكّن من أن يُبيّن كيف أن فكرة تفوق الجنس الأسود التي كان إليجا محمد يدعو لها تتعارض تعارضاً مباشراً مع العقيدة الإسلامية. قلتُ: "لم يكن خائفاً"؛ لأنه من الواضح أن ذلك كان نوعاً من المجابهة. وقلنا: إن إليجا محمد كان نتاجاً لنظام يتم التعامل فيه مع الأمريكيين السود تعاملاً سيئاً على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وكان ما يقوم به استجابةً جذرية لقمع كبير. وشجّعنا مالكوم على أن يتخذ موقفاً يميل للمصالحة أكثر، ونصحناه بأن ينتقل من الانتقاد المباشر لإليجا محمد والصدام معه إلى التركيز على تقديم الإسلام نفسه لعموم الأمريكيين دون الحاجة إلى تناول أفكار إليجا.

كما أننا شجّعنا مالكوم على أن يحدد أولويات الشريعة الإسلامية الأساس، وفي الوقت نفسه يضع في حسبانه الدعوة ومتطلبات المكان والزمان. وأقررنا بأنه يتعامل مع زمن خاص يتطلب بعض المرجعيات والإستراتيجيات في التعامل معه والاستجابة له، ولكننا كنّا نريد أن نؤكد له أولوية تعليم إسلام عام يستوعب متغيرات العصر. وكنّا نأمل آنذاك أن تؤدي إمكاناته الخطابية ونفوذه إلى ميلاد حركة توجِّه عقول البشر نحو السلام. وقد قام بانتهاج منهج عالمي في العقيدة الإسلامية، وأرسل خطابات للصحافيين البيض عن قضايا السلام وتقبُّل الآخر والمساواة. وبدأ مالكوم في تعليم أتباعه الخضوع للإله الواحد الأحد الذي خلق كل الرجال والنساء سواسية. ذلك الرجل الذي كان ينظر في يوم من الأيام إلى الرجال البيض على أنهم الشرُّ بعينه يصادق الآن أشخاصاً من كل الألوان وينتمون لأديان مختلفة. واتسع مذهبه العالمي أكثر فأخذ ينظر إلى كل البشر بمختلف أعراقهم ودياناتهم على أنهم سواسية. وبذلك وضع مالكوم قدمه على الطريق

المؤدي إلى إحداث تغيير كبير في المجتمع الأمريكي. وكان مخلصاً للغاية، ومعبّراً عن أفكاره بلا خوف، وخطيباً مفوّهاً، فافتتنت به الجماهير؛ بداية من رجل الشارع العادي الجاهل المطحون إلى المثقفين، في واحدة من أبرز مجتمعات المناظرة في العالم، وهي جامعة أكسفورد The University of Oxford، فقد كان رجلاً تُشرق شمسُه إشراقاً آسراً، كما أنه كان له تأثير قوي لدرجة أننا كنّا نحسُّ بالهيبة في حضرته.

كان بيننا وبين المنصة التي يقف عليها مالكوم ألفا مستمع في قاعة كبيرة في نيويورك، ولم يكن هناك سقف للقاعة. وبدأت قطرات المطر في التساقط، ثم تساقط المطر بغزارة، وابتلّت ملابسنا. ولكن جميع الحاضرين تناسوا البرد والبلل، وكانت عيونهم شاخصة إلى شخص واحد سحرتهم كلماته. لا يمكنني أن أنسى تجربة الاستماع إلى مالكوم أبداً، كنت مسحوراً ومذهولاً به، ففي بلاغته شيء عجيب يلمس أعماق النفوس، وما زال شعوري بذلك اللقاء مطبوعاً في قلبي حتى اليوم. كم أضاء مالكوم على طريق المجد قبل أفوله المأساوي!

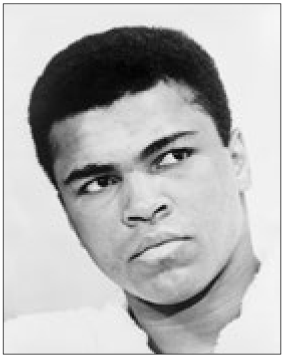

محمد علي كلاي

Muhammad Ali Clay

"لدينا حياة واحدة وعمّا قريب ستصبح من الماضي، وما نعمله لله هو الذي سيبقى"

محمد علي كلاي

لعب مالكوم دوراً مهمّاً في دخول بطل الملاكمة العالمي كاسيوس كلاي الإسلام، وهو الشخص الثاني الذي ذكرتُه من قبل بأنه صار قدوة لي. غيّر كاسيوس اسمه إلى محمد علي بعد أن اعتنق الإسلام، وهو الاسم الذي عُرف به منذ ذلك الحين. التقيتُ بمحمد علي لأول مرة في عام ١٩٦٣ عندما زار المركز الإسلامي في لندن بعد فوزه التاريخي على منافسه البريطاني ملاكم الوزن الثقيل هنري كوبر في مباراة كانت هائلة، وما

زالت المواقع الإعلامية العالمية تعرض لقطات منها على الرغم من انقضاء عقود من الزمان على إقامتها. كنتُ قد حصلتُ للتو على درجة البكالوريوس من جامعة برمنجهام، وكنتُ أستعد للسفر إلى أمريكا. وفي عام ١٩٦٤، أعلن كاسيوس كلاي أنه اعتنق الإسلام وصار عضواً في "أمة الإسلام"، وفاز في ذلك العام بلقب بطل العالم متفوقاً على سوني ليستون، الذي كان آنذاك بطل العالم في الوزن الثقيل، وكان اسمه يتردد على كل لسان.

شاركْنا ١٩٧٠ فيما يُعرف ببرنامج الأمم المتحدة النموذجي في جامعة ولاية بنسلفانيا، وفيه يمثّل الطلاب بلدانهم، فكانوا يقومون بدور سفراء بلدانهم أو ممثليها، ليشاركوا في مناظرات ويسعوا لحل مشكلات عالمية حتى يعيشوا تجربة حقيقية تدرّبهم على أمور الواقع. كما كنتُ أحد منظِّمي هذا الحدث، ولعبتُ دور سفير من العراق. وبفضله تعالى حصلتُ على الجائزة الأولى؛ إذ مثلتُ دور أفضل سفير في برنامج الأمم المتحدة النموذجي.

التقيتُ بمحمد علي مرة أخرى في جامعة ولاية بنسلفانيا في عام ١٩٧٠. ولا حاجة لي لأن أصفه؛ فالعالم كله يعرفه ويحبه، وهو من أعظم ملاكمي الوزن الثقيل على مرّ التاريخ، وسيبقى دائماً أسطورة رياضية، وقد سخَّر طوال حياته وقتاً كثيراً للأعمال الخيرية إلى أن توفاه الله في ٣ يونيو/ حزيران عام ٢٠١٦.

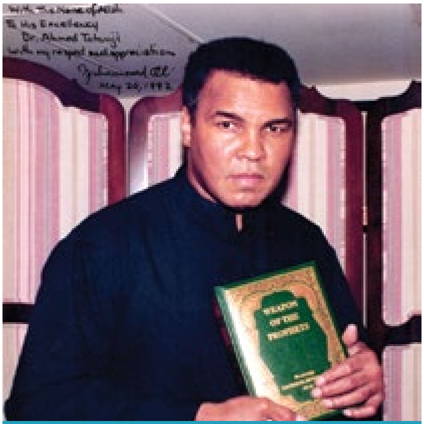

إهداء خاص لي من محمد علي كلاي

كان هناك اقتراح بأن تدعو الجامعة شخصية مرموقة ومشهورة، واقترحتُ أن تستضيف الجامعة محمد علي كلاي. رحب الجميع بالفكرة بالطبع، وتم تكليفي بمسؤولية التنسيق وتقديم الدعوة، وسعدتُ سعادة غامرة عندما وافق محمد علي على زيارة جامعة ولاية بنسلفانيا، وردّ في الحال

قائلاً إنه لا يمكنه أن يرفض دعوة قدمها له إخوته المسلمون. وتواصلنا مع الجامعة لتنسيق الاستضافة، ووافق الضيف على البرنامج الذي اقترحته الجامعة.

لكنه طلب مني أن يلتقي لقاء خاصاً مع الطلاب المسلمين، فقد عزّز هذا اللقاء الخاص مع بطل وشخصية مشهورة صورةَ جماعة اتحاد الطلبة المسلمين تعزيزاً استثنائياً في حجمه وقوته في الجامعة. فبعد لقائنا بمحمد علي، زاد الاهتمام بالإسلام زيادة كبيرة. وفي الواقع، كانت هذه اللحظة حاسمة في تاريخنا، فبعدها صارت أمامنا أعمال كثيرة علينا أن ننجزها، ولذلك ركزنا جهودنا أكثر على محتوى نشرتنا وجودتها وزدنا الأعداد المطبوعة منها.

لم يشتهر محمد علي؛ لأنه كان أعظم ملاكم في ذلك الوقت فحسب، بل أيضاً لأنه كانت لديه أخلاقيات عالية، وكان لا يخشى الالتزام بالمبادئ التي وضعها لنفسه كمُثل عليا والالتزام بمعتقداته الإسلامية، واستخدم أساليب ثورية، وكان يمتلك مَلَكة التعبير عن أفكاره ببراعة. وعلى سبيل المثال، يشتهر محمد علي بموقفه غير المسبوق عندما رفض أن يذهب مع الجيش الأمريكي ليحارب في فيتنام على الرغم من أنه استلم إخطار التجنيد. فقد كان يشعر بأن حرب فيتنام لا إنسانية، وأعرب عن رأيه هذا دون أن يخشى لومة لائم. وكان بإمكان محمد علي أن يتقدم بطلب لإعفائه من التجنيد بناءً على النجاح الذي حققه في مجال الرياضة، ولكنه بدلاً من ذلك رفض الالتحاق بالخدمة العسكرية في فيتنام احتراماً لمعتقداته الإسلامية، وأعلن للعالم أجمع أن مبادئ الإسلام تمنعه من أن يقتل الناس ظلماً وعدواناً، وأن الحرب من وجهة نظره كانت تعني شن مثل هذا العنف على أمة بأكملها. إن موقف محمد علي الذي أعلنه على الملأ من الحرب على فيتنام أغضب كثيرين من رجال السياسة في أمريكا، لكنه تمسك بمبادئه، وحذا حذوه كثير من الشباب. وأدّى هذا الرفض إلى تجريد محمد علي من اللقب الذي أحرزه في ملاكمة الوزن الثقيل، وحرمانه من الاشتراك في مسابقات الملاكمة، وتغريمه عشرة آلاف دولار أمريكي بسبب تهربه من التجنيد. ولم يرجع محمد علي إلى حلبة الملاكمة إلّا في عام ١٩٧٠ بعد أن قضى فترة حظره من الملاكمة لمدة ثلاثة أعوام ونصف العام. ثم جاءت "مواجهة الغابة" ضد بطل العالم في الوزن الثقيل الذي لا يُهزم وهو جورج فورمان في عام ١٩٧٤ فيما تُعرف بأعظم مباراة ملاكمة في التاريخ، ونُظّمت في زائير؛ إذ نقلت هذه المباراة محمد علي إلى عالم النجومية المطلقة بعد

أن تغلب على خصمه فورمان.

عندما اعتزل محمد علي الملاكمة في عام ١٩٨١، بدأ يهب حياته للأعمال الخيرية ويدعو الناس للدين. وللأسف أصيب بمرض باركنسون أو الشلل الرعاش، وكان سببه صدمات في الرأس ناتجة عن لعبه للملاكمة. ولكنه حارب المرض ببراعة، وقاتله خطوة بخطوة كما يقاتل في حلبة الملاكمة، وواصل عمله، وكان دائماً محط الأنظار. تقبل الله صالح أعماله، لأن عطاءه كان يتزايد مع تقدمه في السن، وساند كثيرين بطرق مختلفة، ووهب محمد علي وقته وماله وجهده لله، وأنشأ مؤسسة تدعم الأعمال الخيرية اسمها "مؤسسة محمد علي". وأسسها بماله الخالص، وكان لديه حافلة عبارة عن مكتبة متنقلة، وظل يسافر إلى مختلف ولايات أمريكا ومدنها ويتكلم هو وفريقه مع الناس إلى أن أقعده المرض عن السفر. وقد زارنا محمد علي والتقى مجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي في فرجينيا (IIIT)، وتناولنا الحديث حول تطوير عمل المسلمين في أمريكا، وتنمية شخصياتهم بالصورة التي تليق بالمسلم الأمريكي.

كان محمد علي كلاي والحاج مالك الشباز رجلين متميزين ونادرين من حيث القيمة والطباع، وأشكر الله أن أنعم عليّ بفرصة لقائهما.

اتحاد الطلبة المسلمين وعالَم الرياضة

صار من المهم للشباب المسلمين أن تكون لهم قدوة مثل محمد علي كلاي تمثّل الإسلام. وفي ذلك الوقت، كان هناك قليلون يرفعون راية الإسلام ويتمسكون بالمبادئ الإسلامية بلا خوف ولا تهاون مثل الراحل محمد علي ـ رحمه الله ـ . ومن بين الشخصيات التي كانت تحت الأضواء بسبب إنجازاتها الرياضية كريم عبد الجبار (لويس ألسيندور) أشهر لاعب كرة سلة في تاريخ أمريكا آنذاك. وكان هو أيضاً ممن وجّهوا عدداً كثيراً من شباب المسلمين للتمسك بمبادئ الإسلام،

وكان السبب في اعتناق عدد من الأمريكيين للإسلام. ولذلك خلال تلك السنوات التي كنتُ أكمل فيها دراستي العليا، شعرنا أن عقيدتنا صارت فجأة "موضوعاً ساخناً" على مستوى الجامعة وفي مختلف وسائل الإعلام على حد سواء. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن مقصوداً، كان يبدو الأمر كما لو كان هناك تطوُّر يحدث من خلال تعاون ناشئ بين اتحاد الطلبة المسلمين عبر أمريكا الشمالية وعالَم الرياضة، وبموجبه كانت أجيال الشباب تتعرف على الإسلام والقدوة في مجال العقيدة بطريقة لم تحدث قط من قبل.

كان هذا التعاون يضرب بجذوره في مكان أسهمت طبيعته في إحداث مثل هذا النمو والازدهار. لقد نشأتُ في العراق حتى الدراسة الثانوية، وكنتُ في أمريكا بعيداً عن بلاد المسلمين، ولكنني كنتُ أشعر بطاقة أكبر وبتطور حيويّ لم أره من قبل. كان هناك خليط قوي من الأنشطة والتعاون في العمل والمشروعات أكبر من القدوة التي يُحتذى بها في الحياة ومن الاهتمامات ومن الخطابات، وكنتُ أرى أن ما يتكشف أمامي صار ممكناً؛ لأن الأرض كانت خصبة مهيأة له. يقول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. كنتُ أرى أن أمريكا وفّرت الحريات والإمكانات التي تجعل الإحسان يضرب بجذوره وينتشر، وقد وهبنا أنفسنا لأنشطتنا بهدف التعريف بمبادئ الإسلام، ولم ندخر من وقتنا وسعاً، وكانت كل ذرة من وجودنا تسعى لخدمة هذه القضية، لدرجة أنه صار من الأحلام والرفاهية أن نتوقف وننظر حولنا، ونرى كيف تتشابك الأمور جميعها بطرق لم أتخيلها قط عندما جئتُ إلى أمريكا أول مرة. فشعرنا برضا كبير، وسُررنا بالمدى الذي وصلنا إليه والتعاون الذي نما أمام أعيننا. فكانت شجرة كبيرة وارفة قد نمت من بذرة، ومع هذا التجدّد، تعهدنا ببذل المزيد من طاقتنا في سبيل تحقيق أهداف أعظم.

مبادئ ونجاحات: جمعية الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية واتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا الشمالية

﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ...﴾ [الحشر:٩]

الشاب الذي وصل أول مرة إلى لندن، ليجد زملاءه المسلمين حريصين على أن يأخذوه إلى الملاهي الليلية، ولكنه قرر أن يتمسك بعقيدته بدلاً من الذهاب معهم، هذا الشاب ساعد مع رفاقه المسلمين في وضع أسس إحياء الإسلام وممارسته، فابتعدوا عن أسلوب الحياة الفارغ واتجهوا إلى الله، بعيداً عن أسلوب الحياة الذي يقوم على التسلية الفارغة إلى أسلوب حياة يقوم على الصلاة، بعيداً عن الاهتمامات الباطلة إلى الأهداف الجادة التي تقوم على العقيدة، بعيداً عن التسكُّع بلا هدف إلى التركيز على الجانب الروحي والإيماني. وكان مفتاح كل شيء يتمثل في التحفيز والدأب والتخطيط والتفاوض والاجتهاد والحفاظ على التراحم والتفاني. وتحوّل الطموح الشخصي إلى طموح من أجل الجميع، مع إيمان داخلي بأن التغيير يمكن أن يتحقق، وأن كل شيء ممكن بشرط اتخاذ الخطوات الصحيحة، وبشرط أن تكون النية سليمة. وكل ذلك دفعني لأن أتمسك بمبادئ الإسلام أكثر.

١٩٩٩. في اجتماع لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا. من اليسار، أحمد صقر الرئيس السابق للاتحاد، وأنا ألقي خطاباً، ورئيس الاجتماع محمد عُميش.

٢٠٠٣. شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية. أنا على اليسار مع إلياس بايونس رئيس سابق لاتحاد الطلبة المسلمين ورئيس سابق للاتحاد الإسلامي بأمريكا الشمالية.

لقد وضع الله في قلبي أن أهتم بأشياء أخرى غير دراستي، وبارك الله في جهودنا وكلّلها بكل هذا النجاح. وبدأ تغيير الذات من أول يوم؛ إذ كان الصمود أول درس أتعلمه على هذا الدرب. واكتسبنا الحكمة والبصيرة فيما يتعلق بمآزقنا واحتياجات الطلاب المسلمين من خلال اختيار المجالات التي يمكننا جميعاً كإخوة مسلمين أن نطور فيها أنفسنا. وفي كل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، عندما تناولنا بطريقة غير رسمية القضايا التي تهمنا، تطورنا كأفراد، ومن ثمَّ تمكَّنّا من أن نلبي احتياجات الطلاب تلبية أفضل إلى أن استطعنا أن نرسّخ أنفسنا بشكل رسمي، وبناء عليه أنشأنا نموذج جمعية الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية ونموذج اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا.

وفي الواقع، عندما أتأمل الدرب الذي كنتُ أسير عليه في أيامي الأولى، أراه يقوم على التوفيق التام، فكنت أشعر أن العناية الإلهية تعمل بلطف، وتضعنا في عدة مهام وأدوار وأماكن مع أشخاص متنوعين عبر جمعيات ومنظمات الطلبة المسلمين، مما أدّى بنا في النهاية إلى أن ننمو نموّاً روحيّاً وإيمانياً وفكريّاً، ولقد بذرنا بذور جيل سيكونون في المستقبل قادة لمجتمعاتهم وقدوة للمسلمين، ومكّننا الوضعُ في الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، من أن يؤتي عملنا أُكله ومن أن تتجذر نماذجنا في النفوس والسلوك.

عندما أتأمل ما قمنا به، أحمد الله على التوفيق في التحول الروحي والفكري الشخصي الذي تحقق لي في البيئة الأمريكية، فقد مكّنني كل ذلك من أن أحقق كل ما حققته حتى ذلك الوقت، بما في ذلك نماذج قيادة الشباب التي لا غنى عنها لازدهار الإسلام، فهي المبادئ التي تمسكتُ بها أنا وزملائي بوعي متزايد بقيمتها، مما سهّل كل النجاحات التي حققناها.

وأيّاً كان ما ننجزه، لا بد أن تكون نياتنا خالصة لوجه الله وأن تكون أهدافنا نبيلة، وعندها يصدق القول: **"ما كان لله دام واتّصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل"**

الفصل الرابع

المركز الروحي

أشواقُنا نحْوَ الحجازِ تطلَّعَتْ
كحَنينِ مُغتربٍ إلىٰ الأوطانِ

إنّ الطُّيورَ وإنْ قصَصْتَ جناحَها
تسمُوْ بفطرَتِها إلىٰ الطَّيَرانِ

محمد إقبال

نحو قلب العالم الإسلامي

"من الضرورة أن نعيش الإسلام في أي مكان نحن فيه، وفي أي مكان نذهب إليه، وأن نكون واثقين وفخورين بإيماننا بالله تعالىٰ، وأن نجسد رؤية القرآن في العالم من حولنا"

شققنا طريقنا، وصنعنا بصمة في الولايات المتحدة الأمريكية، لأننا كرسنا جزءاً كبيراً من وقتنا لتوليد وعي أكبر بالإسلام وربط الطلاب المسلمين في شبكة قوية تستطيع أن تحفّز إمكاناتهم الكامنة وتقوّي هويتهم الروحية والمهنية، جاعلين الجد والاجتهاد شعارنا. ومع أننا لم ندع الإجهاد يقضي علىٰ جهودنا، اضطررْنا أحياناً لأن نرجع خطوة للوراء لنلتقط أنفاسنا، فيُنعشنا التأمل كثيراً ويدفعنا للبدء في العمل من جديد بروح معطاءة وثّابة.

انتعشت أيضاً الزمالة بيننا وقويتْ روابط الود. وكنتُ وزملائي من آن لآخر نتفكّر فيما وصلنا إليه، وفي التطورات التي أحرزناها في أمريكا. وكنّا نندهش حقّاً مما أنجزناه، ومن طريقة إنجازنا له علىٰ حد سواء. ولكنْ ثمة أمرٌ يؤرقنا، فقد كنّا حريصين علىٰ ألّا تتأخر دراساتنا في الدكتوراه أو تقل معدلاتنا الأكاديمية بسبب الانشغال الكبير في أنشطة لا علاقة لها مباشرة بدراستنا. كان لدينا طموح فكري، وكان تفوقنا في الدراسة لا يقل أهمية عن إنجازاتنا في المجالات الأخرىٰ، واستطعنا أن نوازن بين هذه الأنشطة الكثيرة، لأننا أدرنا وقتَنا إدارةً يفخر بها أي مدير تنفيذي في أية شركة.

لم نخدع أنفسنا بحجم الإنجازات التي حققناها، لأن ما حققناه في الواقع لم يكن قليلاً، وكأننا تسلقنا جبلاً كاملاً وصعدنا إلىٰ قمته، ونبع من داخلنا إحساس دافئ بالرضا عندما كنّا نتأمل طاقتنا الجماعية وعزيمتنا والوقت الذي قضيناه، والمجهود الذي بذلناه، والنفع الذي عاد علينا من وراء كل ذلك. فقد أفدنا واستفدنا؛ إذ كانت التجربة كلها منعطفاً تعليميّاً، فتعلمنا الكثير مما قمنا به علىٰ مستوىٰ مهارات الإدارة والقيادة والتفاوض، وكثيراً من المهارات الأخرىٰ، وكان لذلك عظيم الأثر في نمونا الشخصي وتطوُّرنا.

لكننا أحياناً كنّا ننشغل بشيء ونغفل عن شيء آخر، فبينما كنّا منشغلين بوضع الخطط، وتنظيم مختلف الفعاليات، والقيام بمشروعات كثيرة، والانخراط في حلّ المشكلات، وتوسيع الأنشطة خارج نطاقاتنا المعتادة، غفلنا عن شيء آخر دون أن ننتبه له. قد يختلف بعضهم معي هنا، ولكن نظرتنا للأمور وانشغالنا بتحسين الأحوال في طرف من أطراف الكرة الأرضية جعلنا نبتعد من دون قصد عن طرف آخر، وهو مجتمعات المسلمين.

لم نكن ننوي أن يحدث ذلك، ولكن تقويمنا الصارم والصادق لأنفسنا جعلنا ندرك هذه الحقيقة المُرّة، ولذلك قررنا أن نعالج هذا الخلل في التوازن، وأن نبذل جهوداً لإعادة تواصلنا مع مجتمعات المسلمين في أجزاء أخرىٰ من العالم. ولم نقرر في تلك اللحظة الشكل الذي سيتخذه هذا التواصل من جديد، ولا الطريقة التي سننّفذه بها، لكن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وكانت خطوتنا أننا عقدنا النية علىٰ القيام بذلك. كانت دراساتنا والعمل الذي اخترنا أن نقوم به، وهذا التقويم لمسارنا مترابطين ترابطاً أساسيّاً ووثيقاً من وجهة نظرنا للحياة والقيمة التي أوليناها لعيش هذه الحياة، وفقاً لمبادئ القرآن الكريم علىٰ المستويين الرأسي والأفقي علىٰ حد سواء. قد نجد تفاوتاً كبيراً بين قسمين من الناس، قسم متمسك بدينه، وقسم يميل ميلاً كبيراً نحو الاستمتاع بالحياة بعيداً عن الدين. ولكننا كنّا نرىٰ قيمة جوهرية في تطبيق تعاليم القرآن وتحسين أحوال حياة الناس، وسعدنا عندما أدركنا أننا استطعنا أن نُحْدِثَ اختلافاً في حياة الناس عندما كنّا في ريعان الشباب. ولكن آن الأوان لكي ننطلق من الوادي ونعبر أراضيَ خضراء جديدة بعدما صقلتْ تجاربُنا شخصياتِنا وأمدتنا بالقوة والصلابة.

مكة

سنحت لنا فرصة رائعة في يوم من الأيام، ففي عام ١٩٦٥ رشحني اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا لأكون ممثلاً له في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي الذي يُعقد في مكة المكرمة، ولم أكن أتوقع أن أنال هذا الشرف العظيم.

كانت الكعبة تستحوذ على عقلي، فهي قلب العالم الإسلامي، ووطننا الروحي، ومكان الصلاة الدائمة والتعبُّد. وأدركت أثناء نشوتي بذلك أن طريقاً جديداً ينفتح أمامنا، وسيكشف لنا عن شيء ما. فلم أضيّع وقتاً، وسارعتُ إلى مكتب رئيس قسمي وطلبتُ أن ألقاه، واستجاب لطلبي في الحال، وسمح لي بالمغادرة والسفر في أسرع وقت يناسبني.

لقد أتت إلينا فرصة تمثيل اتحاد الطلبة المسلمين، وفي الوقت نفسه فرصة طلب التعاون في عمل شيء ما. وفجأة نلتُ شرف تمثيل الاتحاد ونلتُ شرفاً آخر شخصيّاً، وهو أداء فريضة الحج.

سأكون ضيف الرحمن، وكنتُ أحلم بذلك منذ فترة طويلة، كما كان ذلك جهاداً روحيّاً وانتقالاً إلى طريقة جديدة من طرق المعرفة والوجود.

مرّ الوقت سريعاً، ووجدتُ نفسي في مكة، فدخلتُ الحرم مرتاح الضمير خافض الرأس بملابس الإحرام البيضاء البسيطة، وكانت الكعبة ترتفع شامخة أمامي، تنهدتُ عندما أحسستُ بقوة جذبها لروحي، وكنتُ كمن ينتمي لهذه الأرض ولا ينتمي لها في آن، فقد أحسستُ كما لو كنتُ دخلتُ مجال جاذبية. ولا تسعفني الكلمات للتعبير عما أحسستُ به أو رأيتُه، فكان الأمر كما لو أن حجاباً بين الله والإنسان قد انكشف!

دخلتُ الحرمَ مع الملك فيصل ـ رحمه الله ـ ولفيف من علماء المسلمين وزعمائهم. وداخل الحرم، ارتفع بالدعاء صوت الشاعر عمر بهاء الدين الأميري الذي حباه الله بصوت جميل وجهور، فصدح صوتُه بالدعاء رائقاً وعذباً، فمسّ شغاف قلوب الحاضرين، وبدا لي كما لو كنت أستمع لصوت الدعاء لأول مرة في حياتي، دعاء عن الإخلاص والصدق والتوبة والرحمة والجنة التي عرضها السماوات والأرض.

"لبيك لا شريك لك لبيك"، لبّى البشر النداء ولبيتُ معهم. اصطف الناس للصلاة، وانحفر ذلك الإحساس بوحدة البشر في أعماق قلبي. كانت الكعبة تلين أقسى القلوب وأكثر الناس جهامة، فانسابت الدموع على الخدود، وعلت الأصوات خشوعاً في الصلاة. فكل ما كان ينطمر في أعماق القلب من غمّ وألم، من آمال ومخاوف، اصطف

حول أستار الكعبة، وانفجرت من أعماق القلوب تلبية للخالق ملؤها الإحساس بالألم والتقصير منذ فترة طويلة. وعندما وجدت البشر يتوافدون حولي أحسستُ بأنني مُتّحِد مع كل الوجود، وفي الوقت نفسه أحسستُ بأنني بمفردي؛ لأن داخلي فاض بإحساس غامر بالوعي الروحاني والمحبة فيضاً لم أشعر به من قبل. فامتلأت القلوب بالنور، وانشرحتْ كما لو كانت الأرواح تعرج إلى السماء في حالة من السمو الروحاني الكامل.

أديت شعائر الحج كما لو كنتُ في حلم، فكنتُ أحس بالاتحاد مع البشرية من حولي، وتلاشىٰ العالم الخارجي وكل ما يمثله، تلاشت متعلقات الدنيا والعالم المادي، فقد تكشفتْ أمامنا الحقيقة العارية لوجود الإنسان، وانطبعت الحقيقة في قلوبنا روحيّاً وجسديّاً، وقالت لنا: إننا خُلقنا لنعبد الله جلَّ وعلا، وإن الغرض من أمور الدنيا أن نستعد للموت ولقاء الله سبحانه وتعالىٰ، وقد كانت تجربة تفوقُ الوصفَ. طفتُ حول الكعبة مارّاً بالحجر الأسود في الجانب الشرقي منها، وسعيتُ بين الصفا والمروة، وكل ذلك في لحظة إحساس مشترك مع أناس من مختلف الألوان لم أرهم من قبل، وبدا لي أن بعضهم جاء من أقصىٰ أطراف الأرض. أحسستُ كما لو كانت هناك طبقة جديدة من شغاف قلبي قد لُمِسَت واستيقظت من مرقدها. كان عددنا أكثر من نصف مليون شخص، وكانت هذه الأيام أفضل عشرة أيام في حياتي، ولا أستطيع حتىٰ الآن أن أصدق كم كنتُ محظوظاً، لأن الله أنعم عليّ بأن أعيش هذه التجربة في وقت مبكر من حياتي. وعند عودتي، اكتسبتُ طاقة جديدة وحيوية عجيبة دعتاني لأن أوسّع نطاق جهودي وأمدها، ليس لهذا الجزء من العالم قلب الحضارة الإسلامية ومنبع العلم الروحاني فحسب، بل لكل مجتمعات المسلمين وللبشرية جمعاء.

التجمُّع

كان مؤتمر رابطة العالم الإسلامي في مكة علىٰ وشك الانعقاد، وبدأ العلماء العظماء وقادة العمل الإسلامي من مختلف أنحاء العالم في الوصول. وفي أثناء دخولهم أطلتُ النظر لأرىٰ من هم، وكنتُ أحس بشرف وجودي في صحبتهم، وكنتُ متلهفاً للقائهم والاستماع إليهم. وكان بين الحضور العالم الكبير الشيخ أبو الأعلىٰ المودودي، زعيم

الجماعة الإسلامية في باكستان ومؤلف كتاب "**تفهيم القرآن**". كان يتحرك بهدوء وتواضع، وشاهدتُه وهو يجلس وسط العلماء، ولم أتمالك نفسي، وواصلت مراقبة سلوكه الهادئ المتواضع، بينما كان يجلس متفكِّراً في هذا التجمُّع.

لاحظتُ من بين الحاضرين أيضاً محمد ناصر رئيس وزراء إندونيسيا بعد استقلالها ورئيس ديوان الدعوة الإسلامية في إندونيسيا، وقد حصل لاحقاً على جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام. وأعجبتُ به لعمق علمه وحكمته ورباطة جأشه كسياسي عند مواجهة المواقف الصعبة. لقد نجح في التعامل مع الهجمات على العقيدة الإسلامية برباطة جأش سياسية ومعرفة كبيرة.

كان حاضراً أيضاً محمود أبو السعود، وهو من رواد الفكر الاقتصادي الإسلامي ومؤلف كتاب "خطوط رئيسة في الاقتصاد الإسلامي" (١٩٦٥)، وكانت أفكاره سابقة لعصره، وأرى أن ذلك أدّى إلى صعوبة تقبّل أفكاره آنذاك. ومع ذلك، صار رئيس صندوق النقد الليبي بعد أن نالت ليبيا استقلالها، وأسس أول بنك إسلامي في لوكسمبورج بالدنمارك، وقد كان مفكّراً ذا رؤية إستراتيجية استشرافية.

كان هناك كثير من العلماء والزعماء. ومن بينهم الشاعر عمر بهاء الدين الأميري من سوريا، والكاتب والمفكر والفقيه القانوني والدبلوماسي توفيق الشاوي، وهو مواطن سعودي من أصول مصرية وأستاذ القانون بجامعة القاهرة، وكان عالماً ذا بصيرة ثاقبة للغاية استطاع أن يتنبأ تنبؤات دقيقة للكثير من الظواهر المستقبلية. كما كان هناك الشيخ أبو بكر جومي، وقد عُين بعد استقلال نيجيريا مساعداً لرئيس القضاة في محكمة الاستئناف الشرعية العليا، ثم أصبح رئيس القضاة بالإقليم الشمالي من نيجيريا، وترجم معاني القرآن الكريم إلى لغة الهوسا، كما أنه حصل على جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام. ومن بين الحاضرين أيضاً العالم العراقي والشيخ الكردي الكبير أمجد الزهاوي، وهو من أعظم علماء العراق وأوسعهم علماً واطلاعاً، وشرفتُ بلقائه أكثر من مرة في العراق عندما كنتُ أصغر سنّاً. كما كان من الحاضرين صالح السامرائي، الرئيس السابق لاتحاد الطلبة المسلمين في اليابان. وقد ذكرت هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر، وكانوا جميعهم مصدر إلهام، واستفدتُ منهم كثيراً.

عندما بدأ إلقاء الخطب، بدأتُ أستوعب خلاصة فكر كثيرٍ من العقول الموهوبة والحكمة الإسلامية لعلماء يعرضون الرؤى الفريدة لتخصصاتهم المتنوعة، ويمثلون جوانب ثمينة في كثير من المجالات والعلوم، مما يدل على عظمة تراث العلوم الإسلامية وغناه.

عندما تغذى عقلي واتقد خيالي، لم أملك إلّا أن أسجّل بحماس وتفانٍ ملاحظات حتى أنقلها لزملائي عندما أرجع، ومن ثمَّ أوفي بالمسؤولية التي تعهدتُ بتحملها. لم أكتفِ بتسجيل كلام كل شخص على المنصة، بل حاولتُ كذلك أن أُلمّ بمجمل رسالة كل متحدث ورؤيته؛ إذ كنتُ أطمح لأن أقدّم صورة عامة عن مجمل هذه التجربة العميقة. ولكن ما الذي يمكن للكلمات أن تسجله مما تراه العين ويعايشه العقل، ومما كان ينطبع في روحي؟! لمستِ الوحدةُ والتعاونُ اللذان شهدتُهما شغافَ قلبي، ولكنني لم أستطع أن أُخرج تلك المشاعر على الورق. لغة الشعر أنسب للتعبير عن دخائل النفس ونبض الوجدان، لكنني لم أكن بارعاً في لغة الشعر، بل متخصصاً في الهندسة، ولذلك عرفتُ أنني تمكنتُ من أن أسجل الجزء الظاهر من وقائع المؤتمر بصورة أفضل.

ثم تذكرتُ قول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ...﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ففهمتُ الأمر الإلهي الأعمق في المشهد من حولي. ومع ذلك كان الكلام الذي يُقال مهمّاً، ولكن فوق كل هذا وذاك تربعت على العرش الرسالة الأعظم الماثلة في وحدة المسلمين، فاستحوذ على عقلي أن هذه الوحدة ذات أهمية كبرى، وأننا يجب علينا أن نعتصم بما وهبنا الله إياه، وما ينتج عن ذلك من قوة لنا جميعاً. كان الكلام الذي كنتُ بدأتُ أسمعه خافتاً في البداية خارج هذه التجربة ينبع من داخل روحي ويجعلني أفهم الحقيقة السامية، حقيقة وحدتنا. ما الصعب في أن نجعل القرآن الكريم وعينا الجمعي المشترك؟

في أثناء حديث المتحدثين في المؤتمر، كنتُ أشعر كما لو كان الكلام صادراً من قلوبهم، وليس ألسنتهم، فغمرني كلامهم كما لو كان ماء استشفاء. وتحرّك عقلي بهمة ونشاط وهو يُجمّع شظايا التاريخ المتناثرة، فأبصرتُ بعين عقلي المدينة المنورة والمهاجرين والأنصار وهم يقفون جنباً إلى جنب، وأبصرتُ قبيلة الأوس وقبلية الخزرج متآخيتين. ثم تنبهتُ للملك فيصل وهو يتحدث عن وحدة المسلمين، ويعلن الجهود الرامية إلى اتخاذ خطوات عملية لتحقيقها.

تحدث الملك فيصل عن مبادئ الإسلام ومقاصده العليا، ولفت انتباهنا إلى أن هذه المبادئ والمقاصد جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، وإلى ضرورة أن ننظر إلى المجالات والممارسات الأخرى على أنها تالية لهذه المبادئ والمقاصد في الأهمية، وقدّم للمستمعين صورة واسعة للإسلام، وتجنب ببراعة الدخول في قضايا خلافية. إن الخلافات جزء لا يتجزأ من حياتنا، ولكنني أستطيع أن أتفهم السبب الذي دعاه لأن يُبحر بانسياب عبر القضايا المتنوعة التي ضرب بها الأمثلة، لكي يدعم المثل الأعلى والهدف الأسمى الماثل في وحدة المسلمين.

تحوُّل في الهدف

عند عودتي من رحلتي، كنتُ مفعماً بمزيد من الطاقة والعزم على توسيع نطاق أنشطتنا، وكنتُ مزوّداً برؤية أعمق، وجلستُ أفكر في طريقة نطوّر بها عملنا. وكان ذلك يتضمن رأب الصدع الذي كان موجوداً حتى ذلك الحين بين الشرق والغرب، ولا بد من أن نكوّن علاقات مع العلماء في مجتمعات المسلمين حول العالم، ونعضّد معرفتنا بالإسلام عن طريقهم. أظن أن نموَّنا الكبير كان مفاجأة للكثيرين من الناس، بمن فيهم نحن. على أية حال، جئنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية شباباً بلا خبرة كبيرة، وكانت معرفتنا بالإسلام محدودة. ومع ذلك، استطعنا أن نلتقي بوصفنا فريقاً، وأطلقنا مشروعات ناجحة، وقدمنا مبادرات، وحققنا اكتفاءً ذاتيّاً على المستوى المالي، والتزمنا بتحقيق أهدافنا دون أن يشوش علينا أو عليها شيء، واستطعنا أن نقدم معلومات مفيدة ومعرفة نافعة لقطاع عريض من الطلاب، كما استطعنا أن ندعم نمو من يمارسون فرائض دينهم بتفانٍ، ومن يدخلون في الدين بلا أي فهم سابق للإسلام. وكانت الخطوة التالية بالنسبة لي هي أن أؤكد على وحدة المسلمين، فقد أثَّر الحج ومؤتمر مكة تأثيراً كبيراً في رؤيتي، ولاسيما تحقيق الوحدة في التنوع، ولعب ذلك دوراً مهمّاً للغاية في تطوير الاتجاه الذي ينبغي على اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا الشمالية أن تسير فيه.

طوّرنا الإستراتيجيات والأنشطة وفقاً لهذه الرؤية المعدّلة حديثاً. ولم تكن هناك حاجة إلى إقناع أي من زملائي بهذه الرؤية الجديدة. كما اعتقدتُ أن التوقيت كان مؤاتياً، فحتى ذلك الوقت كانت إنجازاتنا تقوم على أسس من الوحدة المصغَّرة، وكنّا كلنا نؤمن بالهدف الأسمى الماثل في التوافق والوحدة والسلام، وإلا ما استطعنا أن نعمل معاً بهذه الطريقة الجيدة للغاية. أتاحت لنا نقاشاتنا حول هذه الغاية الأسمى أن نجتهد في التفكير، وأن نتناول قضايا المجتمعات التي تسير في اتجاه مختلف ومرتبك بعيداً عن العقيدة. واستوجبت تلك الأوضاع أن نتبنى الوحدة بوصفها المبدأ الذي يوجّه الأنشطة والعلم. كما أنها كانت دافعاً لنا لنتخذ خطوات أخرى نحو التمسك بثقافتنا وقيمنا بشكل عملي، ولذلك أنشأنا شبكات علاقات مع مجتمعات المسلمين حول العالم الإسلامي، مما قوّى ثقتنا بأن نقدم أنفسنا بوصفنا مسلمين أمريكيين بطريقة أكثر تنظيماً وإيجابيةً.

من الأشكال الإيجابية لذلك التوجه أننا أدخلنا تعاليم الإسلام في الفكر الأكاديمي الحديث، فعلى سبيل المثال، في عام ١٩٧٢ كتب عبد الحميد أبو سليمان رسالة دكتوراه عن العلاقات الدولية في الإسلام، وطبّق هذه المعرفة في عدة مجالات لاحقاً عندما أصبح مديراً للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وبقي في منصبه هذا لعشر سنوات ما بين عام ١٩٨٨ – ١٩٩٨. كما أنه كان من مؤسسي جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين (في الولايات المتحدة الأمريكية) والجمعية الدولية لعلماء الاقتصاد المسلمين. كما قام آخرون بالتوفيق بين التعاليم الإسلامية والفكر الأكاديمي الحديث، مثل أنس مصطفى الزرقا (ابن العالم والشيخ الكبير مصطفى الزرقا ـ رحمه الله ـ ، وهو من كبار علماء الفقه الإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين)، وكان من منظِّمي المؤتمر العالمي للاقتصاد الإسلامي، وانعقدت أولى دوراته في مكة في عام ١٩٧٦. ومن الرواد في هذا المجال أيضاً مدحت حسنين من مصر، وصار لاحقاً وزير المالية في بلده. وهناك أيضاً سيد زين العابدين من الهند، وتخصص في دراسات اللغة الإنجليزية، ودمج معرفته بتعاليم الدين الإسلامي بالفكر الأكاديمي الحديث في قاعات الدرس. وأصبح الأمين العام لمعهد شؤون الأقليات المسلمة في جدة بالمملكة العربية السعودية، وهو مؤسس "مجلة شؤون الأقليات المسلمة"، وبدأ آنذاك في تعريف الملتقيات الأكاديمية في الغرب بهذا المجال. وأطلقنا لاحقاً على هذا التحوّل في أهدافنا الرامية إلى فهم مؤسسات العالم فهماً أفضل اسمَ خطة "إصلاح التعليم".

أشواك في الطريق

في أثناء توسيعنا لاتحاد الطلبة المسلمين، حافظنا على التواصل بانتظام مع الأصدقاء والزملاء في منظمة الطلبة العرب، وكانت من أنشط الجماعات الطلابية في أمريكا الشمالية في ذلك الوقت، ورأينا أنه من الصواب أن نطور علاقات وثيقة معهم حتى ندعم رسالتنا بشكل أفضل في سبيل تحقيق مزيد من التعاون في العمل. لكن التناغم الذي كنّا نأمله لم يتحقق، فقد كانت رؤانا متباينة للغاية. وكلما حاولنا تقوية علاقاتنا معهم، زادت انقساماتهم، وخاصة انقساماتهم السياسية. فكان العديد من الطلاب العرب يتحولون إلى الناصرية، نسبة إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وبعضهم صاروا شيوعيين علانية في توجهاتهم السياسية، وصار أكثرهم اشتراكيين، وأعلن آخرون أنهم قوميون. ومن المفارقات أنهم كانوا برغم اختلافاتهم السياسية متفقين بوجه عام على شيء واحد، وهو معارضتهم للإسلام!

لم يلتفت معظمهم إلينا ما دمنا نحصر أنفسنا في نطاق ممارسة العبادات والشعائر الدينية مثل الصلاة والصوم، فكانوا ينظرون إلى هذه العبادات والشعائر على أنها لا تمثل مصدر تهديد لهم، ولكن هذه العبادات والشعائر كانت بالنسبة لنا مجرد لبِنات في صرح عظيم، وكانت نقطة البداية في عملنا. فكنّا نريد أن نقدم المزيد للإسلام ولمجتمعنا المسلم وللمجتمع الأكبر الذي نعيش فيه أكثر من مجرد الصلاة والصوم. فقد كنّا نشعر أن واجبنا يحتم علينا أن ننشر فهماً سليماً ودقيقاً لديننا. فكان الإسلام يشمل كل جوانب الحياة، سواء أكانت هذه الجوانب روحية أم سياسية. ولم نحجم عن التعبير عن آرائنا، ولم نكن ننوي أن نطبق هذه الآراء مستترين خلف الجدران، فكنّا ندرك ضرورة أن نعيش الإسلام في أي مكان نحن فيه، وفي أي مكان نذهب إليه، وأن نكون واثقين وفخورين بإيماننا بالله تعالى، وأن نجسد رؤية القرآن في العالم من حولنا. ولهذا السبب، لم تكن هذه الجماعات السياسية تريد أن يظهر الإسلام خارج البيوت، ولذا بدأ أنصارها ينظرون إلينا بوصفنا مصدر تهديد لهم.

كانت الوحدة التي ننادي بها تقوم على هويتنا الإسلامية، وليست هويتنا العربية الثقافية (في الواقع لم نكن كلنا عرباً)، وكنّا على استعداد لأن نمد يد الصداقة ونستوعب الاختلاف، ولذلك بحثنا عن شيء يهم الجميع، ومكّنَنا خطاب القضية الفلسطينية في النهاية من أن نتجاوز الخلاف. فقد كانت القضية الفلسطينية اهتماماً مشتركاً مكّن غير العرب أيضاً من المشاركة معنا. وعقدنا عدة اجتماعات، وأدرنا كثيراً من الحوارات، حتى نفهم الصراع فهماً أفضل. وفي هذه المؤتمرات والحوارات أدخلنا وجهة النظر الإسلامية بلطف، وسرعان ما نشأت علاقات الصداقة وتوطدت.

١٩٦٧. أُقدّم المفكّر جلال كشك في محاضرة في ستيت كوليج بنسلفانيا بعد العدوان الثلاثي على مصر.

لكن ذلك لم يستمر فترةً طويلة للأسف! ففي صباح أحد الأيام، تلقى أحدنا رسالة تهديد عبر البريد، وكانت تلك الرسالة تحذرنا من حضور اجتماعات اتحاد الطلبة المسلمين، واختتمها مرسلها قائلاً: إذا اختار أي منّا أن يحضر تلك الاجتماعات، فسيتم عقابه! لم يكن بإمكاننا أن نستهين بأمر تلك الرسالة، فقد شهدنا بالفعل بعض الحوادث التي قام فيها الناصريون بتنفيذ تهديداتهم بسرعة. أقول: الناصريون؛ لأن كثيرين ممن كانوا يقفون وراء مثل هذه التهديدات في ذلك الوقت كانوا ناصريين، وكان الملحق الثقافي المصري يدعمهم. على سبيل المثال، تمكّنوا من إنهاء بعثة زميل من زملائنا المصريين كان على وشك الانتهاء من إعداد رسالة الدكتوراه، وكان يعيش في مدينة ريفرسايد Riverside بكاليفورنيا، وكان آنذاك في المستشفى بسبب مشكلة صحية في القلب، وكان يعول زوجة وطفلين. ولكن ذلك لم يشفع له في شيء، مما يدل على الأذى الذي كان ينتظرنا في طريقنا.

اتّضح أن الموقف لا بد من مواجهته مواجهةً صريحة، لكن كثيرين منا كانوا قلقين للغاية، ولهم عذرهم في قلقهم، بسبب النتيجة التي قد تترتب على مثل هذه المواجهة. فماذا لو تم إنهاء بعثاتنا الدراسية؟ كيف سنُكمل دراستنا؟ وعلى الجانب الآخر، ما الذي سيحدث لو التزمنا الصمت ولم نفعل شيئاً على الإطلاق؟ ربما نعرّض بذلك أعمالنا الدعوية للخطر بسهولة. وبعد نقاش طويل، قررنا ألا نرضخ للمتنمرين، ورأينا أن المسار الصحيح الذي ينبغي علينا السير فيه هو مواجهة التهديدات.

جمعنا بعض المال لنساعد زميلنا المريض على إكمال دراسته. ويسعدني أن أقول: إنه حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف. وللأسف، لم يكن هو الحالة الوحيدة، فقد كان هناك أيضاً آخرون يعتمدون على بلدانهم في تمويل دراستهم تم إنهاء بعثاتهم الدراسية. وتعاملنا مع كل نائبة من هذا النوع بالأسلوب نفسه، فجمعنا الأموال وساندنا كل من تعرض للأذى. كان ذلك الوقت عصيباً وصعباً للغاية؛ لأننا كنّا مضطرين جماعةً أن ندبّر أمورنا بالقليل الذي معنا، وفي الوقت نفسه كان يتعين علينا أن نعيش في ظل تهديد دائم بأن الأمور قد تسوء أكثر من ذلك. إن التغلُّب على المِحن معاً يؤدي إلى تقوية الروابط والعلاقات، ومن ثَمَّ قويت روابط الوحدة بيننا نتيجة لتلك المِحن التي مررنا بها. فالسيطرة التي سعى المتنمرون لأن يمارسوها علينا أتت بنتائج عكسية، لأن تلك التجربة زادتنا صلابة وشجاعة، مما أسهم بالضرورة في نمونا وتطورنا، وجعلنا قادرين على أن نضطلع بمسؤوليات أكبر.

قلاع من رمال

ترددت أصداء هزيمة العرب في عام ١٩٦٧ في معظم أنحاء العالم، وأظهرت الحاجة إلى طريقة جديدة في التفكير، وكشفت تلك الهزيمة المذلَّة عن خواء شعارات القوميين والطلاب الناصريين، وبيّنت حقيقتها؛ إذ اتضح أن تلك الشعارات كانت قلاعاً من رمال. ولم يعد لدى اليساريين شيء يدفعهم للعمل معاً، وبدأت منظمة الطلبة العرب في التفكك. وأدار كثير من العرب ظهورهم لفكرة القومية العربية التي

صارعوا في سبيلها باستماتة، وقد أدرك عدد كبير أن القومية أيديولوجية خالية من أية قيمة أو معنى، وليس بإمكانها أن تستمر. أمّا فكرة الأمة فكانت تستمد عظمتها من معتقدات قوية ومُثُل عليا يربط بينها مبدأ الوحدة التي تنبذ العنصرية والمركزية العرقية، وتجمع المسلمين من كل الأعراق والألوان.

في أعقاب هزيمة ١٩٦٧، حاول مجموعة من الطلاب أن يستولوا على اللجنة التنفيذية لمنظمة الطلبة العرب بوسائل غير مشروعة. عندئذٍ دخلنا نحن حلبة الانتخابات لنواجه هذا الجهد غير المشروع، ولنضمن أن الأعضاء الذين يتم انتخابهم هم الأعضاء الأجدر بالقيادة وبمقاعد اللجنة التنفيذية.

ومن اللافت للنظر أن معظم مقاعد اللجنة التنفيذية فاز بها الطلاب ذوو التوجهات الإسلامية في مؤتمر منظمة الطلبة العرب الذي عُقد في عام ١٩٦٩ في جامعة ولاية أوهايو في مدينة كولومبوس Columbus في ولاية أوهايو، ونتيجة لذلك بدأت أنشطة منظمة الطلبة العرب في التركيز على قضايا مختلفة، وصارت المطبوعات والاجتماعات معتدلة وبنّاءة. وعقدنا كثيراً من جلسات النقاش مع زملائنا الطلاب العرب، ومن المهم أن الأهداف التي اتفقنا عليها كانت مرجعيتها تنبع من الثقافة الإسلامية العربية، بغض النظر عن الاختلافات الأيديولوجية.

مطوية التعريف بالإسلام

اتّبعنا مجموعة متنوعة من الأساليب حتى نصل إلى شريحة أكبر من الناس، ومن بينها إصدار مطوية صغيرة بعنوان "**التعريف بالإسلام**". وكان الهدف من إصدارها أن نسلط الضوء على أبرز معالم الإسلام، حتى نلقي نظرة عامة على العقيدة الإسلامية، وبذلك يمكن للقرّاء أن يفهموا أهم النقاط في أقل من عشر دقائق. من الوجهة التاريخية، تعرض الإسلام لكثير من العداء وتشويه صورته، وما زالت أصداء كثير من ذلك تتردد حتى وقتنا هذا، ولذلك كان علينا أن نتناول مخاوف الناس وجهلهم

وضيق أفقهم تناولاً حكيماً، إذ مثّل هذا التناول جزءاً من خطة انتشارنا، على أن نقوم بذلك بشكل إيجابي وباحترام، دون أن نهاجم الآخرين أو نصطدم بهم. ولذلك طبعنا آلاف النسخ من المطوية، وتعمدنا أن نحمله معنا في جيوبنا أينما ذهبنا. ففي أي وقت كنّا نتكلم فيه مع مسلم أو غير مسلم، نعطيه نسخة إذا كان ذلك ملائماً بعد أن نعرّفه به.

كنّا نراجع المضمون سنويّاً حتى نحسّن المعلومات الواردة فيه عند الضرورة، فكنّا نضيف له أشياء ونحذف منه أخرى، ونعيد صياغة مواضع فيه، ونتوسّع في ذكر تفاصيل مواضع أخرى. كما أننا نظرنا في مسألة تحسين جودة الطباعة. في البداية، كنّا نطبع حوالي خمسة آلاف نسخة لتوزيعها على فروعنا وعلى المساجد. وكان كل فرع من اتحاد الطلبة المسلمين يقدّر الكمية التي يحتاجها ويطبعها بناءً على هذا التقدير، وبذلك كان يصل مجموع عدد النسخ المطبوعة إلى مليون نسخة في بعض الأحيان، وكنّا من آن لآخر نقوم بطباعة المادة وتصويرها بحيث يتم توزيع المعلومات المطبوعة عن الإسلام على نطاق واسع باللغة الإنجليزية. وصارت مطبوعات اتحاد الطلبة المسلمين في النهاية تحظى بتقدير كبير ومصداقية وسط الجاليات المسلمة، وكان هناك طلب كبير على المطوية.

التقدُّم في العالم الأكاديمي

أغنينا عملنا الدعوي بطرق أخرى، فقد انتشرت مطوية "التعريف بالإسلام" انتشاراً واسعاً، وبدأنا في استضافة المؤتمرات، وعقدنا ندوات متعمقة تجاوزت مجرد المحاضرات العامة عن الإسلام. ونظّمنا مؤتمرات تدور حول موضوع واحد في المؤتمر، فتركز على قضية واحدة، وكنّا ندعو كل متحدث ومتحدثة ليقدّم وجهة نظره. وكنّا نطبع المحاضرات في كتيّبات أو في مجلة اسمها "الاتحاد"، ومن خلال هذا المنبر المطبوع كانت آراء المتحدثين والمتحدثات تصل للناس في أمريكا الشمالية. وكنّا نوزّع مطوياتنا كذلك خارج الجامعات والدوائر الأكاديمية. وتوسّعنا في ذلك، حتى إننا كنّا نرسل مطبوعاتنا لكل من يطلبها أو لأولئك الذين كنّا نعتقد أنهم سيستفيدون منها، سواء أكانوا في السجون أم طلاباً أم علماء أم ساسةً.

نما المشروع الوليد نمواً كبيراً، ومع مرور الوقت استطعنا أن نتقدم ونتجاوز مجرد تقديم نظرة عامة عن الإسلام، ونطلب من بعض العلماء أن يساعدونا بأن يكتبوا مقالات تتسم بعمق الفهم واتساع الرؤية. وكتب بعضهم على سبيل المثال عن جوهر الإسلام وأسسه ومصادره وملاءمته لحياة المسلمين في الغرب، وبذلك بدأ الشباب المسلمون في البحث والكتابة أيضاً، ومن ثمّ طوّروا أنفسهم بطريقة علمية.

١٩٨٤. مؤتمر اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا. في الوسط البروفيسور إسماعيل الفاروقي، وهو أحد مؤسسي المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومواجه له طارق كركئي، وأمامه رسول بنجويني، وعلى يمين الفاروقي عدنان محتسب، وفي أقصى الشمال محمد كلنج.

من بين هؤلاء العلماء الشهيد الراحل إسماعيل الفاروقي رحمه الله، وهو فلسطيني، ومن أبرز المثقفين المسلمين في القرن العشرين. وقد اغتيل هو وزوجته للأسف عام ١٩٨٦، ويبدو أن كثيرين لا يعرفون كتاباته أو جملة إرثه العلمي الباهر. كان الفاروقي ظاهرة فكرية، وكان يعمل في مجالات التجارة والمقاولات والتدريس، وكان شرف لنا أننا نعمنا بصحبته. حصل الفاروقي على شهادة الدكتوراه من جامعة إنديانا في بلومنكتن في فلسفة الأخلاق، ثم ألّف الكتب، ومن أهمها كتاب "**الأخلاق المسيحية**" الذي نشرته مطبعة ماكجيل برس في عام ١٩٦٧. كان عقليةً فذة في هذا المجال بفضل عقله المتقد وخبرته الاستثنائية في مقارنة الأديان. ومع أنني أستطيع أن أكتب الصفحات الكثيرة عنه وعن أعماله وكتاباته، إلا أن المجال لا يتسع هنا لسرد مشروعاته وإنجازاته. وأظن أن براعته الفكرية يمكن تلخيصها بعبارة قالها له أحد أساتذته المسيحيين ذات يوم: "لا يمكنني أن أستسيغ كتاباتك، ولكنني لا أستطيع أن أجد كلمة واحدة يمكنني أن أضع تحتها خطّاً أحمر وأقول إنها خطأ". صار الفاروقي رئيساً لبرنامج الدراسات الإسلامية في

جامعة تِمْبِل في فيلادلفيا. وعمل الفاروقي مع مفكرين كثيرين، وكان عبد الحميد أبو سليمان ـ رحمه الله ـ من بينهم، ووجدنا بعض القوميين يدعمون نشاطه، مما جعل كتابات الفاروقي تستهوي جمهوراً أوسع، لأنه كان منفتحاً على الجميع.

مؤتمر عن الاقتصاد الإسلامي

١٩٦٩. نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية. محمد عبد الرؤوف مدير المركز الإسلامي بواشنطن، يتحدث في المؤتمر الاقتصادي الإسلامي الأول الذي نظمه اتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا.

نجحنا في الوصول إلى العالَم الأكاديمي، وصارت المعرفة الإسلامية تُدرَّس للمثقفين والطلاب المهتمين في عدد من الجامعات. كما أننا استطعنا منذ فترة طويلة أن نقوِّم الإنجازات المتزايدة في مجال الفكر الإسلامي. ومن ضمن توجُّهنا لتوسيع المعرفة في العالَم الأكاديمي، كنّا نطوّر أيضاً منظمات علمية متخصصة مثل جمعية العلماء والمهندسين المسلمين، ونظّمنا في عام ١٩٦٩ مؤتمراً في ولاية نيويورك عن الاقتصاد الإسلامي حتى نجعل العلماء الشباب يهتمون بهذا المجال، ويناقشون القضايا الأساسية الخاصة بهذا العلم الوليد. وكان سبب القيام بذلك في تلك المرحلة المبكرة يكمن في بذر المزيد من بذور التقدُّم التدريجي، وانعقد المؤتمر وحضره الشباب العلماء من طلاب الماجستير والدكتوراه بالإضافة إلى بعض العلماء والمتخصصين.

نجح المؤتمر على مستوى النقاشات التي دارت فيه، وعلى مستوى الأبحاث التي ألقيت فيه. وحفّزتْ هذه التجربةُ عقد المزيد من المؤتمرات المتخصصة وزادت المتخصصين في مجال الاقتصاد الإسلامي، وقد نشر الأبحاثَ اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا.

صار عبد الحميد أبو سليمان باحثاً وداعماً بارزاً للاقتصاد الإسلامي، وواصل نشره لهذا العلم عندما صار مديراً للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM. وساعد أنسُ الزرقا في تأسيس مركز الاقتصاد الإسلامي في جامعة الملك عبد العزيز في جدة بالمملكة العربية السعودية في عام ١٩٧٦، وصار محمد صقر رئيس جامعة غزة في فلسطين عام ١٩٧٨. وبذلك طوّرنا علم الاقتصاد الإسلامي حول العالم حتى يستطيع غيرنا أن يحملوا الراية من بعدنا.

عروسي

"الدُّنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحةُ"

حديث نبوي، رواه مسلم

١٩٧١. هاموند، بولاية إنديانا في الولايات المتحدة الأمريكية. في أول سنة زواج أقف بجانب زوجتي ميسون وأحد المسلمين المحليين.

في أثناء تلك السنوات التي كانت مفعمة بنشاط الانتشار المكثّف، وبينما كانت أعمالي تتزايد غنىً وخصوبةً، كنتُ أدرك في أعماقي أن هناك شيئاً ناقصاً في حياتي. كان ذلك في عام ١٩٧٠، وكنتُ أشعر بأنني غير مكتمل. يمر على الرجل وقت في حياته يشتاق فيه للرفيقة، ولتوأم روحه، ولمن تكمّله وتشاركه رحلة الحياة وتشاركه أتراحه وأفراحه؛ لامرأة تكون لباساً له ويكون لباساً لها، لمُعينةٍ تساعده في عمله ودعوته، لمن ذكرها رسولنا الكريم بقوله: "فاظفر بذاتِ الدين تَرِبت يداك". لا بدّ أنّ ما في أعماق قلبي بان على وجهي، ففي يوم من الأيام سألتني أختٌ عزيزة: "أخي أحمد، متى نهنئك بزواجك؟" شعرتُ بالصدمة، لأن الموضوع كان يشغل بالي، وكانت

الأخت التي سألتني هذا السؤال هي إلهام الطالب زوجة صديقي القديم هشام الطالب، في الوقت الذي كانت تنتهي فيه من فترة إقامتها الطبية في مستشفى في مدينة سينسيناتي Cincinnati بولاية أوهايو، كانت أُمّاً لولدين (وأنجبت بنتاً بعد ذلك بعشر سنوات). التفتُّ إليها وسألتُها: "ربما يمكنك أن تجدي لي زوجة صالحة؟" ولكنها كانت تسبقني بعشرات الخطوات، كعادة النساء في مثل هذه الأمور، ولذلك قالت إن لديها عروساً لي بالفعل، وإن تلك العروس ستكون مناسبة لي جداً؛ وإن شخصيتها وطبعها يتناسبان مع شخصيتي وطبعي. وقالت لي إن اسمها ميسون يحيى الطالب من الموصل. وعندما بدأت إلهام في وصفها، بدأت صورة ميسون تتشكل في رأسي. وكلما ذكرت شيئاً عنها، أدركتُ أنها تصف توأم روحي. فقلتُ لها بحماس: "هذا بالضبط ما أبحث عنه في عروسي". وانزاح فجأة عبءٌ عن كاهلي، وشعرتُ بحالة من السعادة والإشراق، وبدأ إحساس جديد بمستقبل أُسْرِيٍّ ينفتح أمامي. وما زلتُ حتى الآن أمازح ميسون وأناديها بعروسي. فقد صارت رفيقتي المخلصة، ولا يمكنني أن أتخيل أن يمر عليّ يوم دون أن تكون معي.

كانت ميسون أخت هشام، وبما أن الزواج توحيد لعائلتين مثلما هو توحيد لزوجين، فاضت سعادتي بأن أصبح هشام صهري. أرسلت خطاباً لأبي لأفاتحه في الموضوع، وأرسل هشام خطاباً لأبيه أيضاً. وكان الوالدان تاجرين (والد هشام من الموصل، ووالدي من أربيل)، وكان من الواضح أن عائلتينا بينهما أشياء أخرى مشتركة، ولذلك ليس من المستغرب أن يرحب كل الأطراف بزواجنا. وقامت عائلتي حسب التقاليد والأصول بزيارة عائلة هشام في الموصل. ولم يمضِ وقت طويل حتى أرسلنا خطابات لهم، ووصلتنا موافقة الوالدين خطيّاً إلى أمريكا. وتحققت مشيئة الله، وحددنا موعد الزواج ليكون في الصيف التالي، ولكن والدي اشترط أن أنتهي من دراستي. حتى ذلك الوقت، كنتُ أؤجل الانتهاء من أطروحتي للدكتوراه، ولكن أصبح لدي دافعية لإكمالها؛ فسارعتُ للانتهاء منها في أسرع وقت ممكن قبل الزفاف، وكان مصيري بيد الله.

١٩٧٠. زار يحيى عمر الطالب والد خطيبتي ميسون (في وسط الصورة) أهلي في أربيل وعلى يساره والدي، وعلى شمال والدي عصام الطالب، وعلى يمين والد ميسون أخي الأكبر قاسم، ثم محمد زكي الأخ الأكبر لهشام

١٩٧٠. الموصل، العراق. يحيى عمر الطالب، والد زوجتي في حديقة منزله.

كنت واقعاً تحت ضغط، وكان أمامي أربعة أشهر فقط لأنتهي فيها من أطروحة الدكتوراه، وكان الوقت ينفد منّي. ما الذي يتعين عليّ أن أفعله؟ عرضتُ الأمر على مشرفي فاروق علي، ووافق على تسريع العملية بأن سمح لي بأن أقدّم الأطروحة فصلاً وراء فصل، بحيث يستطيع أن يزودني برأيه بعد تقديم كل فصل، مما أتاح لي أن أعمل بانتظام وثبات. وأعفتني موافقته من ضغط كبير.

في ذلك الوقت، بدأتُ أدرك روعة التفويض وقيمته، فقد كنتُ في حاجة لتركيز كل اهتمامي على إكمال أطروحة الدكتوراه، ولكنني في الوقت نفسه لم يكن بإمكاني أن أهمل أعمالي غير الأكاديمية. كانت لديّ اهتمامات والتزامات كثيرة، ولم يكن من الأدب والأمانة الإخلال بها. وكان التفويض هو الحل الأمثل لإتمام هذه المهام.

وفي مسودة أطروحة الدكتوراه كنتُ أُملي بعض الصفحات وأراجعها وأصوّب الفصول، ثم أعتمد على عامل فنّي في رسم الرسومات المطلوبة. وفي مسائل الكومبيوتر، كنتُ أعتمد على أحد الإخوة للذهاب إلى معمل الكمبيوتر في الكلية والقيام بالعمل المطلوب. بالطبع كان الكمبيوتر في بدايته آنذاك، وكان حجمه ضخماً.

وكان المساعد الشاب يقوم بالتصويبات وإرجاعها إليَّ، ثم أقوم بمراجعة ما تمّ القيام به وأعطيه ما صوبتُه، وهكذا صار العمل منظَّماً. في الواقع، أدركتُ أنني طبّقتُ في هذه العملية كثيراً من خبرة الإدارة التي اكتسبتُها في أثناء تنسيق أنشطة اتحاد الطلبة المسلمين، لاسيما فيما يتعلق بمهارات القيادة والإشراف. ومنذ ذلك الحين صار من المهم جداً بالنسبة لي أن أفهم التفويض وأمارسه.

في شهر مايو/ أيار ١٩٧٠، تمكّنت من إكمال المسودة النهائية من أطروحتي وسلمتها لمشرفي، وأُرسلت نُسخاً منها إلى لجنة الامتحان، وحُدّد موعد الامتحان والمناقشة، وفي العادة كانت المناقشة تستغرق ثلاث ساعات، لكن مناقشتي استمرت أربعين دقيقة فقط. كانت فترة عصيبة، لكنها بفضل الله وبركاته انتهت بنجاح كبير. وكل ذلك يرجع إلى أنني كنتُ أريد أن أوفي بشرط والدي وأتزوج ميسون في الموعد الذي حددناه لنكون معاً على سنة الله ورسوله. يا لها من دافعية رائعة! وسأحكي المزيد عن يوم زفافي فيما بعد.

ويستمر العمل

والتقينا مجدداً في توليدو بأوهايو في شهر سبتمبر/ أيلول عام ١٩٧٦ في أثناء إجازة عيد العمال في نهاية الأسبوع. وانتهزنا إجازة نهاية الأسبوع الطويلة في عقد المؤتمر السنوي لاتحاد الطلبة المسلمين على مستوى القارة. وأعددنا برنامجاً شاملاً للرجال والنساء استمر لثلاثة أيام. وبدأ البرنامج بخطبة الجمعة، واشتمل على نقاشات حول القضايا الراهنة والاهتمامات المستقبلية. وفي ذلك المؤتمر توفرت للطلاب فرصة التعلُّم وكذلك فرصة إعادة التواصل مع الآخرين وتقوية علاقات الصداقة معهم. كان تجمُّعاً رائعاً حقّاً، وكان انعكاساً لفكرة الوحدة والتنوع التي جاهدنا منذ زمن طويل في سبيل تحقيقها.

إنّ مما أثلج صدري أنّ أحد عشر شخصاً منهم كانوا رؤساء سابقين لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. وكلهم واظبوا على دعم الجالية المسلمة. وبفضل النهج الذي اتبعناه، بقي القادة السابقون أعضاء في الاتحاد، وساندوا كل رئيس جديد. ولعب الرؤساء السابقون دوراً مهماً في تزويد كل رئيس جديد بالمشورة، وفي مشاركة تجاربهم معه. وكما بيّنتُ من قبل، كان كل رئيس جديد يكتسب خبرة قيّمة في أثناء السَّنة التي يتولى فيها رئاسة الاتحاد، وبعد أن يترك المنصب يشارك خبرته مع الرؤساء الذين يتولون رئاسة الاتحاد بعده. فلم تنقطع خدمة المجتمع بترك منصب القيادة، بل تواصلتْ، سواء أكان العضو في منصب الرئيس أم من دونه.

بالإضافة إلى المؤتمر، كان الاجتماع الذي عقدناه على هامشه اجتماعاً صغيراً نسبيّاً. كنّا عشرة مهندسين وعالِم اجتماع في غرفة واحدة، وكان الاجتماع مختلفاً أيضاً في أننا استخدمنا فيه منهجاً يسترشد بالمنطق والهندسة، فقد كنّا نطور دراساتنا وفقاً لمبادئ مدرسية؛ مما هيَّأ لنا فيما بعد درباً للتعلُّم وتطويراً للروح تضمن الممارسات المتبعة آنذاك وتجاوزها، ليشمل الدراسة العميقة والبحث الدقيق حتى نفهم جوانب الإسلام المتعددة فهماً أعمق، ونحدد ملامحها ونطورها.

في تلك المرحلة من حياتي، كنتُ قد حصلتُ على درجة الدكتوراه وسافرت إلى ثلاث قارات، وتزوجتُ، ودرتُ في فلك علماء كانوا عمالقة في مجال الدين والعلم، وطورتُ مع زملائي أعمالنا داخل الحرم الجامعي وفي اتحاد الطلبة المسلمين من المستوى الأصغر إلى المستوى الأكبر بشكل لافت، وتعلمتُ كيف أقوم بالمهام التي تتزايد تعقيداً على الدوام في جو من التقويم والتحسين الدائمين للذات وللجماعة. ولكنني عندما تأملتُ الماضي، اكتشفتُ أنني ما زلتُ في طور البداية، فقد كان المستقبل يناديني لتحقيق أهداف أكبر.

الفصل الخامس

الانتشار العالمي

"العِرق البشري مثل الإنسان الفرد؛ لا يمكنه أن يحقق ذاته أبداً حتىٰ يستخدم موهبته، ويفخر بتاريخه، ويعبّر عن ثقافته، ويؤكد ذاته".

مالكوم إكس

تولّد إقبال كبير لأعمال اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، ونحن أنفسنا نمونا ونضجنا بسببه، فقد كانت التجربة خير معلِّم لنا في فن الإدارة والتفاوض والتركيز والنمو والتطوُّر. فمن خلال أعمال اتحاد الطلبة المسلمين، تلاقى مسلمون ينتمون لثقافات وبيئات مختلفة كثيرة بفضل إحساس قوي بهوية العقيدة، مما أدّى إلى تشكُّل وعي مشترك جديد، ومن ثمَّ تشكُّل غاية أخلاقية وروحية من خلال الاطلاع على المعلومات الإسلامية، والاشتراك في الأنشطة الإسلامية، وكل ذلك في سياق فكري حديث يتوافق مع احتياجات الطلاب وعصرهم.

كنّا جميعاً في مركب واحد، وكانت حياتنا حتى ذلك الوقت تتكون من كثير من أشتات متفرقة، من قارات مختلفة، وثقافات مختلفة، ولغات مختلفة، وتركيبات عقلية مختلفة، وشعوب مختلفة، ولولا الوحدة الناتجة عن رؤيتنا المشتركة وتحقيقنا لأهدافنا المشتركة ما استطعنا أن نشكِّل المجموع في صورة مترابطة ومتجانسة، وما استطعنا بعد ذلك أن نستخدم تلك الصورة سُلَّماً نصعد به إلى مستويات أعلى.

وهكذا كان لدينا إيمان قوي بما نفعله؛ فلا بدّ أن يكون لدى كل شخص شغف بشيء ما، فهذا الشغف يتيح للمرء وضوح الاتجاه والرؤية. وبذلك انشغلنا في السعي وراء كل ما له قيمة، ولم نقع ضحية للشيطانين القديمين: تأنيب الضمير والندم. فغالباً ما يؤرقنا تأنيب الضمير والندم عندما نتأمل الماضي، وغالباً ما يؤديان بنا إلى حالة محزنة من العاطفية المفرطة تجعلنا نستغرق في التفكير بلا جدوى ونحن نسأل أنفسنا "ماذا لو". بمعنى آخر، عشنا حياتنا بصدق واتّبعنا أوامر ديننا؛ ذلك لأن الحياة أمانة مقدسة، ولا يمكنها أن تكون دفاعاً عن الأخطاء التي نرتكبها. ففي كل وقت يُدرك المسلم الواعي أن الحاضر فقط هو الذي يهم، والتوبة لله تعالى تدفعه لأن يتعامل مع الماضي بسرعة، ثم يسعى لأن يحسّن الحاضر والمستقبل. كان هذا الإدراك في أعمالنا بمثابة الدُّرة التي في أعماق المحيط، وكنّا نشعر بقيمة الوقت، وكنّا حريصين على التقدم للأمام ونحاول أن نكيّف أنفسنا مع احتياجات مَن حولنا واحتياجات العالم الإسلامي أجمع.

الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظّمات الطلابية

بعد نجاح اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، فكّر فريقنا في ضرورة التطلع إلى المستوى العالمي، ومساعدة منظمات الطلبة في أنحاء العالم على الاستفادة من تجربتنا وتطوير ما يقومون به من أعمال. ومن ثمّ تحولت تطلعاتنا بعد ذلك إلى شيء سيتبلور في منظمة طلابية عالمية كبرى، وهي الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية International Islamic Federation of Student Organizations (IIFSO).

سار عمل الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية وفق مبدأ مشابه. وعندما فكّرنا فيه كنّا نتصوره منظمة جامعة تقوم بتنسيق أعمال الطلاب على مستوى العالم، فقد نشأ من خلال قوة دفع اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا الشمالية، وسرعان ما صار منظمة عالمية لاتحاد الطلبة المسلمين، وأظنُّ أنه نموذج مكبّر من أعمال اتحاد الطلبة المسلمين. بدأ هذا الاتحاد مبادرةً طلابية في جامعة إبادان University of Ibadan في نيجيريا في عام ١٩٦٦، وتأسس رسميّاً في مسجد بلال في آخن في ألمانيا عام ١٩٦٩.

كانت السودان من البلدان التي قمتُ بزيارتها في عام ١٩٦٦ في شهر رمضان لتأسيس الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية. وقمنا بتوجيه الدعوة لممثلين من المملكة المتحدة وأوروبا والمغرب ونيجيريا وباكستان وتشاد والنيجر وإندونيسيا حتى نتناقش في موضوع إنشاء الاتحاد. ولكن سرعان ما ظهرت مشكلة؛ إذ كان من بين ممثلي نيجيريا مجموعة من الطائفة الأحمدية التي كانت تعارض عملنا. كانت القيادة قد وجهت لهم الدعوة، ونحن أيضاً لم نرَ أي ضرر في دعوتهم. ولذلك كان رد فعلهم مفاجئاً لنا، فكانت تلك ثاني مرة نواجه فيها بعض التوتر مع الجماعة الأحمدية. وتذكرت قول النبي محمد ﷺ وهو يدعونا إلى الحياة في نقاء، وينذر الذين يحيدون عن الصراط المستقيم بالهلاك. وبسبب ذلك التوتر، اجتمعنا لنناقش أفضل مسار يمكننا أن ننتهجه، فاتفقنا على أن نقوم بتأجيل تأسيس الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، وأن ندعو المزيد من اتحادات الطلبة المسلمين للمشاركة قبل تأسيسه.

وانتهزتُ فرصة وجودي في السودان وقُربي من مكة فذهبتُ لأداء العمرة.

كنتُ أشعر بنشوة غامرة لأنني استطعتُ أن أؤدي العمرة للمرة الثانية في حياتي، ولأنني استطعتُ أن أرمي كل همومي ومشاغلي وراء ظهري وأنهل من نبع الإيمان، من ماء زمزم المبارك، وأُطمِئن قلبي بذكر الله. كنتُ أحس بالرهبة عندما أدركتُ أنني أسير في الموضع الذي كان رسول الله ﷺ يسير فيه.

كان شيئاً رائعاً حقاً أن أزور المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وأن أكون بجوار رسول الله ﷺ، وأن أصلي لبعض الوقت خارج حدود الزمان والمكان والواقع؛ إذ كنتُ أحس بالحضن الرقيق للمسجد النبوي وهو يرحب بنا كما رحبت المدينة المنورة بالرسول الكريم في الهجرة النبوية. إن الحج، سواء أكان الحج الأكبر أم الحج الأصغر (أي العمرة) ينعش الروح بطريقة لا يعادلها شيء آخر ويملؤها شذاً، مثلما يريح النفس المتعبة، ويطيّب خاطرها، ويدفق فيها الطاقة والحيوية. وبدا كل ركن من أركان المسجد النبوي يردد صدى الارتباط الوثيق به، فيلمس شغاف القلب، ويجعل العين تدمع من فرحة اللقاء بالحبيب المصطفى. ولا يمكن للكلمات أن تصف المحبة النابعة من الداخل.

وفي أثناء وجودي في المملكة العربية السعودية، التقيت لاحقاً بسيد دسوقي حسن زميلي المصري في أمريكا، وهو من أطيب الناس الذين تعاملتُ معهم في حياتي، وكان متخصصاً في هندسة الطيران في جامعة ستانفورد Stanford University في كاليفورنيا. وفي أثناء لقائي به، عرّفني على توفيق الشاوي، وشعرتُ في الحال برابط قوي يربطنا جميعاً، وأحسستُ بجمال شخصية توفيق. وليس من المستغرب أنه هو أيضاً كان له نشاط في الإعداد لمؤتمر تمهيدي لتأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

١٩٦٦. آخر زيارة للعراق في حديقة البيت في أربيل. والدي في المنتصف، وعلى يمينه إخوتي قاسم وجاسم، وعلى شماله إبراهيم ثم أنا.

وبعد أن اكتملت العمرة، وامتلأت ذاكرتي بذكريات حميمة عن هذا المكان الروحاني وعن الزملاء الذين التقيتُ بهم، ركبتُ الطائرة متوجهاً إلى الكويت، ومنها إلى العراق لزيارة أهلي وأقربائي في أربيل لبضعة أيام. يا لها من ذكريات عزيزة!. أختص بها من يصنعون خيراً كثيراً في العالم، ومن يتطلع قلبي لأن يرافقهم في رحلة الحياة.

بعد تأسيس الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية رسميّاً في عام ١٩٦٩، انتُخبتُ أول أمين عام للاتحاد. ولم تكن الألقاب تعني لي أكثر من مجرد وسيلة يمكن من خلالها دفع المشروعات للأمام وطرح أجندات العمل على الطاولة. وكان الاتحاد طموحاً على الدوام، وقررنا توسيع مجال عمله، ليشمل الكثير من الدول الأخرى. ولكي نقوم بذلك، كان علينا أن ننشئ قنوات وعلاقات مع اتحاد الطلبة المسلمين في نصف الكرة الغربي. ولكن نما لدينا في ذلك الوقت وعي عالميّ، فلم نشأ أن نكون بعيدين عن الدول غير الغربية. وبما أن تطوُّرنا كان على ما يرام، سعينا لإنشاء مزيد من الشراكات مع قارات أخرى، ولذلك كان الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية هو الحل، وكنّا نأمل أن يصير منظمة شاملة.

كما كان الحال مع اتحاد الطلبة المسلمين، صار الحال مع الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية؛ إذ إننا طبقنا الغايات والأهداف نفسها، وأولها حاجة الطلاب المسلمين إلى أن يقووا عقيدتهم وهويتهم، ويلعبوا دوراً إيجابيّاً في خدمة الإنسانية. وكانت هناك حاجة ماسة إلى أن نصل إلى هذا الجيل، وأن ننمي لديه إحساساً بالمسؤولية في عالم كان تعقيده يتزايد باستمرار، وكان يبتعد باستمرار عن الله سبحانه

وتعالى. كان ذلك طابع الستينات وبداية السبعينات من القرن العشرين؛ فهي حقبة الحُبّ (الحُرّ) والعمل (الحُرّ) المنتشرين في أنحاء العالم آنذاك. كان الجو مفعماً بالعربدة والمجون بالإضافة إلى العلمانية، مما أثر في ضعاف الإيمان وجعلهم ينظرون إلى أسلوب الحياة المتحرر تماماً على أنه أسلوب لا ضرر منه. ولكن هذا الاتجاه القائم على مبدأ "افعلْ ما يحلو لك" مختلف تماماً عن مبدأ ﴿...وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، وكنّا حريصين على أن نستبدل بالأساليب المنحلة أساليبَ أخلاقية. بمعنى آخر، كنّا نهدف من وراء الروابط المشتركة والهوية الإسلامية أن نطوّر حالة نفسية تقوم على الروحانية التي تنعكس في مواقف أخلاقية تجسّد تعاليم القرآن، لا التعاليم التي تدعو لها أغاني الروك آند رول. بالإضافة إلى شعور الطلاب بمسؤولياتهم، كنّا نريد منهم أيضاً أن يكونوا واعين بحقوقهم، وأن نمدّهم بإطار يعالجون من خلاله القضايا التي تهمهم.

بدأ المشروع بسلسلة من النقاشات التي نشأت في مخيم سابايانا في ولاية أوهايو، ثم تلتها سلسلة من الرحلات إلى أماكن أخرى. أقول: رحلات؛ كما لو كانت رحلات عادية، لكن الرحلة كانت في الواقع رحلة مكوكية. في عام ١٩٧٠، بدأتُ من بنسلفانيا على ساحل أمريكا الشرقي، وسافرتُ في رحلة طويلة لأصل إلى كاليفورنيا على الساحل الغربي، قبل أن أسافر بالطائرة إلى هونولولو في هاواي (لأدعم تأسيس مسجد وفرع لاتحاد الطلبة المسلمين هناك). وصارت قارة آسيا وجهتنا التالية. فسافرتُ من جزيرة هاواي إلى اليابان وسنغافورة وماليزيا وإندونيسيا وتايلاند والهند، ولم أستطع أن أدخل باكستان بسبب بعض الأزمات السياسية التي كانت في المنطقة في ذلك الوقت. في هذه الرحلة المكوكية وفي طريق عودتي إلى الوطن، تمكنتُ أيضاً من أن أمر بإيران والكويت. عشتُ حياتي على الطريق وفي الجو بالمعنى الحرفي. لم تكن رحلات للمتعة كما قد يظن بعضهم، ولا إجازة للراحة والاستمتاع، بل كانت رحلات زاخرة بالنشاط والطاقة والعمل الجاد. كانت قيمة العمل تدفعني لبذل الجهد على الدوام، ولم تكن هناك طريقة للتخفف من الإجهاد، على الرغم من أنني كنتُ منهكاً للغاية بسبب اختلاف التوقيت من منطقة لأخرى، وبسبب الاجتماعات والنقاشات المكثفة التي كان يتعين عليّ ترتيب أمورها. وفيما يلي نظرة خاطفة على تلك الرحلة.

اليابان

كانت اليابان دولة مجتهدة ودؤوبة، وهي أرض الشمس المشرقة، وكانت هادئة بما فيها من تقاليد الساموراي، وكانت في الوقت نفسه زاخرة بمشاريع ريادة الأعمال. واكتشفتُ لاحقاً أن تجربتي فيها ستكون متفردة إلى حدّ ما عندما أقارنها بالدول الأخرى التي زرتُها. وكان ذلك يرجع في أحد جوانبه إلى أن نقاشاتي مع الزملاء في اليابان قد أينع ثمرها بصورة مباشرة وواسعة.

عندما كنتُ في طوكيو، أمدتني النقاشات بفرصة طيبة لمعاودة التواصل مع صديق قديم عزيز من العراق، وهو صالح السامرائي، وهو متخصص في الزراعة، وحاصل على درجة الماجستير من باكستان ودرجة الدكتوراه من اليابان. وكانت نعمة كبيرة أن تواصلت معه ومع غيره. كان مقدراً للسامرائي أن يذهب إلى اليابان، فاسمه قريب جداً من فئة الفرسان المحاربين الذين يُطلق عليهم في اليابان لقب الساموراي. وسافر إلى كثير من دول شرق آسيا، وكذلك إلى بعض جزر المحيط الهادئ، وأنجز أعمالاً كثيرة من خلال اتحاد الطلبة المسلمين في اليابان. ونتيجة لذلك كان مَنجماً كاملاً من

مناجم الخبرة والعلم، وكان يحس بنبض المجتمع المسلم في المنطقة. وكان دوري يتمثل في نقل خبراتنا في الولايات المتحدة الأمريكية لكل المعنيين، حتى يمكن استخلاص الدروس المستفادة وصياغة الأفكار، بما يعزز ما يقوم به زملاؤنا اليابانيون من أعمال.

تمخضت النقاشات المكثفة عن أفكار كثيرة تتعلق بالمضمون والمنهج، بدت أكثر ملاءمة لدول الشرق. وكنتُ حريصاً بوجه خاص على أن أستوعب الاحتياجات المتفاوتة لمجتمعات المسلمين المختلفة في سياق كل مجتمع وظروف دولته، وأن ألمّ بتكوينها واهتماماتها وصراعاتها المختلفة. فعندما نفهم طبيعة احتياجاتها، ونوثّق هذه الاحتياجات بالكتابة عنها، يمكننا أن نكيّف تجاربنا وخبراتنا بناءً على هذه الاحتياجات، وأن نقوم بمشروعات وأنشطة تناسب الغاية المبتغاة وتحقق النتيجة المرجوّة.

الرحلة إلى اليابان ودول الشرق الأخرى فتحت عيني على أشياء كثيرة، وألهمتني كثيراً على مستويات عدة. فعلى الرغم من أن عدداً من القضايا والاهتمامات كانت هي نفسها في الغرب، فإن طريقة تناول هذه القضايا والاهتمامات كانت مختلفة. وكانت هذه المعلومة مهمة للغاية لتوسيع العمل في المنطقة. على سبيل المثال، في أمريكا كان معظمنا يعمل على مستويين في الأنشطة التي يقوم بها؛ مستوى مخصص للقضايا الإسلامية والمستوى الآخر مخصص للتنمية المهنية بوصفها جزءاً من دراساتنا الأكاديمية وحياة الطلاب بوجه عام. ولكن الوضع كان مختلفاً في اليابان، فقد اتضح من المحادثات على الفور أن هذا الجانب من المعرفة المهنية/ الفنية لم يكن موجوداً لديهم، وأن الطلاب في حاجة إلى أن يعززوا مهاراتهم وقدراتهم التكنولوجية حتى يُحرزوا تقدماً حقيقيّاً بصفتهم طلاباً قادرين على تطوير العمل المطلوب منهم، ومساعدة المجتمع من حولهم. وبذلك صار هذا المنهج الكلّي في تطوير مجتمعات المسلمين الأولوية الأولى لنا في المنطقة.

ماليزيا

بعد أن ودعتُ طوكيو، وصلتُ إلىٰ كوالالمبور في ماليزيا، كانت ماليزيا مشابهة لليابان في حركتها، ولكنها كانت مختلفة عنها تماماً في جوانب أخرىٰ كثيرة؛ فقد وجدتُ مناخها استوائيّاً حارّاً، وبعد أن تعودتُ علىٰ الأجواء الرمادية في اليابان، دُهشتُ من زهو الألوان التي كانت تتراءىٰ لي في كل الاتجاهات في ماليزيا. كانت الألوان تفوق الوصف، وكانت الأقمشة ترفرف في ضوء الشمس مثل ببغاء استوائي يُذهل العين بتدرجات ألوانه الحمراء والبرتقالية والزهرية والخضراء، أعتقد أن طاقتي كانت تتجدد وتزداد بمجرد النظر إلىٰ الناس.

وبالإضافة إلىٰ الاجتماعات واللقاءات التي كانت في جدول أعمالي، تشرفتُ أيضاً بقبول دعوة وجهتها لي جامعة مالايا في ماليزيا University of Malaya لإلقاء محاضرة لطلابها، فوقفتُ أمام ألفي طالب وطالبة في مُدرج جامعي كبير، وكان ذلك أكبر تجمُّع أقف أمامه حتىٰ تلك اللحظة في حياتي كلها، وشعرتُ شعوراً قويّاً بالمنفعة والمسؤولية اللتين جلبهما لي هذا الانتباه الكبير لي في أثناء إلقاء المحاضرة، وإذا كان مقدراً لي أن أوصل رسالة في أي وقت من الأوقات فكان ذلك وقتها، كان اختياري محاضراً في هذا السياق غريباً؛ ذلك لأن الجامعة مشهورة بتوجهاتها العلمانية المعادية للدين، وهي علىٰ طرف النقيض من رؤيتي، وكان ذلك واضحاً تماماً من نظرة سريعة علىٰ الجمهور؛ إذ اكتشفت أن الطالبات المسلمات غير محجبات، وحوالي خمسة في المائة منهن فقط يضعن غطاءً فضفاضاً علىٰ شعرهن المكشوف. ألقيتُ المحاضرة، ولن أخوض هنا في موضوعها، ولكن كان من الواضح أنها حظيت بتلقٍّ جيد، وفي أثناء ذلك تعلمتُ سريعاً بعض الدروس القيّمة عن طبيعة المجتمع الذي جئتُ إليه، واستفدتُ من هذه الدروس في لقاءاتي اللاحقة؛ ومع أنني لم أكن مؤهلاً في ذلك الوقت لأن أسبر أغوار تركيبة ماليزيا الثقافية والاجتماعية (وكان ذلك أحد أسباب زيارتي في المقام الأول)، عرفتُ أنه يمكن شق طرق للتغيير في الاتجاهات والمواقف، فقد شهدتُ أصالة عريقة، ولم يكن هناك عداء سافر.

بعد عدة اجتماعات طويلة، كنت أستعد للتوجُّه إلى مكان استضافتي في تلك الليلة، فوجدتُ طالباً ماليزياً شابّاً على دراجة نارية جاء ليصطحبني، كانت مصادفة عجيبة، وعندما أتذكرها الآن أتذكرها بإعجاب، فلم يكن هذا الطالب سوى أنور إبراهيم نفسه. من الذي كان يستطيع أن يتنبأ أن ذلك الشخص المهذب والأنيق سيصبح في يوم من الأيام نائب رئيس وزراء ماليزيا (من عام ١٩٩٣ حتى عام ١٩٩٨)، ووزير المالية، ومؤسس حزب عدالة الشعب وزعيمه، وزعيم تحالف الأمل، ورئيس الوزراء عام ٢٠٢٢. وعندما كان رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، حوّل كليةً صغيرة إلى جامعة تتبوأ مكانة مرموقة بين الجامعات العالمية، وعلى الرغم من أن مصيره كان مجهولاً في تلك الليلة، فإنه حتى عندما كان طالباً شاباً ترك انطباعاً قويّاً، ورأيتُ وراء ملامحه الباسمة إرادة من حديد.

بعد زيارتي في عام ١٩٧٠، أُسست حركة الشباب المسلم في ماليزيا (ABIM)، ومن أهم الأهداف الرئيسة لهذه الحركة ترسيخ التعاليم والمبادئ الإسلامية الواردة في الكتاب والسُّنة. وبدأ الإسلام ينهض بسرعة في ماليزيا، وظهرت فيها منظمات أخرى. في الواقع، حدث تحول هائل في قاعات المحاضرات في جامعة مالايا في غضون عشر سنوات فقط. فقد عدتُ بعد عشر سنوات لأحاضر في الجامعة نفسها مرة أخرى، واكتشفت أن الأمور تغيرت تغيراً كبيراً، فلم تكن إلا قلة من الطالبات الجالسات في القاعة غير محجبات، وكنتُ أنا بدوري قد تحولت إلى متحدث أكثر لباقة.

إندونيسيا

بعد أن ودعتُ كوالالمبور، سافرتُ إلى جاكرتا في إندونيسيا، وفيها توجهتُ إلى مسجد سلمان في مدينة باندونج في غرب جاوة. ما زالت ذكرياتي عن إندونيسيا تراودني، فبينما كانت كل دولة زرتها حتى ذلك الحين تفرض تحدياتها الخاصة (مما وسّع من

١٩٧٠. باندونج، إندونيسيا. أنا في منتصف الصورة. وعلى يميني عماد الدين عبد الرحيم رئيس جمعية الطلبة المسلمين بإندونيسيا والأمين العام السابق للاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.

مداركي وفهمي للتعقيدات الاجتماعية الثقافية وما تحتاجه كل دولة على حدة)، اتضح لي أن إندونيسيا تتسم بصعوبة خاصة؛ فكان المناخ السياسي فيها يطبق سياسات القمع الديني (في ظل حكم سوكارنو)، وذلك في دولة فيها أكبر عدد من السكان المسلمين في العالم. في ذلك الوقت، كان محمد ناصر، أول رئيس وزراء في إندونيسيا بعد استقلالها، يتزعم قيادة الحركة التي تهدف إلى إحياء الإسلام في إندونيسيا ضد توجه الحكومة نحو الشيوعية. لم يسعفني الوقت لتحضير أي شيء، وعصرتُ ذهني في طريقي إلى مسجد سلمان لأجمع موضوعاً أتكلم عنه، ولكن اتضح أن اختيار الموضوع كان أمراً صعباً بالرغم من محاولاتي، وربما كان ذلك يرجع إلى الوضع الموبوء من حولي، ولذلك قررتُ أن ألجأ إلى الارتجال، فبدلاً من البحث عن موضوع، يُطلق المرء العنان لتداعي الأفكار. ولكن عليّ أن أقرَّ بأن هذا الحلّ يتم اللجوء إليه "عندما يفشل كل شيء آخر"، ولكنه ينجح بما فيه الكفاية عند الضرورة.

وصلتُ إلى مسجد سلمان في باندونج، وبعد السلامات والترحيبات بدأ حديثي لتجمُّع مختلط من الشباب والشابات: نعم، نستطيع أن نتصرف ونعتمد على إرادة المؤمن وقوة إيماننا بالتخطيط والتنظيم. نستطيع أن نعلّم الناس ونطور مهاراتهم وقدراتهم. ويجب علينا أن نغير الوضع القائم للأفضل بإرادتنا وإيماننا وعلمنا والتزامنا. لقد واجه الرسول ﷺ العالمَ بمفرده، وكان مكلّفاً بتوصيل رسالة التوحيد للعالم أجمع. وأنا أطالبكم بأن توصلوا الرسالة لعدد من الناس لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة. طرحتُ من قبل السؤال التالي على نفسي: "هل يمكنني أن أفعل ذلك؟" ورجعت إلى كتب السُّنة وكتب التاريخ وقصة التجربة البشرية، حتى أستنبط ما أنجزه المسلمون، وكيف نشروا رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة. كيف تعامل أولئك الناس مع القمع؟ يجب علينا أن نتعلم من تجاربهم.

كان من حسن حظي أنني لم أجهز شيئاً لأقوله لهم، فعندما تركتُ الأفكار تظهر تلقائيّاً، استطعتُ أن أتكلم في أشياء كان ينبغي الكلام فيها. فقد وصلت الرسالة المجردة من التنميق وزخارف القول ببساطة، وكان فيها صدىً لما يدور في قلوب الحاضرين. وخرج ما يدور في قلوبهم وواقع وجودهم أمامهم فاستطاعوا أن يروه بأعينهم ويتحكموا

فيه، داعياً إياهم للعمل بلا إهمال أو تقصير. ومع أن الرسالة كانت بسيطة، لكنها كانت مناسبة لموقف المستمعين ومقامهم، ولم يكن فيها أي نوع من الأوامر أو النواهي، وأنهيت حديثي موضحاً أن العمل الذي ينبغي عليهم القيام به هو نوع من المسؤولية: "أنتم يا شباب وشابات المسلمين يمكنكم أن تعملوا، يمكنكم أن تعطوا، فلا تلتمسوا لأنفسكم الأعذار. تحملوا المسؤولية الملقاة على أعتاقكم، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

واصلتُ كلامي وأوضحتُ للمستمعين الموضوعات المتعددة التي تقع في نطاق العمل الإسلامي، بما فيها المسؤوليات والأهداف والأفكار والأحلام. وقلتُ لهم: إن ذلك يسري على إلقاء المحاضرات، وعلى تكوين شبكات العلاقات، وعلى مشاركة التجارب والخبرات، وعلى الاعتناء بالناس، وبثّ الطاقة فيهم وتوحيدهم، وعلى تعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وعلى تطبيق الفكر المتخصص وممارسته، وعلى التخطيط، وعلى بناء الجسور بين المسلمين وغير المسلمين، وأكدتُ لهم أن المهم هو أن يقوم كل شخص بالتعامل مع الوقت كما لو كان بضاعة ثمينة، فعليه أن يستغل كل دقيقة منه في شيء مفيد، وأن يكون في نشاط دائم، وأن يقدم إسهاماته بقدر ما يستطيع، وأن يبدأ من حيث انتهى الآخرون، وأن يضاعف جهوده، وأن يرى في الأمر كله استثماراً ستتزايد أرباحه في الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

١٩٩٥. جاكارتا، إندونيسيا.
الثالث من يمين الصورة جمال البرزنجي، ثم أنا، ثم قمر الدين محمد نور نائب رئيس حركة الشباب الإسلامي الماليزي، وكمال حسن الرئيس السابق للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM .

١٩٩٧. جاكرتا، إندونيسيا. المنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية. زوجتي ميسون على يسار الصورة.

١٩٩٧. جاكارتا، إندونيسيا. أول مجلس تنفيذي للمنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية. الأول من اليسار البروفيسور عطاء الرحمن من باكستان، وأنا الثالث من اليسار بصفتي نائب رئيس المنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية، ثم سيد إمتياز أحمد.

١٩٩٧. جاكارتا، إندونيسيا. أول مجلس تنفيذي للمنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية. أنا مع سوريدي سوديرجا، حاكم جاكرتا.

١٩٩٧. جاكارتا، إندونيسيا. أول مجلس تنفيذي للمنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية. من اليسار لليمين، الدكتور جيملي الشدّيقي أول أمين عام للمنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية، والدكتور جمال البرزنجي عضو مؤسس في المنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية، وأنا بصفتي نائب رئيس المنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية، ويقف بجواري البروفيسور إبراهيم بدران.

١٩٩٨. جاكارتا. سيادة الدكتور بحر الدين حبيبي في القصر الرئاسي للترحيب بي بصفتي نائب رئيس المنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية.

١٩٩٩. أثناء زيارة لإندونيسيا، بعد سقوط الرئيس سوهارتو. من اليمين لليسار الشيخ يوسف الحجّي وزير الشؤون الدينية في الكويت، وأنا، وحبيب خرزين ممثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي في إندونيسيا، والدكتور أحمد لوبز رئيس جامعة الأزهر في إندونيسيا.

٢٠٠٠. في إندونيسيا مع يوسف الحجي على اليمين في قاعة كبار الزوار. وأنا الواقف.

٢٠٠٠. في زيارة لإندونيسيا. في جامع الأزهر، وحديث بعد صلاة الجمعة.

٢٠٠٠. زيارة لإندونيسيا. من اليسار، حبيب خرزين، وأحمد لوبز رئيس جامعة الأزهر في جاكارتا. وأنا على اليمين.

٢٠١٢. في سومطرة، إندونيسيا، مع رؤساء الجامعات. الرابع من اليمين في الصف الخلفي، محمد صدّيق (ممثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، وأنا السابع من اليمين، والتاسع من اليمين حبيب خرزين (ممثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي).

٢٠١٠. اجتماع مجموعة عمل في مكتب المرحوم زحل عبد القادر وزير سابق للعلوم والتكنولوجيا في إندونيسيا؛ ورئيس جامعة الأزهر؛ وكان أيضا أميناً عاماً للمنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية. ورأس المنتدى الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية أيضاً بحر الدين يوسف حبيبي رئيس إندونيسيا بعد سوهارتو، وطلب مني أن أكون أحد نوابه في عام ٢٠١٠.

سنغافورة وتايلاند

ودّعتُ إندونيسيا، ومنها توجهت إلى سنغافورة، ثم إلى تايلاند. والتقيتُ في سنغافورة بالطلاب المسلمين في جامعة سنغافورة الوطنية National University of Singapore، ودخلتُ من جديد في نقاشات مثمرة تركز على المشروعات والخطط، وفي الوقت نفسه كنتُ أجمع معلومات محلية عن الوضع هناك. وبعض أولئك الطلاب أنفسهم تقلدوا فيما بعد مناصب قيادية وصاروا أصحاب شأن في بلدهم.

١٩٩٢. زيارة لسنغافورة. الأول من يسار الصورة جمال البرزنجي والثالث محي الدين أبو بكر

استمر بناء العلاقات والاتحادات، وكانت المحطة التالية أشبه باللغز بالنسبة لي، ففي السابق كانت تايلاند تُعرف باسم سيام، وكلمة تايلاند تعني أرض الأحرار. ومعابدها المزخرفة الأسطورية وتماثيلها الذهبية الضخمة تكشف بجلاء عن البوذية المتأصلة فيها التي ظهرت لأول مرة في المنطقة في القرن الثالث قبل الميلاد. وعلى الرغم من أن غالبية السكان بوذيون، وبعضهم هندوس، فإن المسلمين يشكلون ثاني أكبر جماعة في ترتيب الأديان هناك، ويقدرون حالياً بنسبة ١٤,٧ ٪ من مجموع السكان.

وكما الحال في سنغافورة، التقيتُ أيضاً بالطلاب المسلمين، وعددٌ منهم تقلَّدوا لاحقاً مناصب قيادية في بلدهم. وإذا ضربنا مثالاً واحداً يمكننا أن نذكر المرحوم سورين بتسوان الذي كان رئيس اتحاد الطلبة المسلمين في جامعة سنغافورة عام ١٩٧٠، وصار الأمين العام لرابطة دول جنوب شرق آسيا (آسيان) ما بين عامي ٢٠٠٨ و٢٠١٢، وهي هيئة إقليمية تمثّل دول جنوب شرق آسيا، والتقينا من جديد بعد ذلك بسنوات، ولكننا التقينا هذه المرة في الروضة الشريفة في المسجد النبوي في المدينة المنورة، وجدتُه يربت على كتفي ويهمس في أذني قائلاً: "يا أحمد، ألا تتذكرني؟" لقد جمعنا الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتسخير حياتنا للعمل الإسلامي. الإسلام يؤلف بين القلوب، وهذه الروابط الروحية التي قد تتشكل في خلال دقائق معدودة لا يُضعفها الزمن، واستعدنا ذكريات شبابنا الجميلة، وسعدنا بفكرة أننا قد سخرنا تدفق الطاقة فينا للدعوة إلى الله العلي القدير.

انتهت رحلتي في الشرق الأقصى. وكانت محطتي التالية بلاداً قديمة جداً، إنها بلاد تكاد تقف منفردة، فلا تنتمي للشرق الأقصى ولا تنتمي للشرق الأوسط، بلاد تشغل منتصف المسافة، بلاد استوعبت عناصر من الشرق الأقصى وعناصر من المشرق العربي في ثقافات وأديان متعددة، وكان للحضور الإسلامي امتداد حضاري واسع عبر الإمبراطورية الإسلامية التي كانت قائمة في يوم من الأيام. لقد كانت محطتي التالية هي الهند.

الهند

الهند بلد المتناقضات، بلد الثلوج وبلد الصحاري الحارقة، بلد الإله الواحد وبلد الآلهة المتعددة، بلد الثروة الهائلة وبلد الفقر المدقع، بلد تاج محل وبلد حواري المدن. كانت الهند فصلاً مكثّفاً من فصول رحلتي، وبدت فيها الأماكن كما لو كانت خالدة لا تتأثر بالزمن، ووجدتُ فيها فرصة من أعظم فرص التعلُّم في أثناء سنوات تلمذتي.

١٩٩٧. أخاطب الحاضرين أثناء زيارة لدلهي بالهند، في اجتماع لمعهد الدراسات الموضوعية.

١٩٩٠. الهند. أنا على اليسار، وثمَّ رضوان، والثاني من اليمين في الخلف منظور عالم رئيس معهد الدراسات الموضوعية.

من أوائل الأشياء التي أذهلتني، مثلما أذهلت غيري، أن نرى الناس يعيشون جيلاً بعد جيل في الشوارع. لا يحتمل أصحاب القلب الضعيف الحسّاس منظر الناس الذين اتخذوا من الرصيف منزلاً لهم، ولا يمكنك أن تميز أجسامهم عن الخِرَق المهلهلة التي يغطونها بها. هناك فقر، وهناك فقر مدقع طاحن غير مفهوم، ذلك الفقر الذي يولد داخلك إحساساً فظيعاً بالقنوط. كانت هذه مدينة كلكُتا، مدينة من أكثر مدن الهند فقراً، وهي أول مكان تعرفتُ عليه في الهند. المساء الذي وصلنا فيه محفور للأبد في ذاكرتي. تلاشت الدولة الإسلامية منذ زمن بعيد، وبقي أثر باهت لها في شكل مسلمين يعيشون في ظروف في غاية البؤس والشقاء. في مساء وصولي إلى الهند اصطحبني رفيقي أمان الله خان في جولة على الأقدام، ووصلنا إلى رصيف مثل الكثير من الأرصفة القريبة منه. ولكن ذلك الرصيف كان مختلفاً؛ إذ هو منزلٌ يسكن فيه الناس. فكان الناس

ينامون على الرصيف طوال الليل، ويستيقظون في الصباح، فيتناولون طعام الإفطار، ويقومون بأعمالهم اليومية، وكل ذلك على رقعة صغيرة جداً من الرصيف. وخطر في بالي أنهم سيموتون في يوم من الأيام على الرصيف أيضاً. وخطر في بالي كذلك أن ذلك صدمة للنظام، ولا يمكن تفسيره على الإطلاق، ولا يمكن الْتِماس أي عذر له. فالهند بلد جمال فاتن، وبلد خير ووفرة، فأسواق التوابل والبهارات والبازارات تعج بالطعام، كما أن الهند زاخرة بمناجم الذهب والألماس، وتشي بالغنى والثروة، ولكن عدم المساواة الشاخصة أمام عيني كانت صادمة. وتبدت متناقضات الهند تباعاً، فطريقتها الاشتراكية الليبرالية في حكم نفسها سياسيّاً بنفسها يكذّبها النظام الطائفي الذي ما زال متجذراً في البلاد؛ إذ إن أدنى طائفة تضطر إلى القيام بأسوأ الأعمال المذلة والمهينة، وتقبل مصيرها الوضيع، وتستسلم لحكم الآلهة الذين يجلسون على البُعد يحدقون في الفراغ في المعابد، مما يذكّرنا بالإمبراطورية الرومانية القديمة.

بينما كنتُ أسير في الشارع وأرى المنظر وأحاول أن أفهم كيف تهمل أية حكومة في العالم شعبها إلى هذه الدرجة، بدأت السماء تمطر، ورأيتُ المطر يهطل بغزارة على الأجساد الهالكة بالفعل لأولئك المساكين، مطر منهمر يتسلل إلى عظام أجسامهم الضامرة، ولم يكن هناك ما يحميهم من ذلك المطر. لم يكن هناك أي مكان آخر يذهبون إليه. ومع تزايد سقوط الأمطار، سرعان ما بدأت البِرك تتشكل في الشارع وعلى الرصيف، وكادت الأمطار تجرفهم، كما تجرف المخلّفات. أين كرامة الإنسان الذي تم اختزاله إلى حطام وقمامة؟ وانسابت الدموع على خدي عندما زرتُ عدداً من المدارس الإسلامية وهالني منظر الأطفال؛ إذ كانوا ضامرين مثل أعواد الكبريت، وشاخوا قبل الأوان، وكانوا عطشى وجوعى.

تكشّفت بانوراما الهند فجأةً أمامي، وتلك اللحظة وحدها جعلتني إنساناً مختلفاً. فقد تبدت حياتي في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية أمامي بوصفها نموذجاً للتميز والفرص الهائلة، وارتعش جسمي عندما أدركتُ الهوة السحيقة التي

تفصل بين هنا وهناك. فلم يكن هناك أي تفسير للظلم الذي شاهدتُه بعيني.

لم يكن ذلك يرجع إلى أنني تناسيت الفقر، فنكبة البشر الذين يعانون من الفقر في كل مكان، سواء أكانوا في مشارق الأرض أم مغاربها، تتكلم اللغة نفسها، والتحلل نفسه، والظلم البشع نفسه. ولكن ما كان يقطّع القلب في الهند على وجه الخصوص أن ترى معاناة فئات معينة من البشر دون سواهم، بمن فيهم المجتمع المسلم. فقد كانوا عرضة للإفقار كما علمتُ، كما كانوا مستهدفين أيضاً في رفاهيتهم وعافيتهم. كنتُ قد قرأتُ قبل وصولي تقريراً مُقْلقاً في مجلة "تايم" الإخبارية عن هجوم الهندوس على حفل زفاف لمسلمين، وتمّ فيه حرق حفل الزفاف بأكمله. كانت جريمة شنيعة هزت ضمير البشر وكشفت عن الكثير من التوترات المجتمعية التي كانت تنمّ عن الوجود الإسلامي الهش والمضطهد. وتبدى ذلك أيضاً في نظام المدارس. فكانت هناك مدارس توفر السكن والطعام والتعليم للأطفال، ولكن يديرها الهندوس، وكان على أولياء الأمور أن يقبلوا ذلك النظام على عِلاته أو لا يدخل أطفالهم المدارس على الإطلاق، لأنهم عندما يرسلون أطفالهم لهذه المدارس سيتيحون لهم فرصة حياة أفضل بدلاً من الجوع والعري والحياة على الأرصفة، ولكنهم في الوقت نفسه سيحرمونهم من دينهم. كان الحال يدمي القلب ويندى له الجبين، وكان الوضع بائساً وميؤوساً منه.

ولذلك كان من المهم جداً بالنسبة لي أن أفهم العلاقات بين الهندوس والمسلمين حتى أستطيع أن أتوصل إلى طرق لبناء الجسور بين الطرفين تجعلهما يعيشان معاً بلا خوف. ومن الواضح أن المسلمين كانوا ضعفاء، وصُدمتُ من مدى معاناتهم على الرغم من القوة التي بإمكانهم أن يستمدوها من كثرتهم. ولكنني تذكرتُ آنذاك بيت شعر للمتنبي يقول فيه: "وإذا لم يكن من الموت بدٌّ، فمن العجز أن تموت جبانا". ولذلك كان على المسلمين أن يحسّنوا موقفهم على عدة مستويات إذا كانوا يريدون أن يعيشوا بلا خوف.

الصراع بين الهندوس والمسلمين صراع له تاريخ طويل ومعقد، وبالطبع لم يكن عندي أمل في أن أقدم حلًّا لهذا الصراع. لم ينس الهندوس الدولة الإسلامية التي حكمتهم فترةً طويلة قبل مجيء البريطانيين. ولم يُخمِدِ الزمنُ ذلك الاستياء المكتوم من المعارك القديمة سواء أكانوا قد انتصروا فيها أم انهزموا. وجلوسُ نهرو ومحمد علي جناح على الطاولة مع المندوب السامي البريطاني أجّج الذكرياتِ والمشاعرَ من جديد، وهو الأمر الذي أدّى إلى تقسيم الهند ومقتل أعداد غفيرة أثناء هروبها إلى الجانب الذي أغلبيته مسلمة، على الرغم من أن القسمة كانت قسمة ضيزى. وكانت كشمير وما زالت نقطة ملتهبة أخرى من نقاط الصراع.

على الرغم من كل ما قلتُه، اكتشفتُ قوة تجاذب بين الناس العاديين أيّاً كانت قناعاتهم السياسية أو الدينية من خلال الاهتمامات الودية البسيطة، ومن خلال التجارب المشتركة، سواء أكانت هذه التجارب تتعلق بالفقر أم الشجارات العائلية أم مشاكل الزواج أم الخوف من الجرائم. ومن الممكن بناء جسور التواصل والتقارب بمجرد تنحية الخوف جانباً، واتخاذ مبادرات جمعية لتحقيق هذه الغاية.

أجبرني التعرف على واقع المسلمين في الهند على أن أقدح زناد فكري حتى أستطيع أن أعرف ما يمكننا القيام به. كما كان هناك عامل آخر، وهو الحالة الملحّة للوضع كله الذي لم يكن بإمكاني أن أقضي عليه. فقد كان ذلك الموقف مختلفاً تماماً عن تلك المواقف التي كنّا نواجهها في المملكة المتحدة أو في الولايات المتحدة الأمريكية أو في أية دول أخرى؛ فهناك كانت الحلول تتاح لي بسهولة مع القدرة على تنفيذها، ولم يكن الأمر صعباً. ولكن الوضع في الهند كان مختلفاً، فبينما لم يكن من الممكن علاج الوضع الاقتصادي، كان من الممكن تغيير التركيبة العقلية لمسلمي الهند، وكان التعليم هو الوسيلة الأساسية لتحقيق ذلك، ومن ثمَّ كان لا بد من تغيير أولوياتهم، ووضع إستراتيجيات لتحقيق هذا الهدف.

كان يتعين على الطلاب المسلمين أن يقوموا بالكثير. وشعرنا أنهم في حاجة إلى إطار مؤسسي يوحدهم ويعالج مشاكلهم ومشاكل المجتمع الأكبر على حد سواء.

وعرضنا الفكرة على الإخوة وتبنوها في الحال، وأنشأنا اتحاد الطلبة المسلمين في الهند. وبدأ أمان الله خان وآخرون في تجميع فريقهم وتنسيق جهودهم في سبيل تحقيق هذه الغاية، وقاموا بزيارات ميدانية لتطوير الاتحاد، وناقشنا المطلوب إنجازه، بما في ذلك ضرورة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الهندية الرئيسة. وكانت تلك المهمة صعبة لكثرة اللغات في الهند، فكل ولاية تتحدث الإنجليزية ولغة رسمية أخرى بالإضافة إلى عدة لغات غير رسمية، وقررنا في النهاية أن تتم ترجمة معاني القرآن الكريم إلى ثلاث وعشرين لغة من تلك اللغات.

دخلنا في مناقشات متعمقة حول الإعداد لذلك. لقد فاق اتساع القضايا وعمقها ما واجهناه من قبل. كما أننا ناقشنا الحاجة إلى ترجمة الأدبيات الإسلامية إلى اللغة البنغالية حتى تكون هناك مصادر جيدة للتعليم الإسلامي للمسلمين في بنجلادش. وتمكن الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية من مساعدتنا في هذا الصدد، وسرعان ما نشرنا أربعين كتاباً إسلامياً باللغة البنغالية.

اعترضت مشكلة الخوف طريقنا مرات عدة، مما جعلنا واعين من جديد بمدى خطورة الأمور وبالإستراتيجيات المطلوبة بوصفها جزءاً من السير على طريق الحل. عبّر كثيرون من مسلمي الهند عن خوفهم من المجتمع الهندوسي. فأكّدنا على ضرورة تعلُّم المرء طريقة حفظ النفس وحمايتها وحماية مصالحها. دائماً نتعلم دروساً عظيمة عندما ننظر في حياة الصحابة رضي الله عنهم. فقد تعرضوا لمعاناة كبيرة، ونتعلم من حياتهم دروساً عظيمة من طريقة مقاومتهم للقمع. فطلبتُ من الإخوة أن يضعوا برنامجاً يحقق هذا الهدف، وقلتُ لهم: إن كرامة المسلمين لا يمكن استعادتها ما لم يتعلموا الدروس المستفادة من حياة الصحابة، ولا بدَّ أن نجعلهم يطَّلعون على حياتهم، وعلى قدراتهم، وعلى طريقة مواكبة الحياة المعتادة، لنبيّن لهم أن الصحابة كانوا واثقين بأنفسهم، وكانوا يتحكمون في موقفهم وعواطفهم. فقد كان الصحابة قدوة يُحتذى بها في الصبر والجَلَد والتحمُّل، وعلينا أن نُحْيِي صفاتهم النبيلة.

من كَلْكُتَّا إلى لَكْناو ونحو دلهي

الشوارع في كلكتا Kolkata مثل صفحات كتاب تشهد على صراع الشعوب، وهي تحاول أن تنجو من الغرق وتكسب قوت يومها وتقاوم صعوبات الحياة. هناك فظاعة في حياتهم لا يجلبها إلّا الفقر المدقع. رأيتُ ذات مرة سيدة قعيدة تحاول أن تشق طريقها في شارع شديد الازدحام بالناس ووسائل المواصلات، وكانت الطريقة الوحيدة لشق الطريق أن يدفع المرء الناس جانباً وهو يسير. جرّت السيدة قدميها بلا تهيُّب، وشقت طريقها بصعوبة ومعاناة، كل ذلك والناس يسيرون بجانبها وكأنهم لم يروها. صرخ رجل قائلاً: "اركبي عربة يجرها لكِ شخص". هل قال ذلك بدافع الشفقة أم لأنه تضايق منها! الله أعلم. ورأيتُ رجلاً يسحب راكبين، مثلما يجر الحمار عربة، في تلك الحرارة الحارقة، وكم أشفقتُ عليه! لم أستطع أن أتخيل حال هذا الكائن المطحون بعد يوم طويل من جر عربات الركّاب.

من كلكتا ركبتُ الطائرة إلى لكناو Lucknow، وهي أكبر محافظة في ولاية أتربرديش، وهي من بقايا الإمبراطورية المغولية، وكانت تُلقّب بمدينة النوّاب نسبة للنوّاب المسلمين ذوي الشأن الرفيع الذين حكموا الهند في الماضي، وهي تعدّ كذلك مركزاً للأدب الهندي والأُردو. وعندما توجهتُ إلى الجزء الجنوبي الشرقي منها، وصلتُ إلى مدينة بيناريس Banaras التي تقع على ضفاف نهر الجانج، وهي من الأماكن الأساسية التي يحجّ إليها الهندوس، كما أنها منطقة سياحية مشهورة، وهي من أقدم المدن في العالم. وجدتُها مدينة جميلة، وهالتني المناظر الطبيعية الساحرة التي كانت تحيط بي من كل اتجاه، فتنتابك رعشةٌ ممزوجة من الإحساس بقِدَم المكان وعراقته والطبيعة الزاهية متنوعة الألوان. كانت في تلك المدينة القديمة المقدسة مدرسة إسلامية جيدة لتدريس الحديث النبوي، وكانت هذه المدرسة مثل وردة شذية أضفى عبيرها الثري السكينة والسلام على المنطقة من حولها.

عندما هبطت الطائرة في لكناو، وجدتُ مجموعة من الطلاب في انتظاري. كانوا قد كوّنوا رابطة لأنفسهم بالفعل، وكانوا شديدي الالتزام بتحسين وضع المسلمين في

الهند. ولحسن حظي، كنتُ قد التقيتُ بعضهم من قبلُ في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، ولذلك سعدتُ برؤية وجوههم المألوفة من جديد، وكذلك برؤية أشخاص جدد. كان مجتمع المسلمين في لكناو يهتم بوجه خاص بقضية التعليم. وفي ذلك الوقت، كانوا قد أصدروا بالفعل مجلتين، وهما مجلة "**الشعلة الآسيوية**" ومجلة "**الحياة**". وكانت المجلتان تنشران الأفكار والرؤية الإسلامية للرابطة الإسلامية باللغتين الإنجليزية والأُردية.

في تلك الرحلة أيضاً، سنحت لي فرصة لقاء الشيخ محمد نسيم -رحمه الله-، وكان رئيس الجماعة الإسلامية في لكناو. كان إنساناً رائعاً حقاً، ورجل أعمال يلتزم بدعم مجتمعه. واستطعنا عن طريق رجال مثله أن نطوّر شبكة علاقاتنا بسرعة كبيرة لدرجة أننا في وقت قصير جداً جعلنا كثيرين يعملون معاً في أماكن حيوية سعوا فيها لرفع مستوى حياة المسلمين.

كنتُ محظوظاً أيضاً لأنني استطعتُ أن أزور العالِم الكبير الشيخ أبا الحسن الندوي -رحمه الله- في قرية بالقرب من لكناو. تناولنا طعام الغداء معاً، ولم يكن هناك طعام ألذّ من طعام ذوي القلوب الصافية. ثم ذهبنا إلى مقر الندوي، ويرتبط بهذا المقر أتباع الشيخ في الهند. إنهم أناس مباركون وطيبون، وكانوا يركزون على العلوم الحديثة بالإضافة إلى علوم الشريعة، وأتاح لهم هذا التركيز المزدوج أن يتميزوا جدّاً عن غيرهم.

عَليكْرَة

عليكرة أهم جامعة للمسلمين في شبه القارة الهندية تواصل التقليد العظيم في دراسة الإسلام، وأقواس الجامعة الجميلة ولونها الفخّاري الباهت يملآن الزوّار بالإحساس بالدهشة، وهم يدخلونها كما لو كانوا يدخلون في أجواء العصور الوسطى. أحسستُ بأنني محظوظ للغاية؛ لأنه أتيحت لي الفرصة هنا للقاء بعض العلماء العظماء من كل أنحاء الهند، وتشرفتُ بوجودي في حضرة أفكارهم. والتقيتُ هنا أيضاً بـ(منظور عالِم)، وكان طالباً في جامعة عليكرة Aligarh Muslim University (AMU) في ذلك الوقت، وعملتُ

معه لعدة سنوات فيما بعد. كان رجلاً شديد الذكاء. وبعد ذلك بسنوات كثيرة عندما كنتُ متطوعاً في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، دعوته للمجيء إلى المملكة العربية السعودية. حصل منظور على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي، ولذلك جاء للعمل في وزارة المالية في الرياض، وكان يعمل جنباً إلى جنب مع وكيل وزير المالية والاقتصاد الوطني آنذاك الشيخ سعيد بن سعيد. وبعد ذلك، عمل منظور في المركز البحثي بجامعة الإمام محمد بن سعود، وبعدها التحق بوظيفة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة. كما أنه أشرف على مشروع ترجمة معاني القرآن الكريم، ثم عاد بعدها إلى الهند، وأسس في الهند معهد الدراسات الموضوعية في نيودلهي (The Institute of Objective Studies IOS)، وهو الذي اقترح فكرة وضع خطة عشرية لتطوير مجتمع المسلمين في الهند.

وفي عليكرة، التقيتُ أيضاً بمحمد نجاة الله صدِّيقي، أستاذ الاقتصاد والفلسفة والدراسات الإسلامية في الجامعة، وكان من دعامات مؤتمر الاقتصاد الإسلامي الذي نظمّناه لاحقاً في جدة بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٧٦. وكلّفناه بحصر كل ما كُتب عن موضوع علم الاقتصاد في الأدبيات الإسلامية الصادرة بالعربية والأُردية والفارسية والإنجليزية وتقديم عرض لها. كما أنه كان أحد مؤسسي مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي في جامعة الملك عبد العزيز بجدة في عام ١٩٧٧.

التقيتُ في عليكرة أيضاً بعرفان أحمد خان الذي أخذ على عاتقه ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة جديدة إلى اللغة الإنجليزية. وعرفان خان أحد المؤسسين ورئيس مجلس برلمان الأديان العالمي، وهو عالم إسلامي وكاتب وأستاذ فلسفة سابق في جامعة عليكرة، كما أنه أصبح نائب رئيس مجلس برلمان الأديان العالمي. وعندما التقيتُ به، كان مسؤولاً عن الشباب في جامعة عليكرة، ودعم فكرة تأسيس حركة شبابية تخدم كل أنحاء شبه القارة الهندية. وفي عام ١٩٧١، تم تأسيس حركة الطلبة بالفعل، ولعبت هذه الحركة على مر السنين دوراً كبيراً في الإحياء الروحي بين الشباب المسلمين في الهند، وفي تقوية شخصياتهم الدينية بوجه عام. وكان نمو هذه الحركة لافتاً، وأسستْ خلال سنتين مائتي فرع، وصار فيها ربع مليون عضو. وأظن أن دعمنا المتواضع لها لعب دوراً في هذا التطور.

كنّا واقعيين تماماً عندما وضعنا الهند في اعتبارنا، فلم يكن هناك حل قصير الأجل لمشاكل الهند، لأن الهند كانت تفرض تحديات خاصة، وكان لا بدَّ من معالجة هذه التحديات بمشروع طويل الأجل وعمليات متنوعة، ولكننا نوينا على الأقل المضي قُدماً، وبدأنا في وضع الخطط اللازمة. لقد وضعنا خطة عشرية، وبعد ذلك بدأت جهود دعم المجتمع بقيادة منظور عالم. وكلنا دعمنا تطوير مجتمع المسلمين في الهند، ودعونا الله القدير أن يحقق أحلامنا ويبارك في جهودنا.

ما مدى نجاح مشاريعنا بعد انقضاء كل تلك العقود من الزمان؟ أعتقدُ أن مشاركتنا أسهمت في إطلاق بداية عصر جديد. واستطعنا أن نحصل على دعم كثيرين مثل الشيخ سعيد بن سعيد وأخيه، وكانت مساعدتهما ودعمهما في غاية السخاء والكرم، وكذلك مساعدة الشيخ عبد الرحمن فقيه. وكللت هذه الجهود بالنجاح على مرّ السنوات. وجمعنا تبرعات لم نكن نحلم بها في البداية، مما أتاح لنا الاستدامة والتقدم بثقة في مشروعنا بالهند.

تقويم إجمالي

في أثناء قيامي بالرحلة إلى إيران قوّمتُ الموقف تقويماً إجماليّاً، ذلك لأن القرارات قد تؤدي إلى نجاح المشروعات أو فشلها. وفي أثناء إرهاقي الشديد من وعثاء السفر والتنقل الدائم بين المطارات والحضور المتواصل للاجتماعات، كان هناك شيء يحافظ على بارقة الأمل ويقوي الاقتناع، وهو أنه أينما ذهبنا وأيّاً كان الأشخاص الذين نقابلهم، كنّا نجد لديهم دائماً حافزاً لإنجاز المشروع والاستعداد للمساعدة دون التفكير في المكاسب الشخصية. كانت هذه الإرادة نابعة من قوة الإيمان وما يترتب على هذه القوة من أخلاقيات عمل قوية أيضاً. فبدلاً من المعادن الرخيصة التي في متناول يدنا، كانت مناجمنا غنية بطبقات الذهب الإنساني الأصيل. وأعتقد أن هناك علاقة إيجابية بين الإيمان والسَّعي، فالإيمان يعظّم السَّعي، ويجعله من لوازم التوكل على الله، فالإسلام يحث على الاجتهاد وبذل قصارى الجهد، وأعني بذلك الاجتهاد

البدني والاجتهاد النفسي وتلمّس أسباب النجاح على حد سواء. ويُثني القرآن الكريم كثيراً على ميزة السعي الصالح، كما يُثني على إقام الصلاة في أوقاتها، وعلى صوم شهر رمضان، ويجعل الجد والاجتهاد والدأب فضيلة من أعظم الفضائل. وبالإضافة إلى الاجتهاد، هناك أيضاً علاقة مباشرة بين الإيمان وتنمية ثراء الشخصية وسخاء صاحبها، فتخضع النفس للصالح العام وصلاح المجتمع. وشهدتُ كل ذلك بأمِّ عيني، وليس من خلال أمثلة في كتب يتكدس عليها التراب. وكان لكثيرين ممن التقينا بهم مستقبل ناجح في مجال المال والأعمال؛ إذ كان بإمكانهم أن يشغلوا وظائف تدر لهم دخلاً وفيراً، ولكنهم فضّلوا المكسب الروحي على المكسب المادي، ووهبوا أوقاتهم وجهودهم لتحقيق الصالح العام. فكانت الدعوة الروحية في قلوبهم قوية وانتبهوا لها جيداً ورعوها حق رعايتها، حتى في أصعب الظروف. فكما أن قطرة ماء واحدة قد تنقذ نفساً من الموت، يمكن لشخص واحد أن يُحدِث تأثيراً عظيماً في حياة الآخرين. وكان كل واحد منهم يجتهد ويفهم قيمة العمل الجماعي، كما كان يستوعب الأهداف والغايات الكبرى من وراء المشروع الذي يعمل فيه، ومن ثَمَّ صنعوا جميعاً علامات فارقة على طريق التقدم. وهذا وحده نشّط طاقاتنا وأمدنا بقوة وأمل متجددين.

إيران

انتقلنا في محطة الرحلة التالية من دولة عريقة إلى دولة أخرى عريقة، من الهند إلى إيران؛ فما زالت إيران الحديثة تحتفظ في داخلها بذكرى ماضيها القديم، فهي واعية جداً بأنها وريثة إمبراطورية قديمة، وتشي آثارها المتهاوية بالإمبراطورية الشاسعة التي كانت قائمة في يوم من الأيام. كما أن تلك الآثار تشي بديانة قديمة ما زالت تُمارس حتى اليوم؛ وهي الديانة الزرادشتية، ويُعرف أتباعها في الهند باسم البارسيين. جهزتُ نفسي لخوض التجربة، لأن بلاد فارس تمتد في موقع فريد إلى حد ما في العالم الإسلامي، ويوجد فيها تناسب حسّاس بين السُّنة والشيعة. وكنتُ أضع في بالي أن بعض أعظم العلماء في العالم الإسلامي ينتمون لهذه المنطقة الغنية بتاريخها وإمبراطوريتها وقدرتها

على تحمل المكاره والصعاب، فلم يكن من الحكمة أن أنحّي كل ذلك جانباً وأنا أحاول فهم التركيبة النفسية الإيرانية. وبما أنني على تواصل كبير جداً مع التاريخ الحضاري، شعرتُ شعوراً حدسيّاً بأن منظورهم سيكون منظوراً ثقافيّاً متميزاً، ويتعين عليّ أن أفهمهم فهماً كليّاً. كما أنهم شعب أدب وشعر، فشعر حافظ الشيرازي والفردوسي وعمر الخيام مشهور على مستوى العالم، مما يدل على تراث رومانسي يقف جنباً إلى جنب، في الخيال الشعبي الواسع، مع المفارقة التي تروج لها وسائل الإعلام، وترسم لها صورة حرب عبوس وأناس متدثرين بالسواد.

كما كنتُ حريصاً على مواكبة السياسة الإيرانية، فقد كان البلد في حالة غليان؛ إذ كانت هناك حركة معارضة تتنامى بشدة ضد نظام حكم الشاه محمد رضا بهلوي الذي لقّب نفسه بملك الملوك، الذي أقام احتفالاً باذخاً، وصرف عليه أموالاً طائلة، وشيّد مدينة فخمة من الخيام في صحاري إيران للاحتفال بالذكرى رقم ٢٥٠٠ لنشأة الإمبراطورية الفارسية. وعلى الرغم من أنه استضاف صفوة العالم بحوالي مليار ونصف المليار دولار، كان شعبه الذي يرزح تحت وطأة الفقر يشاهد هذا الاحتفال بتذمر متزايد. فرأى كثيرون أن ذلك الاحتفال لا يدل فقط على بداية سقوط الشاه، وإنما يدل أيضاً على زيادة سلطة بعض رجال الدين الذين كانت مكانتهم الدينية ورفضهم العام لهذا السَّفه في تبديد الأموال على طرف النقيض من الخمور والمشروبات التي تنساب بكثرة في الصحراء. وكان آية الله الخميني يقف متأهباً لامتلاك زمام الأمور. لقد حلّ وقت مهم في إيران، وكانت الأحداث تتطور بسرعة وكنتُ قلقاً للغاية.

في أثناء الوقت الذي قضيتُه في إيران، التقيتُ ببعض كبار رجال الدين، واقتطعتُ بعض الوقت لأتجول في شوارع طهران، وأنهل من المناظر والأصوات والروائح في تلك العاصمة العظيمة. كان الجو مشبعاً بإحساس شديد الوطأة، وحزنتُ، لأن الدين في طهران، كما في كثير من العواصم الإسلامية المزدهرة، بدأ يتراجع، ليفسح المجال للهال والفساد. وكانت هناك بارات وأشياء غير مستساغة أخرى لا يستغرق من يبحث عنها وقتاً طويلاً في الوصول إليها، ويبدو أنها القصة المعتادة في العالم أجمع. لقد بدا لي أن الناس ينسون الله بسرعة كبيرة كلما اتسعت المدينة، وازدادت سرعة وتيرة الحياة فيها.

حضرنا تجمُّعاً في مدينة قُمْ (وهي ثامنة أكبر مدن إيران)، ويقيم فيها معظم علماء الشيعة، وفيها مؤسساتهم الدينية. وأتيحت لي فرصة تعريفهم بأنشطتنا وعدد الناس الذين يقبلون الإسلام، ففرحوا جداً، وانبهروا بما سمعوا. واندهشتُ أيضاً من اللغات الكثيرة المختلفة التي كان الناس يتكلمون بها في ذلك التجمع، فكانوا يتكلمون الفارسية بالطبع، ولكنهم كانوا يتحدثون أيضاً التركية والإنجليزية وقدراً من اللغة العربية.

شعرتُ برغبة ملحة في أن ألتقي في مدينة قُمْ بحجة الإسلام السيد هادي خسروشاهي، وهو من أعظم العلماء المسلمين المعاصرين في إيران، وسجنه الشاه عدة مرات، وتم تعيينه بعد الثورة الإيرانية لعام ١٩٧٩ سفيراً لإيران في الفاتيكان. كان لقائي به يستحق عناء السفر لمسافة ١٢٥ كم من طهران إلى قُمْ. ابتسم رجل الدين الشاب الذي يرتدي العمامة والزي الإيراني التقليدي ابتسامة لطيفة عندما اقتربت منه، وكان ينظر إليَّ من وراء نظّارته نظرة ودودة، وكان اللقاء متوافقاً مع توقعاتي عنه، فكانت شخصيته محبوبة، وكان يتقن اللغة العربية ببراعة، وشعرتُ في الحال براحة كبيرة. وتناقشنا في أمور كثيرة، وتمخض اللقاء عن موافقته على ترجمة بعض كتب الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية إلى اللغة الفارسية، كما أنه أشرف على ترجمة كتاب المودودي "تفهيم القرآن" وأعمال أخرى إلى اللغة الفارسية. واستأذنتُ سريعاً وأنا أتذكر جدول أعمالي المزدحم على الرغم من أنني كنتُ أود البقاء لفترة أطول.

محطتي التالية في مدينة قُمْ كانت مدرسة دينية تُعرف باسم الحوزة، ويتلقى فيها رجال الدين الشيعة تدريبهم، وينبغي عليّ أن أذكر هنا أن لقب "آية الله" ارتبط في أذهان الناس بالخميني لدرجة أن معظم الناس لا يدركون أنه ليس اسماً، وإنما هو لقب يُطلق على كبار رجال الدين، ولذلك كان هناك بعض رجال الدين في حوزة قُمْ يحملون لقب آية الله. وفي تلك المدرسة الدينية، التقيتُ بعالم لا يكبرني إلا بعامين فقط اتضح لي أنه كان يتابع أنشطتنا في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان يتحدث اللغة العربية بطلاقة، ولذلك لم يؤثر حاجز اللغة على التفاهم بيننا. وسعدتُ عندما وجدته يعبّر عن

ابتهاجه بوجود منظمة عالمية للطلبة المسلمين تفتح أبواب عضويتها للسُّنة والشيعة على حد سواء. وقدّمني لجمهور متميز من آيات الله قائلاً لهم: "زائرنا هو الرئيس السابق لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، ويشغل حالياً منصب الأمين العام للاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية". ابتسم الجميع ابتسامةً مشرقة ترحيباً بي، واندهشتُ من سهولة التأليف بين الناس، فهناك قلوب مُؤلَّفة تُوحّد الإنسانية، وتسمح بتشكّل روابط الصداقة والمودة بسرعة بين الناس، وسرعان ما تكرّموا بدعوتي إلى غداء فاخر احتفالاً بوصولي، وكنت محظوظاً بتذوق بعض الوجبات الإيرانية الرائعة. وفي أثناء تناول الغداء، بدأتُ في أداء المهمة التي جئت من أجلها، لأننا تعارفنا وانخرطنا في نقاشات حول طريقة زيادة التعاون بين الاتحاد وحوزة قُمْ.

ربما كنتُ أول قائد شاب مسلم يزور إيران، وهو لا يميّز بين السُّنة والشيعة. وأؤكد على كلمة "ربما"، فالله وحده أعلم بالحقيقة. إن الشقاق بين السُّنة والشيعة شقاق قديم تضرب جذوره في التاريخ الإسلامي بعد وفاة النبي محمد ﷺ؛ إذ صار التنافس السياسي والديني مصدراً دائماً من مصادر التوتر والتشاحن. ولو وضعنا وطأة كل هذا التاريخ في حسباننا لصَعُب علينا الحديث والحوار. ولكننا تحدّثنا وتحاورنا، لأننا استطعنا أن نغوص وراء ستار التعصب، ونعمل على تقوية الروابط بيننا، لا أن نقطع أوصالها.

في أثناء رحلتي لإيران لفت نظري مراراً وتكراراً شيء كان بمثابة الكشف بالنسبة لي، على الرغم من أنه من المفترض ألّا يكون كذلك، نظراً لقوة تراث إيران الفكري، وهو إتقان من التقيت بهم للغة العربية، خاصة أن معظمهم من أصول فارسية. بعضهم كان من أصل تركي، وكانت التركية لغتي الأم، ولذلك تمكّنت من أن أتحدث معهم بسهولة، ولكن إتقانهم للغة العربية كان لافتاً. وهناك شيء آخر لفت انتباهي، وهو استشهادهم المتكرر بالآية القرآنية: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. ربما كانوا يستشهدون بهذه الآية بسبب ظروفهم الصعبة وقلقهم البالغ من الظلم.

ذهبتُ مرة أخرى إلى إيران في عام ١٩٨٠، بعد عقد من الزمان تقريباً من زيارتي الأولى لها. وإذا كان الأمر معقداً من قبل، فهو أكثر تعقيداً الآن. فقد هزت ثورة ١٩٧٩ البلاد، وكانت إيران ما تزال تتحسس طريقها وسط رياح التغير العاتية عندما وصلتُ إليها، وكان بإمكاني أن أرى بسهولة أمة تظهر من رماد نيران الشاه الذي كان يحتضر في مصر، وأزيلت صوره من الشوارع، وحلت محلّها صور جدارية ضخمة للخميني. قلتُ لنفسي: إن هذه هي تقلبات الحياة، فالإنسان في يوم يغرق في الثروة وفي اليوم التالي يُحرم من كل شيء. ما جدوى التشبث بسلطة زائلة تتلاشى مثلما يتطاير الدخان في الهواء، ومع ذلك يصارع البشر في سبيل الحصول عليها كما لو كانت ستدوم لهم للأبد؟! وتذكرتُ تلك الأطلال القديمة، تذكرتُ رؤوس الملوك المصنوعة من الصخر المتساقطة من تماثيلها، وملقاة وحيدة في صحراء شاسعة ومعرضة لكل عوامل الطبيعة؛ أين سلطة أولئك الملوك الآن؟ الشيء الوحيد الذي يدوم للأبد هو الروح، والشيء الوحيد الذي يحمي الروح هو الإيمان الذي يسعى لمرضاة الله من خلال القيام بالأعمال الصالحة.

لماذا اخترتُ أن أزور إيران من جديد! ربما كنتُ أريد أن أرى بعيني أثر الثورة في التركيبة الثقافية والاجتماعية للبلد، وربما كنت أحاول أن أفهم إحساس إيران الجديد بهويتها على الساحة العالمية، وربما لأن العلاقات بين العرب والإيرانيين ساءت. في الواقع، كانت أسباب زيارتي متعددة، ولكنني كنتُ أشعر بحاجتي إلى الذهاب إليها.

كنتُ أعمل أستاذاً لهندسة البترول في جامعة الملك سعود التي كان اسمها جامعة الرياض آنذاك، ولذلك طلبتُ من الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم العالي ورئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي أن يأذن لي بالسفر، فوافق على طلبي، ولم يمض وقت طويل حتى وجدتُني من جديد أسير في شوارع طهران. كان هناك اختلاف واضح، إذ اختفت البارات والحانات وغيرها نتيجة لحكم رجال الدين. وكان إلزام النساء على ارتداء الحجاب واضحاً، فقدرة الإيرانيين على الصبر على

المكاره ما زالت كما هي، وبالطبع كان هناك إحساس بالأمل يقترن دائماً بأي تغيير، وكان الجو مفعماً بالوعود والآمال، بعد أن سيطرت عليهم الكآبة ردحاً من الزمن.

كما أنني التقيتُ بعدد من القادة من العالم الإسلامي الذين كانوا في زيارات رسمية، وهو العُرف المتّبع عندما يتولى رؤساء جدد مقاليد السلطة، ثم قابلتُ الخميني نفسه. كانت خطبه النارية وملابسه، التي كانت محل خلاف وحديث الناس حول العالم، تضفي عليه مظهر رجل من العصور الوسطى. لقد كان في نهاية المطاف القائد الجديد لدولة مهمة، وبصفته هذه هدّأتُ نفسي لأكون وجهاً لوجه مع الإنسان الكامن وراء شخصيته. استمعنا بانتباه لخطابه، وسرّتني المفاجأة عندما رأيت بعض زملائي من اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا قد صاروا وزراء في إيران. كان رائعاً أن ألتقي بهم من جديد، ولكن قلبي كان يشعر بالتوجس على نحو غريب، ولم أكن أعرف أن دولتين مسلمتين، وهما العراق وإيران، كانتا على وشك الدخول في حرب رهيبة.

الكويت

في الكويت، التقانا رئيس الشؤون الإسلامية في وزارة الأوقاف أبو مصطفى عبدالله العقيل، وتكرّم باستضافتي في منزله، وأشعر بالامتنان دائماً لكرم ضيافته. تقع الكويت في غرب آسيا، ومع أنها ليست كبيرة، إلا أنها مزدهرة، فهي دولة خليجية منتجة للنفط، ولها خط ساحلي طويل في بيئة صحراوية إلى حد كبير (واسمها يعني الحصن المبني بالقرب من البحر). وتعجبتُ من النظرة البانورامية التي تشكّلت لديّ عن الأحوال الاقتصادية للعالم الإسلامي؛ فبعد أن رأيتُ الفقر المدقع، ها أنا أرى العكس تماماً، أي الثروة الوفيرة، وهي ثروة تزدهي بها منطقة الخليج كلها. كانت تظهر في كل مكان (الدشاديش/الأثواب) ناصعة البياض المُرتَّبة جيداً، والعباءات السوداء المهندمة، ببساطتها وأناقتها، وشكّلتْ صورة لافتة ذات لون واحد في مواجهة الشمس الحارقة.

٢٠١١. الكويت. في اجتماع مجلس إدارة الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية. من اليسار لليمين، أنا عضو مجلس الإدارة، وعادل فلاح نائب وزير الشؤون الإسلامية، والشيخ يوسف الحجي رئيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، وأحمد سعد الجاسر نائب الرئيس.

٢٠١٢. ألقي محاضرة بعنوان "العمل الخيري في أمريكا" في اجتماع رؤساء العمل الخيري الإسلامي في الكويت في مقر الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية.

٢٠١٢. ابني عمر توتونجي وأنا في دعوة لحضور اجتماع رؤساء العمل الخيري الإسلامي المنعقد في الكويت.

٢٠١٢. مع عمر كاسولي على اليسار، وفي الوسط أحد المشاركين في اجتماع رؤساء العمل الخيري الإسلامي المنعقد في الكويت. وأنا في أقصى اليمين.

أصبح عبد الله العقيل الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي في مكة. وهو آية في الكرم، واستضاف في بيته مسلمين كثيرين من مختلف أنحاء العالم، ولا يمكنني أن أنسى أبداً سخاءه ونصيحته ورغبته في أن يشارك خبراته وتجاربه بوجه عام مع الشباب المسلم، حتى يرشدهم إلى أشياء أفضل وأسمى. كانت شخصيته متميزة ولافتة، ويُعتمد عليه، وهو مستعدٌ لتقديم المساعدة لنا في أعمالنا الدعوية في أمريكا وفي أماكن أخرى. ويهتم بصلاح حال الآخرين، مثلما يهتم بحسن حاله هو شخصيّاً. وكان مُحسناً حتى النخاع، دون تفكير في المكسب الشخصي. وكل تلك المناقب تدل على شخصية صالحة. وكانت زوجته أم مصطفى مثله تماماً، وترك الزوجان في قلبي أثراً طيباً لا يُمحى. وأمدَّنا العقيل أيضاً بمساعدات كبيرة. لقد وُلد في مدينة الزبير بجنوب العراق، ثم انتقل فيما بعد إلى المملكة العربية السعودية (وهي بلاده الأصلية)، وانتقل منها إلى الكويت التي عمل فيها لعقود من الزمن. ونشر كتاباً من ٣ أجزاء عن الشخصيات الإسلامية المرموقة التي التقى بها في مجال العمل الإسلامي.

إن عبدالله العقيل شخصٌ متدبرٌ، وله نظرة للتنمية الإسلامية أوسع من نظرة معظم العلماء. وهو بذلك يفهم المراحل التي يمر بها الإسلام، ولديه فهم سليم لاحتياجات مجتمعات المسلمين في الخارج. ولاحظ بهدوء أعمالنا التي تسعى للتوسع والانتشار، ولاحظ طريقة تأسيسنا لخطوط اتصال مباشرة ومفتوحة، وكيف كنّا نناقش الأمور بشفافية أمام الجميع، وكيف كنّا ندعو الجميع إلى الإدلاء بآرائهم ومقترحاتهم، بدلاً من أن نفرض عليهم أفكارنا وحلولنا، كما لاحظ نشاطنا الدائم وموقفنا العام. وأظن أنه لاحظ فوق كل ذلك أننا كنّا صادقين، وأن عملنا كان نابعاً من إحساس أصيل بالمسؤولية تجاه البشر بصفتنا خلفاء في الأرض. ونتيجة لذلك، كتب لي ذات يوم قائلاً: "يا أحمد، سمعنا عما تقومون به في سبيل الله، ولا يوجد لديكم تمويل لكثير من مشروعاتكم، لذلك أرجو أن ترسلوا لنا مقترحاتكم حتى نستطيع دعمكم". ذُهلتُ وفاضت سعادتي، فقد كان العرض غير متوقع بتاتاً، كالمنّ والسلوى النازلين من السماء، وكان إحسانه مذهلاً. رددنا عليه في الحال، وأعربنا له عن عظيم

تقديرنا للدعم المالي. وتذكرتُ الكرم الذي لا يعرف الأنانية الذي تميّز به الأنصار في المدينة المنورة، فقلما يوجد أمثالهم في الطيبة والسخاء، لأنهم شاركوا ممتلكاتهم مع المهاجرين الغرباء القادمين من مكة المكرمة. وفي ذلك اليوم البعيد، انتقل شيء من إنسان لآخر، واضعاً معياراً قلّما يستطيع أحد في وقتنا الحالي الالتزام به. لقد قرأنا عن ذلك الإيثار التاريخي مرات ومرات، ولكن هل نقدِّر حقاً مدى التضحية التي قام بها الأنصار؟ فما تبرّع به سكان المدينة المنورة آنذاك كان غالياً لديهم مثلما أشياؤنا غالية لدينا اليوم، وتلك التضحية المتجذرة في تركيبتهم وكرمهم تدل على مدى إيمانهم والتزامهم، وتضرب لنا جميعاً مثلا يُحتذى به، ولذلك فإن تشجيع الإسلام على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار متجذّر فينا تاريخيّاً.

كان عبد الله العقيل من وجهة نظري يسير على خطاهم، فهو من أنبل الناس الذين أسهموا في عملنا، وكان دائماً يبذل أقصى ما في وسعه لمساعدتنا، ومهما قلتُ فلن يوفيه الكلام حقه.

لم تكن لدينا آلة كاتبة أو سكرتير، ومن الصعب تخيل ذلك الآن في وقت تتغلغل التكنولوجيا في جوانب حياتنا باستمرار بدرجة لا تريحني أحياناً. لن يختلف كثيرون على أن إعجاز التكنولوجيا يميزها عن التكنولوجيا التقليدية التي كانت في الماضي، والتي كانت ميزتها تتمثل في وظيفتها العملية. نحن معرضون لخطر فقدان أنفسنا بدرجة كبيرة، وإذا لم نكن حريصين ومتيقظين سنغرق في بحار المعلومات، ونغرق وسط الخيارات الكثيرة المطروحة أمامنا، وأظن أن السؤال الحقيقي الذي أترك إجابته للمتخصصين هو: هل تجعل التكنولوجيا حياة البشرية أفضل أم أنها تنتزع منا أشياء بيد، وتعطينا أشياء أخرى بيدها الأخرى؟! ولذلك لا أشعر بالخجل إذا قلتُ: إن معظم مقترحاتنا للعقيل في المشروعات المتنوعة والأنشطة الأخرى كتبناها بخط اليد على الورق، ثم أرسلناها له بالبريد، وعندما كان يستلمها كان يعيد كتابتها على الآلة الكاتبة، ثم يرسلها لنا للتوقيع عليها. وبعد أن نوقع عليها نقوم بإعادة إرسال الأوراق كلها له بالبريد. يبدو ذلك بطيئاً ومعقداً وتافهاً بمعايير العصر الحالي، ولكن

العالَمَ آنذاك كان عالماً مختلفاً. ومن أعظم المتع التي أحسستُ بها على مرّ الزمان أن أرى الناس يلتقون في سبيل قضية عظيمة، وكنتُ أحس بهذه المتعة مع العقيل في تعاملي معه مباشرة.

بمجرد انتهاء كل تلك الأسفار، تلقينا بعد وقت قصير أول تبرع من الخارج مقداره ١٧,٥١٢ دولاراً أمريكيّاً. وتوسَّعَ مستوى عملنا وطبيعته. وكانت مثل هذه التبرعات لازمة لتوسيع نطاق مشروعاتنا ولإكمال المشاريع القائمة وتطويرها. لقد كانت هذه الأنواع من الدعم ضرورية للغاية. فقد دفع هذا التبرع عملنا للأمام على جبهتين: على المستوى المادي وعلى مستوى التحفيز. فعلى مستوى التحفيز، تأثر كل منّا تأثراً بالغاً من أعماق قلبه من الالتفات إلى مجهوداتنا في مكان بعيد عنّا، مما فتح الباب لأصحاب القلوب الرحيمة الذين يهتمون بعملنا بما يكفي لأن يبادروا بمساعدتنا معنويّاً وماليّاً. كما كانت هناك ثقة في أننا سنؤدي مهامنا وواجباتنا بشرف، وهذه الثقة بأمانتنا وبقدرتنا رفعت معنوياتنا إلى أقصى حد.

ونتيجة لهذا الازدهار المالي، استطعنا على مرّ الزمن أن نضاعف جهودنا على مستويات عدة. فنشرنا كثيراً من الكتب، وأقمنا بعض مخيمات الشباب. وتم توزيع الكتب على فروع اتحاد الطلبة المسلمين، مما أسهم إسهاماً كبيراً في تنمية وعي الشباب بدينهم ومسؤولياتهم وواجباتهم، ليس تجاه مجتمعاتهم المسلمة فحسب، بل وكذلك تجاه مجتمعهم المضيف والإنسانية جمعاء. كما أن ذلك ولّد نقاشات تقوم على الاحترام المتبادل مع العلمانيين والاشتراكيين والناصريين والقوميين العرب.

بذلنا أيضاً جهوداً لنصل إلى غير المسلمين، بل وإلى المكروبين في السجون، فقد أولينا السجون اهتماماً خاصاً، فمن السهل تجاهل المنحرفين لأننا كنّا نشعر بشيء من الخوف من طبيعتهم ومما اقترفوا. ولكن من زاوية أخرى، هؤلاء البؤساء أكثر أناسٍ معرضين لخطر الحكم على مستقبلهم بناءً على ماضيهم، ومن ثَمَّ فهم أكثر الناس حاجة إلى المساعدة من بعض النواحي. فعندما نقوم بتعريفهم بالله والإيمان، سنُمكّنهم من

أن يتصالحوا مع ماضيهم، ونقدم لهم خيارات الفعل في المستقبل، ونُعلمهم آداباً وسلوكات ربما لم يعلّمهم إياها أحد، أو ربما لم تكن عندهم القدرة على التفكير فيها. وفي التقرب إلى الله شفاء ونظرة للحياة تضفي المعنى على الوجود، وتنقذ الإنسان من الضياع، وتمنحه شعوراً جماعيّاً بأنه جزء من شيء أكبر، وبهذا يرتاح باله. ولذلك قام متطوعون من اتحاد الطلبة المسلمين بزيارة السجون، وإلقاء محاضرات في سجون المدانين بالجرائم الخطيرة، وإقامة صلاة الجمعة والخطبة فيهم، وتوزيع نسخ من ترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيره والكثير من الكتب الأخرى، مما أدى بعدد غير قليل، ولا سيما الأمريكيين الأفارقة، إلى تنمية وعيهم بالدين الإسلامي ودخولهم فيه. كما أن السلطات القانونية سمحت بتعيين إمام بشكل دائم في مساجد السجون. ومالكوم إكس خير مثال على ما يؤدي إليه وصول العمل الدعوي إلى السجون من تغيير في حياة الإنسان. لقد كان رجلاً يتمتع بأخلاق قويمة وذهن متقد وإيمان ورع، وقد ضحى بحياته في سبيل معتقداته السلمية، ولا يمكنني أن أتصور أنه كان من الممكن أن تنتهي حياته مثل أي مجرم، فلولا الدعوة واعتناقه للإسلام لانتهت حياته كذلك بالفعل.

يظهر أناس كثيرون جداً في ذاكرتي من تلك الرحلة التي قمت بها في عام ١٩٧٠ ولا يتسع المقام لذكرهم، ولذلك سأقتصر على ذكر بعضهم فقط. في الكويت كان هناك الشيخ يوسف الحجي، والشيخ عبد الله المطوع، كما كان هناك مشاري الخشرم، وهو صديق منذ أيام جامعة ولاية بنسلفانيا، بالإضافة إلى ذلك، أذكر فيصل المقهوي، وهو من أوائل الداعمين لمدرسة النجاة في الكويت، التي تأسست في عام ١٩٦٨، وقدمتْ خدمات عظيمة للبلد، وكذلك للتلاميذ المغتربين. لقد تذكرنا الأيام الخوالي، وناقشنا أمور العصر آنذاك، وتشاركنا الذكريات بوصفنا زميلين أنجزا معاً إنجازات كثيرة. كما أننا كنّا نعرف أن هناك الكثير أمامنا للقيام به، وأن أي عمل عند القيام به لا يكتمل تماماً.

استراحة في الرحلة

كانت الرحلة على وشك أن تتوقف لوقت قصير. كانت أشبه بطريق الحرير الذي تزخر محطاته بأعمال في طور الإنجاز، ومشروعات، وبشر متفانين، ورؤية لأشياء أعظم للمسلمين والمجتمعات التي يعيش بعضها في قمع وبعضها الآخر في فقر مُدقع. وقدّرتُ أكثر مما ذي قبل تداخل الخيوط المختلفة، فعلى الرغم من اختلاف ثقافتنا وجنسياتنا، فإن هذه الخيوط ضفرت العالم الإسلامي في نسيج واحد جميل. وأدركت أن الصوت من بين هذه الخيوط؛ فقد كان القرآن نصاً شفهيّاً مُرتَّلاً قبل أن يتم تدوينه، ولذلك فإن صوت الدين كان ينتشر في الهواء شذاً أينما ذهبتُ، وكان صوت الأذان يعلو في السماء، وكان صوت القرآن الكريم ينساب في الهواء كالنسمات ليُعطي المرء إحساساً بالطمأنينة، وإحساساً مريحاً بأنه في وطنه مع أنه في بلاد الغربة، وإحساساً بالوحدة في التنوع.

كما أنني أصبحتُ واعياً بالمصاعب الاقتصادية وغيرها التي يعاني منها المسلمون، وأصبحتُ أكثر حكمةً في أمور الدنيا. وأيّاً كانت النتيجة النهائية لكل جهودنا، فإننا على الأقل بذرنا بذور التغيير وأدرنا عجلة الأمور. والأهم من ذلك كله أنني كنتُ أدعو الله أن يرضى عن أعمالنا ويتقبلها.

لم ننسَ أبداً أن الله هو الذي منّ علينا بالنجاح والتوفيق، فقد هدانا سُبلنا، وثبّت أقدامنا، ورفع مقامنا، ورزقنا حكمة، وقوّى عزيمتنا في تسيير المشاريع والتعامل مع أناس من مختلف الثقافات والجنسيات. كان إخلاص نيتنا مفتاحاً مهمّاً؛ فالعمل بغير إخلاص لله واقتداء بالصالحين لا قيمة له، كما علّمنا رسول الله ﷺ. كما أنني أظن أن تعليمنا التِّقَني من جهة والروحاني والعقدي من جهة أخرى لعب أيضاً دوره، فعلى الرغم من أن العلم يُحدث تأثيره في الواقع في كلتا الحالتين، فإن الجانب الروحاني العقدي هو الذي يحدد الشكل الذي سيتخذه هذا الأثر، ويسمح بتحمل مزيد من المسؤولية تجاه الناس والبيئة والإنسانية.

كانت رحلتي من العراق مروراً بالمملكة المتحدة، ووصولاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية على وشك الانتهاء، وكذلك كان العمل الدعوي الساعي للانتشار الذي قمتُ به أنا وزملائي. كانت دراستي على وشك الاكتمال، وكنتُ على وشك أن أترك عالم الدراسة لأدخل في عالم الوظيفة في مجال تخصصي في هندسة البترول. ولديّ الكثير لأقوله عن عالم الوظيفة. ولكن أعظم تغيُّر في حياتي على الإطلاق، وهو بالنسبة لي نهاية مجيدة ومناسبة، هو أنني كنتُ على وشك أن أودّع حياة العزوبية.

الزواج والسعادة

للكويت مكانة خاصة في قلبي، ففيها تم زفافي في يوم ٩ يوليو/ تموز عام ١٩٧٠، وهو من أهم الأحداث وأجملها في حياتي، أتذكر زفافي كما لو كان بالأمس، وأتذكر الروائح الأخاذة للبخور والحلويات، والعشاء الفاخر، والفرحة الغامرة. كانت الاحتفالات مدهشة، سافرت والدتي وأخي الحاج جاسم من العراق لإحضار زوجتي ميسون برفقة أخيها إنعام وزوجته الدكتوره رجاء إلى الكويت وحضور حفل زفافي. وسعدتُ بحضورهما ووقوفهما بجانبي، فكنتُ أفتقدهما كثيراً. وحضر الزفاف عدد من أقارب زوجتي من عائلة الطالب. ولا يفوتني أن أذكر كرم الشيخ عبد الله المطوع، الذي عُرف بإحسانه للفقراء في كل أنحاء العالم، وكان ملتزماً بفعل الخير ويدعم المؤسسات الكويتية والمؤسسات الإسلامية على مستوى العالم. فقد أصرّ الشيخ المطوع على إقامة حفل زفاف كبير، مما أسعد زوجتي التي ما زالت حتى الآن تذكر زوجته وبناته الرائعات بالخير، وما زلنا نزورهم بانتظام.

غادرت أسرتي والأصدقاء بعد انتهاء حفل الزفاف، ورافقتني زوجتي ميسون درب الحياة، فهي دائماً فرحة حياتي ورفيقتي وسَندي منذ أن تزوجنا، ولا يمكن لأية كلمات أن تعبّر عما أدين لها به. كانت ميسون في التاسعة عشرة من عمرها عندما تزوجنا، وكانت

هذه أول مرة ترحل فيها عن مسقط رأسها في الموصل. وتعهدتُ أمام نفسي أن أفعل كل ما في وسعي لإسعادها، وتعهدتْ هي أيضاً بإسعادي، والحمد لله على هذه الرفقة الصالحة. توجد اختلافات بيننا بالطبع، فهذا حال البشر. ويسعدني أن أقول: إن كلينا "لباس" للآخر، يقول الله تعالى: ﴿...هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ...﴾ [البقرة: ١٨٧]. وعندما يسألني شخص عن سر الزواج الناجح، أقول له: ليس في الأمر سرّ، الموضوع بسيط للغاية، لأن الحياة الزوجية تقوم على أن يتجاوز المرء ذاته، فلا يحاول أن تكون له اليد العليا، ولا يدافع عن أخطائه، بل ينبغي أن يتحلى بالإيثار، وأن ينحّي ذاته جانباً ويسعى لإسعاد الطرف الآخر. تأتي معرفة الإنسان الحقيقية بعد الزواج، وعلينا أن ندرس احتياجات الشخصية التي أمامنا، وأن نتواصل معها جيداً، ولا نتحصن خلف أسوار الاستياء والتذمر. أنا متزوج الآن منذ أكثر من خمسين عاماً، ولذلك أعرف معنى ما أقول، ومنحتني سنوات زواجي الطويلة الحق في قوله. كما أن التحكُّم في الغضب شيء مهم، ولا أذكر أنني رفعتُ صوتي في وجه زوجتي في يوم من الأيام، أو فعلتُ ما يؤذيها. وهي دائماً طيبة ونبيلة في معاملتها لي.

توجِّهنا في حياتنا مفاهيمُ وتجارب ذات معنى عميق، من قبيل كون الزواج سكناً للنفس وراحة للقلب. وأيّاً كان ما تقوله أنصار الحركة النسوية، تظل الزوجة حصن أمان لزوجها، ويظل قلبها يفيض بالمودة والرحمة تجاهه. وعندما يشعر الزوج بالمحبة والاحترام، يعطي زوجته الدفء والحماية والأمان. يقول القرآن الكريم: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾ [البقرة: ٢٤٣]. وأعظم فضل هو الزوجة الصالحة التي توفر الأمن والسلامة والراحة لزوجها، مما يساعده على الخروج للعمل دون صعوبات أو عوائق، وبذلك تتضاعف قدرته على الإنتاج. هذا هو الأسلوب الذي سار به زواجي لنصف قرن تقريباً حتى الآن. إن زوجتي مَعين لا ينضب من الطاقة الروحية والعملية.

الزواج والأسرة

لم تكن الحياة كلها عملاً دَعْوياً وتطوراً مهنياً، فقد خصصتُ جزءاً كبيراً من وقتي وطاقتي لزوجتي وأسرتي، فالبيت بالنسبة لي مكان جميل ومقدس. أظن أن بعضنا ينظر إلى الزواج على أنه حالة من الدفاع المقنَّع عن النفس، وعلى أنه عبودية للمُثل العليا. ولكن العلاقات في الواقع تحتاج إلى رعاية وتغذية متواصلتين. ولحسن الحظ، كنتُ أنا وميسون محظوظين بما فيه الكفاية؛ لأن نفهم هذه الحكمة منذ بداية ارتباطنا، وسعينا جاهدين لتحقيق ذلك. وربما لهذا السبب صار زواجي ملاذ سلام وسكينة على مرّ الزمن، فهو يجددني عاطفيّاً وروحيّاً، كما أنه منبع إلهام لي. تلعب الطباع دوراً أساسيّاً في كل العلاقات، ولكن نجاح العلاقات الزوجية يتوقف إلى حدّ كبير على الصبر واليقظة. واخترتُ أنا وزوجتي أن نتواصل معاً تواصلاً يقوم على المودة والرحمة، ويركز على الاحتياجات، لا على العيوب، كما اخترنا أن نتفاعل في حياتنا اليومية على أساس التقدير والاحترام، مما أنشأ تناغُماً بيننا مكَّننا معاً من النجاح ومواجهة بعض التحديات الشديدة التي تظهر على طريق حياتنا من آن لآخر، مثل غيرنا.

أحبُّ ميسون حبّاً جمّاً، وأشكر الله على نعمة وجودها في حياتي. ولها عليّ أفضالٌ لا تُحصى، فدعمتْني في ديني ومسيرتي، وكانت مصدر رضاي، كما أنها رفيقة تُثري وتُغني حياتي، فتجعلني أتمسَّك بالأمل في لحظات الإحباط، وجعلت أشجار حياتنا تزهر بالأطفال، فلا يمكنني أن أتصور حياتي من دونها. أعرف مدى صعوبة بحثنا جميعاً عن شريكة حياة مثالية، عن اليد السحرية للزواج المثالي التي تُخرجنا من وحدتنا وتجعلنا سعداء، ولكن هل من المستحيل العثور على ذلك؟ جزء كبير من الزواج اختبار لشخصيتنا، ولقدرتنا على إظهار المودة والرحمة للطرف الآخر، وللكشف عن مُكنتنا في التواصل الحسن وفهم احتياجات الطرف الآخر، والتصرف بناءً عليه، ومن دون تبسيط مخل للأمور، لا أود أن ننظر إليها على أنها معقدة للغاية أيضاً، فمع نضج العلاقة ونمو الحب، تزدهر حياتنا أكثر بقدوم أفراد جدد للأسرة، فسماع كلمة "بابا" لأول مرة كانت من أسعد لحظات حياتي. ومع أن تربية الأطفال يكتنفها القلق وربما

الخوف، فإن مجرد رؤية أطفالي يمشون ويكبرون أمام عيني فرحةٌ عظيمة ونعمة كبيرة يتضاءل أمامها كل القلق الموجود في العالَم.

وكما أسلفتُ سابقاً: ليس الزواج بالأمر السلس الخالي من التحديات، فهو يتطلب يقظة ورعاية للبيت، مثلما يرعى المرء حديقته. وسعيتُ أنا وميسون جاهدين للتغلب على الصعوبات ومصادر القلق، وكذلك صداع اضطرارنا للتعامل مع بعض الأشخاص المزعجين في ظروف صعبة للغاية. ولكنني أنسى كل هموم الحياة بمجرد أن أراها تحييني بوجهها البشوش، ويفيض الحب في قلبي عندما أسمعها تدعو لي في سجودها لرب العالمين. ولم تَشْكُ من شيء قط، حتى عندما كنّا في ليبيا ونعيش في ظروف صعبة يغلب عليها الحرمان والمعاناة من جراء المناورات السياسية، وقلقي بسبب الأحداث التي كانت تتجمع بسرعة من حولي. فكانت ميسون تفكر دائماً بإيجابية، وتنظر دائماً إلى الجانب المشرق في الحياة، فتشكر الله على أية نعمة أنعم الله بها علينا؛ إذ تذكّرنا بالأشياء التي تهمّ فعلاً في حياتنا. روحها جميلة، واحتياجاتها بسيطة، وتضع الله نصب عينيها. وعندما تنظر إليّ، أحسّ بعمق حبها وتقديرها، وأجد فيها وفيّ رزانة وراحة. وكنّا نتطلع معاً إلى ما يهمنا حقاً، إلى إيماننا والعمل الخيري وتربية أطفالنا.

حياتنا الشخصية شهر عسل دائم، ليس بمعنى الإفراط في العاطفة، ولكن بمعنى الإحساس بالنشوة الغامرة التي تجلبها تلك اللحظات الأولى في الزواج، مع أنني لا أخفي أنني في أسابيع الزواج الأولى كنتُ أتساءل عمّا إذا كان الحبّ والرضا الكبير سيتلاشيان مع مرور الزمن، فكنتُ أعرف أنني سأنشغل للغاية عما قريب في الاجتماعات والمؤتمرات، وفي عملي الوظيفي وعملي الخيري الديني، وأن ذلك سيشغل جزءاً كبيراً من وقتي. كيف ستتأقلم ميسون مع ذلك؟ فقد كانت على أية حال في بداية شبابها وحيويتها، فلم تكن قد بلغت العشرين من العمر بعد. هل كنتُ أطلب نُضجاً يتجاوز عمرها؟ هل سينفد صبرها وتتضايق؟ هل ستكون عبئاً على وقتي؟ واتضح أنه لا داعي للقلق، فقد كانت ميسون أخت أخيها فعلاً، كانت صورة من هشام الطالب، رجل العلم والأخلاق الرفيعة الذي أفخر بأنه صِهري وأخي. ففهمتْ

ميسون رؤيتي ببراعة، وشاركتني إياها، وساعدتني على تحقيق الأهداف التي كنتُ أسعى بدأب لتحقيقها، مما جعلني أحافظ على قدرتي على الإنتاج، وفي الوقت نفسه كانت تسعى جاهدة للقيام بمهامها، فكانت تتحمل المسؤولية تلو الأخرى. وكل ما أستطيع أن أقوله: "بارك الله فيكِ يا أم محمد".

بداية مهنة جديدة

جاء الزواج بمسؤوليات جديدة وخاصة، فكان عليّ أن أتكفل بأمور زوجتي، ولذلك كنتُ في حاجة لأن ألتحق بوظيفة. أود أن أذكر شيئاً حدث قبل زواجي وشكّل وظيفتي المستقبلية. لم يشكلها في الحال، وإنما لاحقاً، وكان ذلك من فضل الله وعنايته وتدبيره. في مكة، طلب مني الشيخ صالح قزاز الأمين العام السابق لرابطة العالم الإسلامي أن أزور جامعة البترول والمعادن في مدينة الظهران لتقويم أحوالها (وهي الآن جامعة الملك فهد للبترول والمعادن). اندهشتُ وسررتُ بالثقة في قدراتي، فالمسؤولية ثقيلة. كنتُ في مكة آنذاك، وتركتُ زملائي هناك وسافرتُ إلى الظهران. وبعد أن تفقدتُ أحوال الجامعة، قضيتُ ليلة هناك لأكتب تقريراً عن مختلف جوانبها الفنية.

لفت نظري أن الجامعة لم تكن تدرّس أي مقرر عن هندسة البترول. لم أكن أعمل رسميّاً في الجامعة آنذاك، وخطرت في بالي فكرة جريئة وطموحة، فاقترحت على الجامعة إنشاء قسم هندسة البترول. من أنا حتى أوجّه قيادات الجامعة؟ ولكن إما أن مؤهلاتي تكلّمتْ عنّي أو أنني عرضتُ الاقتراح بشكل مقنع، فقد قُبِلَ اقتراحي لاحقاً ونُفّذ في عام ١٩٧٣. وكتب لي الله أن أنتقل إلى المملكة العربية السعودية في ذلك العام، وأن أنشئ قسم هندسة البترول في جامعة الرياض (وهي الآن جامعة الملك سعود)، وتوليتُ رئاسة القسم لمدة عشر سنوات. وكنتُ أعمل دائماً على جبهتين منفصلتين، ففي الوقت نفسه ساعدتُ في تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي هناك.

الجزائر

كنتُ قد تزوجتُ وواصلتُ رحلتي الآن بصحبة زوجتي إلى الجزائر. إنها بلد مبارك أنجب كثيراً من كبار العلماء والقادة المسلمين. واستطعتُ أن ألتقي بعضهم. فالتقيتُ على سبيل المثال بعبد الحميد بن شيكو، وهو من ألمع العلماء الذين قابلتهم في حياتي، وكان يعمل في صمت، ولكنه أنجز الكثير، وقد حصل على درجة الدكتوراه في الهندسة الكهربائية من جامعة ولاية أوهايو Ohio State University في مدينة كولومبوس Columbus، وكان زميلاً شارك في مشروعاتنا في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم صار عميداً لكلية العلوم والتكنولوجيا في المدرسة الوطنية المتعددة التقنيات في الجزائر. وأصرّ على أن نبيت في بيته. وأُتيحت لزوجتي فرصة لمعرفة أعمق بالعالم العربي، وخاصة شمال أفريقيا.

كان العالِم الجزائري مالك بن نبي من أبرز المثقفين والمفكرين المسلمين في القرن العشرين في العالم العربي، وكنتُ محظوظاً للغاية بإتاحة فرصة لقائه والحديث معه. تكلمنا باستفاضة، وأنصتنا لأفكاره، وأذهلتْني أصالته وعقله المتقد، فقد كان قادراً على أن يحلل القضايا المعقدة بتفاصيلها الدقيقة. فقد حظيتُ بمتعة الاستماع إليه ورؤيته وهو يعمل. واغتنمتُ تلك الفرصة في استشارته في قضايا متعددة. كنتُ قد قرأتُ كتاباته، وجذبتني أفكاره التي ينشرها في أعماله، وكنتُ أدرك أنها ستفيدنا في عملنا. أذكر أنه قال لي: "أخي العزيز أحمد، أتوقع أن ينبعث نور الإسلام من الغرب لمنفعة الإنسانية." فقلتُ له: "سنحاول، سنعمل بجد ونفعل كل ما في وسعنا. لدينا الموارد اللازمة، حيث إن معظم الشباب الذين يدرسون في أمريكا شديدو الألمعية. إذا سعوا لخدمة دينهم، سيكون ذلك دَفعة هائلة لإحياء الحضارة في مجتمعات المسلمين".

كنتُ حريصاً على تحسين البيئة الفكرية الإسلامية من خلال رؤى أُناس مثل مالك بن نبي. وبناء عليه، دعوتُه للولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧١، وأعددنا برنامجاً منظَّماً اشتمل على لقاءات وندوات في عدة ولايات أمريكية، مما أتاح له فرصة تقديم أفكاره ورؤاه لجمهور كبير جداً. كما أننا التقيناه في شيكاغو، وبات ليلته وزوجته في شقتنا المتواضعة في هاموند بولاية إنديانا.

في ذلك الوقت، كنتُ قد انتقلتُ مع زوجتي للسكن في شقة مكونة من غرفة نوم واحدة (وسأتحدث باستفاضة عن هذا الانتقال لاحقاً)، كان فيها مكان للجلوس ومطبخ. جمعنا قادةَ المنظمات الإسلامية في أمريكا في هذه الشقة الصغيرة، وتشرّفتُ بهذا التجمُّع. كان هناك حوالي أربعين شخصاً رجالاً ونساء. باتت النساء ليلتهن في غرفة النوم، وبات الرجال على أرض الشقة. وخصصنا الكنبة الوحيدة لمالك بن نبي، وقال: "هذا اليوم من أروع أيام حياتي. بعثتم فيّ الأملَ". وبعد عودته للجزائر، نشر كتابه عن **دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين**. وفي الوقت نفسه، اتضح أن إنشاء منظمات الشباب في كثير من الدول العربية مهمة صعبة. فموارد الدول العربية في شمال أفريقيا محدودة، كما أن الوضع الأمني لعب دوراً سلبيّاً، لأن أنظمة حكم كثيرة كانت تمنع إنشاءها. كان الحال هكذا أيضاً في الجزائر وشمال أفريقيا والكويت ومعظم الدول الإسلامية في ذلك الوقت. وبعد بضع سنوات، كان إنشاء اتحاد الطلبة في جامعة الكويت علامة دالة على منح بعض الحريات. وفي حالة الجزائر، لعب أناس كثيرون دوراً مهمّاً في تحسين مستوى العمل المؤسسي المنضبط في البلد، من أمثال عبد الحميد بن شيكو ومحمد بوجلخة.

عرضٌ للمستقبل

في أحد الأيام سألني صديقي الطيب الشيخ عبد الله المطوع: "عزيزي أحمد، ها أنت حصلتَ على شهادة الدكتوراه، لماذا لا تبدأ حياتك الوظيفية؟" أجبتُه بأنني سأبدؤها إن شاء الله. كانت نصيحته في محلها وفي وقتها بالضبط. وأخيراً حانت لحظة إنهاء واجباتي في أمريكا وتسليم زمام العمل في اتحاد الطلبة المسلمين ومسؤولياتي لغيري، ولكن ذلك لم يكن مهمة سهلة؛ إذ كان لدينا ستة وعشرون مشروعاً مختلفاً في ذلك الوقت، مما يدل على عظم مستوى المهام وتعقُّدها. كان تسليم المهام عملية طويلة وحساسة، ولم يكن بإمكاني أن أحزم حقائبي وأرحل. ولذلك قررتُ أن أبقى في أمريكا لمدة عام أو نحو ذلك، لكي أضع خطة خروج إستراتيجية تضمن استمرار

العمل بسلاسة، وتسليمه لغيري بنظام. فشكّلتُ لجاناً لتكون مسؤولة عن كل مجال من مجالات أنشطتنا، وتعيد هيكلة العمل، وتنظِّم المهام والمسؤوليات.

في غضون ذلك، لم يتوقف ذلك الصديق الطيب عند هذا الحد، فقد أرسل لي فيما بعد ليسألني كيف سأعتني بالتزاماتي المالية بخصوص الأعمال المتواصلة، وسألني أيضاً عن المبلغ الذي سيحتاجه خليفتي في المنصب للقيام بدوره. وظيفة مدفوعة الأجر؟ كانت الفكرة جديدة. لقد قمتُ بعملي بوصفه نشاطاً تطوعياً غير مدفوع الأجر، ولم أطلب أو أستلم أي تعويض مالي من أي شخص. ولكنني لم أتوقع من غيري أن يفعلوا الشيء نفسه. وفي الوقت نفسه، واجهنا ورطة؛ إذ كان للحرية مزاياها الجليّة، فعدم استلامنا راتباً شهرياً يضمن الاستقلال عن مصدر التمويل في اتخاذ القرارات، كما كنّا نشعر بالرضا لأننا كنّا نعرف أننا نتبرع بعملنا لوجه الله. ولكن ذلك لا يعني تخلّينا عن فكرة إنشاء المؤسسات الدائمة.

لكنني لا أستطيع أن أفرض على الآخرين المبادئَ التي طبّقتُها على نفسي. كان عبء العمل ثقيلاً، ولن يكون من العدل أن يعمل غيري دون راتب شهري. ولذلك اقترحتُ مبلغ ثمانمائة دولار أمريكي بعد أن أخذتُ كل الأمور في الحسبان. وردّ الشيخ المطوع قائلاً: إنه سيدفع راتب المدير الجديد لمدة سنة. لقد كان عرضاً كريماً وسخيّاً للغاية.

في تلك اللحظة تذكرت قول النبي ﷺ: "اليد العليا خير من اليد السفلى"، والمقصود به أن يد المعطي خير من يد الآخذ. لم أشكّ في صدقه للحظة واحدة، ولكن مبادئي جعلتني أشعر بوخزة خفيفة لإدخال هذا العنصر الجديد في تكوين المؤسسة. وتذكرتُ أيضاً صوت أمي الرقيق وهي تنصحني على الدوام بلغتها التركية: "لا جعلك الله تقضي عمرك كله سعياً وراء لقمة العيش". والشكر لله سبحانه وتعالى، فلم أضطر لأن أعمل في وظيفة مدفوعة الأجر منذ أن تركتُ وظيفتي المدفوعة في جامعة الرياض في عام ١٩٨٣. ولكنني سأستفيض في الكلام عن هذا الموضوع لاحقاً.

أوروبا (١٩٧٠)

كان هناك اختلاف نوعيّ واضح بين العالم العربي وأوروبا في طريقة تنظيم المناسبات. ومن الأمثلة على ذلك مدينة هانوفر Hanover في ألمانيا. أقمنا تجمُّعين لمنظمة الطلبة المسلمين المتحدين في مقر جمعية الشبان المسيحيين في هانوفر، كان أحدهما للنساء والآخر للرجال، مما يعني أن هناك محاولات لإتاحة الفرصة للنساء لتنظيم الأنشطة وإعداد قائدات سيدعمن عمل المسلمات ويتناولن قضايا النساء، ولم تكن عندنا أموال تكفي للإقامة في الفنادق.

كانت تجربة جديدة لزوجتي الشابة، فلم تكن تعرف أية امرأة وسط النساء الموجودات، وكانت البيئة غير مألوفة لها. ومع ذلك بادرت زوجتي بالتعرف عليهن، وكان ذلك تطوراً جديداً في حياتنا، لأن العلاقات الجديدة أفادت عملنا كثيراً. وكانت أم أسامة العُلبي السورية من بين النساء اللاتي التقت بهن، وهي سيدة رائعة عاشت في الرياض بالمملكة العربية السعودية لسنوات طوال، وقد حضرن دروس تحفيظ القرآن معاً. وعمل زوجها عبد الملك العُلبي معي في تنظيم أول مؤتمر للاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية الذي عُقد في ألمانيا في عام ١٩٦٩. وبدأت النساء بالتدريج في الانخراط في الأنشطة التعليمية والاجتماعية.

كان في المؤتمر الذي حضرتُه في ألمانيا قادة شباب مسلمون من مختلف أنحاء أوروبا. ومنهم عددٌ من مؤسسي المركز الإسلامي في آخن بألمانيا في عام ١٩٦٩. وكان من بين الحاضرين أيضاً خورشيد أحمد من باكستان، وتولى فيما بعد رئاسة المؤسسة الإسلامية في مدينة ليستر Leicester بالمملكة المتحدة، وهو من وجهة نظري أفضل المدربين الشباب المسلمين في النصف الثاني من القرن العشرين. كما كان هناك قادة آخرون في المؤتمر، وناقشنا معاً تأسيس منظمة طلابية تشمل كل دول أوروبا.

وفّر المؤتمر بيئة مناسبة للنقاش والحوار المثمرين. وكانت فيه الكثير من المحاضرات واللقاءات التي اشتركت فيها قيادات الجماعات الطلابية ومنظمات الجاليات المسلمة.

وكان البنغال أكبر جالية مسلمة في المملكة المتحدة آنذاك. وكان الشيخ محمد عبد السلام رئيس المنظمة، وهو في الأصل من (سيلهت) في بنجلاديش، وتربى على يديه جيل كامل من العاملين في مجال الخدمة الاجتماعية والدعوية. كما حضر المؤتمر حاشر فاروقي، وهو مؤسس ورئيس تحرير مجلة "إمباكت مجازين" Impact Magazin التي تُنشر في المملكة المتحدة، وهو في الأصل من باكستان، وكان من كبار الكتاب المسلمين باللغة الإنجليزية آنذاك.

كنتُ أدرك أهمية خبراتي السابقة في الحياة، وكنت أريد أن أشاركها مع الحاضرين حتى يستفيدوا منها. ولذلك تحدثتُ في المؤتمر عن عملنا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقلتُ: إن هدفنا يتمثل دائماً في إنشاء مجتمع صالح ومواطنين صالحين، ولم يكن توجيهنا الروحي والتنظيمي للشباب إلا وسيلة لتحقيق هذا الهدف. وسررتُ عندما رأيتُ الحاضرين يدونون الملاحظات باهتمام، ويسألونني أسئلة أخرى عن أنشطة اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا.

لم أكن أنا المتحدث الوحيد، فقد كان معنا خورشيد أحمد، وهو من رواد العمل المجتمعي في المملكة المتحدة وحول العالم، وقد تحدث عن عمله في المؤسسة الإسلامية. وتحدث كثيرون من الشباب المسلمين النشطاء الذين وُلدوا في المملكة المتحدة عن دورهم في تأسيس المنظمات الشبابية في المملكة المتحدة. وكان ذلك يعزز المواطَنَة الصالحة كثيراً. لقد كانوا جزءاً لا يتجزأ من نسيج المجتمع البريطاني، وكانوا يفهمون احتياجات الشباب البريطانيين المسلمين منهم وغير المسلمين. كانت قدرات الشباب المسلمين ومكانتهم في المملكة المتحدة تؤهلهم لتوصيل رسالة دينهم الأخلاقية والسلمية لغيرهم. ومع تطور تلك المنظمات الإسلامية، تزايدت أعداد الناس الذين يفهمون الإسلام ويقدّرونه، ويتقبلونه بصورة أفضل.

العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية

عند وصولي مع زوجتي إلى نيويورك في شهر يوليو/ تموز عام ١٩٧٠ بعد رحلتي حول العالم، قابلني إبراهيم كيليزي، وهو رئيس اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا. كان إنساناً مجتهداً عندما كان عضواً في اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، واصطحبني وزوجتي إلى بيته، واستضافتنا زوجته بحفاوة، وهي من عائلة جمجوم من المملكة العربية السعودية. في الواقع صار بيته خلية نحل من النشاط الدائم الذي جمع شخصيات مرموقة من قادة الجاليات المسلمة في نيويورك ونيو جيرسي. كانت الاجتماعات تُعقد من الصباح حتى المساء، وكان العمل يتواصل من يوم إلى اليوم التالي. كان العمل مرهقاً، ولكن جهودنا التراكمية كانت تستحق ذلك العناء، فقد حققت نتائج رائعة.

ثم ذهبتُ إلى سينسيناتي Cincinnati في ولاية أوهايو. وهناك قابلتُ أخي وصديقي القديم هشام الطالب وأسرته. وكنتُ قد طلبتُ منه قبل ذلك أن يساعدني في استئجار شقة. وهكذا انتقلتُ في الوقت المناسب إلى أول بيت تم تأثيثه قبل وصولي بتكلفة بسيطة مقدارها مائة دولار أمريكي. يراها الآخرون شقة صغيرة وبسيطة، ولكنها كانت قَصْراً في نظري، وكنتُ سعيداً بأنني ملك في "قلعتي". ليس البيتُ طوباً وإسمنتاً، بل هو أناسٌ، وحبهم ومشاعرهم تجعل البيت بيئة سلام لكل المقيمين فيه، وملاذاً من عالم خارجي يزداد تعقُّده باستمرار. وكان ذلك البيت هو عش الزوجية الذي أحلم به. ولذلك قلتُ لنفسي: "يا أحمد، رزقك الله بزوجة هي نصف دينك. يا رب، وفّقني في نصف ديني الآخر. ثم سألتُ زوجتي: "يا ميسون، هل أنت راضية؟" فردّت عليّ قائلة: "نعم راضية يا أحمد". وكانت إجابتها تغنيني عن الدنيا كلها، فسعادتها سعادتي.

استأجر هشام شقيق زوجتي الشقةَ لي بإيجار شهري قدره مائة وثلاثون دولاراً أمريكيّاً، وهي مخصصة لمحدودي الدخل، تتكون من غرفة نوم وغرفة جلوس وحمّام. واشترىٰ لي هشام بعض الأثاث المستعمل بمائة دولار أمريكي من زميل كان سيرحل عن المدينة. وقام عامر إسماعيل الطالب ابن عم زوجتي بإصلاح الأثاث جيداً. جزاهم الله خيراً. وأمدني ذلك المسكن المتواضع أنا وزوجتي بالسعادة والسلام والسكينة.

من سينسيناتي إلىٰ مدينة جاري في ولاية إنديانا

في عام ١٩٧١، قضيتُ حوالي ستة أشهر في سينسيناتي. وفيها توليتُ مسؤولية وضع خطة إستراتيجية لتطوير عملنا وتوسيع خدماتنا المجتمعية وتنظيم شؤون الجالية المسلمة. وفي تلك الشهور، تزايد عدد أفراد الجالية المسلمة، ومن أسباب ذلك دخول أشخاص جدد في الإسلام. وفي الوقت نفسه، صار للجالية دافعية أكبر ووعيٌ أفضل بحقوقها ومسؤولياتها. وكان من المهم أن نؤلف بين المسلمين الجدد ومجتمع المسلمين من حولهم، كما ألّف الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار. فقد سادت روح الإحسان والتراحم عندما أدخل الأنصارُ المهاجرين بيوتهم كما لو كانوا عائلاتهم الحقيقية، وشاركوهم كل ما عندهم، فآووهم وأطعموهم، ووفروا لهم مستلزمات الحياة الأخرىٰ.

فيما بعد قضيتُ وقتاً في مسجد الأمين في مدينة جاري Gary بولاية إنديانا، إذ صار هذا المسجد أول مقر لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا. اخترتُ أن يكون مكتبي في مسجد الأمين بعد أن غادرتُ هشام الطالب وأسرته في سينسيناتي. لقد فوضتُ العمل لزملائي ووزعتُه عليهم، واستأجرتُ شقة في مدينة بالقرب من مدينة جاري اسمها هاموند Hammond، وتقع في شمال ولاية إنديانا أيضاً. ونقلتُ أثاثي المستعمل إلىٰ تلك الشقة، علىٰ عربة مستأجرة من يوهول UHall قادها هشام.

أظن أن وجودنا وأنشطتنا في مسجد الأمين كان له أثر إيجابي في عملنا، فقد كان هناك متسع في المكان يأكل فيه الضيوف ويستمعون إلى المحاضرات، كما خصصنا جزءاً من المسجد للنساء، واشترينا مائتي بطانية ومائة وسادة مستعملة بسعر مائة وعشرة دولارات، وأرسلناها للغسيل والتنظيف، وهكذا وفرنا مكاناً لاستضافة الناس وإقامتهم على سجاد أرض المسجد.

أسسنا مقرنا المتواضع بميزانيات صغيرة جداً. ولكنني لا أعتقد أن أي مسلم سيتحجج بقلة الموارد ويمتنع عن القيام بالأعمال الصالحة. إن الله القدير يبارك في الموارد المحدودة ويزيدها بإذنه. لقد كانت تلك الأَسِرَّة المتواضعة مباركة، وكل شخص ممن يشاركون في هذا العمل في أمريكا قضى ليلة على الأقل في المسجد وتغطى ببطانية من تلك البطانيات.

يؤسفني أن أقول: إن الجرائم كانت متفشية آنذاك، وإن القتل الجماعي لم يكن نادراً. ولذلك لم يكن من المستغرب أن يجد من يسير في شوارع مدينة (جاري) جثة ملقاة هنا أو هناك. إنه أمر يؤذي المشاعر، ولكن ذلك كان حالَ حيٍّ من أفقر أحياء الأمريكيين من أصل أفريقي في البلد آنذاك. الكثير من المدن مثلها مبنية حول مشروعات صناعية هي بمثابة مصدر التوظيف الأساس، وحياة الناس المعيشية فيها معرضة للخطر، فما أن تغلق تلك المشروعات الصناعية أبوابها، تتضرر قطاعات كثيرة من الناس اقتصاديّاً. وكانت مدينة (جاري) تعتمد على مصانع الحديد والصُّلب، وعندما أُغلقت تلك المصانع، قلّت فرص العمل كثيراً. وكما هو متوقع، غادر الكثيرون من الناس المدينة، ومعظمهم مسلمون، وتم إنشاء مسجد الأمين أساساً بقرض من البنك كانت أقساطه ما زالت متأخرة، وللأسف حجز البنك على المسجد وملحقاته وعرضه للبيع.

كان الوضع خطيراً، ولذلك بدأنا في جمع التبرعات، وتقديم الالتماسات لكل الجهات. وفي النهاية، تبرع الملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية، بالمال الكافي لسداد القرض. وآلت ملكية المسجد للوقف الإسلامي في أمريكا الشمالية. وتم

تسجيله كوقف حتى نتفادى المشكلات القانونية في المستقبل. فالوقف لا يمكن بيعه إذا أراد أي شخص في الجالية المحلية أن يبيعه. كان مسجد الأمين مسجداً متوسط المساحة وبحاجة إلى ترميات، ولذلك قُمنا بترميمه. وسرعان ما صار خلية نحل من النشاط، وصار مكاناً يشع نوراً يجذب الأتقياء، كما خططنا له بالضبط.

فَجر جديد

لكن المكان الذي يقع فيه مسجد الأمين كان خطيراً، وعادة ما كان الشباب يقومون في هذا المكان بأنشطة إجرامية، ولا عجب في ذلك، فقد نشأوا في عنف وفقر وظروف بائسة. كانوا يقذفون الحجارة على النوافذ، ويرمون القمامة على المنازل. كانوا ساخطين جداً بسبب بؤس حياتهم ومستقبلهم المسلوب منهم، وضلّلهم غضبهم، وحوَّلهم يأسهم من مستقبل حياتهم المحتوم إلى مستبدين يمارسون السيطرة من خلال أعمال العنف. كان مستقبلهم الضائع ومصيرهم المجهول ينعكسان في عيونهم، وأدركنا أنهم في حاجة إلى المساعدة، لا إلى الانتقاد. لم نخشَهم أو نضع الحواجز بيننا، لأن ذلك سيمنعنا من أن نلقي لهم طوق النجاة.

دعونا الله، وأرشدنا إلى الطريق الصحيح. وتجرأتُ ودعوتُ الأطفال للمسجد لتناول الغداء، وأظهرتُ لهم عطفاً تاماً ربما لم يحسوا به في حياتهم من قبل. كانت ورطتهم تبدو مستعصية، وفجأة وجدوا أنفسهم أمام طريقة أخرى للنظر إلى الحياة. قامت ميسون، بارك الله فيها، بتجهيز الطعام لأربعين طفلاً. وتحدثتُ معهم، وحاولت أن أجعلهم يشعرون بأن هناك من يرحب ويعتني بهم. وأذكر من بين ما قلتُه لهم: "أنتم جيراننا، ونحن نعتز بكم. في الإسلام، الجيران لهم حقوق. أنتم شبابٌ حقيقيون، وأودُّ أن تكونوا مسؤولين عن الاعتناء بالمسجد. هل أنتم مستعدون؟" كنتُ أسعى لأن أرشدهم وأجعلهم يحسّون بقيمة أنفسهم. فالله وحده يعلم فظاعة الانتقادات التي وُجّهت لهم من قبل.

وافقوا، وكنّا صادقين، لأننا كنّا في حاجة إليهم فعلاً. فكان لا بدّ من إرسال النشرات بالبريد، ومن التأكد من عدد الأوراق وترتيبها في النشرة، ومن تجهيز العناوين التي ستُرسل إليها، ومن وضع النشرات في المظاريف باليد وإغلاقها. عرضتُ عليهم وظيفة في المسجد مقابل دولار في الساعة. وكان ذلك راتباً كبيراً لشخص صغير في عام ١٩٧١، وشرعوا في القيام بما هو مطلوب منهم. لقد انخرطوا في عمل مثمر ينمّ عن استعدادهم للتغيُّر. واختلف هذا الواقع اختلافاً كبيراً عمّا كانوا عليه من قبل، وكنّا نهدف إلى أن نعطيهم الإحساس بعزة النفس، ونتيح لهم فرصة استعادة تقديرهم لأنفسهم واستعادة كرامتهم حتى يبدؤوا بالتدريج الخطو على طريق التعافي، وهو تعافٍ ذو طبيعة أخلاقية.

بعد ذلك بفترة، وجدتُ جماعة من الرجال والنساء بباب المسجد يسألون عنّي. كانت ملابسهم تنمُّ عن فقرهم. خرجتُ لمقابلتهم، وبدأوا يشكرونني. كانوا آباء الصغار الذين أخذناهم تحت أجنحتنا. تأملتُ وأنا أسمعهم يعبّرون عن تقديرهم لما وصفوه بأنه تحوُّل في حياة أطفالهم. فبدلاً من التسكُّع وارتكاب الأعمال المشينة، استقام هؤلاء الأطفال وبدأوا في التصرف بطريقة محمودة. لقد منحناهم الأمل عندما كان مستقبلهم مظلماً. والعجيب أنهم جاءوا للصلاة في وقتها. طلبنا منهم الذهاب إلى الوضوء، وقاموا بذلك وتوضأوا بالفعل. وكنتُ فخوراً بسرعة تعلّمهم. وبذلك صار المسجد مركز إصلاح يوفر للأطفال أكثر شيئين يحتاجون إليهما: الحب والعطف. تخيلوا لو اتبعت كل مساجدنا هذا النهج! سيكون لها أثر عظيم في هداية الشباب الذين يواجهون ورطات مماثلة.

ثمار الرِّفق

بعد ذلك، لم يحدث أي هجوم على المسجد، فلم يهجم أحد على نوافذه أو أشجاره أو زوّاره أو السيارات. وصارت المنطقة السكنية مأوى هدوء وجمال. بالطبع لم يرجع إصلاح هؤلاء الأطفال فقط إلى الراتب الذي نعطيه لهم أو الصبر والرفق اللذين أظهرناهما لهم. أعتقدُ أن ذلك كان بسبب رحمة الله سبحانه وتعالى ومشيئته بهدايتهم.

ويسعدني أن أقول: إن كثيراً من أولئك الأطفال اعتنقوا الإسلام، واعتنقت بعض أسرهم الإسلام أيضاً. وصار أحد هؤلاء المسلمين الجدد إماماً للمسجد فيما بعد، وحصل آخر على منحة للدراسة في المدينة المنورة بالمملكة العربية السعودية.

لاحقاً أتيحت لابنتي إلهام أن تلتقي بابنة هذا الإمام الراحل في فيرجينيا ذات يوم. وقالت لإلهام: إن والدها كان يتكلم كثيراً عن "الأخ أحمد". فسألتها ابنتي: "وماذا كان يقول؟" فأجابتها قائلة: "الأخ أحمد ساعده وأرشده كثيراً".

إن المجتمع لا يصير صالحاً بالصدفة. فلا بد من تعليم المبادئ الروحية الأخلاقية، وينبغي أن تقوم معاملاتنا بوصفنا بشراً على الاحترام والأعمال الصالحة. فلا مجال للمداهنة في الحياة، وعلينا أن نطبق في حياتنا المبادئ التي ندعو إليها، وعلى أعمالنا أن تكون انعكاساً للخير الذي نطالب به غيرنا. الله سبحانه وتعالى يحفز سلوكنا في القرآن الكريم بالثناء على الأعمال الصالحة، ويعدنا بجزاء عظيم على هذه الأعمال في الدنيا والآخرة، فقال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] ويطمئننا في سورة الشرح بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، مما يرفع من تقديرنا لذاتنا ويشجعنا على أن نسعى لننال رضاه. فماذا سنكون إذا كان رد فعلنا عنيفاً تجاه غيرنا ولم نستطع أن نمد لهم يد الرحمة التي يمدها الله لنا؟ تخيلوا ما الذي كان من الممكن أن يحدث لو استدعينا الشرطة لمطاردة الأطفال الذين كانوا يحاولون إتلاف مسجدنا؟ كيف سيكون مصير مستقبلهم لو كنتُ السبب في القبض عليهم؟ هل كان بالإمكان تحقيق النتائج الإيجابية نفسها؟ هل كانوا سيصيرون أناساً أفضل؟ قال رسول الله ﷺ: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه".

مدارس الأَحَد

سألتْنا بعض الأُسر إن كان بإمكانهم أن يرسلوا لنا أطفالهم ليتعلموا الإسلام. ولذلك أنشأنا مدارس الأحد لأطفال المسلمين وحلقاتِ دَرس للبالغين من الرجال والنساء. وتطوع بعض المسلمين الجدد للعمل في المسجد، وتوكلنا على الله، وبدأنا

برامج تعليمية. وكنّا مؤمنين بأن العمل سينمو ببركة الله. وأعتقد أنه ما أن تُعقد النية الصالحة، حتى تنطلق المشروعات. وإذا اجتهد الجميع بما فيه الكفاية بنظام وإخلاص، فإن هذه المشروعات ستتكلل بالنجاح.

عندما رسختْ أمورنا، صار المجتمع يألف أعمالنا أكثر فأكثر، وتزايدتْ أعداد من يجيئون للمشاركة في أنشطتنا تزايداً سريعاً. وجاءت للمشاركة أُسَر من شيكاغو، وهي تقع على مسافة ساعة بالسيارة، دون أن يمنعهم طول الطريق أو السمعة السيئة المرعبة التي تشتهر بها الأحياء المجاورة لمدينة جاري. فقد كانوا يقدّرون المسجد وأنشطته، وكانوا يأتون ويعملون ويكوّنون علاقات اجتماعية، مما أنشأ كثيراً من الأواصر الوثيقة بينهم وبين المتطوعين. وكنّا سعداء بذلك للغاية. وكان المستجِدُّون يستفيدون من خبرات القدامى في عملهم.

كان عملنا في حاجة ماسة إلى النمو والتجديد الفكريين، وكان لا بد أن نستغل التطورات الحديثة. ورحّبنا بالأفكار الجديدة، وبحثنا عمّن يستطيع أن ينفّذها، وتابعنا تطورها عن كثب. وبذلك استطعنا أن نشكّل جماعة من الناس رأيناهم "متقدمين فكريّاً"، وكان بإمكان تلك الجماعة أن تقدم أنشطة للعاملين في مجال الخدمة المجتمعية والدعوية، وهي أنشطة كانت متجانسة تماماً مع البيئة والثقافة الأمريكيتين.

ثم بدأنا في التمييز بين أعمالنا بناءً على الفئة الموجهة لها هذه الأعمال: أساتذة جامعات، طلاب، المجتمع بوجه عام، صانعو القرار، المسلمات، إلخ. كما ركزنا من جديد على السجون. واتخذ هذا العمل طابعاً مؤسسيّاً باطّراد. وكنتُ سعيداً بإيقاع العمل، وسُررتُ بانفتاح آفاق جديدة لتطوير عملنا ونقله إلى مستويات أعلى.

كانت هناك العديد من الأعمال الجيدة يتم القيام بها في الولايات المتحدة الأمريكية، مما أحدث تحولات في حياة الناس، وبث طاقة جديدة في الجاليات. كما كانت هناك مشروعات قيد التنفيذ تعزز الإيمان والمواطنة الصالحة والأخلاق. وفي الوقت نفسه،

كانت الرياح تهب دائماً من الشرق، وتُذكّرنا بأصلنا الروحي. نعم، كانت نعمة عظيمة أن نرىٰ عنايتنا بصلاح الناس روحيّاً وعلىٰ مستويات أخرىٰ تتجسد أمام أعيننا، أو حتىٰ تمتد لتطور علاقات اجتماعية مفيدة متبادلة، ولكن قلوبنا كانت تشتاق لمكة. فهي الحبل السُّرِّي الذي لا ينقطع. وكما يولّي كل مسلم وجهه قِبل مكة في الصلاة، فهكذا قلبه يظل معلقاً بها علىٰ الدوام.

كان خادم الحرمين الشريفين آنذاك هو الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، وكان منقطع النظير. فقد تبنّىٰ سياسة تحديث وإصلاح، وحكم في الفترة من عام ١٩٦٤ إلىٰ عام ١٩٧٥، وللأسف تم اغتياله في عام ١٩٧٥. كنتُ أُجِلُّه وأُقدِّره. وكان يهتم باحتياجات المسلمين، وكان يتكلم بفطنة عن وحدة المسلمين وتجمعهم تحت راية واحدة منذ عام ١٩٦٥، وكان بوجه عام رجلاً ذا عقلية ورؤية. ولا يمكن الحكم علىٰ شخصية إنسان إلا بالإشارة إلىٰ أعماله، والملك فيصل قام بكثير من أعمال الرِّفق، وبناء عليه حظي باحترام لا يحظىٰ به كثيرون من الحكام العرب في العادة. كانت هناك موارد كثيرة تحت تصرفه، ولكنه كان عقلانيّاً في التعامل مع المال، فكان ينفقه بحكمة علىٰ الأعمال الخيرية وبناء المساجد وغيرها من أعمال الخير. ولم يفعل ذلك بداعي التظاهر؛ فمن وجهة نظري كان ما يقوم به ينم عن طابع أصيل يدعوه لفعل الخير. ولذلك تخيلوا مدىٰ فرحتنا عندما عرفنا أنه علىٰ وشك أن يقوم بزيارة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية. لقد كنتُ أشتاق جداً لاغتنام فرصة لقائه.

كانت الزيارة مهمة، وكان الملك فيصل سيحل ضيفاً علىٰ حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن عمدة نيويورك رفض أن يقابله، مما تسبب في إحراج ومخالفة للبروتوكول. ولكن الأمور هدأت بسرعة عندما وصل الملك والوفد المرافق له إلىٰ باتري بارك Battery Park، وتم فيه إعداد مجلس لاستقبال الضيوف، وكان من بينهم ممثل أمريكا في الأمم المتحدة ومائتا شخص من الدبلوماسيين في الأمم المتحدة وغيرهم من الشخصيات المرموقة.

بدأنا في البحث عن طريقة للقائه. وتواصل أحد الأعضاء مع السفارة السعودية في واشنطن العاصمة، وأبلغها بأن وفداً من اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا يرغب في لقاء الملك فيصل في نيويورك. ورحبت السفارة بالفكرة وباستقبال وفد صغير. وكنتُ بين أعضاء ذلك الوفد. وفجأة وجدنا أنفسنا في طريقنا للقائه. سعد بوصولنا، وعرَّفناه بأنفسنا وبعملنا. كنّا متوترين قليلاً، ولكن قلقنا تبدّدَ لأن لطفه جعلنا نشعر بالراحة، وكانت تبدو عليه علامات الإنصات باهتمام. وأعتقد أنه أحب طريقة تفكيرنا وأسلوب عملنا ورؤيتنا في نشر الأخلاق والقيم والمواطنة الصالحة، والحفاظ على الدين وهوية الطلاب المسلمين، وقيامنا بتعريف جمهور أوسع على الإسلام بطريقة سلمية. وقلنا: إننا وفد يمثل طيفاً كبيراً من الدول من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ونساعد الطلاب القادمين للدراسة في أمريكا على وجه الخصوص.

تكلم الملك عن الإسلام والصراعات الجارية السائدة في العالم العربي والإسلامي، وعبّر عن إعجابه بالعمل الذي كنّا نقوم به، وعن التزامنا القوي. وعلى الرغم من جدوله المشغول للغاية وكونه صاحب مقام ملكي، فقد تحدث قرابة نصف الساعة. وقد لامسني موقفه هذا، وخفف من خجلنا؛ إذ لم يملّ من وجودنا. ولم ينته اللقاء إلا عندما قال المسؤولون بأدب إن الوقت قد حان لإنهاء النقاشات. فقلتُ للملك: "يبدو أن المسؤولين يعتقدون أننا استغرقنا وقتاً طويلاً". ورد بلباقة شديدة، قائلاً: "لا تقلقوا"، ثم سألنا بسماحته عمّا نحتاجه. وأعتقد أنه تأثر بإجابتنا: "نحن لسنا هنا لنطلب شيئاً. فقد جئنا لنتشرف بوجودنا في صحبة جلالتكم، ولننتهز الفرصة لتحيّتكم".

لكن أحد زملائنا أضاف قائلاً: "هل من الممكن أن أطلب شيئاً، ولم أتشاور مع زملائي فيه؟ الحكومة المصرية تضغط على الطلاب المصريين الذين يمارسون أمور دينهم. وأحد زملائنا واسمه سيد دسوقي حسن من كبار العلماء في هندسة الطيران في أمريكا، وحصل على مرتبة الشرف في كل المقررات الدراسية في جامعة ستانفورد Stanford University، وأُلْغِي جواز سفره لأنه أعلن قائلاً: "الله ربي". فندعو الملك فيصل قائلين "وا فيصلاه"، مثلما قال السابقون: "وا إسلاماه"".

في الحال استدعى الملك فيصل سيادة أحمد زكي يماني، وأمره بإصدار جواز سفر سعودي لسيّد، كما قال أيضاً إذا كان سيد يريد أن يعمل في المملكة العربية السعودية فهو على الرحب والسعة. كشفتْ هذه البادرة عن الملك فيصل الإنسان، فلم يسمح للثروة أو الألقاب أو النسب الملكي أن تصيبه بالغرور؛ إذ كان قادراً على أن يتعاطف مع شخص لم يقابله في حياته. قَبِل سيد هذا الشرف، وانتهى به الأمر نهاية سعيدة، فذهب للعمل بالتدريس في جامعة الملك سعود (جامعة الرياض سابقاً).

كان زميلنا في جامعة ولاية بنسلفانيا عبد الرحمن آل الشيخ قد جهز هدية لتقديمها للملك باسم اتحاد الطلبة المسلمين. وكانت عبارة عن خنجر فخم للاحتفالات، وأضفنا له بعض منشوراتنا، وتكرم الملك بقبول الهدية، ودعا لنا جميعاً.

أتذكر ذلك اليوم بإعزاز وإجلال، فقد تركت فينا فصاحة الملك فيصل وعلمه وهيبته وسماحته أثراً لا يُمحى، ولا يمكنني أن أنساه ما حييتُ.

فيما بعد كرّمَنا الملكُ فيصل بمعروف آخر، فقد عرفت من زميل كندي أنه كان هناك صراع بين مجلس إدارة المسجد الكبير في تورونتو، وهو من أقدم مساجد كندا. وأدّى ذلك الصراع إلى اتخاذ قرار ببيع الجامع بشرط ألا تُباع إلى شخص مسلم. وأتذكر أنني كنتُ أدعو الله في هدأة الليل أن ينقذ المسجد. وكنتُ أعرف من داخلي أنه لا يوجد شخص آخر غير الملك فيصل باستطاعته أن يفعل ذلك. وفي شهر أبريل/ نيسان من عام ١٩٧١ شرعتُ في رحلة إلى جدة بالمملكة العربية السعودية. ورتب لي بعض الإخوة لقاء مع الملك بخصوص القضية. وعندما قابلتُه، ذكّرتُه بلقائنا السابق في مدينة نيويورك. قال لي بلطف: "أتذكرك. أنت ابني". وتكلمتُ عن مسجد تورونتو، فقال ببساطة: "ما المبلغ المطلوب؟". فأجبتُه بجسارة: "ثلاثمائة وثلاثون ألف دولار"، فوافق وتم إنقاذ المسجد في الوقت المناسب، وآلت ملكيته في الحال إلى الأوقاف الإسلامية بأمريكا الشمالية. لقد ترك ذلك أثراً قويّاً في الجالية المسلمة في ذلك الوقت، وكان عملاً عظيماً آخر يُضاف إلى إنجازات الملك فيصل رحمه الله، ذلك الرجل العظيم الذي ضرب لنا مثلاً يُحتذى به.

وصرتُ أباً

حملتْ ميسون. ومثل كل الآباء الذين يتوقعون ولادة أطفالهم، كان جزء مني لا يصدّق أنني سأصير أباً، وجزء آخر يشعر بسعادة بالغة، وجزء ثالث في قمة التأثر. أنا سأصير أباً! بدأتُ أستوعب الأمر بالتدريج. واصلتُ عملي في مدينة جاري في المسجد، لكنني كنتُ أستعد ذهنيّاً لتوسيع عالمي الصغير ليشمل ثلاثة أشخاص بدلاً من شخصين. لا يوجد شيء يجهز المرء تماماً لهذه اللحظة إلّا عندما يصير أباً فعلاً. فوجدتُ نفسي أسارع بميسون إلى المستشفى في عربة إسعاف في صباح يوم من أيام رمضان في عام ١٩٧١، ولم يطل بي المقام وأصبحتُ أباً والحمد لله. وُلد لي ابنٌ وأسميناه محمداً.

هكذا كان القدر، ففي وقت الولادة كان من المقرر أن ألقي محاضرة عن الإسلام في كنيسة الجامعة في جامعة كورنيل في إيثاكا بنيويورك Cornell University. وكان يحضرها خمسة آلاف شخص. ومع أنني كنتُ أودُّ من داخلي أن أبقى مع زوجتي، فإنني اضطررتُ لتركها في غرفة الولادة والسفر بالطائرة لإلقاء المحاضرة. ودعوتُ الله أن يساعد زوجتي العزيزة الأم الجديدة في ولادة طفلنا الغالي مصدر فخرنا وسعادتنا.

أمريكا: الوطن الجديد

بعد تفكير، خططنا لفكرة "أمركة" عملنا في أمريكا. طلب كثير من زملائنا الملتزمين إقامة دائمة في أمريكا من خلال الحصول على تلك البطاقات الخضراء المشتهاة. فبعد العيش في الولايات المتحدة لمدة خمس سنوات متواصلة، كان يحق لهم التقدم للحصول على الجنسية الأمريكية. كانت أمريكا آنذاك بلداً مفتوحاً، وكانت هناك قيود قليلة على ما يمكن للمرء أن يفعله في قواعد البلد وقوانينها. وكانت الجالية المسلمة آنذاك صغيرة أيضاً، ولم تكن تحت الأضواء كما هي الآن.

في الواقع، كنّا نعيش في أمريكا في حرية تامة. ولذلك كنّا نعتقد أن المرء ينبغي أن يكون منتمياً لبلد المواطنة. كما كنّا نشعر بأن هذا الانتماء لا بد أن يكون أصيلاً، وذلك من تعاليم الإسلام؛ فالمسلم الصالح لا بد أن يكون مواطناً صالحاً أيضاً. ونادراً ما كانت الدول العربية والإسلامية في ذلك الوقت تمنح الجنسية للغرباء، ولكن أمريكا كانت كريمة في منح الجنسية.

علاوة على ذلك، كانت أبواب أمريكا مفتوحة لأي شخص اختار أن يستخدم طاقته في البحث العلمي أو العمل الدعوي وبين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣، قرر كثير من الشباب أن يحصلوا على الجنسية الأمريكية، لأنهم شعروا بأن الآفاق ستكون أوسع أمامهم، وأنّ الفرص ستكون مفتوحة لهم بعد الحصول عليها. فخططوا للبقاء في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل التفاعل مع المجتمع الأمريكي، وإثبات وجودهم في تلك الدولة البعيدة، فكانوا يشعرون أنها تهتم بهم وبالأمريكيين وبالبشرية جمعاء. كان هناك حب حقيقي لأمريكا، وكانت روح "الحلم الأمريكي" مفتوحة لكل المجتهدين. كانت العلاقة النوعية بين الولايات المتحدة الأمريكية والإسلام في تحسُّن، وكانت أعداد كبيرة من الناس تعتنق الإسلام، وكان ذلك الوضع سارياً منذ الستينات من القرن العشرين.

ربط العلاقات

زودتني رحلاتي الكثيرة حول العالم، التي كانت تعود بي إلى أمريكا، بفرصة الاحتكاك المباشر وفهم كثير من المشكلات التي يواجهها المسلمون حول العالم. وأدركتُ أن هذه المشكلات تبدو في العادة مختلفة، ولكنها كانت مترابطة أيضاً في هياكل متشابهة لا بد من التغلب عليها. ومع أن اهتماماتنا -بوصفنا طلاباً- بدأت بالأحوال المباشرة التي واجهتنا في بيئاتنا الجديدة، فإن طلاباً آخرين في بلدان أخرى واجهوا مصادر قمع أكبر أدّت إلى تهميشهم، فأثّرت الأيديولوجيات السائدة آنذاك

في مواقف الدول الإسلامية وغير الإسلامية في الطلاب المقيمين. كانت الحكومات تخشى من هذا التطور الفكري عند المسلمين. ومن الواضح أنه كانت هناك حاجة إلى تنمية وعي المسلم بدينه في تلك الدول كلها. وكان مستوى فقر بعض المسلمين يفوق خيالي، وأضاف مستوى جديداً لعملنا.

تمكنتُ من خلال أسفاري وزياراتي من أن ألتقي أناساً لا يُنسوْنَ، جمعهم الصراع المشترك بقدر ما جمعهم الشغف المشترك بخدمة دين الله والإنسانية. وساعدتنا النقاشات معهم على أن ندرك بوضوح الحاجة إلى التطور والتجديد الفكريين بوصفهما الخطوة التالية التي ينبغي علينا اتخاذها في عملنا، فجمّعنا الموارد لتلبية احتياجات المسلمين في مختلف الأماكن حول العالم.

اتضح لي كيف أننا بدأنا في الواقع نعمل بصفتنا شخصاً واحداً، فكنّا نتطور على الدوام من خلال تحسين إستراتيجياتنا وتفانينا الذي لا يكلُّ. وما كنّا سننجز ذلك لولا التزامنا بمبادئ أساسية: التعاون في العمل، والتقوى، والإيمان بحكمة الله سبحانه وتعالى، والتزامنا بتنمية حكمتنا، وتنمية أنفسنا مهنيّاً وقياديّاً، والسعي لخدمة غيرنا دون انتظار الجزاء، والالتزام بالشورى وروح الفريق.

وأخيراً، أود أن أعبّر عن سعادتي في هذا السياق أنني أكملتُ "نصف ديني"، بزواجي من الفاضلة ميسون، فقد كان دعمها المستمر لي من المبادئ والقيم الأساسية التي ساعدتني على رفع مستوى الروح المعنوية لإنجاز العمل وتلمُّس أسباب النجاح القائمين على الإيمان.

الفصل السادس

شق درب جديد

"إن التقوىٰ المنشودة ليست مسبحة درويش، ولا عمامة متمشيخ، ولا زاوية متعبّد، إنها علم وعمل، ودين ودنيا ، وروح ومادة ، وتخطيط وتنظيم، وتنمية وإنتاج، وإتقان وإحـسان"

أبو الحسن الندوي

ما زلتُ شابّاً، وكانت سنوات العمر أمامي، ومع ذلك كنتُ أشعر بأني شيخ، لا في السن ولا في الوهن، بل بنصيب من نضج الشخصية الناتج عن التجارب الغنيّة والمتميزة التي عشتُها في فترة قصيرة من الزمن، وهذا مصداق لقول أبي حمزة الشاري حين عيَّروه بأنَّ أصحابه شباب، فقال: "شباب والله مكتهلون في شبابهم"؛ أي قوة الشباب وخبرة الشيوخ. فنادراً ما كنتُ أبتعد عن الآخرين ولا يكون ذلك إلا عندما أكون منهمكاً في الدراسة، ونادراً ما كان يمرُّ عليّ يوم دون أن أقدم نصيحة صادقة، أو أبذر بذرة مشروع أو آخر، أو أنشر الدين من خلال أفعال متعددة من العمل الخيري والمجتمعي. ومع أنني حاولتُ جاهداً أن أرى العالم بوضوح كبير في الرؤية، بدأتُ أتعثر؛ إذ كنتُ أصارع مشاعر جياشة ترفض أن تخمد، وهي مشاعر تدور حول طريقة تكييف حياتي في الولايات المتحدة الأمريكية على تربية ابني، وربما أطفالي الذين سيولدون في المستقبل. كنتُ أباً، وكان ذلك العبء وتلك المسؤولية كبيرين، وكانت نقطة محورية في حياتي، فعندما كنتُ أنظرُ في عيني ابني الوليد البريئتين الرقيقتين وأحدّقُ فيهما، بدأت مجموعة أخرى من الأولويات تظهر لي.

اغتبطتُ بنعمة الأبوة الفاتنة، وحمدتُ الله على النِّعم التي لا تحصى، وعلى الشغف بالإيمان والمعرفة اللذين امتلكا عليّ كل حواسي فدفعاني للترحال في مختلف الأماكن طلباً لرضا الله. ولا شك في أنَّ نعم الله تدوم بالشكر، وتزول بالكفر والجحود. إن السجود لله وشكره على نعمته لا ينحصر في مكة المكرمة، ويمكن للمسلم أن يسجد لله ويشكره في أي مكان يوجد فيه، ولذا خطر لي أنه يمكنني أن أعمل في سبيل الدين في أي مكان أذهب إليه؛ لأن العمل كبير وذو طبيعة عالمية، فالدعوة لا تنطفئ شعلتها، وينبغي مواصلتها على الدوام في أي مكان.

كان والداي يشعران الشعور نفسه، وإن كان من منظورهما الحامي، فكانا يرغبان في الحفاظ على هوية أحفادهما وجعلهم يعيشون جمال تقاليدهم الثقافية والإسلامية الشرقية. دعا والدي بذلك، واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعائه. فبقدر ما كنتُ أحب أمريكا ودفء شعبها وطبيعته المرحِّبة، قضيتُ سنوات بعيداً عن المشرق العربي،

وشعرتُ في ذلك الوقت باللمسة الرقيقة لنسيم الصحراء الذي يناديني للوطن. بالطبع كنتُ أتمزق في داخلي، فكنتُ أتفهّم احتياجات الجالية المسلمة في الولايات المتحدة الأمريكية جيداً أنا وزملائي لدرجة أنني كنتُ كارهاً لأن أتركهم، إذ كنتُ أشعر بأننا وضعنا أقدامنا في بداية الطريق فقط، على الرغم من كل ما أنجزناه، وبأنَّ الخطة الأوسع للعمل القائم على الإيمان تقتضي أن أبقى في أمريكا.

إذا نحينا المشاعر الشخصية جانباً، سنجد أن القرآن يحثنا على الالتزام بمبدأ جميل عندما نحتاج إلى أن نصل إلى قرار في أمر ما، وكنتُ أتّبع ذلك المبدأ على الدوام، وهو مبدأ الشورى، وبموجبه يتناول المسلمون قضية ويفككون عناصرها، ثم يجمّعون هذه العناصر من جديد من خلال النقاش الصحي الجماعي، مما يبدد القلق والخوف، ويسمح بوضوح الفكر دون أن تؤثر فيه النزعة العاطفية المفرطة التي تحجب صحة الرأي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. إن مفهوم الشورى يسري على العائلة كما يسري على أمور البشر بوجه عام، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم غير ذلك. ولذلك، عند تناول قضية كبرى تتطلب اتخاذ قرار مصيري، فإن تشاور المرء مع زوجه وعائلته يضمن مستوى توافق ونتيجة يقبلها الجميع، ومن ثمَّ على الأرجح أن يُكلل القرار المتخذ بالنجاح.

توافق قراري مع قرار والديّ، وأراحني ذلك كثيراً وطمأن قلبي. ذلك لأنني أحب والديّ كثيراً ولم أرغب في أن أفعل أي شيء لا يرضيهما، وكنتُ أمتثل لأوامر خالقي وأرغب في أن أنال رضاه بتحقيق رغباتهما ومعاملتهما بالمعروف. ومع تشعُّب دروب حياتنا وسيرنا في اتجاهات بعيدة عن حضن الحماية في بيت والدينا، سيسهل جداً أن يتحوّل والدانا إلى شيء ثانوي في حياتنا، ولم أكن أريد أن أقع في هذا الفخ أو أعتاد على هذه الطريقة في التفكير. ولذلك كان التشاور معهما في أموري الشخصية وأمور أسرتي يطمئنهما بأنهما جزء كبير من حياتي لا يمكن الاستغناء عنه.

كانت عودتي إلى المشرق العربي ترجع إلى عام ١٩٧٠، وهو العام الذي تزوجتُ فيه وارتحلتُ في أسفاري الكثيرة.

ليبيا

ليبيا الآن مجرد أطلال، ليبيا التي كانت في يوم من الأيام سفينة شراعية كبيرة تزهو بنفسها صارت الآن حطاماً، ونُهِبَتْ خزائنها، ومات ربّانُها، الذي ينظر إليه كثيرون على أنه دكتاتور، وينظر إليه بعضهم على أنه بطل. إن إرث معمّر محمد أبو منيار القذافي (١٩٤٢-٢٠١١) يتحدث عن نفسه. وعلى الرغم من أننا لا يمكننا أن نقبل التجاوزات في حقوق الإنسان الموثّقة عبر السنوات، علينا أن نتذكر أنه في ذلك الوقت قد تولى السلطة للتو، بعدما أطاح بملك ليبيا في عام ١٩٦٩. كان يرتدي زيه العسكري المعهود، وكان شاباً مفعماً بالحيوية والنشاط، ولا عجب في أنه صار رمزاً للأمل في العالم العربي، وكان ذا كاريزما في ذلك الوقت، وكان يبدو عليه أنه صوت الشعب الأصيل، وكان ذا حضور وهيبة. من السهل بالطبع أن نُصدر حكماً بتأمل الماضي واسترجاعه، ولكن تاريخ ليبيا بالنسبة لي لم يكن قد كُتب بعد. وكان القذافي ابنَ بدوي يرعى الغنم، وكان شخصية مثيرة للجدل، وألّف "الكتاب الأخضر"، وحكم ليبيا في عهده بقبضة من حديد، ولكنها قبضة معقدة. فقد خفّض الأمية بنسبة تسعين بالمائة، وأتاح التعليم والرعاية الصحية للجميع بالمجان، وواصل حكمه لبلد ظلت بلا ديون إلى حدّ كبير. ولكن حكمه كانت تشوبه جوانب خطيرة ومظلمة للغاية، ووُجِّهَت له انتقادات كثيرة بسببها.

بعد الثورة بعام، تجمع القادة والعلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي في طرابلس في مؤتمر فكري، وكان القائد الجديد العقيد معمّر القذافي رئيساً لذلك المؤتمر. فعُقد مؤتمر الدعوة الإسلامية في شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٧٠. وحضر المؤتمر شخصيات مشهورة من أمثال مالك بن نبي (من الجزائر)، والمهدي بن عبود (من المغرب)، وعمر بهاء الدين الأميري (من سوريا)، والشيخ محمد أبو زهرة (مصر)، وغيرهم كثيرون من كبار الشخصيات الذين لا يتسع المقام لذكرهم. وكان كثير من زملائنا الليبيين حريصين على دعوة مجموعة كبيرة من الضيوف. وتلقينا في الوقت

المناسب دعوة لحضور ممثل لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا. ولم نكن نتوقع أن يعقد هذا الرئيس بعد الثورة مثل هذا المؤتمر، ولكن تنظيم القذافي لذلك المؤتمر أعطاه مصداقية في عيون العالم الإسلامي. وهناك عالم ليبيٌّ لفت الأنظار على وجه الخصوص، واسمه الشيخ محمود صبحي، وكان الأمين العام الأول لجمعية الدعوة الإسلامية في طرابلس، وكان معروفاً في ذلك الوقت بآرائه المعتدلة وأفكاره عن الحرية، ومعروفاً بعلمه الإسلامي. وهو خريج جامعة الأزهر في مصر، وكان مدافعاً قويّاً عن العقيدة الإسلامية، كما أنه قام بأعمال جليلة في سبيل تحسين أحوال الأمة الإسلامية. وقد نال احترام القذافي وبشير هوادي (عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الداخلية)، ولذلك أتيح له منبر لينشر من خلاله آراءه وأفكاره المعتدلة. وهكذا وجدتُ نفسي في صحبة الشيخ الكريم أتناقش معه كما لو كنتُ أعرفه منذ سنوات حول فكرة تأسيس جمعية الدعوة الإسلامية. كانت فكرة جريئة نظراً للضغوط التي كان يتعرض لها الدعاة المسلمون في العالم العربي آنذاك، ولكن الشيخ صبحي عرض الاقتراح، ورحب القذافي بالجمعية، وأصدر مرسوماً بتأسيسها، وتأسست بالفعل في عام ١٩٧٢. من المفارقات أن قبوله للفكرة كان يرجع في أحد جوانبه إلى هزيمة العرب في عام ١٩٦٧، مما كشف عن نقاط ضعف القوميين والاشتراكيين والناصريين والعلمانيين، ومهد الطريق لمناخ مؤات لسيادة الإسلام (وإن لم يدم هذا المناخ طويلاً).

كما أتيحت لي فرصة ثمينة للقاء عدد من العلماء والقادة المسلمين الآخرين في المؤتمر، بمن فيهم المفكر الإسلامي والسفير المغربي السابق في الولايات المتحدة الأمريكية المهدي بن عبود.

جلستُ مع القذافي مرتين في أثناء المؤتمر، واندهشتُ عندما علمتُ أنه سمع بأنشطتنا في أمريكا وأُعجب بها. إنه لشيء عظيم أن تسمع قائد بلد يقول إنه أُعجب بعملك. وسرعان ما عرفتُ مدى إعجابه لأنني سمعتُه فجأة يقول: "أريد منك أن تنتقل إلى ليبيا وترأس المؤسسة الوطنية للنفط". كان كلاماً عظيماً خرج من فمه بسهولة، كما لو كان يعرض عليّ أن أشرب كوب شاي. كنتُ مذهولاً، ولم أستطع إلا

أن أشكره، وطلبتُ منه بارتباك أن يمهلني بعض الوقت للتفكير في العرض. غرق رأسي في بحر من الأسئلة، ولكن لحسن الطالع كان عندي بُعد نظر بما يكفي لعدم الرد عليه في الحال وللتشاور مع زملائي في أمريكا. فنصحوني عند وصولي في الحال بعدم التورط في قضايا ذات طبيعة سياسية، فأنا غير مؤهل للإبحار في بحر السلطة.

قلتُ لهم إنني ربما سأعمل في مجالات التدريب والتدريس. وفي أثناء ذلك كان القذافي يلحّ عليّ، واقترح أن أنضم لفريق إدارة شركة النفط البريطانية. كان يفكر في تأميم الشركة آنذاك. ولكن ذلك سيكون محفوفاً بالمخاطر، بالإضافة إلى جدول الأعمال المزدحم الذي سيستحوذ على كل وقتي على الدوام، وكان عليّ أن أفرّغ جزءاً من وقتي لمواصلة العمل في سبيل الدعوة الإسلامية. وعلى الرغم من سروري بذلك الإغراء الوظيفي بالعمل في وظيفة أعلى وبراتب أعلى، كان من المستحيل أن أسير في ذلك الطريق.

وأخيراً، قبلتُ في عام ١٩٧٢ عرضاً بإنشاء كلية النفط وهندسة المعادن في جامعة الفاتح في ليبيا. فقد حلّ ذلك المشكلة للأبد. ووافق القذافي، وسرعان ما وجدت نفسي أستقل الطائرة متوجهاً إلى طرابلس لأحطّ من جديد بأرض جديدة، ورحلة أخرى.

١٩٧٣. صورة للعائلة في طرابلس بليبيا. الصف الأمامي من اليمين: أبي رحمه الله، وابني محمد توتونجي وعمره عامان، وأنا. وفي الخلف من اليسار، المربية حمدية وهي تحمل ابنتي الوليدة إلهام وبجوارها زوجتي ميسون.

إن ليبيا التي أتحدث عنها هنا ليست ليبيا التي نعرفها الآن، فلم تكن دولة حديثة دمرتها الحرب الأهلية، بل كانت أقرب لصحراء بلا تنمية تتكون من مدن صغيرة يتفشى فيها فقر مدقع. لم تكن هناك بنية أساسية كافية، ولم يكن عندي هاتف في المكتب أو البيت للاتصال بعائلتي وأصدقائي. وكان التكيّف مع ذلك الوضع يتطلب جهداً مضنياً، ولكنني بذلتُ قصارى جهدي مع قلة الموارد المتاحة. وكالعادة كنتُ واثقاً وحريصاً على بدء العمل في تأسيس الكلية وعلى الاشتراك في جمعية الدعوة الإسلامية التي تم تأسيسها حديثاً. وبدأتُ العمل بسرعة.

شاء الله أن تكون هناك هيئة ليبية رسمية لديها ميزانية خاصة بالأعمال الخيرية، وكان يجب رسمياً التبرع لها بدينار ليبي من كل موظف، مما جعل ملايين الدنانير تتوفر تحت تصرف هذه الهيئة الخيرية في غضون فترة قصيرة. وبما أن رئيس الصندوق كان أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية الدعوة الإسلامية، وجدنا أمامنا فرصة ذهبية ستغيّر في الحال نطاق أنشطة الجمعية وطبيعتها، وستؤثر تأثيراً إيجابيّاً في نوعية الأهداف التي نضعها لها. كنّا ندرك ضخامة ما نطلبه عندما قررنا أن نقترح وضع الصندوق تحت إشراف جمعية الدعوة الإسلامية، فلم يكن لدينا ما نخسره، بل سنكسب كثيراً من وراء هذه الخطوة. فاقترحنا الفكرة، وانتظرنا الجواب على أحرّ من الجمر. وفوجئنا بموافقة القذافي. طرتُ من الفرح، فقد انفتحت لنا أبواب السماء ووقعتْ تلك الهدية الربانية في عهدتنا. إنني أعجب لتصاريف القدر، وكنتُ على يقين بأنه إذا كانت رؤيتنا حقيقية وقلوبنا طاهرة وضمائرنا مرتاحة والجهود متواصلة، فإن الله يهبنا كل ما نحتاجه لخدمة الدعوة إليه ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وما هذه الدعوة إلا تذكير للبشرية بوجوده وسلطانه سبحانه ودعمه لمن يتوكل عليه حق التوكل، ودرء الإفساد في الأرض. كنّا نعرف أن معجزة حدثت، عزمنا على أن نوفيها حقها، وقد كان مصدر التمويل هذا نعمة من الله. وبناءً على خبراتنا وتجاربنا في الولايات المتحدة الأمريكية، انكببنا على العمل، ووسّعنا نطاق الجمعية، ونشرناه في بلدان كثيرة.

قدمنا اقتراحاً بطباعة مائة ألف نسخة إنجليزية من كتاب عبد الله يوسف علي "**ترجمة معاني القرآن الكريم**". وبمجرد الانتهاء من الطباعة، تم توزيع النسخ في جميع أنحاء العالم. وتعد هذه الترجمة من أكثر الترجمات الإنجليزية قراءة على ظهر الأرض، وتعكس لنا من خلال حواشيها عشق يوسف علي للقرآن واللغة العربية، كما تعكس لنا روحه الشفافة وأفكاره اللطيفة الممتعة. أدرك يوسف علي منذ وقت مبكر أن أجيال الشباب من المسلمين بدأت تُشكِّك في الدين على نحو متزايد، وأن هناك هوة عميقة تتشكل وتهدد بالقضاء على الروابط الروحية الهشة المتبقية داخلهم. وكان يرى أن الحل يكمن في القرآن. فسعى لأن يوطد علاقة الأجيال بالقرآن الكريم بحيث يسود منطقُه. ولم يحاول أن يفعل ذلك من خلال الترجمة فحسب، بل بالكشف عن توافق القرآن الكريم مع الحياة الحديثة من خلال الحواشي التي تؤكد على قيمة الأخلاق والسلوك المستقيم، فأضاف للترجمة هوامش شارحة وملاحق كثيرة. وهكذا بدأت رحلة عظيمة تبلغ ذروتها بترجمة معاني القرآن الشهيرة التي بين أيدينا الآن (ورُوجعت مرات عدة منذ طبعتها الأولى)، وندين له بها ولشخصيات من أمثال محمد أسد. وبالمناسبة، لا يذكر المسلمون ترجمة القرآن قط؛ لأنهم يرون أن كلام الله لا يمكن ترجمته إلى أية لغة، ومن ثمَّ يستخدمون كلمات من قبيل "معاني" أو "تفسير" بدلاً من كلمة "ترجمة". على الرغم من جهود يوسف علي (حيث نُشرت ترجمته لمعاني القرآن الكريم لأول مرة في عام ١٩٣٤)، كان كثيرون من غير الناطقين بالعربية ما زالوا في عام ١٩٧٢ يقرؤون رسالة القرآن الكريم باللغة العربية، فكانوا يتلون آياته دون أن يعرفوا معناها. ومع أن القرآن ما زال يشكّل أساس حياتهم الأخلاقي، كان من الضروري قراءته بلغة يفهمونها حتى يكون له أثر أعظم في حياتهم. لقد كانت مهمتنا أن نرأب الصدع ونبني جسور التواصل. وأتاحت طبعتنا لترجمة معاني القرآن الكريم فرصةً لأعداد غفيرة من الناس أن يقرأوا القرآن الكريم، ويفهموه لأول مرة، على مستوى المعنى ومستوى التفسير بلغة يفهمونها بسهولة. وكان الناس يستفيدون دائماً من الحواشي، مما جعل النص أكثر وضوحاً لهم ووسّع مداركهم. وبذلك اقترب كلام الله ورسالته من الحياة اليومية للكثير من المسلمين غير الناطقين بالعربية.

حدثت تطورات أخرى على الطريق. ومن هذه التطورات المهمة إنشاء كلية إسلامية في مدينة البيضاء في ليبيا، وتطورت وصارت جامعة إسلامية كاملة تقبل الطلاب من جميع أنحاء العالم. وتم اختيار مجموعة منتقاة من العلماء للتدريس في هذه الجامعة، وحظي خريجوها باهتمام خاص. وكانت النتائج مشجعة، فنقلَ خريجو الجامعة الإسلامية الهدى والتقدم لعائلاتهم ومجتمعاتهم. ولا شك في أن هذه الجامعة كان لها أثر إيجابي في إنتاج بيئة مضيافة للإسلام في جامعات أخرى. على سبيل المثال، صار رئيسها رئيساً لجامعة طرابلس (وهي الآن جامعة الفاتح). كما أن جامعة طرابلس اقترحت أن يدرس كل طلابها مقرراً إجباريّاً عن الثقافة الإسلامية، وتم تنفيذ هذا المقترح بإلزام جميع الطلاب بقراءة كتاب عبد الكريم عثمان عن **معالم الثقافة الإسلامية** (وحصلتُ على نسخة منه).

دور المرأة

تُشكل النساء ملمحاً مهماً من ملامح حياة المسلمين، في القرآن الكريم، وفي عهد النبي ﷺ، وفي تاريخ المسلمين. ولذلك يحار المرء في معرفة السبب الذي أدّى إلى تهميشهن بعيداً عن حياة المجتمع الثقافية في الوقت الحاضر، وإلى قصر حياتهن بشكل متزايد على البيت فقط. بالطبع لا يوجد أي أساس شرعي لذلك في الإسلام؛ إذ تعرّض معنى الإسلام إلى تشويه صارخ؛ بسبب الخلط الكبير بين الممارسات الثقافية والتقاليد المجتمعية لبعض الشعوب من جهة، والإسلام من جهة أخرى، فاعتقد بعضهم أن هذه التقاليد هي جزء من الدين، والإسلام منها بريء.

حزيران/ يونيو١٩٧٣. تم التقاط هذه الصورة في ليبيا بمناسبة مؤتمر الشباب الإسلامي العالمي الأول. أقيمت صلاة الجمعة في المسجد الملحق بكاتدرائية طرابلس. وألقى هشام الطالب خطبة الجمعة، وتُظهر الصورة زوجات بعض المبعوثين في المؤتمر. الثانية من اليمين زهار برهومي زوجة أحمد صقر. والسابعة إلهام الطالب زوجة هشام ثم الثامنة أم هشام. وفي أقصى اليسار حمدية ثم زوجتي ميسون، وهي أخت هشام.

رأينا الأجيال المعاصرة من الرجال والنساء الذين يمكنهم أن يؤثروا في المجتمع تأثيراً كبيراً. وإن انبعاث الإيمان وسط الأجيال المعاصرة تطلَّب إعطاء الفتيات المراهقات هوية ذاتية واثقة وتوفير التعليم لهن. فصار لهن دور كبير في تنشئة أجيال المستقبل من المسلمين، كما تصدرن الصفوف الأولى في التنمية المجتمعية. ولذلك قررنا أن نناقش دور المرأة في ليبيا، ونحاول أن نجعل النساء الليبيات يفهمن الإسلام فهماً أفضل. كان كثير من النساء ينظرن للإسلام على أنه مجرد مجموعة من الطقوس والشعائر: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج. ولم تتعد مشاركتهن حدود ذلك. وكنّا نريد أن نوسع آفاق تفكيرهن، وأن نزيد وعيهن بشمول الإسلام لكل مناحي الحياة، وأن نُعينهن على تجاوز الاهتمام بالبيت والمجتمع معاً. وكنّا نريد أن ننشر مفاهيم خشية الله، والتقوى، والإيمان، ونشر نور وحدانية الله، وأسمائه الحسنى وهداه. إنَّ المسلمين مطالبون بدعم فئات الأمة الإسلامية كلها، وليس الرجال أو الذين في منتصف العمر فحسب.

صادقتُ (مطاع الأدهمي) في تلك المرحلة. وهو صيدليٌّ ورجل أعمال من سوريا، ولعب دوراً رئيساً في تأسيس المركز الإسلامي في ميونيخ بألمانيا. كما لعب دوراً مهماً في الحصول على تمويل لمدرسة ملحقة بالمركز من الشيخ محمد القرّادي. كان القرّادي عضواً في مجلس إدارة جمعية الدعوة الإسلامية في ليبيا، وكان يشاركنا حب فعل الخير. ناقشنا قضية دور المرأة، وشجّعتْنا زوجة مطاع الأدهمي على توسيع دور النساء الاجتماعي في ليبيا، وعلى التركيز على موضوعات وقضايا تخص المرأة من خلال سلسلة من الندوات والمحاضرات، وكانت زوجة القرادي مطّلعة على المصادر الإسلامية، وعلى دراية باللغة الإنجليزية.

وضعنا خطة لتجميع الكتب للنساء لقراءتها. وسألنا القرّادي عن رأيه في ذلك، فأبدى إعجابه التام بها، وأثنى على جهودنا. ثم اقترحتُ عليه فكرة أخرى، فسألتُه عن رأيه في المساعدة في تمكين النساء من الالتقاء في بعض المساجد للنَّهل من علوم الدين، وتعليم أنفسهن حقوق وواجبات المسلمين والمسلمات، وتعلُّم تجويد القرآن

وتفسير معانيه. وكان رد فعله إيجابيّاً أيضاً، ودعا الله بتوفيقنا. ثم اقترحتُ أنه حان الوقت لأن يتحدث نيابة عنّا مع بشير هوادي، وهو عضو في مجلس قيادة الثورة. ورد القرّادي بالإيجاب، لأنه كان يدرك أن النساء والأطفال كانوا في حاجة ماسّة إلى مثل هذه الأنشطة. وكنتُ قد قررتُ من قبل أنني لن أشارك في أي نشاط من دون موافقة رسمية. وكنّا نهدف إلى الحصول على تصريح بهذه المشروعات من وزارة الداخلية ومن مجلس قيادة الثورة آنذاك. وبناء عليه طلبتُ أنا ومطاع الأدهمي التصريح من وزارة الداخلية، وتركْنا للقرّادي أمرَ التعامل مع مجلس قيادة الثورة.

كنا حريصين على توضيح موقفنا للقرّادي بأننا لا نريد أن نشارك في أية أنشطة من دون معرفة الحكومة بذلك، وأننا كنّا نريد أن تكون أنشطتنا شفافة تماماً، ولذلك أكّدنا أنه إذا كان أي شخص يرغب في معرفة محتوى محاضرات النساء فله مطلق الحرية في حضورها والاستماع لها. وفي خلال أسبوع، حصل القرّادي على التصاريح التي كنّا نحتاجها، وبدأنا مشروع أنشطة النساء بشغف. وبدأت الليبيات في المجيء إلى المساجد ليدرسن مبادئ الإيمان وأسس الإسلام، وصِرْن ذوات علم واسع مع مرور الوقت. وكلما دَرَسْن أكثر، تطور إحساسهن بهويتهن وشخصيتهن. وكان من المذهل أن نشهد تفتُّح العقول، وأن نرى الفرحة التي جلبتها لهنْ ولعائلاتهن هذه الحياة الجديدة. وكنتُ سعيداً بوجه خاص لأن أزواجهن كانوا فخورين بهِن، ويقدّرون إنجازات زوجاتهم، وأثرها الإيجابي في بيئة البيت وفي الاتجاه العام للحياة الروحية في البيت؛ فكانت الصلوات تُقام في وقتها، وتأثر الأطفال تأثراً إيجابيّاً، وامتلأت بيئة البيت بالحِشمة والمحبة والمشاركة.

على الرغم من هذه النجاحات، كنّا حريصين على ألّا يغيب عن بالنا أننا نعمل في ظل دكتاتورية عسكرية. فكنّا نضع نظام الحكم نصب أعيننا ونأخذه بعين الاعتبار دائماً، ولذلك احتطنا في خطواتنا، ووضعنا حدوداً لأنشطتنا، وتجنبنا الانخراط في السياسة بأي شكل من الأشكال. إنَّ تجنُّب الدخول في حقل الألغام هذا أتاح لنا على الأقل أن ننام ملء جفوننا. فكان كل منّا متأكداً من أن أية خطوة خاطئة قد تُنزل

المصائب على أعمالنا المجتمعية، وقد تؤدي إلى إيقاع الأذى بالمتطوعين. فقد تعلمتُ أيضاً من تجاربي السابقة أنه كلما ازداد الجمهور الليبي استنارةً، وكلما تحسّن مستوى تعليم المشاركين معنا، زاد احتمال أن ندخل في صدام مع السلطات الحكومية.

ولذلك كان علينا أن نأخذ الظروف المحلية في الحسبان، وبذلنا قصارى جهودنا لنقدم أفضل ما يمكننا تقديمه من خدمات حتى نفيد الشعب الليبي وننال رضا الله.

الاعتقالات الجماعية للإسلاميين

عندما رجعتُ من زيارة بالخارج في شهر فبراير/ شباط عام ١٩٧٣، هبطت الطائرة أولاً في مطار بنغازي في طريقها لطرابلس. وفي المطار، لاحظتُ عدداً من اللافتات المزعجة تصطف على الجدران، ومكتوب فيها: "لا حزبية في الإسلام. الحزبية عدو الله". قرأتُ الشعارات وسألتُ عما حدث. وللأسف عرفتُ أن بعض الدعاة المسلمين قد تمَّ القبض عليهم منذ يومين دون سبب معلن. لقد غبتُ عن البلد لمدة ثلاثة أيام فقط، ولم أستطع أن أستوعب السرعة التي تحوّل بها كل شيء تحولاً جذرياً، من اللحظة التي سافرت فيها، إلى الأسباب التي أدّت إلى مثل هذه الاعتقالات الجماعية. لقد كانت صدمة كبيرة. بعد أن وصلتُ إلى طرابلس، حاولتُ على الفور الوصول إلى زميل لي في الجامعة، وهو عمرو النامي، وكان قد كتب رسالة دكتوراه عن طائفة الإباضية في الإسلام، وكان أستاذاً جامعيّاً مرموقاً في جامعة الفاتح في طرابلس. كما أنه كان سفير ليبيا في عدد من الدول الآسيوية. وتأكدتْ أسوأ مخاوفي بسرعة، فقد أُلقي القبض عليه. ثم حاولتُ أن أتصل بزميل آخر، وهو الشيخ محمد هويسة، وعرفت أنه هو أيضاً تم إيداعه في السجن. شعرتُ بأنني أعيش في كابوس. وكانت طعنة الظلم كطعنة السكين. كنتُ أعرف هؤلاء الأشخاص معرفة شخصية، وكنتُ أعرف أنهم ليسوا من دعاة الحزبية. فلماذا سُجنوا؟

من المفارقات في ذلك الوقت أننا كنّا نجهز لتنظيم أول مؤتمر دولي عن الشباب المسلم تحت إشراف جمعية الدعوة الإسلامية. ولكن ماذا بعد ما حدث؟! ضايقني

الغدر بالشباب المسلم الأبرياء كثيراً. فكل ما فعلوه أنهم تطوعوا للمساعدة في الإعداد للمؤتمر. ما الجرم الذي اقترفوه؟ لا شيء! إلّا إذا كان الدفاع عن الإيمان بالله صار جريمة. كان رأسي غارقاً في الأسئلة وأنا أسارع بالذهاب للسجون. واعتصر قلبي عندما رأيتُ الشباب الصالحين يُعاملون مثل المجرمين، كما اعتصر قلبي أنني سمعتهم برغم كل ما هم فيه يعربون عن قلقهم على مصير المؤتمر، لا على مصيرهم، قائلين: "الله نصيرنا. الرجاء مواصلة الطريق وحافظوا على استمرار الأنشطة".

كان علينا أن نتحلى بالمرونة في تعاملنا مع النظام الليبي حتى نحقق أهدافنا. وانعقد المؤتمر الدولي الأول للشباب المسلم في موعده المحدد، وحضرته وفود (ساعدت جمعية الدعوة الإسلامية في اختيارها) من مائة وأربع دول. لقد حققت هذه المشاركة نجاحاً هائلاً. كما أننا دعونا عدداً من الوفود الرسمية. وجمع المؤتمر لأول مرة القادة المسلمين الشبان من مختلف أنحاء العالم. وصار بعض الحاضرين في المستقبل رؤساء دول، ورؤساء وزراء، ورؤساء جامعات، ومفكرين، وعلماء. وكانت مفارقة حقاً؛ ففي حين أن زملاءنا كانوا يذبلون في السجن لاشتراكهم في العمل الإسلامي، كان المؤتمرُ الذي تم السماح رسميّاً بانعقاده، يجمع الدعاة المسلمين من مختلف أنحاء العالم للالتقاء على أرض ليبيا نفسها.

هكذا استمرت الحياة. وانشغلتُ في إبعاد آثار الإزعاج الذي شهدتُه، وانشغلتُ في الإيفاء بالتزاماتي بالقيام بالعمل الخيري. ولذلك سعيتُ جاهداً لإنشاء الكلية الجديدة، وواصلتُ تقديم أفكاري ومقترحاتي لجمعية الدعوة الإسلامية. ولم أكن أنتظر إلى أن تردّ الجمعية على كل اقتراح أو طلب لي؛ فأي اقتراح تنفذه كان نعمة من الله. وفهمنا شخصيات الناس الذين كنّا نتعامل معهم، ولذلك لم نضغط في سبيل ما كان يبدو مستحيلاً؛ إذ كنّا مدركين أن الضغط الكثير ستكون له أصداء. لقد كان هناك أشخاص مسؤولون عن التمويل والإشراف على المؤسسة، في حين أننا كنّا أطرافاً خارجية على الرغم مما لدينا من خبرة. وكان يتعين علينا أن نكون عمليين في عملنا، وأن نقوّم أنشطتنا وفقاً لما هو ممكن وقابل للتحقيق. وكان الجميع يعملون بتجانس، وكنّا حريصين على ألّا نستجيب لاستفزازات النظام الليبي.

"النظرية العالمية الثالثة"

اتضحت النيات الحقيقية للدكتاتورية الليبية عندما بدأت تنادي بما أُطلق عليه "النظرية العالمية الثالثة"، وهي أسلوب في الحكم اقترحه العقيد القذافي ويتكون من خليط من الاشتراكية والقومية والإسلام. وتساءلتُ مندهشاً: كيف يمكن لشخص أن يفكر حتى في محاولة الجمع بين هذه الأيديولوجيات المتناقضة؟ ولكن النظام كان مُصرّاً على تنفيذها، ونظّم مؤتمرين لتسليط الضوء عليها. ولكنها لم تحظَ بالتوافق عليها؛ إذ رفض الاشتراكيون الجانب الإسلامي والجانب القومي في النظرية، في حين أن القوميين رفضوا الجانب الإسلامي فيها، ولكنهم اختلفوا حول الاشتراكية. وفشل المؤتمران فشلاً ذريعاً. ربما كان القذافي واثقاً للغاية، ولكن الآخرين لم يستطيعوا أن يُبصروا مزايا النظرية.

على النقيض من ذلك، في المؤتمر الدولي الأول للشباب المسلم، كانت الوفود التي بلغ عددها أربعمائة وعشرة متحدة في رفضها للنظرية، وأبانوا موقفهم إبانة تامة. فالإسلام ليس في حاجة لدعامات تسنده، ولم يكن هناك مجال لما يُطلق عليها "النظرية العالمية الثالثة". طلبوا من الدعاة أن يوضحوا طبيعة الفكرة المقترحة، وكان الدعاة متشبثين برفض أي خداع حول هذه الفكرة أو أي فكر غير منطقي. ومن نتائج المؤتمر تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وهي هيئة ما زالت حتى يومنا هذا تتبنى رؤية معتدلة تلتزم بالأصول التي انطلقت منها: القرآن الكريم والسنة النبوية.

على الرغم من أن منظّمي المؤتمر و"القيادة الثورية" طلبوا أن نخرج في مظاهرة في شوارع طرابلس لدعم الحركات الثورية في العالم الإسلامي (وخرجنا بالفعل)، سمعنا بعض المشاركين يصيحون بشعارات تدين الدعاة المسلمين والعاملين في الأنشطة الإسلامية.

سعى النظام الليبي لاستخدام مؤتمر الشباب منصة للترويج للنظرية العالمية الثالثة حتى يجعلها تكسب الشرعية الإسلامية. ولكن الدعاة كانوا يريدون أن يقووا إيمانهم

ويدعموا إخوانهم. في هذا المأزق الذي وقع فيه الطرفان، ألقى أحمد صدّيق عثمان من السودان خطبة من أفضل الخطب التي سمعتُها في حياتي. فتكلم من قلبه بصدق وشغف، وأنار بصيرة كل الوفود الحاضرة من مختلف أنحاء العالم، وحشدهم لتحقيق المُثل الإسلامية العليا في الدعوة إلى الله وفي خدمة دين عالمي يقوم على الوحدة.

تم تشكيل لجنة التوصيات ضمن المؤتمر، وكان يرأسها عبد الحميد أبو سليمان ـ رحمه الله ـ . أراد منظّمو المؤتمر أن توافق لجنة التوصيات على النظرية العالمية الثالثة وتعلن توافق هذه النظرية مع الإسلام. فرفضت لجنة التوصيات ذلك، وتحدّت منظّمي المؤتمر، وكشفت للجمهور الطبيعة الحقيقية للنظرية وما تمثله. وأعلنت اللجنة عن موقفها بصمود، وقالت: إنه لن يتم استغلال الإسلام في الموافقة على التضليل، وإنه لا بدّ من عرض الأفكار على حقيقتها.

حاولت قيادة المؤتمر الرسمية أن تكسب الوقت، وأن تفرض من جديد إرادتها على الحاضرين، وأن تعرض نسخة أخرى من النظرية العالمية الثالثة غيّروا فيها الاسم لكن جوهرها بقي كما هو. وأصرّ الحاضرون على الرفض، وانتهى المؤتمر بعدم الموافقة على تلك النظرية. وعلى الرغم من أنها كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها الحاضرون، فإنهم وقفوا وقفة رجل واحد، وصمدوا في التزامهم بالحقيقة دون مهادنة، وبذلك استطعنا أن نسير على طريق الحقيقة والعدل.

قرار صعب

عند هذه النقطة، صارت ليبيا قيداً ذهبيّاً وبريقاً خاوياً في نظري. كانت شاسعة وجميلة وملتقى الحضارات القديمة وفيها صحارى وسواحل جميلة، وكل ما هو جميل، ومع ذلك رأيتُها لا شيء دون شعب حرّ في ممارسة ما نحيا ونموت من أجله، دون الله والإيمان، دون الأخلاق والحرية الفكرية. كانت إمكانات أهلها هائلة مثل صحاريها. وكانوا يريدون إصلاحاً اجتماعيّاً يستفيد منه الجميع، وكانت لديهم مُثُل عليا أخلاقية

وإسلامية، ولذلك كانوا يتعرضون للمطاردة والإلقاء بهم في السجن. مررتُ بأزمة ضمير، فقد أدركتُ أنني على الرغم من أنني كنتُ أريد أن أساعد إخواني المسلمين في هذا البلد، لا يمكنني أن أعيش في مناخ قمع يشن الحرب على المؤمنين وأصحاب المُثُل العليا. فكل ما هو جيد كان يتعرض للتدمير، ولم أحتمل أن أرى ذلك. كان وقتاً عصيباً على المستوى الشخصي. فتشاورتُ مع الشيخ محمود صبحي، واقترح عليّ أن أغادر ليبيا.

وداعاً ليبيا

في الحقيقة، اختلفنا مع كثير من أفكار القذافي، ولكن الإسهامات الإيجابية لجمعية الدعوة الإسلامية أدّت إلى تجدد الحياة وإحياء الروح، مما أفاد كثيرين. ففي النهاية، التقى أصحاب العقول والقلوب العظيمة، ليساعدوا الإنسانية، وتحققت مشيئة الله بجهودهم، على الرغم من كثير من العقبات التي ظلت تعترض طريقنا. درّبتْني تجربتي في ليبيا تدريباً جيداً، فقد كانت درساً عمليّاً ممتازاً. فتعلمتُ أهمية الثبات على الإيمان أثناء الجهاد في سبيل قضية روحية، حتى في مناخ يسوده الخوف والقمع السياسي. كما تعلمتُ أن أتوكل على الله في تحقيق النتائج، مهما كانت الأمور تبدو سيئة، ومهما كانت الظروف تدعو للجنون. كنتُ أحسُّ بالضآلة عندما أنظر في عيون بعض الرجال الشجعان الذين لم يخافوا من قضبان السجن. وبذلك تعلمتُ أيضاً أن مشيئة الله أكبر دائماً، حتى لو كانت الابتلاءات شديدة، وكدنا نصل إلى مرحلة اليأس بسببها، فإن الله له حكمة من ورائها لا يمكننا أن نبصرها، وقد تتكشف في الوقت المناسب، أو حتى لا تتكشف في حياتنا الدنيا على الإطلاق. وذلك لا يهم، فما يهم أن الحياة نفسها لا تفقد معناها أبداً.

يريد الله بالناس حياة اليسر والهدى، ويختار بعض الناس حياة العسر والضلال.

النجاح في مكان آخر في أفريقيا

على الرغم من أن الآفاق لم تكن مبشّرة في ليبيا، لمع شعاع ضوء في جزء آخر من أفريقيا، في الجابون، فكان شيء مميز على وشك الحدوث فيها، ويدل على قصة من أهم قصص نجاح جمعية الدعوة الإسلامية. وكان اعتناق رئيس الجابون للإسلام، وهو الرئيس المعروف باسم الهادي عمر بونجو أونديمبا (رئيس الجابون لمدة اثنين وأربعين عاماً من سنة ١٩٦٧ حتى وفاته في عام ٢٠٠٩). من الأشياء النادرة والرائعة أن نرى قائداً يتأمل أحوال نفسه، ويسعى للإيمان بنشاط. كان عمر إنساناً نادراً، فلم تغوِه السلطة، واستطاع أن يفكر في أشياء أسمى مع أنه كان مُثقلاً بالاجتماعات ومقابلة الناس والصحافيين واتخاذ القرارات.

تشاورنا في الجمعية حول الهدية التي يمكننا أن نقدمها له بمناسبة دخوله في الإسلام، واقترحتُ أن نقدم له ترجمة فرنسية لمعاني القرآن الكريم. فقد شعرتُ أنه سيكون من الأفضل للرئيس بونجو وموظفيه أن يواصلوا ارتباطهم بالقرآن ومعانيه، بالإضافة إلى بعض الأدبيات الإسلامية الأخرى المترجمة إلى اللغة الفرنسية. كما اقترحتُ أن يقوم أحد العلماء المسلمين بقضاء وقت مع الرئيس بونجو لتعليمه وعائلته مبادئ الإسلام. ولم يمض وقت طويل إلا وعثرت على الشخص المثالي للقيام بهذه المهمة. كان عالماً من جزر القمر ضليعاً في اللغة العربية واللغة الفرنسية، ووافق على الانضمام للوفد المشارك في إعلان الرئيس بونجو إسلامه. كانت لحظة جليلة، ولن أنساها ما حييتُ. نطق الرئيس بونجو بفخامة وثقة وقوة الكلمات المهمة التي ستختم مصيره في الدنيا والآخرة، وهما الشهادتان: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله". وقد حدث هذا في الجابون، وشهده كثيرون ومنهم الشيخ محمد محمود الصوّاف ممثل الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية. كان الصوّاف ذا نشاط دعوي، وخطيباً إسلاميّاً مفوّهاً، وذا قدرة فريدة في صناعة الرجال. وكان رائداً فعّالاً في تأسيس الحركة الإسلامية في العراق، ونشر مجموعة من الكتب الإسلامية بعد تخرجه من الأزهر الشريف.

وعندما اعتنق رئيس الدولة الإسلام، تبعه الشعب، فأسلم نصف وزرائه وكثير من كبار الشخصيات في الجابون. ولا أبالغ عندما أقول: إن حضور هذا الحدث كان من أعظم النِّعم في حياتي. فهذا ما جاهدنا في سبيله، وهو إصلاح حال الإنسانية على المستوى الإيماني. وما أصدق قول الشافعي: "من سمع بأذنه صار حاكياً، ومن أصغى بقلبه كان واعياً، ومن وعظ بفعله كان هادياً."

الفصل السابع

آثار أقدامٍ في الصحراء

"إن المعجزات الكبرى في التاريخ مرتبطة دائماً بالأفكار الدافعة.... والذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة... فالحضارة ليست كومة ، ولكن بناء وهندسة معمارية."

مالك بن نبي

تسحرنا الصحراء بروعتها، فأشجارها وصخورها ونباتاتها القليلة لا تحجب المنظر، بل يمكن للمرء أن يرىٰ أمامه لأميال إلىٰ أبعد نقطة في الأفق، مما يتيح له وضوح الرؤية. وإذا أضفنا إلىٰ ذلك السكونَ والأرضية ذات اللون الواحد الثري، فإنهما يحوِّلان كل فكرة إلىٰ تأمل ذاتي عميق. فينشغل العقل ويتوغل ويستغل الفضاء البصري في التركيز علىٰ الأمور الداخلية. وتتقيد الأنا وتنمحي، ويتضاءل البشر ويصبحون لا شيء بجانب الكثبان الرملية المهيبة الكاسحة وسماء الليل الرائعة التي تأتي بالكون كله إلينا، وتُنزل في قلوبنا الرهبة لأننا نستحضر معنىٰ عبارة "رب العالمين". عندما يتكلم الله عن جنات تجري من تحتها الأنهار، فمن الذي يستطيع أن يفهم عظمة هذه النعمة أفضل من المحرومين منها تماماً، أي المجتمع المسلم الوليد الذي أحبّ الله تحت صهد الشمس الحارقة ورغب في الجنة بحماسة بذرت بذور حضارة كبرىٰ.

نجا سيدنا محمد ﷺ ونجح في هذه البيئة القاسية، فأكمل نفسه، وسمع وسط هذا الصمت القاتل في معالم شبه الجزيرة العربية أولَ أمرٍ من الله سبحانه وتعالىٰ. وكما أن الصحراء ليست قاحلة؛ إذ تحتضن الحياة تحت رمالها. لم تكن شبه الجزيرة العربية مكاناً للرهبان، فحرمُ الكعبة هو محور شبه الجزيرة العربية، وهو نابض بالحياة الروحية التي تنقل الإنسان من مرحلة الحضور إلىٰ مرحلة الغياب. والمكان ذاته يُظهر فاعلية المؤمنين وتواصلهم وتعارفهم.

أكتب هذه السطور؛ لأن شبه الجزيرة العربية تعزف نغمات مختلفة في خيالنا. فبعيداً عن مكة المكرمة والمدينة المنورة وروحانيتهما، وكل عناصر الشعائر الدينية، ندخل في أرض غير مألوفة، وتصور مشوّش عن طريقة قيام المملكة العربية السعودية بوظائفها. كانت السعودية وجهتي الأخيرة، فهي المكان الذي سأمدّ فيه جذوري بعد طول انتظار، وأستخدمها مكاناً أواصل فيه نشر العمل الذي بدأتُه وزملائي بحماس منذ تلك السنوات البعيدة في بريطانيا، عندما تنبهنا لاحتياجات الجاليات المسلمة حولنا، وتنبهنا لأدوارنا العظيمة وإمكاناتنا بوصفنا خلفاء في الأرض. في لحظات التأمُّل، أستغربُ شدة شوقي للشرق ومنابع التوحيد، وكنتُ علىٰ الدوام أنجذب برقة للتوغل في أعماق الحجاز ومكة التي ترمز لقلب النبوة.

بدأت الرحلة إلىٰ شبه الجزيرة العربية تمدُّ جذورها في الأرض عندما كنتُ في ليبيا، كما ذكرتُ من قبل. فكنتُ أتراسل من ليبيا في مناسبات كثيرة مع الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، وكان وقتها وزيراً للمعارف في المملكة العربية السعودية. كان رجلاً عميق التفكير وكريماً، ولذلك كنتُ منفتحاً معه في خطاباتي، فكنتُ أكتب له بصراحة من بين أشياء أخرىٰ عن صراعاتي في سبيل التوافق مع التجربة الليبية التي أثّرت فيّ تأثيراً سيئاً. يبدو الكلام عاديّاً الآن، فصارت بلدي العراق مثلها، وربما كانت كذلك آنذاك، ولكنني كنتُ بعيداً جداً عنها لدرجة أنني لم أكن واعياً بذلك.

علىٰ أية حال، فكرة إلقاء الناس في السجون لأسباب مختلفة مثل انتماءاتهم الدينية والفكرية كانت تؤرقني ليلاً نهاراً. كنتُ أريد أن أعيش وأعمل في العالم الإسلامي، ولكنني الآن فهمتُ أن مناخ الحرية الذي عشتُه ذلك الوقت خارج العالم الإسلامي قد لا يتحقق بشكل كامل داخله. فضلاً عن ذلك، كيف يمكنني أن أركز علىٰ أعمال التنمية القائمة علىٰ الإيمان، وأنا أعرف أنَّ مَن تعرفت عليهم يذبلون في السجون دون جُرمٍ؟ كانت جرعة مرارة، لأنني كنتُ ما زلتُ شابّاً يصارع في سبيل تحقيق مُثُل الشباب العليا، وكان واقع الإنسانية الفاسدة صدمة لمبادئ تلك المثالية.

كان الشيخ حسن يتفهم المأزق الذي كنتُ فيه، واقترح عليّ أن آتي إلىٰ الرياض. فقد صار يعرفني جيداً. وكان فَطِناً بما يكفي ليدرك أنني كنتُ في حاجة لأن أنهمك في مشروع جدير بالاهتمام. ولذلك، عرض عليّ وظيفة أستاذ مساعد في جامعة الرياض، وكانت تلك الوظيفة ستتيح لي أن أواصل مجال تخصصي. وطلب مني أيضاً أن أساعد في تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي. وكان لآخرين أيضاً الفضل في تقديم هذا العرض؛ فبعد أن سمعوا بالوضع في ليبيا، سارعوا إلىٰ نجدتي وطلبوا من الشيخ حسن أن يساعدني. وأدين لهم بفضل كبير علىٰ هذا المعروف. وجاء عرض الشيخ حسن في وقته بالضبط، وكان في أفضل شكل أتمناه، وقفزتُ لأتعلق بطوق النجاة هذا، كما أن ذلك العرض كان يدل بالطبع علىٰ تقدير لإمكاناتي التي قدرتْها حق قدرها، وهي نعمة من الله أشكره عليها دائماً.

كانت رحلاتي السابقة فصولاً مثيرة في حياتي، فكان رأسي زاخراً بالأفكار، وكانت عيناي متشوقتين لرؤية ثقافات جديدة، ولكنني كنتُ إنساناً مختلفاً الآن، واتّسمت الرحلة إلى المملكة العربية السعودية بجدية التفكير والتأمُّل. فعندما عدتُ إلى الخليج العربي وشواطئه التي تقود إلى العراق، فاض عقلي بذكريات طفولتي المبكرة. فتذكرتُ أربيل، ووالديّ، وإخوتي، وأخواتي، ومدرستي الابتدائية، ومدخلها، وباب البيت الذي عشتُ فيه طفولتي. وتذكرتُ محلّ والدي ويديه الكريمتين وهما تتبرعان للفقراء الذين كانوا يأتون إليه، وهم يعرفون أنهم لن يرجعوا مكسوري الخاطر. وتذكرتُ الأذان الجميل الذي كان يملأ الصباحات، وجلسات قراءة القرآن تحت نظرات والدي الرقيقة الطيبة، وكلماته الروحية الجميلة التي تتجاوز الزمان والمكان وما زال صداها يتردد في قلبي، قائلاً: "يا بني، استمع لي جيداً. اتّقِ الله، ودائماً ضع الله في صدارة أفكارك، ولا تهجره أبداً". كم حاولتُ أن أعيش وفق هذا الكلام وأوفيه حقه. وتذكرتُ عظمة بغداد، ومدرستي الثانوية فيها، والعالِمِ الإسلامي العظيم الشيخ أمجد الزهاوي.

في هذا المشهد البانورامي الاستذكاري رأيتُ عناصر حياتي بوضوح، وفي سياقها كيف تضافر كل حدث منذ لحظة ميلادي في نسيج حدث آخر، وكان له هدف في حدّ ذاته وفي إطار الصورة الأكبر، وهي صورة في حدّ ذاتها تتكشف رويداً رويداً على مرّ الزمان. ربما كانت تأملاتي لطفولتي تعبيراً عن هشاشة البشر، وعن قدرتنا على تدمير أنفسنا، لولا يد الله الرحيمة التي تهدينا إلى هذا الاتجاه أو ذاك، وتنقذنا من نفوسنا الأمارة بالسوء، وتهدينا إلى فطرتنا السوية.

في هذا السياق الروحاني وفي هذه الحالة الشعورية، وصلتُ إلى المملكة العربية السعودية في عام ١٩٧٣. وكان ذلك في شهر رمضان، فشعرتُ ببركاته، وسرعان ما نزلت عليّ السَّكِينة، وهي منحة عظيمة لكل ما مررتُ به من مِحَن، وبشارة خير بمستقبل جديد واعد.

بداية مُبشِّرَة

أمدّني وجود هدفين واضحين أمامي بالقوة والنشاط، لأنني كنتُ في حاجة إلى البساطة والوضوح. وتطلب الهدفان حركة وخبرة كبيرتين، وأتاحا لي أن أواصل شغفي بالإيمان وشغفي بالعلم. وبما أنني كنتُ في حاجة لأن أواصل الانشغال والتركيز، كان عبء العمل مثاليّاً، وأبعدَ ذهني عن أية أشياء أخرى. كان عليّ أن أساعد في تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وأن أؤسس أول قسم لهندسة البترول في المملكة العربية السعودية. وكان البدء في كلا المشروعين بالغ الأهمية. فالبترول هو المصدر الأساس للدخل في دول الخليج، ومن نافلة القول: إن العمل الذي كنتُ سأشارك فيه كان مهماً جداً للمنطقة، خاصة أن الخليج العربي لم يكن به قسم يمنح درجة البكالوريوس في مجال هندسة البترول مع أنه مركز توريد الطاقة في العالم.

وبالنسبة لي، لم يكن تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي يقل أهمية، لأنه كان علينا أن نهتم باحتياجات الشباب الإسلامي وتطلعاتهم على الوجه اللائق. ولذلك كان من المهم أن تكون هناك منظمة مستقرة وداعمة، بحيث تساعد في ارتقاء العلماء المسلمين والعاملين في مجال الدعوة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حتى تساعد الشباب المسلم في أي مكان يستقرون فيه على أن يُخرجوا أحسن ما فيهم، وأن يكونوا مواطنين صالحين في بلدانهم والعالم كله، بما لديهم من وعي أخلاقي، وبما يقدمونه من إسهامات إيجابية في تحسين أحوال الإنسانية وتطوير دينهم وثقتهم وعلاقاتهم. كان من السهل جداً أن يتم تفريغ طاقات الشباب في مجالات سياسية وفانية، ولذلك كان من المهم أن نجمعهم في مناخ يقوم على السلامة والوحدة، وأن نطوّر رؤية تركز على خدمة الإنسانية، وثقافة تقوم على الإحساس بالمسؤولية تجاه أنفسهم والعالم الخارجي. وكانت هذه رسالة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وأنا فخور بأنني أسهمت في تأسيسها.

كما ذكرتُ من قبل، كنّا في شهر رمضان، أفضل شهور السنة الهجرية. ومع أننا نقرن شهر رمضان بالصوم، فهو أيضا شهر القرآن. وكان مستوى الإنجاز الروحي

في هذا الشهر وكذلك مستوى الانهماك في النشاط الروحي مذهلين ولا يضاهيهما أي شيء في أي شهر آخر. الصوم نفسه يشكل خلفية مجموعة من الأنشطة، فالمسلمون يخرجون من نطاق حياتهم المعتادة، ويدخلون في نسق جديد من الحياة اليومية، فيندمج المكان والزمان في مستوى واقع مختلف، وتصير الشمس في شروقها وغروبها محور النشاط اليومي، الذي يتطلب نظاماً بدنيّاً وذهنيّاً صارماً حتى يواكب صلاة التراويح، وقراءة القرآن كله، وقلة النوم، والطاقات المستنفدة. يبرهن لنا رمضان على إمكاناتنا الروحية وطبيعتنا الأسمى، فيجعل الحياة رحلة جادة تتوجه وجهة الآخرة، وهذه هي بالضبط الرسالة التي كانت قد شكّلت شعار حياتي.

ما أن وصلتُ إلى الرياض وبدأتُ في الاستقرار، اشتركتُ على الفور في الإعداد لحفل افتتاح الندوة العالمية للشباب الإسلامي الذي كان من المقرر أن يُقام في الفترة بين رمضان وموسم الحج. كان افتتاحاً كبيراً، وكان أمامنا عمل كثير لنقوم به. وانخرطتُ في الأعمال التنسيقية التي تتطلبها الاحتفالات من هذا النوع. وفي أثناء ذلك تعرفت على من كنتُ أعمل معهم جيداً. عملنا على كل الأعمال المخطط لها، واهتممنا بأدق التفاصيل، بما فيها اختيار الضيوف المناسبين من مختلف الفئات. علمتني تجاربي في ثلاث قارات أشياء كثيرة، وكنتُ أدرك جيداً أهمية الاهتمام بالتفاصيل، كما كنتُ واعياً بحساسية التشعّبات السياسية، فليبيا أنارت بصيرتي في هذا الجانب. فعلى سبيل المثال كان من الواضح أننا لا يمكننا توجيه دعوة للأشخاص الذين قد يتسببون في مشكلات، واتفقنا على ضرورة غلق هذا الباب من البداية.

هكذا بدأتُ العمل مع الزملاء في اللجنة المشتركة لتأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي. وكانت الغاية منها "الحفاظ على هوية الشباب المسلم، ومساعدتهم في التغلب على المشكلات التي تواجههم في المجتمع الحديث". ونفّذنا مهامنا التي تدعم الأعمال التمهيدية التي بدأتها لجنة الإشراف التي تمّ تشكيلها قبل وصولي إلى المملكة العربية السعودية، وكان من بين أعضائها كثير من عمداء الكليات وأساتذة

الجامعات. وركزنا على الأهداف الجوهرية وجعلناها في صدارة أنشطتنا جميعها، بحيث تندرج كل الأعمال الأخرى تحتها، وكنّا حريصين بوجه خاص على أن نكسب قلوب المسلمين وعقولهم في صف الندوة ودعمها، فكنّا ندرك أن الوعي المشترك له دور حيوي في نجاحها. حتى اختيار الاسم نفسه -الندوة العالمية للشباب الإسلامي- كان اختياراً مهماً حتى يتوحّد معه الشباب المسلم بسهولة. وكنّا نأمل من وراء تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي أن نمدّ الشباب المسلم بالقيم والأدوات اللازمة لمساعدتهم على التعامل مع التحديات الكثيرة التي يفرضها عليهم المنظور القائم على أساس أنَّ: "الإنسان مركز الكون؛ أي مركزية الإنسان لا مركزية الإله" (وهو من سفسطات الفكر الحداثي والشيوعي والعلماني). كانت موجة الإلحاد في صعود حتى في ذلك الوقت، وكان الهجوم على الدين على أشده.

الأعضاء المؤسسون

إن نجاح أي مشروع يتوقف على أساساته، على اللبنات الأولى التي تُبنى في الجدار، وعلى جودة الإسمنت الذي يحافظ على صلابة هذه اللبنات وتماسكها. أمّا بالنسبة للبِنَات نفسها، فهي تمثل الناس الذين يعملون على تنفيذ المشروع، فلو كانت هذه اللبنات قابلة للتصدع وضعيفة فسيتهاوى المشروع، ولو كانت قوية وفعالة فسينجح المشروع. وكذلك تتناسب جودة الفريق مع قوى أعضائه وصفاتهم، قد يكونون قليلي العدد، ولكن يمكنهم إنجاز الكثير. إن مجتمع المسلمين الوليد في عهد النبي ﷺ مثال جيد على ذلك، فقد تحلَّوا بالثبات والعزم الناتجين عن قوة الإيمان بالله، كما تحلَّوا بإخلاص وإصرار شقّا الطريق في مواجهة المصاعب. كنتُ آمل أن يكون الأعضاء المؤسسون للندوة العالمية للشباب الإسلامي رجالاً من هذا النوع، ولم يخِبْ أملي.

من بين هذه المجموعة الرفيعة من الأعضاء: الشيخ حمد الصليفيح الأمين العام للتوعية الإسلامية في وزارة المعارف بالرياض؛ وأحمد محمد علي نائب وزير المعارف

آنذاك، وكان رئيس ومؤسس بنك التنمية الإسلامي ووكيلاً سابقاً لجامعة الملك عبد العزيز في جدة؛ ومحمد عبده يماني، وكان يتقلد منصب رئيس جامعة الملك عبد العزيز في جدة، ونائب رئيس مجلس الشورىٰ في المملكة العربية السعودية، كما كان وزيراً للاتصالات ورئيساً لمؤسسة اقرأ الخيرية في جدة، وعبد الله نصيف، وعبد الرحمن آل الشيخ، وعبد الحميد أبو سليمان، وصالح السامرائي. وكان هؤلاء الأشخاص الأعضاء المحليين.

أما بالنسبة للأعضاء المؤسسين الدوليين، فكان من أمريكا: أحمد صقر، وهشام الطالب، وجمال البرزنجي، والتيجاني أبو جديري، وكان رئيس اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، ثم أصبح الأمين العام لمنظمة الدعوة الإسلامية (في السودان)، ومن ماليزيا: أنور إبراهيم مؤسس حركة الشباب الإسلامي في ماليزيا ورئيس سابق لها، ثمَّ أصبح رئيساً لجناح الشباب في الحزب السياسي الحاكم في ماليزيا، حزب الهيئة الوطنية للماليزيين المتحدين المعروف باسم "أمنو" UMNO، ووزيراً للمالية، ونائباً لرئيس الوزراء، ورئيساً للوزراء عام ٢٠٢٢. ومن إندونيسيا: عماد الدين عبد الرحيم، أستاذ سابق في معهد باندونج للتكنولوجيا، المؤسس والروح المحركة لكثير من المنظمات الشبابية والطلابية الإسلامية في إندونيسيا، وصار الأمين العام للاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية (إفسو) IIFSO، ونائباً لرئيس المنتدىٰ الإسلامي العالمي لتنمية العلوم التكنولوجية والموارد البشرية. ومن باكستان: خورشيد أحمد. وهناك أعضاء كثيرون لم أذكرهم. علاوة علىٰ ذلك، شارك بعض أساتذة الجامعة من جامعة الرياض ووزارة المعارف السعودية بصفات متعددة مثل كونهم أعضاء في لجنة تسيير أعمال المؤتمر.

التقت جماعة متميزة من أصحاب العقول الفذة، والقلوب المترابطة، والأرواح التقية في تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي. وفي فترة قصيرة، تزايدت أنشطة الندوة ومسؤولياتها تزايداً كبيراً.

شرعت الندوة العالمية للشباب الإسلامي على الفور في الإعداد لمؤتمر تضامن عن العلوم والتكنولوجيا، وعُقد في كلية الهندسة بجامعة الرياض. وكنّا نهدف إلى استضافة مؤتمر فريد يجمع بين كل أنشطتنا بصورة كلية، وحافظنا على التواصل مع قادة الجماعات ذات الطابع الإسلامي في العالم الإسلامي وخارجه، وطلبنا اقتراح موضوعات، كما طلبنا أن يحضر أكفأ الأعضاء في تلك الجماعات المناسبات التي نقيمها. على سبيل المثال، استضفنا محاضرات ألقاها علماء ومؤلفون ومفكرون إسلاميون مشاهير مثل الشيخ محمد متولي الشعراوي، وهو مؤلف **تفسير القرآن الكريم** وعدد من الكتب الأخرى، وكان ضيفاً دائماً في البرامج التليفزيونية الإسلامية، والشيخ علي الطنطاوي، وهو عالم وأديب ومفكر إسلامي سوري كبير، ونجم التليفزيون السعودي لعقود من الزمان. كما نظّمنا محاضرات ألقاها عبد الحميد أبو سليمان، الذي تم انتخابه أول أمين عام للندوة العالمية للشباب الإسلامي.

عمالقة كبار

عند وصولي في يوم ٦ أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٧٣، نزلتُ في فندق محلّي على نفقة وزارة المعارف، ثم التحقتُ رسميّاً بكلية الهندسة بجامعة الرياض. كان وقتاً سعيداً، واستمتعتُ بالعمل الذي كنتُ أقوم به. وكان هناك بعض الإخوة الرائعين وشخصيات أكاديمية مشهورة في الكلية، وكنتُ أريد أن أتعرف عليهم جميعاً، وكان أحدهم جعفر عبد الرحمن الصبّاغ، عميد كلية الهندسة، الذي كنتُ أحترمه كثيراً، ليس بسبب مؤهلاته العلمية فحسب، بل لمؤهلاته الأخلاقية أيضاً، فقد كان خلوقاً وهو من كبار الشخصيات في مجال الهندسة الميكانيكية، وكان قد نفّذ مشروعات عديدة، وعمل على ابتكارات كثيرة لاستخدام الطاقة في المستقبل، وصلاح السامرائي رئيس قسم الهندسة الكهربائية والوكيل السابق لرئيس جامعة بغداد، ودفع الله الترابي رئيس قسم الهندسة المدنية، وفوزي حمد من سوريا أستاذ في قسم الهندسة المدنية. وكان وجودي برفقة هذه المجموعة الكبيرة من ذوي العقول الفذة والشخصيات المتميزة من دواعي الشرف والسعادة لي.

كنتُ محظوظاً أيضا لتمكُّني من المشاركة في عدد من الإنجازات المهمة، ومن بينها عقد مؤتمر عن "التضامن الإسلامي في العلوم والتكنولوجيا" في كلية الهندسة بجامعة الرياض. وكان أول مؤتمر من نوعه يُعقد عن هذا الموضوع في العالم الإسلامي وقد ذكرناه آنفاً، كما عُقد مؤتمر مشابه آخر في كلية الزراعة بجامعة الرياض عن علوم الزراعة والقضايا المتعلقة بها.

في أثناء ذلك، كنتُ أيضاً مشغولاً بتأسيس قسم هندسة البترول، والخبرة التي اكتسبتها في تأسيس كلية البترول وعلوم المعادن في ليبيا أهّلتني لتأسيس القسم. فقد كان تأسيس تلك الكلية منذ عهد قريب، ولذلك كانت المعرفة التي اكتسبتُها ما زالت حاضرة في رأسي، كما أنها والحمد لله كانت في المجال نفسه بالضبط الذي طورتُ خبرتي العملية فيه. بالإضافة إلى ذلك، اقترحتُ أيضاً بجسارة أن يكون القسم في مبنى جديد، لأن المساحة المتاحة في مبنى كلية الهندسة كانت صغيرة جداً ولا تناسب إنشاء القسم. ومن الجدير بالملاحظة هنا أن إجراء البحوث على تحسين البترول واستخلاص مشتقاته يتطلب معامل متخصصة، ولذلك رأيتُ أنه من المنطقي أن أطلب توسيعاً يحسّن مستوى البحث. فقمتُ بتحديد الأهداف، ووضع الإستراتيجيات، والبحث عن المعامل والمواد والمعدات والموارد البشرية، وغيرها من الأمور. وما أن انتهيتُ من كل ذلك، كتبتُ مقترحاً لعميد كلية الهندسة، فتمت الموافقة عليه وكنتُ في غاية السرور.

إنقاذ الكتب من الحريق وتسهيل المعرفة

تم تخصيص ثلاث غرف كمكاتب لي في كلية الهندسة، وتصادف أن أحدها كان بجوار مكتب سيد دسوقي حسن، صديقي القديم من الولايات المتحدة الأمريكية، وهو عالم مصري مشهور يعمل في قسم هندسة الطيران بجامعة ستانفورد (حقاً الدنيا عالَم صغير). ابتهجتُ برفقة هذا الرجل المتمكّن، وسرعان ما تبادلنا أخبارنا وما فعلناه في فترة انقطاع علاقتنا، وسعدتُ للغاية بهذه الفرصة التي أتيحت لي لاستئناف أعمالنا معاً، وهي علاقة عمل بدأت منتصف الستينات من القرن العشرين في الولايات

المتحدة الأمريكية. وكان جعفر الصبّاغ عميد الكلية معروفاً بأنه كان يرفع سقف الإنجازات فيما يتعلق بالناس الذين يتعامل معهم، وأصدر تعليماته لكل أعضاء هيئة التدريس بمساعدتي في إنجاز مهمتي.

كانت التكنولوجيا المتاحة لنا في ذلك الوقت محدودة، وكان قسمنا هو القسم الوحيد الذي تم تزويده بآلة تصوير ورق، وكان ذلك يرجع فقط إلى الأعمال اللوجستية الهائلة التي يشتمل عليها تنظيم مؤتمر التضامن الإسلامي. وعلى الجانب الآخر، كانت الآلات الكاتبة متاحة بسهولة، فقد تم سابقاً توزيع كميات منها -من الدولة- على معظم الهيئات الحكومية. ومن العجيب أن السنوات مرّت دون أن يُستخدم الكثير من هذه الآلات الكاتبة. فكان التراب يتجمع عليها في المخازن، مما يُعد إهداراً كبيراً للموارد، مع أن كل المطلوب أن يأتي شخص ويستخدمها فيما هو مفيد. كانت مسألة عرض وطلب. ولذلك طلبْنا من الوزارات الحكومية أن تتبرع لنا بالآلات الكاتبة في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، حتى يمكننا أن نرسلها لمنظمات الشباب التي في حاجة ماسّة إليها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ولم تعترض الوزارات، فتبرعت بها في الوقت المناسب، ونحن بدورنا رتّبنا أمور شحنها في عدة حاويات، وفيها أيضاً بعض آلات تصوير الورق، إلى السودان ودول أخرى. قد يبدو هذا الكلام قديماً الآن في عصر التطور التكنولوجي الذي تقدّم جداً بصورة تفوق الخيال. ولكن الآلات الكاتبة في ذلك الوقت كانت نعمة كبيرة لكثير من مجتمعات المسلمين.

لكن قضية الآلات الكاتبة كانت موضوعاً بسيطاً بالمقارنة بما عرفناه بعد ذلك. فعلمنا أن مكتب الجمارك السعودية قرر أن يحرق كميات كبيرة من الكتب الفائضة التي كانت في مستودع الجمارك. فبدأتُ العمل، واتصلتُ بسماحة الشيخ حسن آل الشيخ طلباً للمساعدة، وفي الوقت نفسه عجّلتُ بإرسال خطاب لرئيس الجمارك السعودية. ولحسن الحظ، اتضح أنه إنسان لطيف، ولذلك تمكنتُ من الكلام معه بالمنطق قائلاً: إنه من الأقل تكلفةً أن يعهد بالكتب للندوة العالمية للشباب الإسلامي بدلاً من حرقها، وأكدتُ له أننا لن نوزع أية كتب محظورة على وجهاتنا خارج البلاد،

فوافق والحمد لله. وما أن استلمنا الكتب، كلّفنا بعض الطلاب المعوزين لتصنيفها؛ إذ كانوا بحاجة للعمل، ودفعنا لكل طالب عشرة ريالات في الساعة. ثم أرسلنا الكتب للطلاب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي للاستفادة من العلم الذي تحتوي عليه صفحاتها الثمينة. فالمعرفة بالنسبة لي شيء مقدس، ولا بدّ من الحفاظ عليها مهما كان الثمن. وبمبادرة طيبة كريمة، وافق الملك فيصل ـ رحمه الله ـ على شحن الكتب مجاناً، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فسمح الملك أيضاً لكثير من الطلاب العائدين إلى بلدانهم بعد إكمال دراستهم بأن يأخذوا متعلقاتهم معهم دون تكلفة شحنٍ إضافية.

كما أننا وجدنا أن هناك حاجة لشحن نسخ كثيرة من القرآن الكريم للخارج، وأتيحت لنا فرصة شحنها. فكانت هناك كميات كثيرة من نسخ القرآن (المستعملة) يتم التبرع بها للحرم المكي والمسجد النبوي. وعندما طلبنا أن يُعهد لنا بالنسخ (غير المستعملة)، وافقت إدارة الحرمين على تزويدنا بكميات كبيرة من المصاحف. ولم نضيّع وقتاً، فسارعنا بوضعها في حقائب، وكل حقيبة تزن عشرين كيلوجراماً، وشحنّاها إلى أكبر عدد ممكن من الدول. كنتُ أشعر دائماً بسعادة بالغة عندما أشارك في أنشطة الإيثار؛ لأن هذه الأنشطة تساعد على تحسين حياة الكثيرين، بما فيها حياتي أنا، وبهذه الطريقة تمكنتُ من أن أخدم ديني طلباً لرضا الله سبحانه وتعالى. أليس هذا هو الهدف النهائي الذي نجاهد كلنا في سبيله؟

الدُّفْعَة الأولى من القسم الجديد

استعداداً للافتتاح الرسمي للقسم في العام الجامعي ١٩٧٤-١٩٧٥، بدأنا في الإعلان عنه، وفي التوعية العامة بالتخصص والحاجة الكبيرة إلى مهندسي بترول قادرين على العمل في صناعة قوية، وهي بحاجة ماسّة إلى التطورات التكنولوجية في إنتاج الطاقة. ومن اللافت للنظر أن عام ١٩٧٣ كان عام أزمة البترول/ النفط بعد حرب السادس من أكتوبر/ تشرين الأول، فتضاعفت أسعار البترول كثيراً بعد

حظره الذي أثّر سلباً في أحوال الصناعات في الغرب. وفجأة صار البترول محط اهتمام الجميع، مما يبرز الأهمية العالمية للبترول، وقوته العالمية والاقتصادية، وصناعة مشتقاته، وقضية استهلاك الطاقة على مستوى العالم. وتم قبول خمسة وعشرين طالباً في السنة الأولى، وكلهم من الذكور، وأنا فخور بأنهم صاروا رواداً في هندسة البترول في الجامعة فيما بعد، كما صار لهم تأثير كبير في التطور الصناعي والمجتمعي لاحقاً. اعتنيتُ بهم، وبذلتُ كل ما في وسعي لتزويدهم بكل ما يحتاجونه للنجاح.

١٩٧٥. افتتاح قسم هندسة البترول في جامعة الملك سعود. وتشمل الصورة لفيفاً من أول أساتذة بالقسم. في الصف الأول، من اليمين أنا، وعدنان عمر، ومحمد صيوح، ومحمد العوضي.

كما شكلتُ مجموعة قوية من أعضاء هيئة التدريس في قسم هندسة البترول، فتعاقدنا في السنة الأولى مع عادل حميدة (من مصر) وهو مشهور برؤيته ومنهجه الإستراتيجيين، وفي السنة الثانية تعاقدنا مع اثنين آخرين، هما نعمان الخطيب (من فلسطين) ومحمد صيوح (من مصر).

من الحِفْظ إلى العقلية المتدبرة

كان من المهم بالنسبة لي أن أحدد أهدافنا الدراسية التي ستكون أساس معاييرنا الدراسية في برنامج هندسة البترول. كان المنهج الدراسي من المجالات التي رأيتُ أنها في حاجة إلى إصلاح. فقد كان مثل غيره يقوم على الحفظ في التدريس والامتحان. وكان هدفي أن تنتقل أول دفعة من الطلاب من مرحلة حفظ المادة الدراسية وتلقينها

بطريقة سلبية إلى مرحلة الالتحام بها بإيجابية ونشاط، حتى يمكنهم أن يطبّقوا المعرفة التي يكتسبونها بطرق جديدة ومبتكرة. وكان ذلك يتطلب منهجاً دراسيّاً ينشّط قدرات الطلاب الإبداعية ومواهبهم الفطرية.

كانت هناك عدة خطوات لحلّ مشكلة الحفظ حتى نحقق أهدافنا من زوايا مختلفة. فانكببتُ على تأليف كتاب دراسي عبارة عن مقدمة تفصيلية في هندسة البترول تتناول موضوعات مثل: "ما هندسة البترول؟" و"كيف تفكر بعقلية مهندس؟". وقمتُ بتدريس مقرر عن الرياضيات العامة مكّن الطلاب من اكتساب أساليب تفكير متعددة، وكان هدفي من وراء ذلك تحرير عقلية الطلاب من حواجز طريقة التفكير المحدودة، وكنتُ أريد منهم أن يعرفوا كيف يقرؤون مادة علمية، ويطبّقون ما فيها عمليّاً. طبعاً هناك البحث النظري البحت الذي لا يحتاج تطبيقاً عملياً. ومع أنني لا أشكك في أهمية مثل هذا البحث النظري، فإنه في الوقت نفسه رفاهية كنتُ مستعداً للاستغناء عنها؛ لأنني إنسان عملي أريد أن أحقق أهدافاً مباشرة، وكان التطبيق مهماً للغاية في هذه المرحلة.

استفاد الطلاب والأساتذة في كلية الهندسة من هذه البيئة المواتية وهذا الجو المفعم بالتفاني والالتزام. وكان رؤساء الأقسام أفضل العلماء، وتلقّى عمداء الكلية تعليماً غربيّاً. وعلى الرغم من أننا جئنا من بيئات وبلدان مختلفة، استطعنا أن نطوّر بشكل جماعي معايير عمل عالية وعلاقات عمل متينة جداً. ورفع جعفر الصبّاغ سقف التميّز لمستوى أعلى، فكان يسعى لتطوير عقلية علمية لديها ضمير؛ عقلية تراعي الأخلاق والقيم.

عندما فكرتُ في المدى البعيد، اتضح لي أن نجاح الطلاب السعوديين في المملكة يتطلب منّا أن نُزّود هؤلاء الطلاب بمهارات الوظائف الإدارية الجيدة؛ ولذلك أدخلنا ذلك في المنهج الدراسي، وطورنا برامج تم تصميمها خصيصاً لتدريبهم على مبادئ الإدارة. وستكون هذه المهارة مهمة جداً لهم لأنهم عملوا فيما بعد في وظائف إدارية وغير إدارية رائدة وأساسية. وبهذه الطريقة نُخرّج علماء سعوديين يتقلدون المناصب التي كان الغربيون يشغلونها آنذاك، كجزء من خطة إستراتيجية تجعلهم يقررون

بشكل أفضل كيف يطورون البلد وفقاً لاحتياجاتهم وأحلامهم التنموية. واشتمل التدريب على إجراءات من قبيل تسهيل اضطلاع الباحثين السعوديين بمسؤوليات ومهام في مكتب عميد الكلية، مما يساعدهم على اكتساب مهارات القيادة منذ بداية مسيرتهم الأكاديمية. فعندما يحصل السعودي على درجة أستاذ مساعد، سيكون قادراً على أن يصير عميداً، حتى لو كان رئيس القسم (الأجنبي أو غير السعودي) حاصلاً على درجة الأستاذية، مما ساعد أبناء البلد على تقلّد مناصب إدارية عليا في المملكة، فكانت ريادة عملية (سَعْوَدة) البرامج الدراسية الأساسية مهمة لنا.

لقد مثّلت أرض الحرمين الشريفين وطناً لي، كما أنها كانت منبع الوحي، ووطأ أرضَها النبيُّ ﷺ وصحابته، كما أنها تمثل بداية رسالة الإسلام التي انتشرت من بيت الله في مكة. أتاحت لي بيئة العمل المباركة هذه أن أشترك في المساعدة على إحياء الإسلام من خلال الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وأن أواصل مسيرتي الأكاديمية في الجامعة.

المهم في الحياة

كانت الندوة العالمية للشباب الإسلامي في طريقها لأن تصير كياناً يقوم بوظيفته على أكمل وجه، وكانت أمامنا الآن مهمة بالغة الأهمية تتمثل في وضع لوائحها الداخلية، وتتناول هذه اللوائح قضايا من قبيل أهداف المنظمة، وأعضائها، وطريقة انتخاب مديريها، وتوصيف مهامها، وعقد اجتماعاتها، وكيف ستقوم بتنفيذ مهامها، وما إلى ذلك من أمور تنظيمية. كانت هناك أمور كثيرة تحتاج إلى النظر، وانكببتُ على العمل مباشرة، فوضعت مسودة حتى نتناقش حولها. وتم الاتفاق على أن الأمين العام ونائب الأمين العام سيكونان على نفس مرتبة وراتب نواب الوزراء في الحكومة السعودية، ما عدا أنا وعبد الحميد أبو سليمان. كانت مرضاة الله جزاء كافياً، فلم نكن نسعى وراء الأوسمة أو المكافآت أو المكاسب الشخصية أو المديح أو الثناء. فكنّا نرى أن الدنيا كلها مجرد محطة زائلة على الطريق الموصل إلى وطننا الحقيقي، وهو الدار الآخرة، التي توجد فيها كل

استثماراتنا. كما كنّا نأمل أن نكون مثلاً يحتذي به غيرنا، وأن نريهم قيمة الإخلاص والتواضع والتضحية بالنفس، وأن نستغني عن فكرة الاستحقاق، وأن نجاهد في الدعوة إلى الله دون التفكير في المكسب الشخصي أو أية منفعة دنيوية.

ففي نهاية المطاف، ما الغاية من الحياة؟ إننا ندخل هذه الدنيا بلا شيء ونخرج منها بلا شيء. ولذلك، ما الذي نحتاجه فعلاً في الحياة في مقابل ما نشتهيه؟ سأبحث هذه المسألة بحثاً عميقاً، بعيداً عن المأكل والمشرب والمأوى والملبس، وكل ما يلزمنا لنعيش، ما المهم أكثر؟ هذا سؤال ينبغي علينا جميعاً أن نطرحه على أنفسنا في مرحلة ما من مراحل الحياة. أدركتُ أننا ما أن نجعل الآخرة مصبّ اهتمامنا، يتلاشى عالم تكديس الثروة والبحث عن المكانة، والسعي وراء الرغبة، ونكتشف أن احتياجاتنا صارت بسيطة، وأن اهتمامنا ينصبُّ على الأعمال الصالحة. ولا يعني هذا إنكار الحاجة إلى الجمال، فالله لا يأمرنا بذلك، بل يأمرنا بعكسه، ولكنه جمال نابع من الروحانية، أي هو حالة طبيعية وزخرفة طبيعية تجعل المرء يعيش حياته في غرفة واحدة ويحقق النجاح الذي يمكن أن يحققه شخص يعيش في قصر فخم. إن الوردة أجمل من أي عمل فني، وهي تُعلِّمُنا عن الجمال أكثر مما يستطيع أي إنسان أن يعلمنا عنه، وهي متاحة بالمجان للغني والفقير. تتصدر قيم العمل والتضحية المشهدَ، ودوافعنا مبعثها الإشباع المؤجّل، مبعثها الجنة التي تنتظر دعاة الخير والمصلحين بصحبة المصطفين وفوق كل ذلك رؤية الله جلّ وعلا.

من اللافت في الوقت الحاضر كثرة المتحدثين في التنمية البشرية الذين يركزون على القدرة البشرية في صنع المعجزات، والإعلاء من شأن الإنسان في السيطرة على الكون، متناسين القدرة الإلهية، مما جعل الإنسان يلهث في سبيل هذه الدنيا الفانية بحثاً عن الخلود والثروة والمكانة، وفي نهاية كل ذلك الصراع الدائم لا ينتظرهم إلا القبر والفناء. والإسلام يُعلمنا ألا نقيس أنفسنا على غيرنا الثري الجذّاب، بل على المبادئ والقيم التي أرساها القرآن الكريم، ويُعلمنا أن نتبارى في فعل الخير، مما يعزز إحساسنا بأنفسنا وقيمتنا الأخلاقية، فلا يصير لزخارف الدنيا التافهة سلطان علينا.

التعاون والإنتاجية

كانت الحكومة السعودية تموّل الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وبدأت بميزانية مبدئية قدرها مليون ريال سعودي في السنة الأولى، ثم ازدادت لتصل إلى ستة ملايين ريال. وبرغم التضخم، لم تحدث زيادات أخرى في الميزانية، بل تقلصت ميزانيتها لاحقاً لتصل إلى خمسة ملايين وأربعمائة ألف ريال في الفترة التي تم تقليص ميزانية الحكومة بنسبة عشرة في المائة. ولذلك رشّدنا نفقاتنا، وأعدنا تنظيم أولويات الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وخفّضنا عدد الموظفين حسب الضرورة؛ لأن الميزانية لم تستطع أن تغطي رواتب كل الموظفين. وعلى الرغم من التخفيضات، بذلنا قصارى جهدنا؛ كي لا يتأثر مستوى أنشطتنا وجودتها، فعملنا على زيادة مجهوداتنا؛ كي نحافظ على معاييرنا. وعوّضنا النقص في الميزانية بطلب التبرعات من رجال الأعمال ومحبي الخير ومن لديهم القدرة والرغبة في دعم العمل الدعوي. كما أننا طلبنا تمويلات من وزارات عدة ومن المجلس الأعلى لشؤون الشباب والعمل الخيري في المملكة العربية السعودية وغيرها.

كنّا عازمين على أن نواصل العمل دون أي نقصان في قوة زخمنا، فتعاونّا مع منظمة التعاون الإسلامي، وكانت تُعرف في السابق باسم منظمة المؤتمر الإسلامي؛ وهي منظمة خرجتْ للوجود بخمس وعشرين دولة في عام ١٩٦٩ بعدما دعا الملك فيصل للتضامن والتعاون بين المسلمين. وكان أول رئيس لها رئيس وزراء ماليزيا تونكو عبد الرحمن، وتلاه

١٩٧٧. تم التقاط هذه الصورة في اجتماع منظمة التعاون الإسلامي. في الصف الثاني، يجلس ممثلو المنظمات التي تقوم بدور المراقب. من اليسار، عبد الحميد أبو سليمان (الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي)، ومحمد آل الشيخ (وزير الدولة، وسابقاً وزير البيئة والشؤون المحلية)، وأنا الرابع من اليسار.

في رئاستها رئيس وزراء السنغال السابق سيادة كريم جاي. وصارت الدول الأعضاء الخمس والعشرون الآن سبعاً وخمسين دولة، مما يجعل المنظمة أكبر منظمة دولية بعد الأمم المتحدة. وكانت تهدف إلى تناول القضايا الكثيرة التي تواجه العالم الإسلامي. وفي مؤتمر القمة الإسلامية الحادي عشر الذي انعقد في عام ٢٠٠٨، تبنّت برنامج عمل لعشر سنوات لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين.

لقد نظّمنا عدداً من الأنشطة معاً. وأنشأنا مخيماً صيفيّاً للشباب في أَبْها بالمملكة العربية السعودية، وحقق نجاحاً كبيراً. وكالعادة، استفدنا من تجاربنا في الإدارة وبراعتنا الفنية وقدرتنا على إنشاء شبكة علاقات مع المؤسسات والأفراد. كانت الخطة الإستراتيجية بسيطة؛ فما أن نتلقى طلبات وعروضاً من المنظمات المتعددة حول العالم، نقوم بإحالتها للحكومة أو بعض المؤسسات والأفراد، لنحاول أن نحصل على التمويل اللازم. وإذا كنّا محظوظين وحصلنا على تمويل، نقوم باتخاذ كل الخطوات اللازمة لتنفيذ المشروع. على سبيل المثال، تلقّينا طلباً بتأسيس مقر لحركة الشباب المسلم في ماليزيا، وعرضنا ذلك على لجنة الشؤون الإسلامية في وزارة المالية، ووافقت على منحنا مبلغ مليوني ريال سعودي. وكانت هناك طرق أخرى كثيرة حافظنا بها على قيام ندوة الشباب الإسلامي بعملها على أعلى مستوى، فطوّرنا سلسلة من الأعمال الصغيرة التي لا تحتاج إلى ميزانية كبيرة لتنفيذ أنشطتها.

"الاستمرارية والتنمية والتحسين" كان ذلك شعارنا اليومي، وكان الحبل الذي اعتصمنا به حتى نخدم المجتمع الإسلامي أفضل خدمة. وكنتُ لا أستطيع مقاومة الميل لمنظمات وجمعيات واتحادات الشباب المسلم نتيجة للسنوات التي قضيتها في اتحاد الطلبة المسلمين، وكنتُ أفيض بالسعادة دائماً عندما يُطلب مني أن أدعم أنشطتها. وعلى أية حال، كان ذلك جزءاً لا يتجزأ من مؤسسة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وكان جزءاً مهمّاً جداً في تحقيق أهدافها. ومن خلال مثل هذه الجهود، وقبل أن يوجد شيء مثل الإنترنت أو فيسبوك أو تويتر، أفخر بأن أقول: إن الشباب المسلم، قد تشكّل لديهم إحساس وتعارف دولي متبادل، مما فتح باب التعاون والشورى والتدريب. كما تحسّنّا نحن العاملين بعيداً عن الأضواء على

مستويات عدة: فتبادلنا الخبرات وتعلّمنا منها، وطورنا روح فريق تقوم على الثقة وثمرة دربنا الروحاني وإخلاصنا في تحقيق أهدافنا. وتطورت العلاقات، وكانت أقوى من علاقات الصداقة، ووصلت إلى درجة الوفاء النابع من الإيمان والرؤية المشتركة. ودعمنا بعضنا بعضاً، وظللنا صامدين، ووجدنا الأكبر منّا سناً قد صاروا آباء لنا وأساتذة، فأرشدونا وتعلمنا منهم الحكمة. تجلت ثمار عملنا في المنظمات الشبابية والطلابية التي دعمت جهودنا حول العالم. وأتاح لنا هذا التبادل في الندوة العالمية للشباب الإسلامي أن نطمئن إلى أن أجيال المستقبل ستُقدم إسهامات إيجابية، وستحركها مشاعر الهوية القائمة على الإيمان والوحدة والتعاون.

إنني أتكلم عن عدة عوامل تحفيزية، ولكنه في الواقع كان عاملاً واحداً، وهو إيماننا المشترك، فقد كان القوة الهادية التي أنارت قلوبنا، وكان المصباح الذي لا يمكن للرياح أو أية قوة أن تطفئه، وكان يُملي علينا مسار عملنا وأخلاقيات نموذج أعمالنا، وكانت الشفافية المالية والإدارية من المبادئ التي تعكس ذلك، فكانت الشفافية أساس كل ما كنّا نفعله، والسِّمة التي تميز كل مساعينا. فكنّا نتعامل في مبالغ مالية ضخمة ومع كثير من الهيئات الحكومية وغير الحكومية الدولية والمحلية الكبرى في الشرق والغرب، ولذلك كان لزاماً علينا أن نحافظ على ثقة كل الأطراف. فأمام الله، كنّا نتحرى الدقة والأمانة في إنفاق كل ريال وكنّا مرتاحي الضمير تماماً.

ولكننا كنّا أمام غيرنا في حاجة إلى شيء أكثر وأكبر من مجرد الكلام أو التقارير المبهمة، فلا بد أن نوضّح ونفصّل كلَّ شيء. ولذلك كانت كل أعمالنا قابلة للكشف التام عنها لكل الأطراف الذين كنّا نعمل معهم أو ننسق الأنشطة معهم، وكان ذلك يشمل المواد المكتوبة والتقارير التفصيلية والبيانات المالية. وابتعدنا ابتعاداً صارماً عن السياسة، ولم نناصر أية أيديولوجيا سياسية، على الرغم من كثرة المذاهب المنتشرة حولنا، واتضح أن مسارنا هذا مفيد جداً في تعاملنا مع الحكومات التي استطعنا أن نحافظ على علاقات جيدة معها. بالإضافة إلى أننا وفرنا معلومات كاملة لكل من كانوا يطلبونها، حتى نتفادى حصولهم على معلومات مغلوطة من مصادر أخرى قد تضرنا أو تضر بأعمالنا، عن قصد أو دون قصد، أو تشوّه طبيعة أخلاقيات عملنا

وأنشطتنا. وكانت هذه الأنشطة تشمل توزيع الكتب (المترجمة إلى عدة لغات) على الشباب، وإقامة مخيمات الشباب، وعقد ورش العمل التعليمية والندوات، وفي الوقت نفسه البحث عن مصادر لتمويل أعمالنا.

في الواقع، كانت الحاجة إلى الابتعاد عن السياسة مهمة على مستوى آخر، فكثير من الشباب والشابات في ذلك الوقت كانوا محبطين سياسياً، وكانت أنظمة الحكم في الكثير من البلدان تقمعهم أو تفرض قيوداً على الأنشطة التي يمكنهم القيام بها. ولم نشأ أن نسكب البنزين على نار السخط والتذمر. واستطعنا على الأقل من خلال الأنشطة التي أعددناها أن نُحوِّل مسار هذه الإحباطات السياسية والطاقات إلى شيء إيجابي، وأن نجعلهم يحسّون بأنهم جزء من التغيير، ولو على هذا المستوى الصغير، فأنا مؤمن بأن الخطوات الصغيرة قد تُحدثُ تأثيراً عظيماً.

كما أننا نصحنا الجيل الأصغر منّا سناً أن يفعلوا الشيء نفسه، وأن يسيروا على المنوال نفسه في أخلاقيات العمل، وأن يجعلوا أنشطتهم مركزة وواضحة، وأن يحافظوا على الشفافية التامّة على كل المستويات التنظيمية، وعلّمناهم مبادئ الثقة والتعاون في العمل.

هذه الاحتياطات خدمت الندوة خدمةً عظيمة، فأتاحت لنا أن نكسب ثقة الأطراف المعنية، بما فيها الحكومات، وأن نحافظ على هذه الثقة، مما مهد الطريق للحرية المسؤولة، ليس في إدارة العمليات والإشراف عليها فحسب، بل في اختيار الأنشطة التي كنّا نرغب في القيام بها.

في عام ١٩٧٣ عُقد الاجتماع العام للندوة من ممثلي الشباب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي لزيارة الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض. ونجح ذلك الحدث الذي نسّقناه بالاشتراك مع الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية. وبالوصول إلى هذه المرحلة، كنتُ واعياً تماماً بهموم الشباب ومشاعرهم، وفهمتُ ما يحفز الشباب وكيف يفكرون. وكان الهدف أن نولّد لديهم إحساساً بالهوية المشتركة، وأن يكوّنوا العلاقات،

وأن يتبادلوا الخبرات والتجارب بروح الوحدة والرؤية المشتركة القائمة على الإيمان، وأن ننقلهم من إحساسهم المحلّي بأنفسهم إلى إحساس أكثر عالمية يجعلهم مستعدين للتضامن الإسلامي. ونظّمنا لهم محاضرات ورحلات، وزوّدناهم بالكتب، ولكن أجمل ما في الرحلة كلها فرصة أداء الحج والعمرة، وزيارة المدينة المنورة، فقد رتبناهما للمجموعة كلها، ووفرت لهم الحكومة السعودية الكريمة تذاكر طيران مجانية. ربطتهم هذه التجربة برباط قوي، فقضى المشاركون أوقاتاً يتجاذبون فيها أطراف الحديث عن قرب، مما منحهم إحساساً إيمانيّاً قوياً، كما أعطاهم إحساساً بالغاية والانتماء. وعادوا إلى بلدانهم مزودين بطاقة متجددة وعزمٍ على العمل في سبيل تحسين المجتمع.

١٩٧٣. تشرفت بالمشاركة في حفل افتتاح الندوة العالمية للشباب الإسلامي. أنا في اليسار ثم الأمير خالد بن فهد بن خالد آل سعود وكيل وزارة المعارف، ثم الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ وزير المعارف وأول رئيس للندوة العالمية للشباب الإسلامي، ثم أحمد محمد علي وكيل وزارة المعارف ونائب رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي

المأساة

ازدهرت الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ونظمت المزيد من الأنشطة، فقد نمت وصارت محل ثقة. وفي عام ١٩٧٥، أوصينا بعقد مؤتمر دولي عن العلوم والتكنولوجيا، وأرسلنا فريقاً من الأساتذة في جامعة الملك سعود ليقابلوا العلماء الذين سيحضرون المؤتمر ويدعمون أهدافه. وذهبت عدة وفود لزيارة دول العالم والدعوة للمشاركة في المؤتمر، فرأس صالح العدل من كلية الهندسة وفد آسيا، ودفع الله الترابي وفد أفريقيا، وسيد دسوقي حسن وفد الدول العربية وأمريكا. وتكفلتُ أنا بباقي الدول الأعضاء، وزرتُ سبع عشرة دولة، والتقيتُ بعلماء على أعلى مستوى لدعوتهم للمشاركة في المؤتمر.

أودُّ أن أذكر هنا أننا تشرفنا بضيف خاص، وهو الملك فيصل، الذي التقيتُ به سابقاً في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنه شخصيّاً صرح بتأسيس مكتب دائم للندوة العالمية للشباب الإسلامي، ووقّع على وثيقة رسمية بتأسيسها. وافق الملك فيصل على انعقاد المؤتمر، ووافق على افتتاحه، ومن هنا اكتسب المؤتمر أهمية وعظمة، وكنّا نترقب بفارغ الصبر الاستماع إليه وهو يتحدث في المؤتمر.

للأسف لم يحدث ذلك، وحلّت المأساة. فعندما كنّا في المرحلة الأخيرة من الإعدادات التي تسبق المؤتمر، انتشرت فجأة الأخبار المفجعة. في يوم ٢٥ مارس/ آذار عام ١٩٧٥، تم اغتيال الملك فيصل، ولم يستطع الأطباء إنقاذه. صُدمنا وغمرَنا الحزن، ودَمِيتْ قلوبُنا على هذا المصاب الجَلَل، وأصابنا الشلل في التفكير، وعقدنا اجتماعاً طارئاً قررنا فيه إلغاء المؤتمر. كان ذلك في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وقضينا الساعات الثمانية عشرة التالية نجري اتصالات هاتفية مع ضيوف المؤتمر. كان بعض الضيوف في المطار بالفعل، وبعضهم كان على الطريق في الطائرة المتوجهة إلى المملكة. ولم يكن بإمكاننا أن نفعل شيئاً، وكان مصيرهم أن ينضموا لنا وللبلد في الحداد ونحن نودع الملك الراحل ـ رحمه الله ـ ، لقد فارق دنيانا عملاقٌ، ونادراً ما سنرى أمثاله مرة أخرى.

خلفه أخوه الملك خالد في الحكم، واستمرت الحياة، ومدّ الحاكم الجديد يد العون لنا، فكان دعمه إغاثة كبيرة لنا جميعاً. وفي العام التالي، عام ١٩٧٦، عُقد مؤتمر العلوم والتكنولوجيا على الرغم من الصعوبة والحزن البالغَين، ووصل العلماء المسلمون، والتقوا بزملائهم، وعرضوا بحوثهم، واستفادوا بوجه عام من فرصة تبادل الأفكار في المؤتمر. وعلى الرغم من ظلال الحزن التي ألقتها ذكرى اغتيال الملك فيصل على المؤتمر، قدم المؤتمر عدداً من التوصيات التي بُنيت على الجهود التي سبقته، وبذلك استطعنا أن نخطو للأمام.

فوق ذلك كله، أدّت الندوة العالمية للشباب الإسلامي إلى الحفاظ على العقيدة والأخلاق. ففي ذلك الوقت، كانت العلمانية وعلامات الثقافة الشبابية العامة (الموضة، والموسيقى، والمخدرات) تهدد بالقضاء على الأسس الأخلاقية المترسخة منذ قرون من الزمان، وعلى الإيمان بالله، وهو إيمان كان قد صمد أمام الشدائد والمحن حتى ذلك الوقت. فكانت الرموز والقيم والمعايير الجديدة تحلّ محلّ القديمة، وكان افتراض أن "الدين لا مكان له" وأن "الله مغالطة تاريخية" ينتشر في الساحة العالمية بصورة تنبئ بالخطر، وكان الشباب بوجه خاص عرضة للانجذاب لذلك التيار. ولم يكن الشباب المسلمون محصّنين ضده، وكنّا نعرف أن الوعظ الأخلاقي لن يؤثر فيهم. فكانوا في حاجة إلى فهم العقيدة فهماً كاملاً ومناسباً، بحيث لا ينجذبون للحجج المغلوطة، والإغراءات الزائفة، وأسلوب حياة منفلت يتخفى في زي الحياة الممتعة. وبخلاف البرامج الأخرى الموجهة للشباب، اخترنا ألّا نركز على حفظ الآيات القرآنية، بل على تفتيح عقولهم على فهم صحيح لكلام الله والإسلام ومكانة الدين في العالم الحديث، وكيف أن الدين أفاد الإنسان في حياته العامة والخاصة، وكيف أن الحُجّة التي تقول بعدم وجود الله تقوم على ادّعاءٍ باطل مغلوط. كنّا نريد أن نزوّد الشباب بالأدوات اللازمة لتقوية يقينهم بالله وثقتهم بالإسلام وحبهم للنبي، بحيث تقوى نظرتهم القيمية وسلوكهم الأخلاقي، وتؤهلهم لإرشاد غيرهم.

أتاحتْ لنا رئاسة سماحة الشيخ حسن آل الشيخ للندوة العالمية للشباب الإسلامي تكوين شبكة علاقات مع المنظمات الشبابية والجماعات الطلابية في كل مكان. وتلقينا طلبات كثيرة من اتحادات الطلبة المسلمين والجماعات الطلابية الأخرىٰ لدعم مبادراتهم، وكنّا نحيل الطلبات نيابة عنهم إلىٰ المؤسسات الحكومية. فكانت بعض المنظمات تطلب تمويل المباني والمرافق، وكانت منظمات أخرىٰ تطلب كتباً إسلامية، أو المساعدة في تمويل ترجمة معاني القرآن الكريم، أو تمويل المؤتمرات ومخيمات الشباب. ولم تكن ميزانيتنا تكفي لتغطية كل هذه الطلبات، ولذلك فعلنا ما يمكننا فعله في سدّ الفراغ ودعم ما يمكننا دعمه، وفي الوقت نفسه كنّا نعرض مقترحات المشروعات علىٰ الهيئات الحكومية المتعددة أو علىٰ المحسنين القادرين علىٰ تقديم مساعدة أخرىٰ.

وبفضل الله، كان من الواضح أن دعم العمل الخيري وتحسين أحوال مجتمعات المسلمين يتزايد بوجه عام، وشهدنا خدمة المسلمين علىٰ المستويين الخاص والعام. ومن مصادر الدعم الخيري المجلس الأعلىٰ للدعوة الإسلامية، الذي يرأسه صاحب السمو الملكي الأمير سلطان آل سعود وزير الدفاع في المملكة العربية السعودية. كما أن اللجنة الإسلامية في وزارة المالية السعودية قدمت مساعدات للمؤسسات والدول. وكان سماحة الشيخ حسن عضواً في كلتا اللجنتين، وبذلك انفتح البابان لنا لتسهيل العمل الخيري.

لعب العلماء دوراً مهماً في خبرات الشباب الفكرية والاجتماعية والعلمية. فتفخر الدولة ببعض أفضل العلماء المسلمين المقيمين فيها، وهم علماء لديهم فكر ورؤية. ونظراً لحرصنا الشديد علىٰ تسهيل انخراطهم الإيجابي مع الشباب، كنّا نرتب من آن لآخر قيام قادة الشباب وغيرهم بزيارة هؤلاء العلماء حتىٰ يستفيدوا من علمهم ونصائحهم، ويتشبعوا بحكمتهم، ويألفوا الوجود بين أيديهم. وفوجئنا بأن ثمرة هذه اللقاءات كانت متبادلة؛ أي إنها كانت مفيدة للعلماء وللشباب علىٰ حد سواء. وبهذه الطريقة، استطاع العلماء أن يواكبوا الأنشطة الدعوية علىٰ مستوىٰ العالم، وأن يفهموا الوضع مباشرة من الشباب أنفسهم.

كما أننا وفرنا للشباب فرصاً كثيرة لزيارة مجموعة من كبار الشخصيات في البلد، بمن فيهم مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن آل الشيخ، والشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ حسن بن عبد الله بن حسن آل الشيخ، والشيخ علي الطنطاوي رحمهم الله. كان معروف الدواليبي رحمه الله عبقريّاً أصيلاً، وغدا مستشاراً في الديوان الملكي السعودي، وكان يزور الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ويمدنا بكثير من الإرشاد والدعم. فقد خصص هؤلاء العلماء وغيرهم من داخل البلد، وكذلك العلماء من مختلف أنحاء العالم جزءاً كبيراً من وقتهم وجهدهم لمساعدتنا على الازدهار، وأبصروا قيمة عملنا وأهمية إرشاد الشباب.

ثمار العمل أحلى ثمار

ماذا كان الأثر الإجمالي لكل هذا النشاط والعمل المجتمعي المنتشر؟ وجدنا طرق التفكير تتغير، وتمثّلَ الإيمانُ أسلوبَ حياة كاملاً، وليس مجزَّأً، وتعززت القيم والأخلاق والسلوك الأخلاقي، وتطورت العقليات، وترسّخ الاحترام، ونشأت رغبة أصيلة في استحضار عظمة المبادئ القرآنية، في محاولة من جانب الشباب، ليُخرجوا أحسن ما فيهم ويقتدوا برسول الله ﷺ. صار الشباب الآن ملتزمين بعقيدتهم كما أمرهم الله سبحانه وتعالى، فبدأوا يختارون خيارات أخلاقية، ويتخذون قرارات حياتية قائمة على القرآن والسُّنة، ويتخذون الرسول قدوة يقتدون به، ويسعون لتحسين أنفسهم وتحسين أحوال الآخرين من حولهم، وينشرون السلام والإحسان في مجتمعاتهم والإنسانية كلها. فقد فتحت الندوة العالمية للشباب الإسلامي عيونهم فتحاً فاق توقُّعي. أرهقتنا كل الاستشارات التي استثمرناها في الندوة، لأننا كنّا نقوم بأعمالنا الوظيفية كاملة، وكنّا نتحمل تلبية احتياجات حياتنا الأسرية والاضطلاع بمسؤولياتها، ولكنها استشارات حققتْ أهدافها بطريقة مميزة للغاية، فبينما كان الشباب ينظرون من قبل إلى المجتمع المبني على الإيمان والقيم على أنه وَهْم، بدأتُ الآن أرى الشخصيات تتطور،

وقاعات المحاضرات تمتلئ بشباب شغوفين بحضور محاضراتنا، فأدركتُ أنني في بلد رسول الله ﷺ، وأقوم بالعمل الذي أمرني به الله، وأخدم الشباب، وأساعدهم على إحياء مجتمعاتهم المسلمة وتحسين أحوالها، ونجحتُ بفضل الله، وكان ذلك أحلى ثمرة يمكن أن يجنيها إنسان.

المؤتمر الأوّلي المتخصّص

مع أن الندوة العالمية للشباب الإسلامي تشكلت رسميّاً في عام ١٩٧٣، فإننا نظّمنا أول مؤتمر لها فعلاً في عام ١٩٧٢. لم أستطع أن أحضر المؤتمر لظروف كانت تتطلب وجودي في مكان آخر، ولكنني كنتُ واحداً من أربعة أعضاء في اللجنة التنفيذية التي تمّ تشكيلها لهذا الغرض وتمثيل الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، وكنتُ على تواصل دائم مع الجميع لأقوم بدوري عن بُعد. توافد الشباب من المدارس الثانوية والجامعات أبرياءَ ومفعمين بالحماس، ورأينا فكرة تنمية الشباب والطلاب تتشكل أمام أعيننا وتنتشر، وذكّرنا جيل الشباب بأنهم يمثلون مستقبلنا وتتعلق بهم آمالُنا.

كانوا مفعمين بالطاقة والحماسة، وعرضوا علينا اقتراحاتهم الكثيرة والبصيرة، فيما يتعلق بتنمية الشباب. كما استطعنا أن نساعدهم في مشروعات كانوا يفكرون فيها وكانوا يطلبون المساعدة في تنفيذها، ولكننا ساعدناهم في بعضها فقط بسبب مواردنا المحدودة. وكنتُ أنصحهم قائلاً: "ابدأوا بأنفسكم، أنتم الذين تخطون الخطوة الأولى، وسنوفر لكم منبراً. اجتمعوا بأصدقائكم وحاولوا أن تُسخِّروا طاقاتكم في التطوع أولاً، وبعدها سنساعدكم وندعمكم." وبدا عليهم أنهم يستوعبون الكلام جيداً، وزودناهم بالدعم المالي في حدود إمكاناتنا، كما أننا شجعناهم على ممارسة أنشطتهم الخاصة بشكل مستقل، وعلى التركيز على تنمية الذات بوصفها الخطوة الأولى في كل المساعي الناجحة على طريق الدعوة.

أوصىٰ مؤتمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي الثاني الذي عُقد في عام ١٩٧٣ بعقد مؤتمرات دولية متخصصة في مجالات العلم والعمل الإنساني. وكما ذكرتُ من قبل، عُقدت مؤتمرات لاحقاً ركزت علىٰ الجغرافيا والزراعة والفقه، وعُقد مؤتمر رابع عن الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم. ودعم سماحة الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ جهودنا ومهد طريق عقد المؤتمرات في عدد من جامعات المملكة العربية السعودية.

هكذا عُقد مؤتمر عن الفقه الإسلامي في الرياض عام ١٩٧٦، ورأسه رسميّاً ولي العهد آنذاك فهد بن عبد العزيز نيابة عن الملك خالد. اتضح لي أننا في حاجة إلىٰ علماء فقه متخصصين في الدراسات الإسلامية؛ يكتبون أبحاثاً أكاديمية ومنهجية، ويقومون بالتدريس في الجامعات، ويكونون مهتمين بالدعوة الإسلامية، كما يهتمون بالقضايا التي تواجه العالم الإسلامي كي يعالجوها. بمعنىٰ آخر، كنّا نريد حلولاً لتلك التحديات من علماء يستطيعون أن يتصدَّوا لها. كما كنّا نريد منهم أن يتبادلوا التواصل والفكر والعلم النافع. ليس من السهل العثور علىٰ أناس مثل هؤلاء، واستغرقنا وقتاً في وضع قائمة بالعلماء الذين يمكننا أن ندعوهم للمشاركة معنا. وما أن انتهينا من وضع القائمة، وجهنا دعوات لعدد من علماء البلاد العربية وتركيا وباكستان والهند وإندونيسيا وبنجلادش. وترجمنا الدعوات إلىٰ اللغتين الإنجليزية والفرنسية أيضاً.

ذكرتُ الدعوة الإسلامية من قبل، ومن خلال الندوة العالمية للشباب الإسلامي نظمنا مؤتمراً مستقلاً ومتخصصاً عنها. وكان أكثر ما يسعدنا أننا نقوم بالدعوة إلىٰ دين الله بوعي وعلىٰ هدىً، يقول الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. هكذا قاد الرسول ﷺ الدعوة ودعا الناس بلطف واحترام إلىٰ أن يفهموا الإسلام بروح الحوار المتبادل.

قام عبد الله الزايد رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة آنذاك بجهود محمودة، فجزاه الله خيراً. علىٰ سبيل المثال، وجّه دعوة لأكبر عدد من الأشخاص المهتمين

بالأنشطة الدعوية من مختلف أنحاء العالم للقاء، والنقاش، ومشاركة الخبرات، وإيجاد الحلول لمشكلات العمل الإسلامي والمنظمات الإسلامية على مستوى العالم. وحاول أيضاً أن يحل مشكلة الجامعة الإسلامية، إذ إنها كانت مقتصرة على تدريس مذهب واحد آنذاك، فسعى لتوسيع نطاق التدريس بحيث يشمل المذاهب المتعددة الموجودة في العالم الإسلامي، مما أفاد الطلاب كثيراً، ولاسيما طلاب الدراسات العليا؛ لأنه وسّع مداركهم، لتشمل مجموعة أكبر من القضايا والموضوعات المتاحة أمامهم للدراسة والبحث في سبيل الحصول على درجة الماجستير والدكتوراه.

تمخضت المؤتمرات عن بعض التوصيات المفيدة، مما جعل واضعي السياسات يأخذونها بعين الاعتبار. ونحن أيضاً في الندوة العالمية للشباب الإسلامي أخذنا تلك التوصيات في حسباننا بجدية، ومن ثمَّ بحثنا عن طرق لتطويرها وتنفيذها.

انعقد مؤتمر الجغرافيا في عام ١٩٧٨، واستضافته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض. كان المؤتمر جهداً رائداً حاول أن يعالج شؤون المسلمين الجغرافية والسكانية. وكان من النادر في ذلك الوقت أن نرى أية دراسة لمجتمعات المسلمين وأحوالها، باستثناء جهود محمود شاكر أستاذ الجغرافيا في جامعة الإمام، فقد نشر عدة كتب عن الموضوع. وأذكر أنني عثرتُ في شبابي على كتابين من كتبه: أحدهما عن المسلمين "**في تشاد**" والآخر عن المسلمين "**في أرتيريا والحبشة (أثيوبيا)**". وكنّا محظوظين لكونه أحد المتحدثين في المؤتمر، وأسهم فيه إسهاماً جديراً بالاهتمام. فحُدِّدَت المشكلات، ونوقشت الحلول مناقشات مستفيضة، مما أدى في النهاية إلى نشر كتاب وقائع المؤتمر، وحظي الكتاب بثناء على نطاق واسع. وفتح ذلك البابَ أمام بحوث أخرى في المستقبل عن شؤون المسلمين الجغرافية والسكانية.

نظّمنا أيضاً بعض مخيمات الشباب الدولية الرائعة في العالم الإسلامي وخارجه، مما أتاح للشباب فرصة قيّمة للتعارف واكتساب خبرات حياتية جديدة تشمل كثيراً من الأشياء المهمة التي كان من الصعب عليهم أن يتعلموها في مكان آخر.

خطوات على طريق النجاح

من مسؤوليات أية مؤسسة (وكذلك مسؤوليات أعضائها على المستوى الفردي) أن تحلل نقاط قوتها وضعفها، وأن تبني على الخبرة المكتسبة، حتى تحسّن فاعليتها، وتكتسب فهماً شاملاً لطريقة عمل المؤسسة كلها، وكيف يمكن تطويرها. وكانت الندوة العالمية للشباب الإسلامي تسير على النهج نفسه. ولكن لدينا ميزة كبيرة، وهي جودة فريق عملنا، وطبيعة عملنا الجماعي؛ إذ كنّا فريقاً قويّاً جدّاً من العلماء والأفراد المتميزين (بعضهم قضى حياته كلها في البحث والجامعة)، وكلهم كانوا أصحاب علم متبحّر وتجارب واسعة. وكان من بينهم متخصصون في العلوم الاجتماعية والطبيعية والدينية، وأتاح لنا هذا التنوع في مجالات التخصص الاستفادة من المنظورات الغنية والثرية وتكامل العلوم عند وضع الخطط واتخاذ القرارات. بالإضافة إلى أن جميعهم كانوا دقيقين ومنظَّمِين ومحترمين، وكانوا يكرهون حُبَّ الظهور، لأنهم كانوا أناساً يتقون الله. وكنّا نحب ما نفعله حباً أصيلاً، وكان لدينا شغف بعملنا، مما دفعَنا للأمام على الدوام. وعلى الرغم من أننا حاولنا أن نكون حِرَفيين قدر الإمكان واعتمدنا على أنفسنا، طلبنا أيضاً مساعدة الخبراء في تخصصات كنّا نحتاج إليها. فسواء أكان ما بين أيدينا عملاً تكنولوجيّاً، أم مؤتمراً عن التعلُّم والتعليم، أم ندوة عن الزراعة، أم محاضرة عن التفاعل الاجتماعي الإنساني، كنّا ندعو خبراء رائدين ومتخصصين في المجال الذي نحتاجه للمجيء والمشاركة، ووجدنا معظمهم يدعمون عملنا.

وبعيداً عن الشغف، كنّا أيضاً واقعيين فيما يمكننا وما لا يمكننا إنجازه، فوضعنا الخطط بناء على ذلك، وعملنا بحركة ونشاط، مما سرّع من تحقيق الأهداف بدلاً من إهدار وقتنا في مناقشات لا تنتهي وعمليات اتخاذ قرارات ممطوطة، وهي خطر جسيم في العمل التنظيمي.

تظل الندوة العالمية للشباب الإسلامي بتاريخها وأهدافها وإنجازاتها عزيزة على قلبي، ولديَّ ذكريات كثيرة أعتز بها عن الأعمال الكثيرة التي قمنا بها. حاولنا أن

نحصل على أقصى استفادة ممكنة من الميزانية المخصصة، مما أدّى بنا إلى التفكير خارج الصندوق ووضع خطط إبداعية. وفي أوقات تقليص الميزانية كنّا نحدد أولويات أنشطتنا، كما كنّا نسعى للحصول على تمويل من مصادر إضافية، مثلما ذكرتُ من قبل.

على الرغم من أن الندوة العالمية للشباب الإسلامي تتخذ المملكة العربية السعودية مقرّاً لها، كان اهتمامنا الأساسي ينصبُّ على تناول القضايا خارجها، فكنّا نهدف إلى نقل الرسالة للشباب حول العالم، ونقدم الدعم الفكري والمالي والشخصي لمن يطلبه، في سبيل إحياء مجتمعات المسلمين.

مخيم أَبْهَا

في عام ١٩٧٥ أقامت الندوة العالمية للشباب الإسلامي مخيماً شبابيّاً دوليّاً كبيراً في واحة هادئة في مدينة أَبْها. ودعم أمير المنطقة الجنوبية الأمير خالد الفيصل عملنا دعماً سخيّاً بالموارد المطلوبة. وحضر المخيم وفود من مائة وخمسين دولة، مما جعل المخيم كله أكبر من مجموع أجزائه. تعارف الطلابُ، واستفادوا من خبرة كبار العلماء المسلمين حول العالم ممن شاركوا في المخيم، ومروا بتجربة لم نتصوّرها. فقد أبصروا الوحدة في التنوع على مستوى أكبر مما شهدناه نحن على مستوى أصغر. وكان لقاءَ أرواحٍ طيبةٍ، وقلوب تنبض بالتوحيد، ومحبة أصيلة للإسلام فاضت من المخيم وغطت أنحاء قرية أبها كلها. ورحّب بنا أهل القرى في أبها في أحيائهم ومساجدهم، وعاملونا معاملة الضيوف، وابتهجنا برؤية الأفارقة، والآسيويين، والأوروبيين وهم يحتكون بأهل أَبْها. فعلى العكس من المقيمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، لم يرَ أهل أَبْها جماعات عرقية متعددة من هذا النوع من قبل. وكنتُ محظوظاً لأنني رأيتُ المؤمنين غير غرباء، فلغة الإيمان والأخوة في الله تتجاوز كل الحدود.

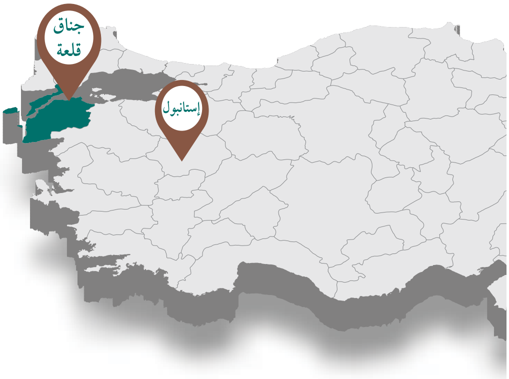

مخيم مدينة جناق قلعة في تركيا Çanakkale

أقمنا ثاني مخيم للشباب على مستوى كبير في عام ١٩٨٠ في مدينة جناق قلعة في تركيا. وهي مدينة ساحلية تقع على مضيق الدردنيل، وحدثت فيها المعركة الكبيرة بين الجيش العثماني وقوات التحالف في الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من زوال الدولة العثمانية منذ عهد بعيد، كانت أصداء الإحساس بالعظمة والفخامة ما زالت تتردد في الجو، وأظن أن هذه الأصداء ستتواصل بإذن الله. تأتي الدول وتذهب، ولكنْ هناك دول قليلة، مثل دولة الرومان، لا ترحل عن الخيال أبداً. وكذلك كانت تركيا؛ إذ كان جوّها يحفّز الفكر الإبداعي والتفكير الناقد. كان المتحدث الضيف هو نجم الدين أربكان، وهو مهندس وأستاذ جامعة (وتولّى لاحقاً منصب رئيس وزراء تركيا من عام ١٩٩٦ حتى عام ١٩٩٧)، وتحدث بحبّ وإيمان وحماس، وافتُتن به الجمهور. كما استفاد الشبابُ من خبرات كثير من العلماء والمتحدثين المتميزين الذين كانوا حاضرين في المؤتمر. كانت كل الأمور تسير على ما يرام، فكانت الشمس مشرقة، والهواء مفعماً بالأحاديث والأفكار، والمناظر الطبيعية التركية آسرة، وفي السماء الصافية الزرقاء لم نرَ السحب وهي تتجمع استعداداً للعاصفة. وفجأة، انقلب الحلم لكابوس، ودخلت البلد في مرحلة غليان سياسي، وقام اللواء كنعان إيفرين بانقلاب عسكري أطاح بالحكومة التركية، وتمّ الزجّ بالناس في السجون، وأُلغيتْ رحلات الطيران، وأُغلقت المطارات. وشعرتُ بالمسؤولية المُلِحّة عن ضمان الإخلاء الآمن الفوري للوافدين إلى المخيم من خارج البلاد. وبدأ البحث المحموم عن أية مقاعد متاحة على رحلات الطيران المتبقية، واستطعنا بفضل الله أن نضمن سفر كل شخص متوجّه إلى وطنه. وعندما عدنا إلى المملكة العربية السعودية،

كان يخنقنا المرارة واليأس؛ فقد قضت تصرفات قلة من الناس على كثير من الاجتهاد والوعود والإمكانات، وأطل الطغيان بوجهه القبيح مرة أخرى من خلال الانقلاب العسكري، وكان المسلمون في تركيا يرغبون في الديمقراطية والانتخابات الحرة، وكانوا يسعون إلى إعادة التأكيد على حقوق الإنسان. وللأسف واجهوا واقع قمع جديد. وبدا الوضع ميؤوساً منه.

كيف يمكن للنور أن ينقلب فجأة إلى ظلام! وتذكرتُ عام ١٩٧٥ عندما كنتُ الأمين العام للاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ونظّمنا أول مؤتمر إسلامي عالمي للاتحاد، وللمفارقة كان في تركيا أيضاً، في فندق طرابية. كانت الأمور مختلفة تماماً آنذاك. وكان نائب رئيس الوزراء التركي أربكان قد قَبِل دعوتنا لأن يفتتح المؤتمر، وكان يقف بهدوء على المنصة استعداداً لإلقاء خطابه. وكانت كاميرات التليفزيون تصوّر كل وقائع المؤتمر، وكان الهواء مفعماً بالترقب لأن ما لا يُتَصَوَّر كان على وشك الحدوث؛ فلأول مرة في تاريخ تركيا الحديث قُرئت آيات القرآن على الملأ في احتفال عام بلسان مقرئ كبير من مقرئي القرآن الكريم، وتردد كلام الله في أرجاء القاعة، وامتلأت القلوب والعقول والنفوس بالرهبة وأَنْصَتت في إجلال وتقدير. كانت التجربة لا تُصدَّق. وكانت الرسالة مؤثرة في النفوس أيّما تأثير: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

كان مضيفنا رجب طيب أردوغان رئيس الاتحاد الوطني للطلبة الأتراك (MTTB) آنذاك ورئيس تركيا الحالي. كان المسلمون يريدون أن يتجنبوا المواجهة، وسعوا للحصول على موافقة السلطات التركية. كان الإبحار في تلك المياه مسألة بطيئة وحساسة، ولكن السلام هو السائد، ولذلك تطورت العلاقات رويداً رويداً، وإن كان على أساس جديد. فلم تتحطم الروح والمعنويات على الرغم من التحديات.

الاستنارة والقيادة

الحياة معقّدة، ودروبنا فيها شاقّة، ولا تسير أمور البشر دائماً في خط مستقيم، فقد تخرج الأشياء عن مسارها مهما أحسن الإنسان التخطيط لها، مما يجعل الذاكرة معقّدة وتصير أكثر التفافاً عندما يتقدم الإنسان في السِّن. أتذكر أنه لم يمض وقتٌ طويل قبل أن يهدأ الأثر الشعوري الذي أحدثه انقلاب تركيا، ولكنه هدأ في النهاية، وتقبّلتُ فكرة أن هذه الأشياء لا مفرّ منها أحياناً، ولا سيما أن العالم الإسلامي كان في حالة تدهور وتقلُّب سياسي لا ينتهي.

ظهر مشروعٌ يشترك فيه الأولاد، وكان بمثابة طوق النجاة لي. فسعدتُ كثيراً عندما أُتيحت لي فجأة فرصة العمل على إنشاء أول مدرسة إسلامية أهلية في المملكة العربية السعودية، وكان الهدف منها تنمية الروح والعقل والجسم، وإنتاج موارد بشرية ترفع من شأن الإسلام بوصفه أسلوب حياة، ونشر الهدي القرآني، وتعليم الناس، وفوق كل ذلك تنمية الإمكانات الكامنة. فكان من المقرر تدريب الطلاب على التحليل وإعمال العقل وتنمية التفكير الإبداعي والناقد. بدأ المشروع حلماً، ولكن توفيق الشاوي أخذ المشروع على عاتقه وحمّسنا، فاجتهدنا لتحويل الحلم إلى واقع.

كان تأسيس (مدرسة المنارات) أول لَبِنة في القيادة والتنمية شهدتُها تتمخض عن هذه الجهود، وصار محمد مهدي مديراً لها (وهو مدير مخيمات في مكتب الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، ومن كبار رجال التعليم). وكان سليمان أبو حجر أحد المعلمين فيها (وهو من أعظم المدربين في مجال الرياضة). بالإضافة إلى أن المشروع كان يعني شيئاً خاصاً بالنسبة لي، لأن ابني محمداً كان تلميذاً في هذه المدرسة.

من الانهيار الاقتصادي إلى النجاح

في عام ١٩٧٦ عانى أناس كثيرون من انهيار مالي عالمي أثّر في أحوال الأفراد والمؤسسات والدول. ونظراً لحرص الندوة العالمية للشباب الإسلامي على مواكبة الأحداث، عزمتْ على عقد مؤتمر عن الاقتصاد الإسلامي، وقبلتْ جامعة الملك

عبد العزيز استضافته، ويرجع الفضل في ذلك إلى رئيسها آنذاك محمد عمر زبير. كنتُ والدكتور عبد الحميد أبو سليمان عضوين في اللجنة التنفيذية للمؤتمر، وقدّمنا المساعدة فيه قدر الإمكان.

دعت الجامعةُ أبرز علماء الاقتصاد الإسلامي في العالم الإسلامي، وكان من بينهم: عيسى عبده من مصر، ومحمد صقر من الأردن (خريج جامعة هارفارد)، وأنس مصطفى الزرقا من سوريا (خريج جامعة بنسلفانيا)، ومحمود أبو السعود من أمريكا (أول من وضع أسس علم الاقتصاد الإسلامي)، ومحمد نجاة الله صدّيقي من الهند، الذي حصل على جائزة الملك فيصل في الاقتصاد الإسلامي.

حاولنا أن نجمع أفضل ما كُتب عن علم الاقتصاد الإسلامي والتاريخ الاقتصادي الإسلامي المكتوب بالعربية، وكذلك المكتوب باللغات الكبرى التي يتحدث بها المسلمون (الفارسية، والتركية، والأردية). وزوّدنا الحاضرين بمادة جيدة عن الموضوع، فأُعجبوا بجهودنا وأفكارنا كثيراً، واستفادوا من هذه المادة أيما استفادة. وبارك الله في جهودنا، فأثمرتْ، وبدأنا نشهد بعد المؤتمر اتخاذ إجراءات ملموسة خاصة بالاقتصاد الإسلامي، فمن النتائج الكبرى المترتبة على المؤتمر تأسيس البنك الإسلامي في دبي بفضل جهود الشيخ سعيد لوتاه، ثم تأسيس بنك فيصل الإسلامي في مصر والسودان بفضل جهود الأمير محمد الفيصل آل سعود. وبعد ذلك، بدأت مئات البنوك والمؤسسات الإسلامية في الانتشار.

النجاح من خلال التأمُّل

كنّا نبحث دائماً في الندوة العالمية للشباب الإسلامي عن طرق نطوّر بها أنفسنا، وبالإضافة إلى آلية العمل الداخلية في المنظمة، أي الأعمال اللوجستية الخاصة بحُسن اتخاذ القرار والتخطيط وإدارة المشروعات، كنّا ننظر أيضاً لأنفسنا بعين ناقدة، لنرى كيف يساعدنا التبادل والتعاون والثقة على تعزيز أدائنا وأداء الندوة العالمية للشباب الإسلامي؛ لأن عصب أية مؤسسة يتألف من الأشخاص العاملين فيها. كما أننا أدركنا

أن الطريق إلى النجاح يبدأ باستخدام الموارد المتاحة، وأن هذه الموارد تتخذ أشكالًا عديدة. على سبيل المثال، ركزنا على الاستفادة القصوى من العلماء المتخصصين المقيمين في البلد، فعملنا معهم وساعدناهم في جوانب عملهم الفنية، وصارت روح التبادل أساس منهجنا في العمل من أجل استثمار الموارد على الوجه الأمثل، ومن ثمَّ تبنَّى هؤلاء العلماء بدورهم كثيراً من الاقتراحات التي تلقيناها بشكل فردي وبشكل جماعي من الطلاب والشباب بوجه عام وشاركناها معهم. وبينما كنّا ننشئ هذه القنوات التي تعاظم أثرها من خلال التبادل والتعاون، وجدنا أنفسنا ننمو على المستويين الفردي والجماعي، بالإضافة إلى ما نتج عن ذلك من تقوية أواصر الصداقة بيننا جميعاً. كما أن أنشطة الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ساعدتنا على توطيد الثقة بيننا وبين شخصيات كثيرة في البلد، وعلى تكوين شبكة علاقات قوية معهم.

١٩٨٤. في عرفات أثناء الحج، ولقاء مع الحجاج العراقيين. الثاني من اليمين صالح السامرائي. وأنا الرابع من اليمين.

حلّ موسم الحج المبارك، وتوافدت الحشود لأداء فريضة الحج، مما زوّدَنا بفرصة هائلة لخدمة أعداد هائلة من حجاج بيت الله، فقمنا بحملة تعليمية وزّعنا فيها الكتب (بلغات متعددة) على الحجاج، وزرنا خيام الحجاج، وألقينا عليهم المحاضرات، وعقدنا لهم الندوات، مما جعلنا نكوّن علاقات قوية بسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (مفتي السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء في ذلك الوقت)، ووُضِعنا في قائمة الأشخاص الذين تلقوا دعوات ملكية لأداء الحج. وفي عام ١٩٧٥

خلال موسم الحج، كنتُ برفقة محمد عبيد، وهو أستاذ هندسة سابق في جامعة الرياض وسعودي من أصل مصري. ولحسن الحظ، كنّا نقيم في السكن نفسه، ومعنا مجموعة من الشيوخ، وسرعان ما صادقناهم. كنّا نأكل ونشرب وننام تحت سقف واحد، مما جعلَنا جزءاً من فريق يقوم بأداء شعائر الحج وتعليم الحجّاج في آن. وصار هؤلاء الشيوخ من داعمي الندوة العالمية للشباب الإسلامي ومدافعين عن أنشطتها.

كانت المملكة العربية السعودية تزخر بمجموعة من العلماء الموهوبين حقّاً، وكنّا محظوظين للغاية؛ لأننا استفدنا من علمهم وحكمتهم. ولكنني كنتُ أدرك أن اقتصار الندوة العالمية للشباب الإسلامي على العلماء المحليين لا يكفي. كنتُ أعرف مسلمين خارج المملكة العربية السعودية ممن يمكنهم الاستفادة من أنشطتها، وكنتُ أريد أن أشارك هذا العِلْم معهم، ولكن لم يكن من السهل الوصول إلى طريقة للقيام بذلك. وكان الخيار الوحيد الذي توصلتُ إليه أن يسافر العلماء في شهور الصيف إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ليزوروا الجامعات الأجنبية، ويلتقوا الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والموظفين، ويلقوا المحاضرات فيها، إلخ. وتمت كتابة مقترح وإرساله إلى دار الإفتاء، وقامت دار الإفتاء بدورها بإحالة المقترح إلى الملك. انتظرنا في ترقُّبٍ، وتكرّم علينا الملك بموافقته على المقترح. فاق ما حدث في ذلك الصيف توقعاتنا، فتم إرسال ما لا يقل عن مائة وخمسين عالماً إلى عدة دول إسلامية (في جماعات مكونة من ثلاثة علماء حتى لا يسافر العالِم بمفرده)، فنشروا المعرفة من خلال إلقاء المحاضرات، وتقديم النصح والإرشاد، وتناول القضايا المهمة التي أثارها الطلاب، واستفادت أعداد لا حصر لها من هذه التجربة. ومن جديد علَّمَنِي اشتراكي في العمل الإسلامي أن أهدافنا لا بدّ أن تكون واضحة ومحددة، ولا بدّ من السعي لتحقيقها باستخدام الوسائل الصحيحة، بدءاً بالتأمُّل الذاتي وتطوير علاقات قائمة على المبادئ، كما تعلمتُ ضرورة الاستثمار الأمثل للموارد التي لدينا.

كان الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس دار الإفتاء قُدوة يُحتَذَى بها في التفاني في خدمة الإسلام وفي الالتزام، وكان مكتبه قريباً من مكتبي في حي عليشة بالرياض. وكنتُ أنتهز الفرصة من آن لآخر لأذهب إليه وأستمتع بصحبته وحكمته. وكان

نائبه الشيخ عبد الرزّاق عفيفي عالماً فاضلاً أيضاً. وكان يلقي خطبه على منبر مسجد صغير بجوار محطة التليفزيون السعودي، وكنتُ أحرص على الذهاب وصلاة الجمعة بإمامته. ولم أكن وحدي في ذلك، فقد حرص كثير من أساتذة الجامعة على الذهاب للصلاة هناك. وكنّا دائماً نسمع شيئاً جديداً من الشيخ عبد الرزّاق عفيفي؛ إذ نستمتع بعد انتهاء الصلاة بنقاش مفتوح معه، ونحن نحتسي الشاي والقهوة.

عندما تلتقي النيات الطيبة بالإرادات القوية، يحقق الأشخاص نجاحات يصعب على المؤسسات تحقيقها. وأذكر هنا الشيخ محمد بن قعود الذي كان قدوة لامعة لمن يريد أن يخدم دينه. وكان في ذلك الوقت مديراً عاماً في دار الإفتاء للعمل الدعوي في الخارج، و هناك نحو ألف شخص يعملون تحت قيادته، وكانوا يحصلون على رواتبهم من دار الإفتاء. وكان الشيخ ابن باز شخصيّاً يدفع رواتب ونفقات سفر ألف وخمسمائة، بمساعدة بعض رجال الأعمال. و وللشيخ ابن باز مساعدون في مكتبه يرسلهم في مهام إلى مختلف أنحاء العالم: إلى آسيا وأفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية والمناطق الشيوعية آنذاك (الاتحاد السوفيتي السابق والصين وأوروبا الشرقية). ورتّبنا مشروع زيارة العلماء للخارج في الصيف مع الشيخ ابن قعود، وكان يناقش معنا التقارير التي تعدها الوفود الصيفية بعد رجوعها. وكنّا ندوّن ما تم إنجازه وما تحتاج الوفود المستقبلية أن تتناوله. ومن الملاحظ أن الوفود لم تكن تركز فقط على القضايا الدعوية، بل كانت تتناول احتياجات المسلمين حتى تفهم بيئاتهم فهماً تاماً، وتقوم بدور ثقافي وتكنولوجي في مجتمعهم والمجتمع الإنساني بوجه عام.

طه جابر العلواني وتطويرات عام ١٩٧٩

كان البحث عن حلول سلمية للمشكلات من المبادئ الأساسية في كل المنظمات التي عملتُ فيها، ولأعضاء هذه المنظمات. إذا نمَّيْنا السلام والهدوء داخلنا، سينعكس ذلك في كل ما نفعله. ومن العناصر الأساسية في هذا الصدد أن نحافظ دائماً على فتح قنوات الاتصال والحوار.

ويخطر ببالي مثال رائع؛ فقد تناهى إلى علمنا أمر قرية في بوركينا فاسو، وهي دولة تتحدث الفرنسية في غرب أفريقيا؛ إذ كان القرويون المتصوفون التابعون لحمد الله قد بنوا كعبة خاصة بهم، وكانوا يطوفون حولها لأداء مناسك العمرة، وبالطبع صدمَنا ذلك التصرف واستفزَّنا للغاية.

سلّمنا تقريراً عن الموضوع للشيخ ابن باز، وكنّا نتساءل عن ردة فعله. ولكننا وجدناه هادئاً متماسكاً، وعجِبنا من عدم ظهور أية علامات ضيق على وجهه الرزين، وطلب منّا بهدوء تام أن نتحرى أكثر عن هذا الأمر، فصار الأمر برمته فرصة له لفهم السبب الذي أدّى إلى القيام بهذا السلوك المتطرف، ولاستثمار هذه الحادثة في هداية أهل تلك القرية. وهكذا تم الحفاظ على فتح قنوات الاتصال، وتم اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب، وهو طه جابر العلواني، فذهب إلى حمد الله للتفاوض وإبعاد الناس عن هذا السلوك المنحرف، مما أدّى إلى حل الأمر برمته حلاً سلميّاً.

ويمكننا أن نتكلم كثيراً عن طه العلواني ـ رحمه الله ـ الذي رحل عن دنيانا في عام ٢٠١٦. كان مفكراً وعالماً عظيماً، وباحثاً غزير الإنتاج، وقرن بين العلم النظري وتطبيقه، فكان يدرك أن البحث العلمي سيفقد قيمته إذا لم يكن له أثر عملي في الحياة. هو من مواليد العراق عام ١٩٣٥ وتخرج في جامعة الأزهر، وصار من أبرز علماء الفكر وأصول الفقه في العالم الإسلامي، وقدم دراسةً وتحقيقاً بارعاً لكتاب فخر الدين الرازي "**المحصول في علم الأصول**" في ستة أجزاء.

رشحت الندوةُ العالمية للشباب الإسلامي طه العلواني لشغل وظيفة أستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وأُعجب رئيس الجامعة بسيرته، فعيّنه في الحال. وهكذا دخلت شخصية مهمة أخرى في حياتي. شارك طه في أنشطة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، واجتهد في العمل في برامجها، وفي أثناء ذلك صار من أبرز الشخصيات التي تكرس جزءاً من نفسها للندوة العالمية للشباب الإسلامي. وغدا مشهوراً بين الشباب، وقد ركز على تطوير برامج لتنمية قدرات الشباب وأنشطتهم.

توثقت علاقة طه والشيخ عبد العزيز بن باز، ومن هنا نبع قرار ابن باز بإرسال طه إلى بوركينا فاسو، مما يدل على مقدار الثقة والصداقة بينهما. وازدادت أهمية العلاقة بينهما عندما قررا أن يتعاونا في دراسة الطرق والوسائل التي من شأنها أن تقلل التوتر مع الشيعة، وتمثّلت الفكرة في إنشاء قنوات اتصال، وتطوير بعض العلاقات الاجتماعية الدالة، وتطوير مجالات للتعاون مع المجتمع الشيعي، وليس التعايش بين الجميع في توازن فحسب. وهكذا تم تشكيل لجنة مكونة منّي وطه ونعمان السامرائي والشيخ عبد الرحمن بن عوين والشيخ محمد بن قعود. ووضعنا خطة شاملة لتحديد مجالات التعاون المحتمل وتطوير كادر جديد من أبناء زعماء القبائل ممن يفهمون المجتمع السُّنِّي ويمكنهم أن يؤثروا في مجتمعاتهم اجتماعيّاً وتنظيميّاً. واجتمعت اللجنة لشهور عدة، وناقشت الخطط، وجمعت الدراسات، وكتبت في النهاية تقريراً مكوَّناً من خمسين صفحة، وتم تقديم التقرير للشيخ ابن باز، وهو بدوره قدمه للملك.

كان توقيت التقرير مؤاتياً، وإن كان لم يتمخض عن شيء، فلم يمر وقت طويل إلا واندلعت الثورة الإسلامية في إيران. بالطبع كانت تلك الثورة حتمية إلى حدّ كبير، بسبب تضرر الشعب الإيراني من أسلوب الحياة الباذخ الذي انتهجه الشاه، مع أن الفقر كان يعمّ البلاد. ولكننا شعرنا بأننا فقدنا فرصة ذهبية، لأن العلاقات كانت في حاجة إلى تدعيم في ذلك الوقت أكثر من أي وقت آخر، وكان من الممكن على الأقل أن يؤدي تقريرنا إلى تحسين الأمور الراهنة تحسيناً كبيراً ويقلّل توتر العلاقات، وكان من الممكن أن يكون له صدىً، ولا سيما أنه كان مبادرة من جانب السُّنَّة. وكنّا حريصين على التعاون مع إخواننا الشيعة، ومناقشة ما يمكننا أن نفعله في الخطوة التالية. واقترح طه أن يقوم الشيخ ابن باز بتكوين علاقات مع العلماء الشيعة والمجتمعات الشيعية، ولكن ذلك لم يحدث، ولا نعرف السبب. ثم بعد ذلك بعام، في عام ١٩٨٠، ظهرت عوائق جديدة، إذ بدأت حرب السنوات الثمانية المأساوية بين العراق وإيران. ومن المفارقات أن وصل صدام حسين والخميني إلى السلطة معاً في عام ١٩٧٩.

أتذكّرُ أن الخميني كانت تحيط به مجموعة متميزة من الشباب، نشأوا في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وكوّنوا علاقات مع المجتمع السُّنّي في الغرب، وكانوا متعاونين ومتفاهمين، لا عنيفين وصِدَاميين. كان السُّنة والشيعة متوحّدين في التزامهم بفرائض الدين الإسلامي في الغرب. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك سبعة وزراء في أول مجلس وزراء للخميني قد تلقوا تعليمهم في أمريكا الشمالية، ومن بينهم وزير الدفاع مصطفى شمران. وأذكرُ أيضاً إبراهيم يزدي الذي صار نائب رئيس وزراء إيران ووزير الخارجية. لقد عملنا معاً دون أية حواجز بيننا، وكان هدفنا المشترك أن نعمل على تحقيق فهم أفضل للإسلام، وأن نحافظ على أخلاق الطلبة المسلمين الذين يدرسون في أمريكا الشمالية. بمعنى آخر، لم يكن الشقاق موجوداً إلا في بطون كتب التاريخ، وفي عقول الناس. وبالنسبة لرجل الشارع، أيّاً كان انتماؤه الأخلاقي أو مُثله العليا السياسية والدينية، من الممكن تماماً في الواقع أن يتلاقى مع إخوانه البشر بروح القيم الأخلاقية المشتركة والإنسانية البسيطة.

جيل جديد

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]

في عام ١٩٨٣ شرعنا في تنظيم مؤتمر دولي آخر من مؤتمرات الندوة العالمية للشباب الإسلامي، واخترنا أن نعقده في نيروبي بدولة كينيا. وتمَّ التقاط صورة معبِّرة في المؤتمر، لأنها تجمع بين الأمناء العامّين السابقين والمستقبليين للندوة العالمية للشباب الإسلامي، وكانت هذه الصورة مناسِبة تماماً، ففي ذلك المؤتمر نقلنا قيادة الندوة إلى الجيل التالي.

١٩٨٣. في كينيا مع مجموعة من قادة الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الأول من اليسار عبد الحميد أبو سليمان (أول أمين عام للندوة). ثمَّ أنا (بصفتي نائب الأمين العام)، ثمَّ توفيق القصيّر (الذي انتُخب ثالث أمين عام للندوة)، ويليه أحمد با حفظ الله (ثاني أمين عام لها).

عندما أنظر إلى هذه الصورة، أجد أنها تُبرز الأهمية الكبرى للتخطيط، لاستخلاف المسؤولين من أجل النمو والتطور في المستقبل. فبالإضافة إلى إيجاد الشخص المناسب الذي يحلّ محلّ الشخص الذي ترك المنصب لتوه، كان تدريبُ قادة المستقبل على تولي المناصب القيادية من أساسيات تخطيط الاستخلاف. ولكي نقوم بذلك، كان علينا أن نتنحّى جانباً أولاً، ونفتح أبواب هذه المناصب. بمعنى آخر، لو كنّا بقينا في مناصبنا ندير كل شيء، وذلك سهل جداً، كان ذلك سيعني القضاء على إمكانات القيادة لدى الجيل التالي، وربما الأجيال التي بعده أيضاً. من أخطاء المؤسسات الإسلامية أحياناً غياب الاستمرارية بين القيادة القديمة والقيادة الجديدة التي تحلّ محلها. ولذلك شكّلنا في مؤتمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي فريقاً جديداً. واتفقنا جميعاً على أن كبار القادة لا بد أن يكونوا من الشباب السعوديين. ومن الواضح أن الذين اخترناهم كانوا متمكنين ومؤهلين لتحمل المسؤولية واتخاذ القرار، ولديهم خبرة في الدعوة الإسلامية، ولديهم تاريخ طويل في مجال العمل التطوعي، ويتمتعون كذلك بالذكاء والعلم وحسن الأخلاق. وشعرنا بأن هؤلاء الشباب قادرون على تقلد المناصب

القيادية. وكان من بين هؤلاء الشباب على سبيل المثال أحمد باحفظ الله، وتوفيق القصيِّر، وهو ذو شخصية نموذجية، كما أنه كان طالباً مثاليّاً في كلية الهندسة بالرياض، وحصل على شهادة الدكتوراه من الولايات المتحدة الأمريكية.

إن تخطيط الاستخلاف بمثابة تطوير للإمكانات الداخلية والمهارات اللازمة لتقلُّد المسؤولية، وهو في الواقع شيء يقوم به تلقائياً الآباء الحكماء في تربية أطفالهم. فعندما كنتُ طفلاً، أذكر أنني كنتُ أقف في متجر والدي، وكان يكلفني بمسؤولية القيام بشيء أو آخر. وقد شعرتُ بالأهمية واكتسبتُ ثقة. وفيما بعد، تحوّل ذلك إلى العمل في الجوانب المالية وجوانب أخرى في أعمال والدي، والمهم أنه تحوّل إلى التصدق على الفقراء أيضاً. أدعو لوالدي بالرحمة؛ لأنه أعطاني في ذلك العُمر المبكر فرصة ممتازة تعلمتُ فيها كيف أدير شركة وأعتمد على نفسي. وسمح لي ذات مرة أن أسافر معه من أربيل إلى بغداد لعقد صفقة تجارية. فلاحظتُ ما يقوم به وشاركته إياه، مما علمني مجموعة من المهارات القيّمة، واستفدتُ منها لاحقاً في كثير من العمل الذي كنتُ أقوم به.

لم نُلقِ الفريق الجديد في عمق البحر ونتوقع منهم أن يسبحوا. في الواقع، قضينا سنة كاملة في تدريبهم، فضَمِنَ ذلك انتقالاً سلساً للمناصب، كما ضمن فهمهم لأبعاد كل قضية ومشروع وقرار يشاركون فيه، وأنهم سوف يشقّون طريقهم بنجاح، وأدّى ذلك إلى زيادة أنشطة الندوة العالمية للشباب الإسلامي يوماً بعد يوم.

الحج إلى القرآن الكريم

القرآن كلام الله، وهو الحلقة التي تصل بين الدنيا والحياة الحقيقية، وهي حياة غامضة ومخفية تدل على كل ما هو روحاني، وعلى عبادة الله بتسليم تام، وعلى حسابنا بعد الموت ويوم الساعة عندما يفنى كل الوجود. وبذلك يتطلب كلام القرآن انتباهاً جاداً وكاملاً. وبما أن القرآن الكريم يكشف مشيئة الله، فلا بد أن يتغلغل في كل ذرة

من وجودنا، وينبغي علينا أن نسعىٰ لتمثُّلِه في كل جوانب حياتنا. ولكن علىٰ الرغم من أن القرآن يُقرأ ويُحفظ ويُوقَّر بهذه الطريقة، فإن كلام القرآن بالنسبة لبعض الناس مجرد كلام يتلونه بألسنتهم دون أن يصل إلىٰ قلوبهم أو يطبقونه في سلوكاتهم. ووقع بعض الشباب المسلم في هذا الفخ، فإما أنهم هجروا القرآن (سواء أكان ذلك علىٰ مستوىٰ التلاوة أم التعلم أم التطبيق أم التعليم أم السعي لضمان تحقُّق العدل)، أو أنهم يجلُّونه بلسانهم فقط من خلال تلاوته دون استيعاب رسالته. وسنضيع لو فقد القرآن سلطته علينا. كنّا نفهم ذلك فهماً تاماً، وكنّا نعرف أنّ علينا أن نقوّي علاقة الجيل الأصغر بالقرآن الكريم. ومن هنا قرر مجموعة من العلماء أن يتناولوا هذه القضية، ومن بينهم الشيخ محمد علي الصابوني؛ والشيخ عبد الله علوان (من سوريا)؛ والشيخ حسن الشربتلي (المشهور بأعماله الخيرية وحبّه للخير). كتب الشيخ الصابوني تلخيصات للكتب الضخمة بما فيها "**مختصر تفسير ابن كثير**" و"**صفوة التفسير**". وكانت هذه الكتب تفسيرات للقرآن الكريم كُتبت بطريقة سهلة الفهم. وكتب الشيخ علوان كتاباً باللغة العربية عن "**تربية الأولاد في الإسلام**". وأنعم علينا الله بداعمين لهذه الكتب. فدفع الشيخ حسن الشربتلي تكلفة طباعة مليون نسخة من ملخص "**مختصر تفسير ابن كثير**" ومليوني نسخة من ملخص "**صفوة التفسير**". وكانت نصف هذه النسخ ذات غلاف سميك. كما طُبعت أربعمائة ألف نسخة من كتاب "**تربية الأولاد في الإسلام**".

اتفقنا مع الشخص المسؤول عن طباعة الكتب علىٰ أن يتم توزيع الكتب بعد طباعتها مباشرة علىٰ الدول التي حددناها له، بدلاً من وضعها في المخازن. وتواصل معي بسام الأسطواني مدير دار القرآن الكريم شاكياً: "مطلوب مني أن أرسل كميات ضخمة من هذه الكتب لدول مختلفة، ويجب عليّ أن أقدم إيصالات تُثبت أن الشحنات تم استلامها؛ لأن المموّل طلب ذلك. ما ينبغي عليّ فعله؟" فعرضتُ عليه قيام الندوة العالمية للشباب الإسلامي بمساعدته بشرط أن تقوم بتحديد الجهات التي سوف تتسلم الشحنات، وأن تُمنح هذه الجهات مسؤولية توزيع الكتب.

وضعنا القوائم وأجرينا المكالمات الهاتفية، وتكفل الإخوة في الدول المختلفة بتسلُّم الكتب وتوزيعها على المساجد والمنظمات والمراكز الإسلامية، وفي زياراتي حول العالم، ولا يقل عدد البلدان التي زرتها عن مائة وثلاثين دولة، عادة ما كنتُ أرى الكتب في أرفف الكتب في المساجد والمنظمات التي دخلتُها، وسعدتُ كثيراً بذلك. وأدعو الله بالرحمة وحسن الجزاء لمؤلفيها ومموليها وموزعيها. فقد استطاع المسلمون في أماكن كثيرة جداً أن يستفيدوا منها، ومنهم طلاب وأئمة وباحثون وعاملون في مجال الدعوة وعامة الناس، وتفيض مشاعري عندما أفكر في الأثر العظيم الذي حققتْه هذه الكتب. وكشف لنا هذا الجهد مدى احتياج مجتمعات المسلمين للمساعدة والدعم. ومن يعملون على بناء المنازل وبناء المساجد كثيرون، والحمد لله، ونحن نقدّر جهودهم، وندعو الله لهم بحسن الجزاء، ولكن الأولوية تكمن في بناء عقول المسلمين ونفوسهم، لأن تنمية السَّاجد تسبق بناء المساجد.

كان العمل الإسلامي يتطور بسرعة أيضاً في الجزء الشمالي من أمريكا الجنوبية، ولا سيما في سورينام. فقد تحررت سورينام من الاحتلال الأوروبي، وأبصرتُ فرصة لمساعدة المجتمع بدعم جهد يسعى لترجمة معاني القرآن الكريم للغة الهولندية. عملنا معاً مع أخ من رابطة العالم الإسلامي. وقدّم الشيخ حسن الشربتلي التمويل اللازم. واكتمل المشروع في النهاية بعد التغلب على بعض العقبات.

أدّى التمويل والتبرعات دوراً هائلاً في تسهيل جهود الآخرين، وكنّا نتلقى أحياناً مبالغ كبيرة لإنفاقها على توزيع الطعام أو مساعدة الأيتام أو بناء المساجد. وكنّا دائماً نُشرك منظمات متخصصة في هذه المجالات، وكذلك المنظمات التي لها خبرة فيها، للعمل معنا. وبذلك يتم تدعيم هذه المنظمات، وتشارك في عمل الخير، وتنال خير الجزاء من الله سبحانه وتعالى. كما أننا نشرنا فكرة العمل التطوعي بين الدعاة، والحاجة إلى الاشتراك في الأعمال الخيرية. وكانت جهودنا تبتغي وجه الله فقط، ونحن أنفسنا

لن نتلقَّ مقابِلاً ماليّاً أو نطلبه. فكانت أموال المموِّل تذهب كلها إلى المشروع المموَّل، ولم يُنفَق ريال واحد على المصاريف الإدارية أو احتياجاتنا التنظيمية. في الواقع، كنّا نؤكد دائماً للمموِّلين أن أموالهم تُنفق على الوجه الصحيح، وكنّا نُعد تقارير تفصيلية وبيانات مالية عن كل مشروع ونقدمها للمموِّلين، وكنّا على استعداد دائم لاصطحاب الممولين في زيارات ميدانية لرؤية نتائج دعمهم.

تيسير عملنا

أتاحت لنا الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية فرصةً كبيرةً للقاء بعض الأشخاص الرائعين، وكان من بينهم أخ في بنسلفانيا اسمه عبد الرحمن بن عبد العزيز ابن عبد الله بن حسن آل الشيخ. كان يلاحظ أنشطتنا ويتكلم عن ملاحظاته مع العائلة والأصدقاء في السعودية في أثناء إجازات الصيف. ونتيجة لذلك، أعرب معارفه عن اهتمامهم بعملنا واستعدادهم لتقديم المساعدة لنا، وطوّرنا علاقات قوية أنمتْ عملنا الدعوي؛ لأنهم قدموا الدعم الأوليّ لكثير من مشروعاتنا.

أدركتُ عطاء الله في ذلك، فعلى طريقنا لمساعدة الشباب المسلم والإنسانية، كتب الله لنا أن نلتقي بكثير من أصحاب النفوس الجميلة، ومحبي الخير الذين يتسمون بإيثار وإحسان لا حدود لهما. ومن بينهم الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، الإمام السابق للحرم المكي وإمام صلاة العيد في الحرم. واستطعتُ أن أحضر ندواته في الرياض بعد صلاة العصر وبعد صلاة المغرب. وكان كثير من الناس يريدون أن يعرفوا حالة العمل الإسلامي حول العالم، ومن ثمَّ بدأت في تجميع أخبار المسلمين وإعداد تقارير موجزة عنها تُظهر أنشطة الندوة العالمية للشباب الإسلامي. وفي هذه التقارير، تكلمتُ لهم أيضاً عما يحدث في أوروبا وأمريكا، وسهّل ذلك كثيراً من الدعم لأعمالنا والاهتمام بها.

تحقيق اللامركزية في العمل الدعوي

أحياناً تفرض المركزية قيوداً على العمل في كثير من المنظمات الإسلامية، ولكننا سعينا للاعتدال والسير في طريق وسطى في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بما يسمح بحرية أكبر للعاملين فيها. فسعينا جاهدين لمساعدة كل شخص يشترك في العمل الخيري والمجتمعي الدعوي أينما كان، وعهدنا إلى الشيخ محمد بن قعود بهذه المهمة، فكان يحدد المناطق التي تحتاج إلى مساعدة، ثم يساعد الأشخاص المعنيين على بدء برامجهم الخاصة، وتطوير بعض الخطط الإستراتيجية التي تبتعد عن المركزية في القيام ببعض الأعمال. بالإضافة إلى الدرجة العالية من المركزية التي تقيد العمل الدعوي، هناك عقبات أخرى تفرض قيوداً على هذا العمل، مثل عدم فهم بيئة العمل أو غياب التمويل. وعملتُ مع بعض العاملين في مجال الدعوة على أساس تفهُّمي لظروفهم، فبعضهم كانت لديه القوة والوقت الكافيان للقيام بالعمل المجتمعي، ولكن مواردهم المالية كانت تحدُّ من قدرتهم على التحرك أو القيام بالمزيد من الأنشطة. وغياب التمويل جعل عملهم مقتصراً على منطقة جغرافية محدودة، مما حرم مناطق كثيرة من الدعم، وأكّدتُ ضرورة تزويد هؤلاء العاملين النشطين بالمزيد من الدعم ولو قليلاً، وبنفقات الانتقال. وتم إعطاء النشطاء هامش حرية في الإنفاق حسب ما تتطلبه الظروف والأحوال. وكنّا نقوّم كل عامل، ونطلب منه أن يزوّدنا بتقرير شهري عن أنشطته، وكانت التقارير تذكر القرى التي تمكن النشطاء من زيارتها، وهو إنجاز لم يكن ممكناً من قبل. كما بدأ النشطاء في الاهتمام بالمناطق التي كانت مهملة من قبل بسبب نقص الموارد المالية، وعدم القدرة على إيجاد مواصلات قليلة الأجرة توصلهم إليها.

قمنا بزيادة تنوُّع الأنشطة والأدوات المتوفرة للعاملين في مجال العمل المجتمعي الدعوي، كخطوات ضرورية لتحقيق قدر من تفويض السلطات واللامركزية، وعملنا على زيادة التعاون مع رابطة العالم الإسلامي، ودار الإفتاء في المملكة العربية السعودية، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت. وأقنعنا كثيراً من العاملين

ومناصريهم بتأسيس منظمات فيما بينهم تسهّل التعاون والتكامل والتفاهم والتواصل. وهناك سبب مهم وراء كفاحنا في سبيل زيادة وسائل التشغيل اللامركزية في المنظمات الكثيرة التي تنضوي تحت لوائنا، فقد وجدنا بعضهم يستغلون وجودهم في الوظائف القيادية في تعزيز مكانتهم الاجتماعية، بدلاً من أن يعدّوا وظائفهم مسؤولية لتقديم الدعم والنصح والخدمة.

من مزايا احتكاكنا بالعاملين على نطاق واسع في بلدان بلغ عددها نحو ثمانين دولة، أننا أصبحنا واعين بالمشكلات المالية الكثيرة التي تواجه المسلمين في هذه المناطق، وربما لم يسبقنا أحد في إدراك هذه المشكلات. فقد تلقينا الأخبار، مثل المراسلين الصحافيين، قبل أي كيان آخر، ومن قلب الحدث، بشكل موثوق به، دون أي تحريف صحفي أو أيديولوجي. ثم اضطلعنا بإعلام السلطات المناسبة التي يقع حل هذه القضية أو تلك في نطاق صلاحياتها.

كان عملنا يقوم على مبدأ مهم وهو "كل شخص له قيمة، أيّاً كانت مكانته الاجتماعية والاقتصادية أو بيئته أو أوجه قصوره". فالإسلام يعدّ كل شخص جديراً بالإكرام والاحترام، وكل شخص يستطيع أن يرتقي مكاناً عليّاً في مراتب الإيمان ويدخل الجنة. ووجّهنا إخواننا لتوسيع نطاق جهودهم بحيث تشمل مناطق كان العالم قد أهملها، مناطق الفقراء والمحتاجين الذين كانوا يشعرون بأنهم مُهْمَلون. ومن أكثر الأشياء التي كانت تُثْلج الصدر في زياراتي للخارج لقاء الناس الذين ساعدناهم والنظرُ في عيونهم، فنظرة العرفان في عيونهم أغلى من كل شيء في هذه الدنيا. أعطينا هؤلاء الناس إحساساً بقيمتهم، إحساساً بأننا نقدّرهم كثيراً، مما كان له عظيم الأثر في أحوالهم. وكانت زياراتنا في العادة مفاجئة لهم، وكان إحساسهم بوجودنا معهم يجعلهم يشعرون بأننا نقدّر قيمتهم حق تقدير. أحياناً أعايش هذه اللحظات في خيالي من جديد مرات ومرات، وأتذكر قول سيدنا محمد ﷺ: "هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟" (صحيح البخاري). ومن آليات كتابة التقارير الأخرى، كان الإخوة يرسلون

لنا تقارير مكتوبة بخط اليد من الميدان في تلك البلدان يذكرون فيها تفاصيل الموقف وتطوراته. ثم نقوم بدراسة التقرير وتحديد الخطوات اللازم اتخاذها استجابة لطلب أو لآخر. وكانت سلامة الناشط وخبرته والظروف المحلية ذات أهمية قصوى عند تحديد هذه الخطوات. وفي هذه المرحلة، كان لدينا عدد كبير من النشطاء متوزعين على ثمانين دولة.

لم نقصر التقارير على التوزيع الداخلي بيننا، بل كنّا نكتبها على الآلة الكاتبة ونوزّعها على كل الداعمين، أفراداً ومؤسساتٍ. وكان كثير من زملائنا يتطلعون لتلقي هذه التقارير المنتظمة حتى يتعرفوا على ما يحدث في مجالات نشاطهم. ونفد منّا الوقت مراراً وتكراراً ونحن نحاول أن نُعِدَّ هذه التقارير ونرسلها بالبريد لكل المعنيين. فمَن في أفريقيا تلقوا تقارير عن أفريقيا، ومن في آسيا تلقوا تقارير عن آسيا. وكانت بعض التقارير تتعلق بأمور عامة، ولذلك كنّا نرسلها إلى جميع المعنيين. وأفادتنا هذه التقارير في دراسة تطور العمل الخيري الدعوي وآثاره في المعنيين به، كما أفادتنا في تحديد الاختلافات بين مكان وآخر، وكذلك الاختلافات في المنهج والتنظيم.

التحديات التي تفرضها الدول العربية

لم تؤثر الاختلافات الفقهية أو المذهبية في عملنا في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بل شعرنا بأن الاختلافات تمثل استنارة العقل المسْلم، ومرونة الشريعة الإسلامية، وقدرتها على قبول وجهات نظر متعددة، فالاختلافات بين المذاهب لم تُعِق جهودنا أو تَحُدَّ منها، فمددنا أيادينا لكل المسلمين، ومن ثمّ انتشر عملنا في قارات العالم، ولاسيما في أفريقيا وآسيا والعالم العربي.

على الرغم من أن أنشطة الندوة العالمية للشباب الإسلامي كانت تُقام في الشرق والغرب على حدّ سواء، فقد واجهتْنا في العالم العربي صعوبة في توسيع نطاق عملنا؛ إذ

لم تسمح لنا أنظمة الحكم العربية بوجه عام بإنشاء منظمات طلابية أو جماعات شبابية دعوية في بلدانها. وكانت الحكومات في العادة تسيطر على هذه المنظمات وتوجّهها، فهي التي تختار الموظفين، وتملي على المنظمة هيكلها وسياساتها وأنشطتها، ولم تكن هذه المنظمات تتبع أسلوباً إسلاميّاً مستقلاً، فكانت مجرد لعبة في يد السلطة السياسية. ومن ثمَّ لم تمتد لتصل إلى الشباب بما يلبي احتياجات وتطلعات مجتمعاتهم ودينهم.

الشجرة الطيبة تُثمر ثماراً طيبةً

كانت سنواتي في شبه الجزيرة العربية دوّامة من العمل الأكاديمي والمجتمعي، فقد انكببتُ على العمل بشغف وحماس. وخلال تقلباتها ما بين إشراق وانطفاء، اتسعت رؤيتي وخبرتي فيما يتعلق بالوضع البائس الذي تعيش فيه مجتمعات المسلمين، والمخاطر التي يتعرض لها شباب يضعون الله على هامش حياتهم، تلك الحياة القائمة على اللهو، لا على الإيمان والمسؤولية المدنية.

كما أنني تعلمتُ كيف يمكن لكل واحد فينا أن يلعب دوراً حيويّاً من خلال سعينا لأن نُخرج أحسن ما فينا، ولأن نحقق إمكاناتنا وننمو، ومن ثمَّ نتخلص من البؤس الذي يتّسم به مجتمع المسلمين. وتعلمتُ أيضاً أننا يمكننا أن نؤثر في الآخرين تأثيراً إيجابيّاً من خلال اتخاذ خطوات بسيطة على طريق خدمة الإنسانية، وأن نطوّر قدرات غيرنا من خلال نقل علمنا وخبراتنا لهم ونحن نضع المستقبل نصب أعيننا. كما أنني التقيتُ بعض الأشخاص المتميزين الذين خصصوا جهودهم لخدمة الدعوة إلى الله والعمل الخيري، وينمّ ما تفضلوا به من وقتهم وأموالهم عن مدى سلامة إنسانيتهم، وسهّلت إسهاماتهم جهودنا إلى حد كبير. ولفتت هذه النوايا والقيم والأفعال أنظار الآخرين، وجعلتهم ينظرون إلينا نظرة طيبة، مما أدّى إلى البدء في مشروعات قيّمة أفادت كثيراً مجتمعات المسلمين والشباب بطرق مختلفة متعددة، وطوّرت العلاقات الروحية والاجتماعية بينهم.

إنَّ الولد الصغير الذي وقف ذات مرة في متجر والده نضج وصارت له أسرة مستقلة، وأصبح يحظى بصداقة ومودة الصالحين. ولم أتخيل، أو يتخيل والدي، الدرب المبارك الذي ستسير فيه حياتي بفضل الله تعالى، وبفضل العمل الذي استحوذ عليّ استحواذاً كاملاً لدرجة أنني في أثناء اجتهادي لم أطلب إلا رضا الله، ولم أرغب إلا في تحسين أحوال غيري. إنه أسلوب حياة بسيط، ولكنه يترك آثاراً لا تُمحى. من المؤكد أن الشجرة الطيبة تثمر ثماراً طيبة. وصدق حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ حين قال: "وماءُ العودِ من حيثُ يعصـرُ" .

الفصل الثامن

حول العالمِ
مع إمامينِ

تغرّب عن الأوطان في طلب العلى
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

الإمام الشافعي

كم ستكون الحياة مملة من دون التحديات والعقبات! دائماً أجد المثابرة تؤتي ثمارها، بشرط أن نشكر الله من قلوبنا على كلّ ما يحدث لنا، وأن نبحث عن الجانب المشرق الذي سيقودنا حتماً إلى دروب جديدة. يريد منّا الله سبحانه وتعالى أن نعيش في هذه الدنيا بالثقة والمثابرة، وأن نكون متصالحين مع أنفسنا ومع مَن حولنا، لا أن نيأس من جراء الابتلاءات التي تزيدنا حكمة وعلماً وترتقي بأخلاقنا إلى قمم لا نتخيلها. فكيف سندافع عن أنفسنا أمام الله العدل إذا اختبأنا من العالَم ومن أنفسنا؟

هذه بعض الأشياء التي أفكر فيها في العادة عندما تعترض النكسات طريق أهدافي، وتهدد بالقضاء على الأمل لديّ. سجنُ العقول كبير، ولكي ننفذ من أسوار مخاوفنا وشكوكنا المتزايدة باستمرار بسبب لعب الشيطان بعقولنا، علينا أن نتغلب عليها ونسمو فوقها. وليس هذا بالأمر السهل، فالخوف من الفشل يُضعفنا، ويحجب عنا نقاط قوتنا، ويمنعنا من تحقيق أهدافنا. لكنني لم آبه بالخوف من الفشل كثيراً، فالله ينظر إلى جهودنا وإلى نيّاتنا من وراء أعمالنا، إلى الخطوات التي اتخذناها لنصعد الجبل، وليس إلى وصولنا لقمته. لا أفضّل أسلوب الحياة الذي يقوم على الرغبة في الفوز مهما كان الثمن، فليست هذه طريقتي في النظر للأمور. فنحن بوصفنا مسلمين نتطلع إلى

الأفضل، ولكن هذا التطلُّع موقف مختلف تماماً عن موقف الخوف من الفشل. فما ضايقني أكثر من أي شيء آخر هو عجزي عن تقديم المساعدة، حتى لو بذلتُ أقصى ما في وسعي، عندما تكون هذه المساعدة ضرورية. آمل أن يكون قد اتضح للقرّاء الأعزاء، وأنا أكشف أمامهم صفحات حياتي، أنني حاولتُ أن أعيش حياتي وأنا أركز على الجهود التي أبذلها، مع أنه قد يبدو عليّ أنني أركز على النتائج.

ولذلك، على الرغم من أنه لم يكن من السهل علينا أن نرى الأبواب تُغلق في العالم العربي ولأسباب متعددة، فإننا اخترنا أن ننظر إلى الأماكن التي تُفتح فيها. كان العالم من حولنا يدخل في عصر جديد من النزعة الاستهلاكية المسعورة، فكان الناس يسيرون وراء رغباتهم على حساب حياتهم الروحية، أو تقودهم الإعلانات البراقة ووسائل الإعلام الأخرى إلى ذلك، مما يجعلهم، للمفارقة، يفقدون راحة بالهم أسرع من الوقت الذي يستهلكون فيه المنتجات المعلن عنها. ومع ذلك، استشعرنا أيضاً يقظة إيمانية أكبر كانت تظهر على السطح في أجزاء كثيرة من العالم، وكأنها ظهرت لتطَهّرهم من آثار هذه النزعة الاستهلاكية، كما لو كان الإنسان قد شخّص مرضَه، وفهم علاجه عن طريق الحدس. كان كثير من المسلمين في حاجة ماسة إلى الإرشاد والنصح، وكنّا نريد أن نصل إليهم ونمدّ لهم يد المساعدة. وبدأت الفكرة تتشكل في ذهني.

هناك شيء مهم تعلمتُه على مدار كل هذا العمل المجتمعي، وهو أننا يمكننا أن نسهِّل تحقيق الأهداف بالعمل على أساس مبادئ الثقة والتعاون والتبادل على مستويات عُليا. فعلمتني تجاربنا قيمة المؤاخاة التي أسسها النبي محمد ﷺ؛ فضرب الأنصار أروع الأمثلة في التاريخ، من خلال اضطلاعهم بالمسؤولية الأخلاقية تجاه المهاجرين من مكة الذين جاءوا من الصحراء غرباء معدمين، فتقاسم معهم الأنصار ما لديهم. فقد أنشأ النبي ﷺ رباط المؤاخاة هذا بعد هجرته من مكة إلى المدينة، وهو رباط يكشف مقدار التحوُّل الذي أحدثه النبي ﷺ، فتطورت القبائل المتحاربة في شبه الجزيرة العربية تطوراً أخلاقيّاً. ومن يفهمون الخلفية التاريخية لهذه المنطقة سيقدِّرون

هذا الإنجاز حق قدره، فقد كان تحقيق المؤاخاة معجزة بكل المقاييس في منطقة كان فيها الدم رخيصاً لا قيمة له.

لذلك تهتز مشاعري إجلالاً عندما أقرأ أي حديث نبوي عن المؤاخاة، لأن روح التضحية والتراحم فيها انعكاس لنفوس سَمَت وارتقت. ومن وجهة نظري، وأيّاً كان مقدار إدانتنا للعنصرية ورغبتنا في السلام، يتطلب تحقيقُ المؤاخاة نفوساً صفتْ وسَمَت واستطاعت أن تتحرر من قيود الأنانية. ولا يمكن لذلك أن يتحقق إلا برؤية روحانية. أظن أن ما كُتب من أبيات شعرية عن الموضوع يلخص جوهر العمل القائم على الإيثار أفضل تلخيص، وها هي بعض الأبيات التي أُغرم بها بوجه خاص، وهي منسوبة إلى الإمام علي كرم الله وجهه:

إنَّ أخاكَ الحقَّ مَـنْ كانَ مَعَكْ ... ومَـنْ يضرُّ نفسَهُ لينفعَـكْ
ومَنْ إذا ريبُ الزمانِ صَدَعَكْ ... شتَّتَ فيهِ شَمْلَهُ ليجمَعكْ

تعلمتُ بالطبع قيمة المؤاخاة عندما كنتُ طالباً، فكنتُ أعمل مع الزملاء لمساعدة عدد كثير من الجاليات المسلمة التي كانت تعاني من حولنا. ولكن صدى قدوة الأنصار يتردد لدى المسلمين بوجه عام على مدار الزمان. قد لا يصل المسلمون إلى تحقيق المعيار الذي تم وضعه في ذلك اليوم البعيد في المدينة المنورة، ولكنهم على الأقل يدركون حقيقته ومغزاه. إن فكرة المؤاخاة عظيمة؛ فمجرد وجودها في أذهان الناس يؤدي إلى تولُّد الثقة والاستقرار والأمل في المستقبل. وعلى النقيض من ذلك، كان زعم (داروين) البقاء للأفضل إدانة للإنسان، ويؤدي من وجهة نظري إلى الاكتئاب ويتعارض مع الرؤية النبوية؛ لأن الأنبياء جعلوا المفاهيم الأخلاقية واقعاً معيشاً، وجاء على أثر تراحمهم آلاف لا حصر لها من عامة الناس الذين اختاروا أن يعيشوا حياتهم بروح التضحية؛ مما يبرهن على صدق تعاليم الأنبياء، وليست الطبيعة الأنانية للنفوس التي تحركها الأنا.

إنني أكتب عن المؤاخاة لسبب وجيه؛ لأنها أدّت إلى إثمار فكرة كانت تتقد في داخلي، ولم أشأ أن أتخلى عنها. كان عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله بن حسن آل الشيخ من بين الذين كوّنتُ معهم علاقة صداقة قوية عندما كنتُ في بنسلفانيا. فتآخينا مباشرة، وكان يتكلم عن كثير مما كنّا نقوم به في اتحاد الطلبة المسلمين مع أهله وأصدقائه عندما يذهب لزيارة وطنه في العطلات الصيفية في السعودية. وعندما أصبحت السعودية وطني تعرفتُ على والد عبدالرحمن سماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ إمام الحرم وإمام وقفة عرفة في الحج، وأرشدَنا كثيراً في مساعينا. كما أننا استفدنا بطرق أخرى من وجوده بوصفه عالماً. فمِن علمه، عرفنا كثيراً عن جوهر الإسلام، ومبادئ العقيدة والتوحيد، ومسؤوليات الإنسان أمام الله، والعلاقة بين التوحيد وتفاصيل الفكر الإسلامي، وإنجازات الحضارة الإسلامية.

طُلب مني أن أشاركهم التقارير الخاصة بحالة المسلمين في الشرق والغرب، وأبدى الشيخ عبد العزيز آل الشيخ على وجه الخصوص حماساً ودعماً عظيمين في كل مرة كان يسمع فيها إنجازاتنا على مستوى العالم بفضل جهود الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

عندما كنتُ برفقته، بدرت لي الفكرة التي ذكرتُها من قبل. فكنّا محظوظين بنهلنا من كل هذا العلم، ولكن ماذا عن الآخرين البعيدين الذين لا ينهلون من علمه؟ في الواقع، هم الذين كانوا في حاجة إلى هذا الإرشاد لأسباب عدة، منها طغيان المناخ العلماني والمادي على الروحانيات.

عندئذٍ سألت نفسي: لماذا لا نطلب من سماحة الشيخ عبد العزيز أن يفكر في السفر للخارج؟ فعندما يسافر، يمكنه التعرف على أجزاء من العالم، ويلتقي المسلمين وغير المسلمين من مختلف البيئات والأديان. وهم أيضاً يمكنهم أن يلتقوه شخصيّاً، ويستمعوا إلى ما يقوله، وسيستفيد الجميع من هذا التواصل الإيجابي. وعندما عرضتُ عليه الفكرة، وافق على الفور. وكان هناك شخص آخر أريد أن أدعوه، وهو الشيخ سعيد بن عبد العزيز الجندول، وكنتُ قد التقيتُ به من خلال الندوة العالمية للشباب

الإسلامي، وهو من الزملاء المقربين لعبد الحميد أبو سليمان، ووجدتُ فيه مفكّراً مستنيراً، وشخصية متبسّطة، ورفيقاً مثاليّاً في السفر، ويمكن للناس أن يستفيدوا من علمه. وله إسهامات مهمة في وزارة التعليم، ثم تمت ترقيته لمنصب حكومي أرفع، مما يعني أنه كان مشغولاً للغاية. وعلىٰ الرغم من ذلك، عرضتُ عليه الفكرة، ويسعدني أن أقول: إنه قبل العرض عندما أدرك أهميته.

أود أن أؤكد نقطتين هنا: أولاً، كان أمامنا جدول سفر مُرهق للغاية، فكان علينا أن نسافر إلىٰ ست عشرة دولة. ثانياً، بعيداً عن تكلفة تذاكر الطيران (فقد صدر أَمرٌ مَلَكيّ بصرفها لنا)، اتفقنا علىٰ أن نتحمل كل المصاريف الأخرىٰ وندفعها من جيوبنا، وأن نحصل علىٰ إجازات من أعمالنا، وأن نضع بعض الخطط الدقيقة قبل سفرنا. ومع أن أهدافنا كانت واضحة، فإن الوقت كان قصيراً. وكنّا مطالبين بأن نكيّف هذه الأهداف علىٰ ظروف كل بلد، ولذلك اقترحتُ أن نتعاون مع المنظمات المحلية؛ لأنها تعرف أفضل ما يلبي احتياجات المجتمع المحلي، ولأن نصائحهم لنا ستتوافق مع تلبية هذه الاحتياجات. ففعلنا ذلك في الوقت المناسب، ووضعنا خطة لكل دولة بالأنشطة والأماكن التي سنسافر إليها والناس الذين سنقابلهم.

في عام ١٩٧٨ سافرنا نحن الثلاثة، وتشرفتُ بصحبة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ والشيخ عبد العزيز الجندول في رحلة عظيمة تجولنا فيها حول العالم في سبعين يوماً، وكان هدفنا ببساطة هو تكوين علاقات مع نفوس تشبهنا تبحث عن خير الإنسانية، ويتعلمون منّا ونتعلم منهم. وحصلتُ علىٰ إجازة من كلية الهندسة بموافقة وزير التعليم العالي. أمّا بالنسبة للندوة العالمية للشباب الإسلامي، فكان عملي فيها تطوّعيّاً، وهذا عنصر مهم من عناصر فاعليتنا، مما يعني أنه لا مشكلة في أن أسافر. وخطرت ببالي آيتان من القرآن الكريم عندما حان يوم السفر: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٨]؛ ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. كانت الآيتان صدىٰ لعزمنا وما كان يقرُّ في قلوبنا.

باكستان

تم استقبالنا في باكستان بحفاوة. وأنبأ ذلك الاستقبال عن الخير الذي سيرافقنا في رحلتنا الطويلة، وسُررنا عندما رأينا أن مسلمين وبعض الساسة رفيعي المستوىٰ كانوا حريصين علىٰ مقابلتنا والإعراب عن تقديرهم لما كنّا نحاول فعله. وأظن أن ما جذبهم هم وغيرهم لنا صدق نياتنا والمكانة العلمية لرفيقيّ.

كان الإمام أبو الأعلىٰ المودودي نقطة اتصالنا، وهو عالم مشهور وفيلسوف وفقيه وقائد وصحفي، وكنتُ قد التقيتُ به من قبل في عدة مؤتمرات واجتماعات في السنوات الماضية، وسعدتُ برؤيته من جديد، وفي وطنه في هذه المرة. أخبرْنا المودودي بوقت وصولنا، وتركنا الباقي له. فنظّم لنا جولة عظيمة مليئة بالأنشطة، بما فيها زيارة ثلاث مدن كبرىٰ بها أكبر عدد من السكان: كراتشي، ولاهور، وإسلام أباد (العاصمة).

لكن حتىٰ قبل أن تحدث هذه الأحداث، انتشر بسرعة خبر أن الشيخ عبد العزيز سيزور باكستان. ووجدتُ نفسي في يوم من الأيام أتلقىٰ مكالمة هاتفية مدهشة من مكتب رئيس باكستان الراحل ضياء الحق يخبرني بمدىٰ تشرفهم بالزيارة المرتقبة، وأن الرئيس حريص علىٰ الترحيب شخصيّاً بالشيخ في إسلام أباد، وعلىٰ إقامة مأدبة غداء علىٰ شرفه. تأثرتُ بهذا الترحيب، وطلبتُ أن يكون المودودي منسّقنا، وأن يضع جدول الدعوات في جولتنا.

توالىٰ أدب الأخلاق، فحدث أن كان هناك خلط في خطط رحلات الطيران في طريقنا إلىٰ باكستان، ولكن مكتب الرئيس تدخل بسرعة ورتّب لتغيير خط سير الطائرة وهبوطها في إسلام أباد، كنوع من التكريم الخاص للشيخ. وعند وصولنا، وجدنا مبعوثاً خاصاً في انتظارنا، وأخذَنا لملاقاة الرئيس والوزراء وكبار المسؤولين. كان الأمر يفوق الوصف. قابلناهم جميعاً، وتناولنا الغداء معاً، وتحدثنا بأريحية عن موضوعات عدة. وأذهلني الإحساس بالارتباط الأخوي بين الضيوف والمضيفين. ولا شك في أن ذلك كان نتيجة العقيدة، فهي الوحدة التي لا يمكن إلا للإيمان بالله

أن يزرعها في قلوب البشر، فتزيل كل أنواع الحواجز، وليس حواجز الثقافة والعِرق التي قد يقيمها البشر فحسب. ويسري ذلك بصورة أكبر كلما زادت تقوىٰ الله لدىٰ الإنسان.

كان مضيفونا صريحين جداً معنا، فتحدثوا عن أحلامهم وصراعاتهم، وعن الإسلام وحبّهم له. بمعنىٰ آخر، لم يكن حديثنا ذلك النوع من المحادثات التي تدور في العادة مع الساسة والمسؤولين. ونحن بدورنا كنّا نستمع إليهم بأناة، وتحدثنا عن تجاربنا وخبراتنا. وعندما حان وقت الصلاة ابتهج كل شخص بشرف الصلاة وراء إمام الحرم المكي، لأن بعضهم كانوا يشعرون أنهم لن يستطيعوا الذهاب إلىٰ مكة في يوم من الأيام.

ثم انتقلنا إلىٰ منزل الإمام المودودي، وكانت صحته في تدهور. فجلسنا بجانب هذا العالم والمؤلف ذائع الصيت، ودعونا له بالشفاء العاجل. تذكرتُ كتبه التي علمتْنا كثيرَاً وأنارت طريق أعمالنا الدعوية والخيرية. كنّا نقرأ كتب المودودي باللغتين العربية والإنجليزية، وترجمها عن اللغة الأردية الشيخ خليل الحامدي ـ رحمه الله ـ . وكلما التقت عيناي بعيني المودودي، وجدتُ عشقه وتحمّسه للارتقاء بإيماننا بالله، وكان ذلك من طبعه، ومن الموضوعات المشتركة في كل كتاباته وخطبه.

ابتسم المودودي ابتسامة عريضة، وأشار بإصبعه إلىٰ الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، قائلاً: "هو إمام الحرم المكي". ثم أشار إليّ وقال: "هو إمام الشباب". وانتشر كلامه انتشاراً بين الناس، فكان يتم تقديمي في أي مكان أذهب إليه بأنني "إمام الشباب". وأجج هذا اللقبُ حماسي، وأعطاني إحساساً بالمسؤولية أكبر من المسؤولية التي كنتُ أضطلع بها من قبل. وحتىٰ يومنا هذا، أسأل الله عندما أكون بمفردي أن يهبني النجاح، ويهديني، ويلهمني الإخلاص والمثابرة، حتىٰ أكون عند توقعات إخوتي وأساتذتي.

عقدنا عدة مؤتمرات وندوات في كراتشي. وعندما كان الشيخ عبد العزيز يتحدث، كنتُ أترجم حديثه من العربية إلىٰ الإنجليزية. وعندما كنتُ أتحدث بصفتي

ممثل الشباب المسلم على مستوى العالم، كنتُ أناقش تجربتنا ومحن الشباب وتطلعاتهم. واجتمعت رؤية إمام عظيم (إمام الحرم المكي) مع النصائح البنّاءة التي كان يسديها الشيخ سعيد الجندول، مع ما عبّرتُ أنا عنه من تطلعات الشباب ومِحنهم من خلال تجربتي. كان تكاملاً جميلاً رحب به الجمهور، وتكمن قيمته في شموله وقدرته على تجاوز الفردية وتأكيد التماسك الجماعي.

الهند

سافرنا بعد ذلك إلى الهند، واعتنت الجماعة الإسلامية في الهند بجولتنا، فكان الشيخ محمد يوسف يرافقنا في كل خطوة، وأحسسنا وراء ملامحه البشوشة روح أسد. ونظّم سلسلة ندوات حضرها ربع مليون شخص. ذهلتُ من الأعداد الغفيرة، التي أتت للصلاة وراء إمام الحرم المكي والاستماع إلى نصائحه، والاستفادة من حكمته.

انتقلنا من دلهي إلى لكناو، ومن أكبر علمائها العلّامة المشهور مولانا أبو الحسن الندوي، وكنّا نتطلّع كثيراً للقائه. وعند خروجنا من المطار، وجدنا مسلمين وهندوس وسيخ يصطَفُّون على جانبي الطريق من المطار إلى المدينة على مسافة تمتد لثلاثين كيلومتراً. هكذا الهند، وهكذا شعبها الذي جاء لتحية إمام الحرم المكي وللإعراب عن امتنانه بفرصة استضافة ضيفه المسلم. كان جميلاً أن نرى الناس من كل الطوائف والأديان يأتون لتحية الإمام. اقترب منّا رجل نبيل من السيخ، وهو يحمل هدية صغيرة تعبيراً عن امتنانه للشيخ ورفاقه. وأثّر فيّ هذا الموقف كثيراً.

تجمع المسلمون في لكناو لصلاة الجمعة، ووصل عدد الحاضرين إلى مليون شخص. ما زلتُ مندهشاً وأنا أكتب الآن وأتأمل حقيقة تجمُّع مليون مسلم معاً في ذلك اليوم. رأيتُ أشياء كثيرة في أسفاري، ولكن ذلك الحدث كان هائلاً للغاية ولا يُقارن به حدث آخر. إن تخطيط أتباع الشيخ الندوي وحدهم لذلك كان يذهل العقل. وفي المساء، نُصبت الكراسي استعداداً لمحاضرة المساء، وتجمع فيها ثمانمائة ألف شخص

حريصين على الاستماع للشيخ.

عزز تمثل هذه الأحداث ثقافة التجمع لدى المسلمين، وهي ثقافة بدأت في التشكُّل من خلال تكويننا لشبكات علاقات، وعملِنا التنموي التنظيمي حول العالم، وعززت الرحلة إلى كلكتا هذا الدربَ. فمع أن آلاف الناس في كلكتا كانوا ينامون على الأرصفة، فإن المسلمين كانوا منظَّمين. كانت هناك مجموعات مسؤولة عن زيارتنا، وتعاونت المنظمات الإسلامية المتعددة مع حركة الشباب المسلم في كلكتا لتنظيم زيارتنا لمقرات بعض هذه المنظَّمات، وكذلك تنظيم اجتماعاتنا المتنوعة. وحضر ما يقرب من نصف مليون شخص في ميدان عام فسيح.

انبهر الشيخ بمدى قدرة الجمعية الإسلامية والمنظمات الأخرى في دلهي وكلكتا على إعطاء الأولوية لترجمة معاني القرآن الكريم إلى كل اللغات الرسمية في المنطقة، وكذلك إلى اللغات غير الرسمية. وكان هناك معرض منظّم لهذه الترجمات، وفيه خارطة للهند تحدد كل لغة ومنطقتها الجغرافية وعدد الناطقين بها. كان عدد سكان الهند في ذلك الوقت ثمانمائة مليون نسمة، وتعداد سكان الهند لعام ٢٠٢١ بلغ تقريباً ١,٣٩٣,٤٠٩,٠٣٨ نسمة، ويتراوح تقدير عدد المسلمين في الهند ما بين ١٧٢-١٩٥ مليوناً.

بنجلادش

بلغ عدد سكان بنجلادش عام ٢٠٢٠ قريباً من ١٦٥ مليوناً، وغالبيتهم مسلمون (أكثر من تسعين بالمائة). ولغتها الرسمية هي البنغالية، وهي لغة الغالبية المسلمة؛ وهناك بعض اللغات المحلية. وبوجه عام، اللغة الهندية في الجزء الجنوبي من شبه القارة الهندية هي اللغة الثانية لكل المسلمين. والمسلمون يفهمون أيضاً اللغة الأُرديّة بدرجات متفاوتة، وتُعد اللغة الأُرديّة هي لغة العقيدة للمسلمين، وخاصة الممارسين منهم لفرائض دينهم. وهذا يجعل اللغة الأُرديّة هي اللغة العامة لكل المسلمين في شبه القارة الهندية، بالإضافة إلى أن الأُرديّة تربطهم بتاريخ الأمة الإسلامية وحضارتها.

في أثناء رحلتنا إلىٰ بنجلادش، استطعنا أن نحضر اجتماعات مع قادة العمل الإسلامي، وأن نلتقي قادة المنظمات الإسلامية هناك. وعرفنا أن الأنشطة الدعوية تتسم بالتخصص الذي تنتهجه كثير من المنظمات. فكانت بعض الجماعات تركز علىٰ نشر الإسلام للناس بوصفه شكلاً من أشكال الدعوة، وبعضها كان ينمّي ويُنشئ الوعي بمبادئ الإسلام، وبعضها كان يعمل علىٰ الحفاظ علىٰ الهوية الإسلامية في جميع أنحاء بنجلادش. وفي ذلك الوقت، كانت بنجلادش -بعد الانفصال عن باكستان- بلداً جديداً عمره سبع سنوات فقط.

زرنا رئيسَ بنجلادش، كما زرنا رئيس الهند من قبل عندما كنّا في دلهي. وزرنا أيضاً بعض كبار المسؤولين في الحكومة، ورؤساءَ جامعات، وبعض الوزراء. وكنتُ سعيداً لأن الشيخ استطاع أن يكوّن رؤية شاملة عن مجتمعات المسلمين كما كانت فرصة وطّدتْ علاقتي بهذه الجماعات حتىٰ أستطيع أن أنشئ جسوراً للتواصل بيننا، مما أتاح فرصاً لوسائل مثمرة للتعاون في المستقبل.

كان ضياء الرحمن رئيسَ بنجلادش في ذلك الوقت، ولعب دوراً كبيراً في تنمية وعي إسلامي كبير، وكان يركز بوجه خاص علىٰ الشباب؛ فقام بتعديل الدستور ليضيف الإيمان بالله ويلغي العلمانية القسرية، كما جعل التعليم الإسلامي إلزامياً في المدارس. وللأسف اغتالته عناصر من الجيش في عام ١٩٨١.

رحّب بنا الرئيسُ ترحيباً حارّاً، كما رحب بنا كبار المسؤولين في بنجلادش بحرارة. وألقىٰ الشيخ بدوره خطبة جميلة، وركزتْ نصائحه فيها علىٰ وحدة المسلمين، وضرورة الحفاظ علىٰ الأخلاق والمبادئ والعقيدة، وترجمتُ خطبته إلىٰ اللغة الإنجليزية. وفي مناسبات عدة، التقاني الأشخاص الذين يتحدثون اللغة الإنجليزية، وكنّا نجلس معاً، ونناقش كثيراً من القضايا، بما فيها قضايا تخص الطلاب والشباب، وما يمكن فعله لتحسين الوضع في بنجلادش.

كان الطلاب في الجامعات يمارسون الإسلام بشكل جيد، ولكنهم كانوا يواجهون ضغطاً كبيراً من اليساريين والاشتراكيين. وكان من المهم تجنُّب الصدام في ظل تلك الظروف، لأن الصدام قد تترتب عليه نتائج سلبية وأحداث عنف خطيرة. ولكن الوضع تدهور، واتضح ذلك عندما عدتُ إلى اتحاد الطلبة المسلمين في بنجلادش بعد ثلاث سنوات من هذا اللقاء الأول. فلاحظتُ قدراً كبيراً من الغضب في كل مكان.

مسجد "بيت المُكرّم" أكبر مسجد في بنجلادش، ويتكون من ثلاثة طوابق، وتحيط به ساحة كبيرة. تجمع أربعمائة ألف مصلٍّ داخل المسجد وخارجه، وأَمَّهم الشيخُ عبد العزيز في صلاة المغرب. ثم ألقينا خُطبنا. ولكن عندما حان وقت انصرافنا، كان كل الموجودين في المسجد يريدون أن يسلّموا على الشيخ. وتزايد التدافع بين الناس، وبدأ الموقف يتحول إلى الخطر فعلاً. فطلبنا المساعدة من الجيش، وتم فتح ممر لنا لنخرج منه. بالطبع كان ذلك تعبيراً عن الحبّ لا أكثر. وفي اليوم التالي، قامت الصحف بتغطية اللقاء تغطيةً إيجابية رائعة.

تايلاند: أقلية المجتمع المسلمة

أقلّنا القطار من بنجلادش إلى تايلاند، ويشكّل المسلمون فيها أكبر أقلية دينية من عدد السكان. يوجد حوالي مليون مسلم في بانكوك والمحافظات الجنوبية. يُسعدني وجود المسلمين فيها، فأي بلد أو منطقة أو أرض فيها مسلمون قريبة من قلبي وعزيزة عليه.

كانت زيارة الشيخ عبد العزيز لتايلاند مفاجأة؛ لأن كثيراً من المنظمات الإسلامية هناك لم تتوقع مثل تلك الزيارة الميمونة لبلد يمثل فيه المسلمون أقلية مغمورة نسبيّاً. وتمخضت الزيارة عن لقاءات مهمة مع الشخصيات والمنظمات الإسلامية. وأقيمت الاحتفالات، كما أقيمت بعض المآدب الفخمة غير المتوقعة. ودُعي لها الشيخ ومجموعة من كبار الشخصيات وسفراء الدول الإسلامية. وأبدوا لنا احتراماً كبيراً، وأولونا قدراً كبيراً من الأهمية والحب اللافتين.

ماليزيا: عميد السلك الدبلوماسي

لم يقلّ استقبال الشيخ عبد العزيز في ماليزيا عن الاستقبال الذي حظي به في الدول الأخرىٰ التي زرناها. التقينا هناك بأنور إبراهيم الذي كان قد أُطلق سراحه من السجن منذ فترة قريبة، كما التقينا بسفير المملكة العربية السعودية في ماليزيا الشيخ محمد الحمد الشبيلي، الذي كان السلك الدبلوماسي كله يحترمه ويُعجب به، وصار يُعرف بلقب "سفير السفراء" أو "عميد السلك الدبلوماسي". والتقيتُ به لأول مرة عندما كان سفير السعودية في أفغانستان في عام ١٩٧٤. حيّانا بإجلال في المطار، وكان يحيط به ممثلو ماليزيا الرسميون وهم يقدمون لنا أطباقاً كبيرة من الفاكهة مليئة بأشهىٰ الفواكه المحلية. وكان معروفاً بأنه يستضيف كل شيخ أو علّامة من العالم الإسلامي استضافة تدل علىٰ كرم بالغ.

كان أنور قد طلب من قبل تمويلاً لبناء مقر لحركة الشباب المسلم في ماليزيا. ووافقت الحكومة السعودية علىٰ طلبه، وأرسلتْ مليوني ريال للمشروع. وجمّدت الحكومة الماليزية المبلغَ لمدة عامين إلىٰ أن استطاع أنور إبراهيم أن ينضم لها، فحوّل الشيك الذي كان باسمه لحساب حركة الشباب المسلم.

كنّا آنذاك، كما نحن الآن، علىٰ علاقة طيبة مع الحكومة الماليزية، وقدّرتْ الدور الذي تلعبه الندوة العالمية للشباب الإسلامي ودورَ الحكومة السعودية في دعم العمل الإسلامي في جنوب شرق آسيا بوجه عام. كان أنور إبراهيم ممثلاً لماليزيا في المجلس العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي. للعمل الإسلامي وجوه كثيرة يمكنها أن تفيد الأمة الإسلامية، وتعزز علاقات أفضل بين الدول الإسلامية. وما زلتُ أذكر الخطبة التي ألقاها الشيخ عبد العزيز في المسجد الوطني بماليزيا ونقلتْها كل وسائل الإعلام.

زرنا منظمات إسلامية، وتحاورنا معها، وحثثناها علىٰ التواصل مع المنظمات الإسلامية الأخرىٰ حتىٰ تعزز بناء شبكات علاقاتها، وتوفّق بين وجهات النظر. وحضرت المنظمات الإسلامية بدورها خطبنا، وفتحت أبوابها لنا، لأنها كانت تحترمنا، وكانت تتشرف بالشيخ.

الحُبُّ في الله

الحب في الله أهم جوانب أي سعي لتوحيد الإنسانية، فهو أفضل الطرق لدخول الجنة. في أثناء زيارتي، خصصتُ بعض الوقت لتأمل مقدار الحب الذي أظهره الناس لنا في كل مكان ذهبنا إليه. رأينا الحب في عيون الناس وهم يسلّمون علينا بوُدّ واحترام. لم يُبدِ الشيخ أية وعود بتقديم مساعدات مالية، ولم يكن لدى الندوة العالمية للشباب الإسلامي الكثير لتقدمه أيضاً، فمواردها محدودة تماماً. ومع ذلك، تم الترحيب بنا بحب حقيقي. يعلمنا الإسلامُ أن الجزاء الحقيقي لا يكمن في الأشياء المادية، بل في مدى حسن معاملتك للناس، ومدى صدق حبك لأخيك الإنسان. وأثبتتْ لي مثل هذه الأسفار أهمية الإحساس بالأخوّة والوحدة في النجاح.

سنغافورة

كانت سنغافورة المحطة التالية في خط سيرنا. ومع أنها بلد صغير، فإنها منظّمة تنظيماً جيداً، ومتطورة للغاية، على الرغم من قلة مواردها. وسنغافورة من البلدان القليلة التي تفرض ضرائب على المسلمين لتمويل بناء المساجد وتقديم الخدمات الإسلامية. وهذا أسلوب مفيد جداً، وأدّى إلى تنظيم شؤون المسلمين تنظيماً جيداً. والعلاقات بين المنظمات الإسلامية والحكومة في المنطقة علاقات طيبة جداً؛ لأن قيادة المسلمين في سنغافورة تركز على بناء جسور التواصل. وكانت السفارة السعودية في سنغافورة نشطة على مستويات عدة، وفي مجموعة متنوعة من القضايا، وحققت ترابطاً ساعد المجتمع الإسلامي السنغافوري كثيراً. وتم الترتيب لإلقاء الشيخ بعض الخطب.

إندونيسيا

قادتنا أسفارُنا بعد ذلك إلى إندونيسيا. وفي وقت زيارتنا لها، كان النشطاء المسلمون يتعرضون للتضييق في عهد سوهارتو. كان محمد ناصر القائد الفعلي للعمل الإسلامي في إندونيسيا، وتعرّض لمضايقات كثيرة في تنظيم رحلتنا، ولكنه تمكن من التنسيق مع الحكومة

والترتيب لزيارتنا. وساعدنا عبدُ العزيز العمّار مساعدة كبيرة، فجعل رحلتنا سلسة وذات قيمة كبيرة، وقد تسلّم نائب وزير الشؤون الإسلامية في المملكة العربية السعودية، وكان يشغل من قبل منصب رئيس المعهد السعودي في جاكرتا. والتقينا برئيس إندونيسيا وبعض كبار المسؤولين. كما التقينا بعامة الناس بفضل جهود كثير من المساجد الكبيرة في توصيل رسالتنا للناس؛ إذ نظمتْ هذه المساجدُ خطباً وصلوات، وترجمتْ خطبنا العامة.

كانت هناك استجابة كبيرة من الناس. ففي مرتين أو ثلاث، كان عدد الحاضرين يربو على نصف مليون شخص. ولا شك في أن نجاح هذه الجهود يرجع إلى تفاني كثير من الرجال والنساء في القيام بهذه المهمة. كان هناك عدد من القادة الشباب المسلم في إندونيسيا، ومنهم عماد الدين عبد الرحيم، وكان سمحَ النفسِ، ويحظى باحترام الجميع، وأثمرتْ كلُّ جهودهم بفضل الله. وزرنا مدينة باندونج Bandung، وهي ثاني أهم مدينة بعد جاكرتا. ألقى الشيخ خطبته في المسجد، ورأيتُ مدى تأثيرها في نفوس الحاضرين. وفي أثناء هذه الرحلات، قضينا اللحظات القليلة المتاحة لنا في التنعُّم بجمال الأماكن وروعتها. بين جاكرتا وباندونج منطقة سياحية تسمى بونكاك، وهي من أجمل الأماكن التي يمكن تخيُّلها، ومليئة بعجائب خلق الله. كما أننا زرنا معهد النجاح في بوجور، وهو ينشر اللغة العربية. وألقى الشيخ عبد العزيز خطبة في معهد بوجور للزراعة، وهو معهد يخرّج متخصصين يساعدون الفلاحين الإندونيسيين على النجاح في الزراعة، ويشارك خريجوه في حملات التعليم والتوعية الخاصة بالشؤون الإسلامية في المناطق الريفية.

هونج كونج: مَدرستانِ للمسلمين

لم تكن للمسلمين في هونج كونج آنذاك أية سلطة اجتماعية أو سياسية، وكانت أنشطتهم تقتصر على أداء الفرائض. وكانت للجالية المسلمة مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية، ولم يكن مدير المدرسة الثانوية مسلماً. وكانت هناك عدة منظمات إسلامية، ولكن أنشطتها كانت محدودة أيضاً. ومع ذلك، كانت فرص العمل الدعوي كبيرة، بسبب الحريات الممنوحة للجميع، وانفتاح البلد الذي كان تحت الحكم البريطاني آنذاك.

نظّم (يوسف يو) جدولنا، وهو من أكثر الشباب المسلمين نشاطاً في هونج كونج. والتقينا بالسيد صادق، رئيس الرابطة الإسلامية، والسيد قاسم توت رئيس الاتحاد الصيني الإسلامي للأخوّة والثقافة. كان السيد (توت) مالك المدرسة الابتدائية الإسلامية الوحيدة وكذلك الكلية الإسلامية. وتجمع المسلمون في المسجد للصلاة وراء إمام الحرم المكي والاستماع لخطبته. ودعاهم الشيخ للتركيز على هوية أطفالهم الإسلامية، والاعتصام بدينهم وتقويته.

اليابان: أنظمة متطورة

ونحن ننتقل عبر المطارات المتعددة، وصلنا أخيراً إلى اليابان، أقصى مكان في شرق الكرة الأرضية. رحبتْ بنا السفارة السعودية ترحيباً حارّاً، وعقدنا بعض الاجتماعات الرسمية وغير الرسمية. وأكد الشيخ في خطبه على نقطتين مهمتين: وحدانية الله، وأخوّة المسلمين.

١٩٧٨. ألقي خطاباً في اليابان أثناء الرحلة. والمشاركان الجالسان هما إمام الحرم الشيخ عبد العزيز عبدالله آل الشيخ ثمَّ سعيد الجندول.

١٩٧٨. اليابان: صالح السامرائي، رئيس الجمعية الإسلامية في اليابان، في أول اليسار. وأنا الرابع، والخامس هو الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، والسادس الشيخ سعيد الجندول، وخلفي مباشرة موسى عمر من السودان

١٩٧٨. اليابان. مع بعض المسلمين في طوكيو.

١٩٧٨. اليابان. بعض الإخوة اليابانيين الذين اعتنقوا الإسلام.

١٩٧٨. اليابان. الشيخ عبد العزيز عبد الله آل الشيخ، إمام الحرم المكي، يعلّم الشهادتين لشخص يعتنق الإسلام.

١٩٧٨. مع المسلمين في طوكيو. أقدم هدية مكونة من أشرطة كاسيت في حضور إمام الحرم المكي.

زرنا اتحاد الطلبة المسلمين في اليابان، وتعرفنا على التحديات التي تواجههم. وشجعهم الإمام، وتحدثتُ معهم عن تجاربي. وكانت احترافيتهم مبهرة، ومنهجهم سليماً، فهم ينخرطون في الخدمة المجتمعية للمسلمين اليابانيين والمسلمين العرب المقيمين في اليابان، وكانوا يحترمون الثقافة اليابانية، ويتّبعون أسلوبهم في السلوك المنظَّم، كما أنهم استفادوا من حكمة اليابانيين في أسلوبهم المتكامل في تنمية الإنسان عبر تقوية العقل والجسم للتغلب على الصعوبات.

ناقشنا أهمية العمل المؤسسي المنظم وأثره في حياتنا. وأكدنا على ضرورة تبنّي النظام وتنمية الإحساس به، فالنظام في الواقع سمة جوهرية من سمات الشخصية اليابانية. وأظن أن المسلمين ينبغي عليهم أن يدرسوا معجزة التنمية في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، ويستفيدوا منها. كيف تعافى اليابانيون بسرعة، ليصنعوا اقتصاداً

من أكبر اقتصاديات العالم على الرغم من دمار هيروشيما، ونقص الموارد الطبيعية، والزلازل والأعاصير المتكررة؟

تُعلِّمُنا اليابانُ درساً رائعاً ينبغي علينا أن نلتفت إليه وندرسه. فضلاً عن ذلك، عندما يكتشف الشخص الياباني خالقَه ويدخل في الإسلام، تكون النتيجة مذهلة. فلنأخذ الطبيب (شوقي فوتاكي) على سبيل المثال؛ وهو مدير أحد المستشفيات الكبيرة في طوكيو. بمجرد أن اعتنق الإسلام، ساعد على دخول عدد كبير من اليابانيين رجالاً ونساء في الإسلام. فكان نجاحه المهني والدعوي مثلاً رائعاً يُحتذىٰ به.

أتذكّرُ زميلي العزيز صالح السامرائي، فجهوده مع الإخوة الآخرين أدّت إلى تأسيس مركز طوكيو الإسلامي. وعندما حدث زلزال فظيع في اليابان وقررت الحكومة أن تبني مباني مكتبية محل المسجد المنهار، حرص صالح على إنقاذ المسجد. وفي إحدى المحاضرات التي ألقاها الشيخ عبد العزيز وتناول فيها جوهر المشاعر الإنسانية والذكاء البشري، اعتنق حوالي ألف ياباني الإسلام بُعيد انتهائه من محاضرته.

أمريكا: العالَم الجديد

انتقلنا من اليابان إلى أمريكا. استغرقت الرحلة بالطائرة ثماني ساعات، وتوقفت في هونولولو في جزيرة هاواي. وكانت هذه أول مرة للشيخ يزور فيها أمريكا. وبالنسبة لي، كانت أمريكا وطناً من أوطاني، وكنتُ سعيداً بوجودي فيها من جديد.

عرّفتُ الشيخ على زملائنا والعاملين في مجال الدعوة هناك، وكوّن صورة واضحة عن مستوى العمل الخيري والمجتمعي. وسافرنا إلى عدد من الولايات، وزرنا المناطق الثرية والمناطق التي يضربها الفقر، وفي أثناء ذلك كله، ساعد الشيخُ في حل بعض القضايا التي يكتنفها الخلاف، كما قدّم نصائح عامة.

١٩٧٨. شيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية. برج سيرز (ويُعرف الآن باسم برج ويليس). أول ناطحة سحاب في العالم صممها المهندس فضل الرحمن خان، الذي اصطحبنا أنا والشيخ عبد العزيز آل الشيخ إمام الحرم المكي في جولة في المبنى.

رتّبنا أيضاً زيارةً للمهندس البنغالي المسلم فضل الرحمن خان الذي صمم أطول برج في العالم آنذاك وساعد في بنائه، وهو برج سيرز في شيكاغو. تم الانتهاء من ناطحة السحاب التي يبلغ ارتفاعها ١٤٥١ قدماً (٤٤٢ متراً) في عام ١٩٧٣، واسمها الرسمي الآن برج ويليس Willis Tower. وسُرَّ خان كثيراً بقبول الدعوة، وأسرع للقاء الشيخ. أُحبُّ أن أرىٰ المسلمين وهم يصيرون جزءاً مهماً وأساسيّاً من المجتمع الأكبر، فيقومون بدورهم في تنميته، ويتحملون مسؤولياتهم المدنية تجاهه بطرق إيجابية رائعة.

زرنا واشنطن العاصمة، وإنديانابوليس، ولوس أنجلوس. ومن أهم القضايا التي تناولناها في هذه الرحلة التقدُّم السياسي للجالية المسلمة؛ إذ بدأ المسلمون يمثّلون أنفسهم سياسيّاً بطرق بسيطة من قبيل ممارسة حقهم في التصويت في الانتخابات. وكانوا من قبل يرفضون التصويت بسبب تحريم بعضهم علىٰ المسلمين المشاركة في الانتخابات. وتجاوزت الجالية المسلمة في أمريكا هذه المرحلة بفضل جهود أناس من قبيل حسّان حتحوت ـ رحمه الله ـ في المركز الإسلامي بجنوب كاليفورنيا، وجهود أخيه وأخينا العزيز ماهر حتحوت ـ رحمه الله ـ الذي ترك موته فراغاً كبيراً في ذلك المكان.

عندما غادرنا أمريكا، تركنا خلفنا الهدايا التي أعطاها لنا أشخاص كثيرون قابلناهم هناك. فمن عاداتي أنني كنتُ عندما يعطيني شخص هدية أعطيها بعد ذلك لأول شخص نقابله في طريقنا. قال رسول ﷺ: «تَهَادُوا تَحَابُّوا» [رواه البخاري].

ينبغي على المشاركين في الدعوة إلى الله أن يدرّبوا أنفسهم على فعل شيئين: أولهما الترفُّع عن الأمور المالية، والعمل والعطاء لوجه الله تعالى، وخاصة إذا كانوا في موضع القيادة، فلا يأخذون أجراً على عملهم إن استطاعوا. والأفضل أن يستقلَّ المسلم مالياً بعمله، وينذر نفسه وماله لله. أما الشيء الآخر فهو الابتعاد عن إغراءات الشهرة والوظيفة والأنانية لأنها مدمرة. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

العودة إلى بريطانيا

كان ممتعاً أن تطأ قدمي أرض المملكة المتحدة؛ فهي مثّلت نقطة بداية رحلتي، وكانت تدلّ الآن على إغلاق الدائرة، إذا جاز لنا هذا التعبير. فعندما استرجعت الماضي، تذكّرتُ ندرة أنشطة المسلمين عندما وصلتُ إلى المملكة المتحدة، وتذكرتُ حالة الانعزال والفقر التي كانت الجاليات المسلمة تعيش فيها، والسنوات التي قضيناها في العمل المجتمعي والدعوي التطوعي، والوحدة والقوة اللتين صنعناهما. وتأملتُ كل ما شهدناه وعانيناه وحللناه وأنجزناه، وكيف أننا نقلنا هذا العلم والتدريب للخارج، فكبرنا لدرجة أنني لم أعد ذلك الطالب الساذج الغض، بل عدتُ رجلاً وأباً، وبرفقتي إمام الحرم المكي، وبصفتي نائب الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي. كانت الستينات في بريطانيا فترة التضحية الشخصية الكبيرة بوقتنا ومالنا وجهدنا، ولكن سبحان الله، كل هذا الجهد آتى ثماره بفضل الله، وكله للصالح العام والمنفعة العامة. ودمعت عيني عندما تذكرتُ ذلك كله.

كانت أمامنا أيام قليلة فقط لنفعل ما نستطيع أن نفعله قبل مغادرتنا، ولذلك تركزت رحلتنا على لندن. كنتُ أريد أن يلاحظ الإمام بعض جوانب الحضارة الغربية،

وأن يرى كيف يمكن للعالم العربي أن يستفيد منها. زرنا جامعة لندن، والمتاحف، وقصر بكنجهام. كما زرنا شرق لندن وفيها جالية مسلمة كبيرة. ورفعت زيارة الشيخ معنوياتهم وساعدتهم على مراجعة علاقتهم بالإسلام، وعلى تقوية إيمانهم. كما قضينا بعض الوقت في جمعية الطلبة المسلمين بالمملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية، التي أسسناها عام ١٩٥٩ في ليفربول، وكذلك في منظمات أخرى واتحادات طلابية، وقضينا أيضاً بعض الوقت مع شخصيات مهمة مثل خورشيد أحمد.

إسبانيا

عندما ودّعت وطني القديم حزيناً، بقي قلبي مثقلاً في محطتنا التالية، فقد كنّا متوجهين إلى إسبانيا، ولا يمكن للمسلمين إلا أن يحسُّوا بضياع الأندلس. وأعتقدُ أنه لا مفر من أن يُلقي التاريخ العظيم للحضارة الإسلامية الأندلسية بظلاله على رحلتنا. إنها مكان العظمة عند المسلمين بتاريخها الحضاري البهي المضيء، وكذلك تاريخها الفظيع تحت نير محاكم التفتيش الإسبانية. وربما يسأل سائل: لماذا العمل الإسلامي في إسبانيا اليوم متخلف كثيراً بالمقارنة بأية دولة أوروبية أخرى؟ لماذا يوجد صراع شديد الآن بين الجماعات الإسلامية الكبرى في إسبانيا؟

كانت هناك أسباب كثيرة معقدة، ولكن هدفنا الأساسي في أثناء الرحلة كان التقريب بين الأطراف المتصارعة وتذكيرهم بخالقهم. فهم على أية حال يدينون بالدّين نفسه ويؤمنون جميعاً بالقرآن، ويتّبعون النبي نفسه، ويتوجهون للقبلة نفسها في الصلاة. فكيف لا تؤدي هذه التجارب المشتركة العظيمة إلى الوحدة؟ حاول الإمام أن يدلهم على طريقة تفكير أسمى، ونصحهم بالتركيز على جوانب التوافق، وأن يتغاضوا عن أمور الخلاف. وهذه سمة جوهرية من سمات أخلاق التعامل مع الخلاف في الإسلام، فصحابة رسول الله أنفسهم كانوا يختلفون في فهم أوامر النبي ﷺ: "عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحْزَابِ: "لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي

قُرَيْظَةَ" فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ العَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِداً مِنْهُمْ" (صحيح البخاري).

المغزى أن النبي ﷺ أقرّ اجتهاد كلا الطرفين ووحّد بينهما.

هناك مشكلة أخرى في العمل الإسلامي في إسبانيا، وهي نقص الأدبيات المكتوبة باللغة الإسبانية. ولهذا السبب ركزنا على ترجمة الأدبيات الإسلامية إلى اللغة الإسبانية في إسبانيا وفي أمريكا اللاتينية، وكذلك على القيام بمشروعات أخرى تعالج هذه المشكلة.

سويسرا، لوجانو: جنة الله في الأرض

غادرنا إسبانيا ومعنا هدية أهداها لنا سفير المملكة العربية السعودية في إسبانيا، وكانت عبارة عن صندوق جميل من الزعفران لكل منّا. وعلى الرغم من روعته، أعطيتُه بدوري لإخوتنا في المحطة التالية، أي في سويسرا. قضينا يومين جميلين في لوجانو مع العاملين في مجال الدعوة والخدمة المجتمعية، فاستضافونا، وناقشنا وضع الجاليات المسلمة المحلية هناك، وسألَنا مضيفونا عن أحوال المسلمين، والعمل الدعوي والخيري في البلدان التي زرناها قبل سويسرا.

لم تتمركز كل النقاشات حول هذه الموضوعات، لأننا ذهلنا من جمال الطبيعة الرائعة في لوجانو، فاستغرقنا في تأمل المناظر الطبيعية من حولنا، وتحول النقاش إلى الكلام عن الله، وكيف أن روعة الطبيعة حوْلَنا دليلٌ حقيقي على قدرة الخالق سبحانه وتعالى. في الواقع، ذكّرتني لوجانو بسريناجار في كشمير: بيوت مبنية على الجبال، وخلفها سماء صافية، والنباتات المحلية في كل مكان، والبحيرة الأخاذة، وهناك بالطبع خضرة ساحرة.

كانت زيارة المراكز الإسلامية التي تخدم الجالية المسلمة من أهم البنود في جدول أعمالنا في سويسرا. في جنيف، كان هناك مركز إسلامي يديره سعيد رمضان، وكان المركز خلية نحل من الإيمان والعمل المجتمعي للشباب والطلاب المسلمين في أوروبا. وأسست الحكومة السعودية في ذلك الوقت أيضاً مركزاً في جنيف، وأكدنا على ضرورة التعاون والوحدة والتقارب في سبيل الله ومنفعة المجتمع. (وسعيد رمضان هو الذي اقترح على الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود تأسيس رابطة العالم الإسلامي في عام ١٩٦١).

تركيا: الآثار المقدسة

قصر توبكابي Topkapı Palace في تركيا عبارة عن متحف وتاريخ وحضارة. ومن بعض الآثار المقدسة فيه بُردة رسول الله ﷺ، وشعر من لحيته، وآثار أقدامه، ورسائله، وقوسه، وسيفه. ولا شك في أن ذلك كان أبرز ما في زيارتنا هناك. ووصلنا هناك ونحن نتشوّق لأن نرى ما حرسه العثمانيون وحافظوا عليه بعنايةٍ فائقة.

على الرغم من سقوط الدولة العثمانية، لم تقلّ قيمة تركيا في العيون، واستبْقتْ إحساساً بعظمتها. وكدولة، زادت قوتها باستمرار. ما يؤلمني كثيراً ليس ضياع دولة من أكبر الدول وأدومها في التاريخ، بل ضياع شيء أهم، وهو اللغة العثمانية التي كانت تُكتب بحروف عربية؛ لأن أتاتورك (والنظام الجمهوري) حظر استخدام تلك اللغة، وأحلّ محلها حروفاً لاتينية، مما كان له أثر بالغ السوء. فالأجيال القادمة لم تعرف الأعمال المكتوبة عن العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامي العثماني وكذلك الأعمال الأخرى من التراث الغنيّ، وكلها كانت مكتوبة باللغة العثمانية التي لم تعد مكتوبة أو منطوقة الآن (باستثناء قلة من العلماء في الكليات الإسلامية والمدارس الدينية)، فانفصل الشباب الأتراك عن إرثهم وعن هويتهم الإسلامية انفصالاً لا نجده في أي مكان آخر في العالم الإسلامي، كما أن علاقتهم بالقرآن تأثرت بذلك بسبب بُعدهم عن الحروف العربية المكتوب بها.

أقارن الوضع في تركيا في الوقت الحالي بوضعها عندما زرتها لأول مرة أثناء أنشطتي في اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا في أعوام ١٩٧٣ و١٩٧٥ و١٩٨١. هناك فرق شاسع. فرجب طيب أردوغان رئيسها الآن، وقد كان رئيس اتحاد الطلبة الأتراك في عام ١٩٧٥ في عصر الانقلابات العسكرية والزج بالإسلاميين في السجون.

أبريل ٢٠١٦. الولايات المتحدة الأمريكية. هشام الطالب مع رئيس تركيا رجب طيب أردوغان في حفل افتتاح مركز الديانات بأمريكا في مدينة لانهام، بالقرب من واشنطن العاصمة، وهو مركز إسلامي تموله الحكومة التركية ومبني على طراز المساجد التركية الجميلة.

٢٠١٦. تركيا في الحفل الختامي للمسلمين في منطقة المحيط الهادي. عقد نعمان قورطولموش نائب رئيس وزراء تركيا اجتماع الحفل الختامي. أنا وابني محمد توتونجي مع رشاد إيرول على اليمين، وهو رئيس مؤسسة الحضارة الإسلامية في إسطنبول.

نهاية الرحلة: سوريا المحطة الأخيرة

تقع سوريا جنوب تركيا، وهي المحطة الأخيرة في رحلتنا المباركة. كانت هذه أول مرة أستمتع فيها بسماء سوريا الجميلة. واستدعت ذاكرتي تاريخ سوريا الحضاري، إذ هي مركز التاريخ الإسلامي في عصر الدولة الأموية، كما كانت منطلق الفتوحات الإسلامية.

في نهاية الرحلة، شجّعنا الشيخُ عبد العزيز على أن ندعو الله بالمغفرة، وأن نقر بأخطائنا، وفي الوقت نفسه ندرك التضحيات التي قدمناها من وقتنا وجهدنا ومالنا. كان رسول الله ﷺ يدعو بالمغفرة بعد فترات الحرب في المدينة المنورة ومكة المكرمة، وكذلك في وقت السلم بعد أن رأى الأعداد الغفيرة من الناس يدخلون في الإسلام.

حافظتُ على طاقتي لألخص نتائج رحلتنا وأسجّل الدروس المستفادة التي تراكمت طوال الرحلة. شهدنا أحداثاً كثيرة، وزرنا عدداً من الدول الإسلامية وغير الإسلامية، وكان لوجود الشيخ أثر عظيم. وفي الوقت نفسه، أدّت التجارب الإيجابية والتجارب السلبية التي مررنا بها طوال الرحلة إلى إحداث تحول حقيقي في مشاعره ومواقفه.

تأثرتُ تأثراً عميقاً بعلاقة الشيخ القوية جداً بأسرته، وحرصتُ على تسهيل الاتصال بينهم في كل دولة زرناها. وعندما كانت زياراتنا طويلة، وخاصة في البلدان الكبيرة مثل الولايات المتحدة الأمريكية، كنّا نُجري كثيراً من المكالمات الهاتفية. وانبهرتُ بأسئلة الشيخ عبر الهاتف وسؤاله عن أطفاله. قد يبدو الأمر لا يُؤبَه به في عيون بعض الناس، ولكن الشيخ كان يولي الأسئلة العادية أهمية كبيرة، وكان هذا أسلوبه في تقديره لأهل بيته والاعتناء بهم.

كما تأثرتُ أيضاً بالرحلة الطويلة على مستويات عدة: المستوى العملي، ومستوى أعمال النشطاء، والمستوى العلمي، والمستوى النظري. عشرات الشخصيات

الإسلامية التي قابلناها من طرف العالم إلى الطرف الآخر تركوا فيّ أثراً. فقد كانوا أناساً ضحّوا بأموالهم وممتلكاتهم، وعاشوا حياة صعبة، في سبيل قضيتهم، في حين أن معظم حكوماتهم كانت للأسف دكتاتوريات قمعية.

لقد قابلنا عدداً من القادة العظماء، وكذلك قادة آخرين، ممن خدموا مجتمعاتهم، ودفعوا عجلة بلدانهم للأمام بصبر ومثابرة، ومنهم الشيخ أبو الأعلى المودودي، والشيخ أبو الحسن الندوي، وأنور إبراهيم، ومحمد ناصر، ونجم الدين أربكان.

باختصار، كانت الرحلة بالنسبة لي لا تُنسى، والتقيتُ فيها بأناس محفورين في ذاكرتي.

الفصل التاسع

أفريقيا

"من يصبر يأكل فاكهة ناضجة"

مَثل أفريقي

نادتْنا أفريقيا. عندما يفكر المرء في أفريقيا، وأقصد بها وسط أفريقيا بعيداً عن الدول التي تطلُّ على السواحل، تتشكل في رأسه صورة تكاد تكون بِكراً، بخلاف القارات الأخرى، فتغلب عليها ضخامة الأشياء، وكثافة لا نراها في أي مكان آخر، سواء أكانت هذه الكثافة تتعلق بغزارة الطبيعة وخيراتها، أم بالتنوع المذهل في الأعراق والأجناس التي تسكنها، أم في تنوع عالم الحيوان، وما يتسم به من حركة وعنف وقوة، لدرجة جذبت الصيادين الشرعيين وغير الشرعيين الذين يبحثون عن الغنائم والتذكارات من جميع أنحاء العالم، وجلبت في أعقابهم المحافظين على الطبيعة الذين يسارعون للحفاظ على ما تبقّى بعد كل ذلك الصيد.

١٩٧٥. إبادان، نيجيريا. أول مؤتمر للندوة العالمية للشباب الإسلامي في نيجيريا. ألقي الخطاب الافتتاحي بصفتي الأمين العام المساعد للندوة العالمية للشباب الإسلامي.

١٩٧٥. إبادان، نيجيريا. أول مؤتمر للندوة العالمية للشباب الإسلامي في نيجيريا. الخطاب الافتتاحي لجمعية الطلبة المسلمين في نيجيريا. وأنا الأمين العام المساعد للندوة العالمية للشباب الإسلامي.

١٩٧٥. إبادان، نيجيريا. أول مؤتمر للندوة العالمية للشباب الإسلامي في نيجيريا.

في أية خارطة للعالم، ترتسم أفريقيا ضخمة وهائلة في المخيّلة. لقد حظيت بالحُبّ، وتعرضت للنهب بالقَدْر نفسه. وهي ـ في بعض الاكتشافات ـ مهد وجود البشر على الأرض، ولكنها بالنسبة لي ترمز لملك الحبشة اللطيف، ذلك الإنسان الذي كان يخاف الله؛ فآوى في يوم من الأيام المسلمين الهاربين من اضطهاد أهلهم. كانت أفريقيا سطحاً كنتُ أتصفحه على الخارطة فقط حتى ذلك الوقت، وشعرتُ بالحاجة إلى استكشافها أكثر. ولذلك خطرت لي فكرة، وأنا أتأمل عادتي المتأصلة في النظر إلى الخرائط، لأرى الأماكن التي سافرتُ إليها وتلك التي لم أحظَ بالسفر إليها.

المسلم إنسان مرتبط بالقِبلة، مما يعني أنه يألف البوصلة، ويستطيع دائماً أن يحدد المكان الموجود فيه وسط هذا العالم. ينمُّ هذا الإحساس بالاتجاهات عن حيوية الروح، ويمنح المسلم وعياً مكانيّاً وثقةً، كما يذكّره على الدوام بأصوله. ولذلك لا عجب في أن العلماء المسلمين كانوا بارعين في فن رسم الخرائط بعدما اتسع العالم الإسلامي بسرعة وتباعد عن مكة، فأسهم العلماء المسلمون في فن رسم الخرائط في عصر كان رسّامها يضع عيناً على دقة الرسم، وعيناً على جماله. وتُعدُّ الخرائط القديمة أعمالاً فنية بديعة،

تعكس فهماً ثقافيّاً للمكان، لأنَّ لكل موقع سياقاً مكانياً (بالنسبة للمسلمين بالطبع يتعلق ذلك باتجاه القبلة). أكتب هذا، لأنه تولّد لديّ عشق للخرائط، فهي تُلهب خيالي. ولدي خارطة كبيرة معلقة في مكتبي، وخارطة أخرىٰ في بيتي. وعندما أكون فارغاً من الدراسة أو العمل، أقضي بعض الوقت في تأمل محتوىٰ الخارطة، وأحفظ مواقع الأماكن الجغرافية، وأحدد الأماكن التي زرتُها وتلك التي لم أزرها، وأسأل نفسي ما أفضل مكان أذهب إليه في المرة القادمة؟ وكل ذلك في سبيل مواصلة العمل الدعوي الذي بدأ منذ سنوات بعيدة. في الواقع، صار العالَم بيتي. وقادتْني هذه التأملات إلىٰ زيارات كثيرة، وما كان لهذه الزيارات أن تتم لولا علاقتي بالخرائط. لقد زرتُ طوال حياتي ما لا يقل عن مائة وخمس وخمسين دولة دون أن تفتَر رغبتي في السفر، وما زلتُ حتىٰ الآن أتصفح الخرائط نفسها، وأتمعّن فيها، بحثاً عن المحطة التالية التي سأتوجه إليها.

سافرتُ برفقة زملاء أجلاء إلىٰ الشرق والغرب، والشمال والجنوب، وتشكّلت لديّ صورة ذهنية عن العالم الإسلامي ووضع مجتمعات المسلمين، وطورتُ أفكاراً عن الطرق التي يمكننا أن نساعدها بها، ثم نفّذنا ذلك. واشتملت رحلة من تلك الرحلات علىٰ زيارة إلىٰ قارة أفريقيا.

دخل الإسلام أفريقيا من شمالها، من مصر، ولكنني بدأتُ رحلتي من جنوبها في عام ١٩٧٤ بجنوب أفريقيا. ومن الجدير بالذكر أن جنان أشجار البلسم ورحلات السفاري ودولة "قوس قزح" التي يعرفها السائحون الآن ليست هي الدولة التي وصلنا إليها آنذاك؛ إذ كانت التفرقة العنصرية قوية في جنوب أفريقيا، وكانت المجتمعات تعيش في توازن هش يتطلب منّا معاملة خاصة وحساسة. كان مؤتمر قد عُقد للتو هناك، وشمل وفوداً من عشر دول. وتم تزويد الندوة العالمية للشباب الإسلامي بأهداف المؤتمر وغاياته، وعندما تصفحناها أدركنا علىٰ الفور قيمة ما كان منظّمو المؤتمر يحاولون إنجازه، وتوصلنا إلىٰ قرار لمساعدتهم في جهودهم. وحرصتُ

أيضاً على حضور مؤتمر المتابعة الذي عُقد في جمهورية بوتسوانا Botswana في عام ١٩٧٧، وهي بلد صغير نسبياً، سكانه الآن ما يقارب مليونين ونصف مليون نسمة، وكان المسلمون منهم في وقت المؤتمر قرابة ألف شخص.

تعقُّد أفريقيا

مؤتمر جنوب أفريقيا. كان الجو رائعاً، وكنّا نقضي الصباح في حضور فعاليات المؤتمر، ونقضي فترة بعد الظهر في الخارج في حديقة جميلة، وننظم جلسات تدريب عفوية للشباب. وكان الشباب يحتاجون بوجه خاص إلى الإرشاد والدروس في طريقة تناول القضايا بحصافةٍ ونضج، لأن هذه البيئة ذات طابع خاص، وكانت تتسم بالتوترات بين الجماعات المختلفة المقيمة فيها. ولا أعني بذلك أن المسلمين فقط هم الذين يُلقى عليهم اللوم، بل علينا أن نتذكر أن أفريقيا قارة متعددة الأديان، وكانت جماعات التبشير بالمسيحية تصارع بشراسة في سبيل الفوز بالقلوب والعقول، ربما بشكل أشد مما في أي مكان آخر. والشباب بطبعهم متّقدو العاطفة إلى حد ما، ويتطلّعون إلى التغيير، وقد يسببون ضرراً غير مقصود وهم يحاولون التعبير عن آرائهم وإحباطاتهم واختلافاتهم. كنّا نضع كل ذلك في اعتبارنا، وسعيْنا لتهدئتهم، وحثثنا الشباب على عدم الدخول في مصادمات مع قادتهم الدينيين المحليين، وعلى احترام جهودهم، مهما كانت الاختلافات حول طريقة التعامل مع التحديات التي تواجههم. كان المهم أن نشجعهم على الفوز بقلوبهم وثقتهم، وليس تحدي إنجازاتهم. فهؤلاء الرجال على أية حال هم أنفسهم الذين كانوا يعملون بلا كلل في سبيل الحفاظ على إيمان المجتمع عندما كان هؤلاء الشباب ما يزالون في طفولتهم الأولى.

اكتشفتُ أن أفريقيا مليئة بالأبطال المجهولين، أناس فهموا الاقتتال الثقافي الذي كانت القارة تشهده، وعرفوا الصراع الجليّ الذي كان يدور هناك وما يولده من توتّر. وكانوا ملتزمين فكريّاً من خلال المنظمات والجمعيات التي تحافظ على حياتهم وإبقاء

جذوة الدين في نفوسهم، وعلى تماسك مجتمعاتهم، على الرغم من ندرة تمويل هذه الجمعيات وقلة ذات اليد. وقلتُ لنفسي: حتى عندما يعاني الصالحون من نقص الموارد، فإن الحقيقة لن يُوقفها نقص الأعداد أو الموارد، وسيكون النجاح دائماً بيد الله سبحانه. وبارك الله فعلاً في حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا وقادتها، لأنهم قدموا إسهامات عظيمة في مجال العمل الخيري، وكان مدى تأثيرهم في مجتمعهم لا يخفى على أحد. فبالإضافة إلى مخاطبة الناس بالحوار العقلاني المفتوح والخطاب المناسب، عملوا بإيثار في الواقع العملي، وساعدوا عدداً كبيراً من المسلمين وغير المسلمين لوجه الله تعالى، واشتركوا في الأنشطة الخيرية والخدمات الاجتماعية. قليلون هم أولئك الذين أظهروا مثل تلك المهارات في بيئة قابلة للانشقاق والفُرقة.

سافرنا أيضاً إلى زيمبابوي Zimbabwe (وكانت اسمها روديسيا في السابق)، ووصلنا إلى مدينة كويكوي Kwekwe، وهناك قابلنا آدم ماكدا، وهو إمام لمسجد صغير وجميل يحيط به مجتمع تجاري يغلب عليه المسلمون الهنود (من كوجورات) والتجار الناجحون. كان آدم ماكدا من أنشط الدعاة المسلمين في زيمبابوي، وهو ذو أفكار طموحة، ولديه العزيمة اللازمة لتحقيقها. وكانت لديه قدرة عجيبة على تقديم الخدمات للمسلمين الجدد، لا سيما من خلال التدريب والتعليم. وكان ذلك مهماً للغاية، لأن معرفة مسلمي كويكوي بدينهم كانت محدودة على الرغم من ارتباطهم ارتباطاً قويّاً بجماعة التبليغ والدعوة وطريقة بَريلوي الصوفية. كانوا حريصين على تعليم أطفالهم لغة كوجارات، وكذلك اللغة الأُردية (وكانوا يعدّونها لغة الدين)، ولذلك حاولوا بأقصى ما في استطاعتهم أن يحافظوا على دينهم، وأن يدعموا العمل الإسلامي. ولم يختلف ذلك الوضع عن الوضع في جنوب أفريقيا، فكان فيها مسلمو كوجارات أقلية، وتركزوا في ديربان ومدن أخرى، ولكن ليس في كيب تاون حيث يشكّل المسلمون من أصل ماليزي أغلبية الجالية المسلمة. كان من المطمئن للغاية أن نجد أمثال أحمد ديدات وآدم ماكدا وغيرهم يعملون على الحفاظ على الإسلام في النصف الجنوبي من قارة أفريقيا.

بوتسوانا Botswana

في مؤتمر بوتسوانا، حظينا بلقاء الشيخ أحمد ديدات للمرة الثانية. وقد سمع معظم الناس بهذا الجنوب أفريقي صاحب الكاريزما وبأعماله. كان هدف أحمد ديدات أن يجذب اهتمام الناس، وبالتأكيد جذب اهتمامهم من خلال إعمال عقله بذكاء ومن خلال كتاباته، وبالطبع من خلال تلك المناظرات الذكية، فكان يحمّس الناس بابتسامته الصادقة، مما حبّب الجميع في هذا الجدّ الذي ما زال يتمتع بشبابه. وفي أثناء حضوري لأحد هذه المؤتمرات، استطعتُ أن أشهد مباشرة قدرته على إقناع الناس، وبفضل جهوده اعتنق كثيرون الإسلام.

١٩٩٢. الرياض، ثاني شخص من اليسار هو مصطفى الأعظمي، والأول ابنه، والرابع هو الشيخ أحمد ديدات، وأنا الخامس.

١٩٩٤. الرياض، الشيخ أحمد ديدات في زيارة لمكتبي ونحن نتمعن في خارطة جنوب أفريقيا.

١٩٩٥. جنوب أفريقيا. الشيخ أحمد ديدات جالس في أقصى اليسار ويرتدي نظارة. وسعد الطالب هو الواقف. وأنا على يمين أحمد ديدات، وعن يميني الشيخ صالح الحصيّن. وقبالتي صالح الهبدان، وعبد الرحمن الراجحي الرابع من اليسار.

١٩٩٥. جنوب أفريقيا، في مكتب الشيخ أحمد ديدات، وهو يقف ويهديني كتاباً.

ثم حضرنا مؤتمراً في غابوروني Gaborone عاصمة بوتسوانا. طُلب مني أن أُلقي كلمة في حفل افتتاح المؤتمر الذي سيحضره مجموعة من أرفع المسؤولين في البلد. وبعد تفكير عميق، خاطبتُ الجمهور برسالة تعزز الأخلاق، وعلّقتُ على أعمال الجالية المسلمة وإنجازاتها هناك، وأكدتُ على أن الجالية ستحظى بدعمنا الكامل على الرغم من قِلّة عددها. وكان الهدف من كلمتي رفع الروح المعنوية ومستوى الطاقة، ولدهشتي وسروري حققت كلمتي أكثر من ذلك بكثير، ففي اليوم التالي وجدتُ الصحف تكتب عنها وتقتبس مقتطفات منها. علاوة على ذلك، كان للمؤتمر الفضل في أن صارت الجالية المسلمة أكثر وعياً بدورها، وفهمت مسؤولياتها فهماً أفضل، وامتدت آثار المؤتمر الإيجابية حتى لخارج بوتسوانا لتشمل المنطقة كلها، مما أدّى إلى نشأة جالية مسلمة في جنوب أفريقيا ذات ترابط أكبر، وأولويات مشتركة، وقدرات أقوى، وإمكانات قصوى. فالقضاء على التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا في نهاية المطاف عزز هذا العمل تعزيزاً هائلاً، وصار التعارف الوثيق الناتج عن ذلك معجزة تتكشف أمام أعيننا.

إقامة مؤقتة أخرى في أفريقيا

في عام ١٩٧٨ عقدنا مؤتمراً في مالاوي Malawi، وهي دولة ناطقة بالإنجليزية. كان مسلمو مالاوي للأسف يعانون من قمع كبير مثل نظرائهم في موزمبيق. وهي دولة تتحدث البرتغالية، ولذلك أرسلنا بعض المسلمين الناطقين بالبرتغالية من البرازيل لهداية الجالية الموزمبيقية وتدريبها، خاصة فيما يتعلق بتنظيم أنفسهم سياسيّاً من أجل المشاركة في الانتخابات البرلمانية. تبرع سمير الحايك، وهو مؤلف ومترجم برازيلي من أصل لبناني، بكميات كبيرة من ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة البرتغالية كان قد ترجمها بنفسه. كما أن بعض رجال الأعمال الهنود المقيمين هناك اشتروا كميات كبيرة ووزعوها، وكان لذلك أثر كبير. ورجعنا في العام التالي لمواصلة عملنا.

السفر مرهق للغاية، ولاسيما عندما نحاول أن نستثمر الوقت كله خير استثمار، ونُحسن تدبير الموارد. ولكننا أخذنا نفساً عميقاً، وواصلنا مشوارنا، ونحن نستبشر بكثيرين من الأشخاص الرائعين الذين كنّا نقابلهم، وبالتقدير الذي لم يكن لنا نحن فحسب، بل وللأعمال التي تلبّي احتياجات الناس، مما يكمن في صميم كل الجهود التطوعية وكل الأهداف المجتمعية الخيرية. إن تحسين أحوال المجتمع في البيئات الفقيرة أو المتعادية يتطلب نوعاً خاصاً من العزيمة والالتزام، وكان يبدو أن أفريقيا لديها الكثير من ذلك. فكان للدين فيها دور في الحياة العامة، ولم يكن منغلقاً على نفسه في المساجد والبيوت أو مقتصراً على جماعات صغيرة من الناس. ولكن كان من المؤسف أن نرى أن الأنشطة تميل إلى التركيز على المدن الكبرى، في حين أن هناك كثيراً من القرى والمدن الصغيرة منعزلة، وفي حاجة إلى تلك الأنشطة. فعلى الرغم من أننا كنّا ننمّي التعاون الفعّال مع الذين قابلناهم في المدن الكبرى، كان لديّ شعور قوي بضرورة فعل الشيء نفسه مع من يعيشون خارج تلك المدن. ولذلك شجعنا المسلمين العاملين في مجال الأعمال الخيرية والدعوة على الذهاب إلى القرى والمدن الصغيرة والريف، بغض النظر عن بُعد المسافة والصعوبات الأخرى. فكان من الضروري أن يحتكوا بالناس الذين يعيشون في المناطق النائية لدعم المجتمعات هناك، ولم يكن هناك اعتراض. وعندما أدركوا قيمة هذا الاقتراح، بدأت الهجرة، فسافر بعض العاملين في مجال الأعمال الخيرية إلى بعض المناطق التي يتفشى فيها الصراع في ناميبيا. وبعضهم سافر لمسافة تزيد عن خمسمائة كيلومتر بعيداً عن العاصمة. ونتيجة لتفانيهم، بُنيت مساجد في مناطق بعيدة، وفي أثناء ذلك اعتنق عدد من الناس الإسلام، ومنهم رئيس الشرطة، وقدم للجالية المسلمة الصغيرة الحماية اللازمة. لذلك كان هذا التوسع مهماً.

لقد ساعد هؤلاء المسلمون، بقيادة شخص يُدعى أبو بكر فرانسيس، في التوسط بين القبائل المتعددة عندما ينشأ صراع بينهم، مما منحهم مكانة اجتماعية عالية وقبولاً واسعاً وسط السكان المحليين والقبائل والمجتمعات المجاورة. وسعدنا عندما علمنا بهذه التطورات، لأن ذلك كان مؤشراً على تطور مجتمع أخلاقي متماسك خارج حدود المدن، فصار المجتمع أكثر تنظيماً، وقدم دعماً اجتماعيّاً لكل المحتاجين إليه، وأثناء ذلك قوّى إيمانه.

زامبيا Zambia

في مؤتمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي في بوتسوانا، كان هناك شخص يُدعى أيوب آدم باتل يمثّل زامبيا، وكان معروفاً في ذلك الوقت بأنه مفتي زامبيا. وكان عملاقاً آخر من عمالقة الإيثار الذين تشرفت بمقابلتهم، وتعرفتُ عليه جيداً عندما ناقشنا بعض القضايا، وتبادلنا النصائح. واستحق "المفتي" أيوب لقبه بجدارة، لأنه جمع بين العمل الخيري الاجتماعي والعمل الدعوي بحماس، وكان لديه قدر كبير من المعرفة بالإسلام، وكان كثير من الناس يستشيرونه في أمورهم الدينية. وبعد تعارفنا بوقت قصير، أبصرتُ فيه إمكانات هائلة، فقد راقت لي طريقة تفانيه في خدمة دينه وتعريف الآخرين به، كما راق لي قيامه بتخصيص أسبوعين من وقته شهريّاً للعمل التطوعي.

طلب مني المفتي أيوب أن أهتم بزامبيا أكثر، وقال: إن هناك كثيراً من العمل الذي يحتاج إلى الإنجاز، وإن هناك كثيراً من الإخوة المتحمسين لإنجازه. وكان متأكداً من أن دعمنا ونصحنا وإرشادنا سيلعب دوراً كبيراً في تسهيل تحقيق الصالح المجتمعي، وفي حل بعض القضايا، مثل عدم السماح للنساء بدخول المساجد، وإلقاء خطبة الجمعة باللغة العربية التي لا يفهمها السكان المحليون. كنّا على أُلفة بهذا الوضع منذ زمن طويل، ولذلك سافرنا في الوقت المناسب إلى جيمس تاون، وهي مدينة حدودية، ثم إلى لوساكا عاصمة زامبيا، حتى نحافظ على الترابط الاجتماعي.

وهناك زرتُ مساجد المدينة ومراكزها الإسلامية، ووجدتُ كرماً بالغاً من الأسر الكثيرة التي كانت تدعوني للغداء أو العشاء، مما أتاح لي فرصة عظيمة للتحدث مع مضيفيّ أثناء تناول الطعام أو في المناسبات المتعددة. وكان تركيزي ينصبُّ على تشجيعهم على توسيع أعمالهم المجتمعية لتشمل غير المسلمين. كان عدد المسلمين قليلاً، ولكنه تزايد في النهاية، سواء أكانت هذه الزيادة طبيعية أم ناتجة عن اعتناق الناس للإسلام.

عِلِمْتُ بمجمع ماكيني التعليمي الذي أسسه وقف الجمعية الإسلامية لخدمة أطفال زامبيا، ويقع في ضاحية ماكيني؛ إحدى ضواحي لوساكا. وكان ذلك المجمع التعليمي مدرسة شاملة تخدم التلاميذ والطلاب من الحضانة حتى المدرسة الثانوية، ولم تقتصر على تقديم التعليم العام، بل كان لديها بُعد نظر، فكانت تعلُّمهم حرفة تدرُّ لهم دخلاً. كانت إنجازات المدرسة هائلة، وكان طلابها مثالاً حيّاً على رؤيتها، فكانوا مهذبين ومؤدبين وأذكياء، يلمُّون بالعلوم الحديثة، ولديهم معرفة معتدلة ومتوازنة بالإسلام. وبما أن أبواب المدرسة كانت مفتوحة لجميع الطلبة، وكان مستواها التعليمي جيداً، التحق بها الأطفال غير المسلمين أيضاً، كما اعتنق الإسلام بعض أولياء الأمور الذين كان أطفالهم يدرسون في المدرسة.

التوكُّل على الله

يتمثل منهجي دائماً في تشجيع النشطاء بدعم معنوي لمساعدتهم على تحديد الأهداف التي يمكنهم أن يحققوها، وعلى التوصل لأفضل طريقة يخدمون بها مجتمعهم المسلم وغير المسلم على حد سواء. وأذكرُ أنني التقيتُ برجل أعمال مسلم مشهور ومرموق في الأربعين من عمره اسمه يوسف ليمبادا، وهو مؤسس مجمع ماكيني التعليمي. واشتكينا ليوسف من الإهمال الذي طال بعض المساجد وحاجتها للإصلاح، بما في ذلك حمّاماتها، وتحدثنا معه أيضاً عن بعض احتياجات المجتمع الأساسية الأخرى. وكان رده عقلانيّاً وعمليّاً وفوريّاً. فأجرى سبعة اتصالات هاتفية، وأمر فيها بتنفيذ العمل المطلوب. وتم تقدير التكلفة بحوالي مائة ألف دولار أمريكي، ولذلك كانت بادرة كرم تستحق الثناء، وتكشف عن نبله وشهامته، ومازلتُ حتى هذه اللحظة أحس بالاندهاش من ذلك. إن الأتقياء يُحْيُون الفضيلة، ولا يحجمون عن حلّ أية مشكلة، كبيرة كانت أم صغيرة، ولا يرون في المسؤولية عبئاً، ولا في العمل الخيري استنزافاً.

من الأشياء المحببة إلىٰ قلبي دائماً اجتماع ريادة الأعمال مع الكرم. وكنتُ أرغب في أن أساعد يوسف، فسألتُه: "أخي يوسف، بكل جدية، ما الاحتياجات التي يمكننا أن نساعدكم في تلبيتها؟ نريد أن نتعاون معكم لوجه الله". فردّ قائلاً: "نواجه بعض الصعوبات في شراء الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم". كانوا يحتاجون إلىٰ حوالي عشرة آلاف دولار لشرائها، ووعدتُه بتولي هذا الأمر. ومع أن المبلغ لم يكن جاهزاً لديّ، هناك شيء نتعلمه من التجربة ويعززه الإيمان في وقت الشدة، وهو التوكل علىٰ الله. يقضي هذا اليقين الداخلي علىٰ التشاؤم أو القلق، ويحلّ السكينة والهدوء محلهما. شهدتُ ذلك بنفسي كثيراً طوال السنوات التي كنتُ أعمل فيها لصالح المجتمع. وبالمناسبة، التوكل ليس حالة سلبية يجلس فيها المرء ولا يفعل شيئاً، فالتوكل يستلزم العمل الجاد لإيجاد حل، وهو نقيض التواكل. وفي صباح اليوم التالي، فتح لنا الله باب تمويل لإنجاز المهمة.

يخطر في بالي عند الحديث عن بادرة الإحسان أخونا أيوب آدم باتل ـ رحمه الله ـ ، فقد كان من عائلة غنية، وكان نشطاً في مجال الأعمال التجارية والعمل الدعوي. ولم تفسده ثروته، أو تدفعه إلىٰ اللامبالاة بمِحَن غيره. ومع ذلك، لم يكن سعيداً؛ إذ كانت هناك درجة من درجات التوتر مع كبار السن الذين كانوا إخوة محافظين من حركة التبليغ والدعوة، وبلغ ذلك التوتر مبلغاً كبيراً لدرجة أنه قال لي بصراحة: إنه إمّا أن يدخل في صراع مع أولئك العاملين في مجاله، أو يعلق أنشطته ويترك البلد؛ فهو لم يكن يريد أية صراعات.

كنتُ مسافراً إلىٰ وجهتي التالية في أفريقيا، ولكنني كنتُ أفكر في أمر أيوب عندما وصلتُ إلىٰ جمهورية ساحل العاج. وكان ينتظرنا هناك عملٌ جادٌّ لنقوم به، وهو تأسيس مؤسسة سار الخيرية SAAR، التي كان نشاطها سينطلق من هذا المقر إلىٰ كل أنحاء غرب أفريقيا. خطر لي حلّ مثالي تماماً أثناء القيام بكل الأعمال اللوجستية الرسمية للتأسيس، وكنتُ أحاول في لحظات الفراغ أن أتوصل إلىٰ طريقة تجعل تضامن مجتمع زامبيا متناغماً مع أيوب. فقلت لأيوب: لماذا لا نحقق أمرين بجهد واحد أو كما

يُقال لماذا لا نصطاد عصفورين بحجر واحد؟ وأوصلتُ فكرتي بسرعة لأيوب فوافق. كانت فرص العمل الدعوي في أبيدجان Abidjan (العاصمة الاقتصادية) كبيرة جداً، وكانت هناك حاجة إلى رجل في خبرة أيوب وعلمه لإدارة مؤسسة سار الجديدة. وستكون براعته التجارية مهمة أيضاً في إدارة أموال وقف سار والإشراف على تطويره (وسيبرع في هذه المهمة فيما بعد). لم يتردد أيوب في مغادرة زامبيا والانتقال بزوجته وأطفاله إلى منزله في ساحل العاج. واشترينا مبنى سيغطّي دخلُه نفقاته السنوية، وتوسّع عملُ وقف سار سنةً وراء سنة بفضل الله وكرمه.

ومن المشاريع المهمة التي خططنا لها إنشاء مدرسة نموذجية في غرب أفريقيا (ووفرنا ميزانية خمسة ملايين دولار لها) ويتخرج فيها ألمع الطلاب، بالإضافة إلى مشاريع تدرّب الآخرين على أمور القيادة.

على أية حال، بالنسبة للمدرسة، لم تكن هناك حاجة للقلق بشأنها، لأننا عندما زرنا ياموسوكرو Yamoussoukro عاصمة ساحل العاج، وجدنا في المدينة مدرسة من أفضل المدارس التي زرتها في حياتي. فحتى دورات المياه في المدرسة كانت تقارب دورات المياه في فنادق الدرجة الأولى في أي مكان في العالم. وبدلاً من أن ننافس هذه المدرسة النموذجية، بحثنا عن مشاريع أخرى، وحاولنا أن نستفيد الاستفادة المثلى من التلاميذ المسلمين في المدرسة.

كنّا في بلد غالبيتها مسيحيون، وكنّا نريد أن يُنشئ المجتمع المسلم فيها جسور تواصل معهم، وأن يعيشوا في سلام ووئام مع إخوانهم المسيحيين، ويعزّزوا، في الوقت نفسه، إحساسهم بهويتهم ودينهم. فاقترحنا إنشاء مركز تدريب يتم فيه تعيين متخصصين بدوام كامل، مما يتيح للمسلمين أن يُعبِّروا عن إيمانهم بطريقة أفضل، ويقدموا أنفسهم بصورة أحسن، فيلتحق الطلاب بالمركز، ويقوموا بمجموعة متنوعة من الأنشطة، بما فيها العبادة والتثقف والدراسة والأنشطة الأخرى المناسبة التي يحتاجون إليها. ووفرنا لهم أئمة ذوي علم، ومَرافقَ مناسبة، وقدمنا دعماً ماليّاً للطلاب الوافدين من خارج البلد.

وبالنسبة للإدارة، كنتُ واثقاً بأن المفتي أيوب يستطيع الإشراف على المؤسسة. ومن أهم الأشياء التي ركّز أيوب عليها تنمية التفاهم بين المجتمَعَينِ، بما في ذلك تعرّف كل طرف على تقاليد الآخر ورؤاه، مما نمّى التواصل بينهما. كان الوضع القائم ضعيفاً، ولكننا كنّا نريد أن نجتنب بأي ثمنٍ الاستقطابَ والشقاق والصراع في المجتمع.

مع مرور الوقت، تخرّج في المركز خريجون قادرون على أن يحرزوا تقدماً في حياتهم، ويتغلبوا على الصراعات الكثيرة التي سيتضمنها العمل المدني حتماً. وبعضهم تقلّد فيما بعد مناصب مرموقة في الحكومة، على الرغم من المشكلات السياسية والاقتصادية التي واجهت الدولة. وصار الناس متنورين، وعلى دراية جيدة بحقوقهم الديمقراطية، فرفضوا تزوير الانتخابات الذي كان شائعاً في ذلك الوقت، وأدّى إلى الانهيار الاقتصادي والصراع الداخلي. ولكن الحوار مُجزٍ، وأدّى كل العمل الجاد الرامي إلى تنمية الثقة والاحترام بين أصحاب الديانتين إلى ترسيخ الإسلام في ساحل العاج، كما في أماكن أخرى، بفضل الله. وفي الواقع، زاد عدد المسلمين، وأصبح نصف عدد السكان تقريباً.

مالاوي Malawi

كانت مالاوي وجهتنا التالية. وكان وضع المسلمين فيها صعباً؛ إذ كانوا مواطنين من الدرجة الثانية تقريباً، ويعيشون في فقر مدقع، ويعملون في وظائف قليلة الدخل، ويتلقون تعليماً سيئاً، هذا إن تلقوا تعليماً بالأساس. علاوة على أن المسلمين الذين كانوا يريدون أن يزوروا البلد، كانوا يُمنعون من الحصول على تأشيرة دخول، وكانت مالاوي ستمثل تحديّاً كبيراً لنا.

كان المسلمون يُعَامَلُون بإجحاف، لا سيما الذين كانوا يريدون أن يتلقوا تعليمهم. على سبيل المثال، كانوا يدفعون دولارين للالتحاق بالمدارس الابتدائية (وهو مبلغ كبير جداً في مجتمع يضربه الفقر)، ويزداد الأمر صعوبة إن كانوا يريدون أن يلتحقوا بالمدارس الثانوية. وكان بعض التلاميذ الذين يريدون الالتحاق بالمدارس التبشيرية يُجبَرون على الدخول في المسيحية. ونتيجة لذلك، حُرمت أجيال من التعليم.

كل مسلم بداخله جوهر نقي يتمثل في توحيد الله. وأيّاً كان مدىٰ اقترابنا أو ابتعادنا عن المعايير الأخلاقية العظيمة الواردة في القرآن الكريم، فإن نور الإيمان لا ينطفئ أبداً. فكلنا نعرف أن الله يرعانا، ونحمل بداخلنا الاعتراف بذنوبنا، سواء أكنّا اقترفناها أم لا. يتطلب الأمر مجهوداً قليلاً، ولكننا إذا استطعنا أن نصل مباشرة إلىٰ قلب ذلك الجوهر لنوقظ الإيمان النائم، يمكننا أن نصنع المعجزات. وكما ذكرتُ من قبل، لم نكن نتوقع أن يكون الأمر في مالاوي سهلاً، ولكننا ركزنا علىٰ مسؤول مهم، وحققنا هدفنا بالضبط عن طريقه.

كان أحد كبار المسؤولين في الحكومة مسلماً ضعيف الإيمان، إن لم تكن علاقته بالله مقطوعة. انكب إبراهيم جدوت فوراً علىٰ العمل، وفتح قناة حوار، وبذل مجهوداً كبيراً في إقناع ذلك الشخص بأن يأذن بانعقاد مؤتمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي في مالاوي. كان إبراهيم من جنوب أفريقيا، وكانت العلاقات بين الدولتين متينة، مما أتاح له أن يدخل ويخرج من دون أية مشكلات.

كان هدفنا من وراء المؤتمر أن نتناول مشكلات المسلمين في مالاوي، كما تناولناها في بوتسوانا. واقترحتُ أن نزور باكيلي مولوزي في بيته، فلا يوجد مكان لبدء حديث أفضل من مكان غير رسمي يتكلم فيه المرء علىٰ راحته. وكي نلطف الجو، أحضرنا معنا هدايا جميلة، وقدمناها شخصياً للمسؤول وزوجته. فسُرَّا علىٰ الفور؛ لأنهما أدركا لطف هذه البادرة الطيبة، وقدّرا معاملتنا لهما، وعرفا أننا لا مآرب لنا من وراء تقديم الهدايا. انبعث بصيص الإيمان من سباته. وتكلمنا باحترام، وتفهّمنا صعوبة الموقف. ثم أعلمناهما أننا برغم إحباطنا سنقبل أي قرار نهائي بين الرئيس ومولوزي يتوصلان إليه. وبذلك نشأ ودّ صادق بيننا، إلىٰ أن عرضنا فجأة علىٰ الزوج والزوجة عرضاً غير متوقع بتاتاً، فدعوناهما لأداء فريضة الحج. لم يكن هناك مجال للشك في صدقنا، ولم تكن هناك شبهة في دوافعنا، وذُهل الزوجان تماماً من لطف العرض، وقبلاه بالعفوية نفسها التي عرضناها.

ومع اتضاح حسن نياتنا وانفتاح باب الحوار، وجدنا أنفسنا ننظّم ثلاث محاضرات عامة مرة واحدة في مالاوي، وكلها عن الإسلام، وإحداها كانت في المركز الثقافي الفرنسي. وكان جمهورنا من المسلمين وغير المسلمين، وانتهزنا هذه الفرصة في تمهيد الطريق للدعوة إلى التعايش السلمي والاحترام المتبادل. وهكذا أوضحنا أن كلامنا عن الإسلام ناتج عن حبنا المتبادل لله وللإيمان، وأن نيتنا هي مشاركة الإسلام في خدمة مصالح التوافق الديني والثقافي والعرقي. وزاد عدد المسلمين بعد تلك الزيارة.

بجانب المحاضرات، زرنا عدداً من الجاليات المسلمة في مالاوي، بما فيها المسلمون في مدينة مانجوتشي في الجنوب، وكانت قرية أكثر من كونها مدينة. وكان عدد سكانها حوالي خمسين ألف نسمة، وفيها مسجد كبير يلبي احتياجاتهم. وللأسف عندما دخلنا المسجد، أصابتنا الصدمة؛ لأننا وجدنا فيه نسختين مهترئتين من المصحف فقط. كان ذلك يمزق نياط القلب، وبدأ رفيقي فيصل المقهوي من الكويت في البكاء فعلاً. القرآن بالنسبة لنا جزء لا غنى عنه من حياتنا اليومية، وكلماته ترافقنا في يومنا، وآياته تواسينا في لحظات اليأس، وهو كتاب في متناول أيادينا دائماً، فلم أتمالك أن أتساءل: كيف يعيش هؤلاء الناس من دون قراءة القرآن الكريم؟ وعلى العكس من فيصل، رأيتُ الكثير، ومررتُ بتجارب كثيرة تمنعني من أن أغلّب العاطفة على التطبيق العملي. كان فيصل في ذلك الوقت مدير مكتب وزير الأوقاف، وقال: "ما أن أعود إلى الكويت إن شاء الله، سنشكل لجنة لتصلح هذا الوضع وترسل لهم حاوية مليئة بالمصاحف". رحّبتُ بما اعتزم فيصل فعله. وتم تشكيل لجنة مسلمي مالاوي في الكويت، وتغير اسمها فيما بعد إلى لجنة مسلمي أفريقيا. وكنتُ أحضر اجتماعاتها بانتظام.

صنع فيصل المقهوي المعجزات، وكان ممتازاً في جمع التبرعات، واتفقنا على أهمية الحفاظ على التواصل مع المسلمين الذين يعيشون في مالاوي، وكانوا من أصل هندي، وأعربوا عن استعدادهم للتعاون، واستطاعت اللجنة إعطاء دولارين لكل طفل مسلم حتى تستطيع أسرته أن تُلحقه بالمدرسة الابتدائية. وتم أيضاً إرسال حاوية مليئة

بالمصاحف، وتحسّن وضع المسلمين في مالاوي في سنة واحدة.

ولكن ذلك ضايق الرئيس الذي كان تحت سطوة التبشيريين، وزاد من عداوته.

كانت هناك بعض المواقف التي تعرضنا لها في رحلتنا عبر أفريقيا تشبه أفلام السينما. على سبيل المثال، تلقينا ذات مرة مكالمة هاتفية من الشيخ سعد الطالب، وهو من أصل عراقي من الموصل، وقال لنا: إن رئيس مالاوي أقال رئيس الحزب الحاكم (باكيلي مولوزي) من منصبه؛ لأنه دعم العمل الإسلامي في البلد. ولم يكن رئيس الحزب الحاكم عنده مصدر دخل آخر يقتات منه. وعندما رأينا محنته وعرفنا أنه كان يدعم الأعمال الخيرية، قررنا أن نساعده، فأدخلناه في مشروع تجاري يحافظ على كرامته ونزاهته. وكان ما يزال يحتفظ بمكانة اجتماعية في البلد، ومن ثمَّ استطاع أن يشتري مزرعة بسعر جيد، وأن يفتح ورشة لإصلاح السيارات والماكينات. أعجبني موقفه، فكم من أناس تعرضوا لمعاناة أقل من معاناته واتخذوا موقفاً انهزاميّاً في الحياة، وأصابهم الإحباط والشفقة على أنفسهم! علينا أن نتخذه مثلاً يُحتذى به. فهذا الرجل واسع الحيلة، واستطاع أن يحوّل فوضى حياته إلى نظام، وصار من رجال الأعمال الناجحين.

في أثناء ذلك، انهارت الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، وفجأة عُقدت انتخابات حرة في جميع أنحاء أفريقيا.

استقر وضع رئيس الحزب السابق جيداً، واقترحنا عليه أن يفكر في الدخول في مجال السياسة من جديد والترشح للرئاسة. كان رجلاً صالحاً ومتديناً، وكانت البلد في حاجة إلى رئيس بصفاته وحرصه على رفاه مواطنيها. وساعدناه وقدمنا له عدداً من سيارات اللاند روفر. كان يستطيع أن يصل بهذه السيارات إلى القرى والمناطق الريفية، ليس لمساعدة الناس ونشر الدين من خلال الأدبيات فحسب، بل وكذلك للقيام بحملة انتخابية، وتشجيع الناس على المشاركة في العملية الانتخابية.

كم يغير الله مقادير الناس! فرئيس الحزب الذي فُصل من رئاسة حزبه صار الآن رئيساً للبلد، وصار إنجازاً جديداً لمواطنيها!

دعوني أقدم لكم هنا الشيخ سعد الطالب. لقد تلقى تعليمه الجامعي في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وبعد تخرجه فيها في عام ١٩٨١، زارني ليشرح لي الصعوبات التي يواجهها في رجوعه إلى العراق، ولذلك اقترحنا عليه أن يعمل في أفريقيا. لو كان قد استشارنا قبل هذا، ما كان سيخطر في بالنا اقتراح ذهابه لأفريقيا، ولكن هذا من فوائد السفر، فالسفر يفتح الحدود، ويفتح العقل كذلك. وهكذا اقترحنا على سعد أن يذهب إلى أفريقيا كما لو كانت أفريقيا أول مكان في العالم يفكر المرء في الذهاب إليه. ولا بدّ أنه قد وثق بنا كثيراً، لأنه ردّ علينا قائلاً: "إذا كانت هذه نصيحتكم، فإنني أقبلها". ثم اقترحتُ عليه أن يذهب إلى مالاوي، وسوّغتُ له اقتراحي قائلاً: إن مالاوي في حاجة إلى رجل طيب وعالم ويهتم بالدعوة يستطيع أن يقدم الإسلام بحكمة ويساعد في الأعمال الخيرية. كان سعد موفور الطاقة والنشاط، كما كان يتسم بالإبداع والثبات والعزيمة، ويمكنه أن يفعل أشياء كثيرة في سبيل تحسين الوضع الذي أحسسنا بسوئه. ولكنني لم أُرِد أن يكون موظَّفاً في لجنة المسلمين بمالاوي أو في لجنة المسلمين بأفريقيا لاحقاً، ولذلك خصصنا له مالاً يتيح له أن يعمل متطوعاً في اللجنة. وبعد أن تواصلنا مع آخرين لاحقاً، استطعنا أن نعينه في جمعية عبد الله النوري الخيرية في الكويت.

على أية حال، تعرض سعد لمشكلات فرضها نظام حكم الرئيس السابق، ونتيجة لذلك انتقل إلى جنوب أفريقيا. وعندما تم انتخاب باكيلي رئيساً للبلاد، رجع سعد إلى مالاوي، وواصل عمله بنجاح في مساعدة الجاليات المسلمة في أفريقيا على تحسين وضعها من خلال لجنة الأمير سلطان الخيرية. قضى الشيخ سعد ثماني سنوات في مالاوي، وساعد في بناء أكثر من مائتين وخمسين مسجداً وأكثر من مائتي مدرسة، بالإضافة إلى العيادات الطبية ومراكز التدريب الإسلامية. وازدهرت الأعمال الخيرية والدعوية بفضل الله ودعم الرئيس لها وجهوده فيها.

قاسم چلومبا: قُدوة يُحتذى بها

كانت مالاوي قريبة من قلبي، وعدتُ إليها كثيراً، لأطمئن على أن العمل الدعوي والخيري فيها على ما يرام ولتأسيس لجان عمل جديدة. وكان قاسم چلومبا من الشباب الذين انبهرتُ بهم.

يقولون: إن الشباب مفعمون بالتفاؤل والطاقة، ولكنَّ قاسماً كان متفجراً بالطاقة والنشاط. التقيتُ بهذا القائد الشاب الشجاع في مخيم الندوة العالمية للشباب الإسلامي في مدينة جناق قلعة بتركيا، ولفتت انتباهي على الفور إمكاناته وعقليته. وشجعناه على إكمال تعليمه والالتحاق بالجامعة، وساعدناه على الحصول على المنح الدراسية التي كان يحتاج إليها عن طريق لجنة مسلمي إفريقيا، ودعمناه باستمرار إلى أن حصل على درجة البكالوريوس في القانون من جامعة مالاوي University of Malawi ودرجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة هَلّ University of Hull في المملكة المتحدة.

رجع قاسم من المملكة المتحدة، ليعمل بالتدريس في جامعة مالاوي، وصار رئيس قسم إدارة الأعمال فيها، ثم عميداً لكلية التجارة. وواصلت طاقته التدفق، مثلما تواصلت إنجازاته. وبعد ذلك اهتم بالسياسة، ودخل سباق الانتخابات البرلمانية وفاز فيها، وصار أول وزير تعليم مسلم في مالاوي. وبعد ذلك بسنتين، ترك وزارة التعليم، وصار وزيراً للدفاع، ثم وزيراً للمالية، وكان منصب وزير المالية ثاني أهم منصب في مالاوي. ومنذ ذلك الحين، عاش تقلبات السياسة ونجاحاتها، لدرجة أنه فكر في الترشح للرئاسة، وأثناء ذلك كله اكتسب خبرة وعلماً، فكان يتسم بالصبر في وقت الشدة، وشق طريقه عبر المناصب الرسمية المختلفة.

تنقّل بين عدة وزارات، وتجربته في ذلك تشبه تجربة أنور إبراهيم في ماليزيا، واكتسب خلال مسيرته خبرة قيّمة عززت من خلفيته وقدراته، إلى أن تم اختياره لاحقاً لمنصب نائب الرئيس. وما أن انتهت فترة باكيلي الثانية في المنصب في عام ٢٠٠٢، حاول أن

يترشح لفترة ثالثة، ولكنه لم يوفَّق في ذلك، لأن الدستور يمنع ترشحه لفترة ثالثة، فسلّم السلطة لمن خَلَفَه. وكنّا قد التقينا بقاسم قبل ذلك عندما حضر اجتماعات البنك الدولي في عام ٢٠٠٠ في الولايات المتحدة الأمريكية. ونصحناه في نقاشات طويلة بالتحلي بالصبر والعزيمة وألّا يتحدى الرئيس الجديد الذي كانت لديه رؤية شاملة للأمور السياسية، بل نصحناه بأن يحاول العمل معه.

الصبر في وقت الشدة

سعى قاسم للترشح للرئاسة، ولكنه لم يكن مقدَّراً له ذلك. ففي ٩ فبراير/ شباط عام ٢٠٠٦، قام الحزب الحاكم آنذاك بإقالة قاسم من منصبه كنائب للرئيس، وانتهى الأمر باعتقاله. وأُفرج عنه فيما بعد، لكنه مُنع من ممارسة أي نشاط سياسي. وساعده بعض الإخوة بأن وفروا له مكتباً وموظفين ليركز على العمل الخيري. وأعيد اعتقاله مرة أخرى، ثم أطلق سراحه. وتولى قاسم منصب نائب رئيس مالاوي في الفترة من يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٤ حتى مايو/ أيار عام ٢٠٠٩. وفي شهر أبريل/ نيسان ٢٠١٢، تم تعيينه وزيراً للطاقة والتعدين. إن الصبر في وقت الشدائد والنوائب يؤتي ثماره دائماً.

على الرغم من الصعوبات التي تواجه المسلمين في مالاوي، فإنهم تقلدوا مناصب مرموقة في تلك الفترة، بعضُ الشباب الذين كان الشيخ سعد الطالب يعلّمهم صاروا سفراءَ لمالاوي في بلدان كثيرة، مثل سفير مالاوي في ليبيا وسفيرها في فرنسا. كان من المهم جداً للمسلمين أن يتعينوا في بعض المناصب الحكومية؛ لأن ذلك يعزز التماسك الاجتماعي والوحدة المجتمعية والاحترام المتبادل، مما يكون له عظيم الأثر في تقليل التوترات في المجتمع؛ لأن الجميع شعروا بأن هناك من يمثلهم في الحكومة، وكلهم اتّحدوا في سبيل تحسين أحوال البلد.

تحسن وضع المسلمين في مالاوي حالياً، فلديهم كثير من الموارد والقدرات، ولديهم عدد من القادة والكوادر، ويشكلون نصف عدد السكان. إنهم قدوة للدول الأخرى في تحويل مجتمع متعدد الأديان والعرقيات إلى مجتمع مسالم وكلٍ متكامل.

أفريقيا باختصار

تجول برأسي أفكار وذكريات كثيرة عن أفريقيا، وهي متعددة الألوان والأنواع، مثل البضائع والسلع المعروضة في سوق كبير، ومن الصعب تلخيصها في هذه العجالة. ليس الفساد في الحكومة وفساد مسؤولي الحكومة مقياساً لفهم عامة الناس، فقد علمتني التجارب أن هؤلاء الناس جديرون بالاحترام بوجه عام في العالم كله، ولم تشذّ أفريقيا عن هذه القاعدة. وقد علمتني أسفاري في أفريقيا أن أهلها ودودون، ودافئو المشاعر، ومتحدثون حميميون، ولا يطلبون كثيراً من الدنيا. وإذا تعمّق المرء أكثر سيتغلب بسرعة على الصعوبات الناجمة عن الاختلاف. كما أنهم يتّسمون بالصبر والجَلَد، ولا يستسلمون للقلق، وهي صفات أحببتُها فيهم كثيراً. ومع أنهم عانوا من تاريخ قاسٍ ومأساوي، فإنهم لم ينظروا إلى ذلك على أنه وطأة كبيرة، فلم يسمحوا للضغائن بأن تتمكن منهم، وفضلوا خفة الروح والتحمّس للحياة، ويمكن لكثيرين منّا أن يتعلموا منهم ذلك. وبالتأكيد تعلمتُ منهم.

٢٠١٥. تنزانيا في مؤتمر الترحيب بشهر رمضان. لقطات مختلفة من المؤتمر.

٢٠١٥. تنزانيا في مؤتمر الترحيب بشهر رمضان. وعلى اليسار عبد الحميد سلاتش من كينيا، وهو ممثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي في شرق أفريقيا.

٢٠١٥. تنزانيا في مؤتمر الترحيب بشهر رمضان. كانت هناك مشاركة كبيرة في المؤتمر.

٢٠١٥. تنزانيا في مؤتمر الترحيب بشهر رمضان. ألقي خطاباً.

أمريكا اللاتينية

على الرغم من أن هذا الفصل يركز على أفريقيا، أودُّ أن أستطرد قليلاً، وأذكر هنا جزءاً آخر من العالم: وهو أمريكا اللاتينية. لم تكن هناك معرفة كبيرة بالإسلام لدى الجيل الأول من المسلمين الذين وُلدوا في أمريكا اللاتينية، لأن آباءهم هاجروا إليها في وقت كان هناك جهل عام بالإسلام، وورث عنهم أبناؤهم وأحفادهم هذا الجهل. كان الأساس الروحي موجوداً لديهم، ولكنه كان خاملاً. وكنّا نعرف ذلك جيداً، لذلك رأينا أن أفضل طريقة لإغناء فهمهم لأمور دينهم أن نرسل مرشدين يتحلون بمكارم أخلاق المسلمين، ليعلّموهم ويساعدوهم من خلال الأنشطة الخيرية، وكذلك ليساعدوهم على الإنجاز تعليميّاً ومهنيّاً.

١٩٦٨. غويانا بأمريكا الجنوبية. أخاطب بعض كبار الشخصيات الإسلامية في منزل رجل أعمال مسلم قبل مغادرتي متوجهاً للولايات المتحدة الأمريكية.

١٩٦٨. غويانا، أمريكا الجنوبية، في نقابة الدعاة المسلمين. وتم التقاط الصورة في احتفال على شرف المشاركين من جزر الكاريبي وعِلية القوم في غويانا. والمتحدث الغوياني في البرلمان. وعلى يساره رئيس الوزراء. وأنا في الصف الثاني، ثاني شخص من اليسار.

١٩٦٨. محاضرة في جزر الكاريبي.

١٩٦٨. غويانا في أمريكا الجنوبية. أنا في مؤتمر ضخم حضره أكثر من ألف شخص من نقابة الدعاة المسلمين في غويانا.

١٩٦٨. جزر الكاريبي. زيارة إلى باربيدس، وترينيداد، وغويانا، في أمريكا الجنوبية. مؤتمر نقابة الدعاة المسلمين. وألقي هنا الكلمة الرئيسة بالمؤتمر.

١٩٩٠. البرازيل. جماعة الأعضاء المؤسسين للأنشطة الإسلامية في أمريكا الجنوبية. أنا في الوسط. وثاني شخص على اليمين الشيخ أحمد الصيفي من البرازيل وهو المسؤول عن الدعوة في أمريكا الجنوبية.

بالإضافة إلى تركيزنا على المخيمات وبرامج التعليم، ركزنا أيضاً على توفير ترجمات باللغات المحلية -حوالي مائة لغة حسب آخر تعداد-. وكانت قضية التعليم مهمة دائماً، وقدمنا المساعدة في هذا المجال بأقصى ما نستطيع. بالإضافة إلى ذلك، دعونا الشباب لأداء فريضة الحج، فكنّا نعرف أن ذلك سيرفع مستوى روحانيتهم، ويجعلهم يحسُّون بالانتماء للإسلام، وبذلك يرجعون لبلادهم ولديهم إحساس قوي بالإيمان

ورغبة في فعل الخير في الدنيا، فيهتمون برفاه غيرهم، ويروجون الحقوق المدنية وحقوق الإنسان، ويعطون للمجتمع، بدلاً من الأخذ منه. وكنّا نرى دائماً أن المواطن الخلوق إنسان روحاني بطبعه.

الشباب في حاجة إلى التعليم والإرشاد بما يجعلهم يقومون بدورهم في الزمان والمكان. كما أنهم في حاجة إلى تزويدهم بمهارات التفكير الناقد وحل المشكلات (فيجدون حلولاً للقضايا المعقدة ويتغلبون على العقبات)، وإلى إدارة شؤونهم والعمل بطريقة احترافية، وإلى تدريبهم على الالتحام بمجتمعاتهم وبالعالم الأكبر حتى يخاطبوا الناس بالحكمة واللين.

ولعلنا نربط هذه الفكرة بما قام به المعهد العالمي للفكر الإسلامي لتلبية مثل هذه الاحتياجات؛ إذ طلب من هشام الطالب أن يعمل على تأليف كتاب لهذا الغرض، ونُشر فيما بعد كتاب "دليل التدريب القيادي" في عام ١٩٩١، الذي تُرجم إلى ثلاث وعشرين لغة. والكتاب مهم جداً في تنمية مهارات العمل الجماعي والخطابة والتواصل والتخطيط والتفويض، بالإضافة إلى كثير من المهارات الاجتماعية، وكلها مهمة للشباب الذين يسعون لخدمة مجتمعاتهم والإنسانية جمعاء بطريقة أو بأخرى.

مخيمات الشباب

اتضح للقراء الآن أن كثيراً من عملنا التأسيسي بدأ بالمؤتمرات ومخيمات الشباب، مما أنشأ منبراً للحوار، وأتاح التقاء أشخاص رائعين، وساعد على البدء في جهود تعاونية ونقاشات مهمة حول المشروعات المحتملة، ثم انطلقت هذه المشروعات على أرض الواقع. لقد مررنا بكثير من المواقف والتجارب في أسفارنا الكثيرة، وتشهد الأماكن التي زرناها على جهودنا الخيرية. وإذا كان عليّ أن أشير إلى شيء على وجه الخصوص، فهو مخيمات الشباب التي نظّمناها؛ لأنها العنصر الأساسي في كل الأنشطة التي تكلمتُ عنها. فقد جمعت المخيمات شباب المجتمعات المسلمة من مختلف مناطق

العالم، ووفرتْ لهم حياة نظيفة يمكنهم فيها أن يتدارسوا أمور دينهم الوسطيّ ويتعلموا مهارات قيّمة، ويتبادلوا الخبرات المهمة.

أقمنا مخيمات في المملكة العربية السعودية، والأردن، وكوالالمبور، وقبرص، وتركيا. واستفادت مخيمات كثيرة من مشاركة منظمة التعاون الإسلامي، فجمعت أعداداً غفيرة من المشاركين من مناطق مختلفة حول العالم: من الشرق والغرب، ومن جنوب أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، وأوروبا، وأمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية. وكنّا نهدف من وراء تلك المؤتمرات إلى دعم الشباب، ومساعدتهم على فهم دينهم الوسطيّ، وإعدادهم ليصيروا قادة في المستقبل. وكنّا نريد منهم أن يكونوا أفراداً ذوي أخلاق سامية قادرين على تحمل المسؤولية المدنية في حياتهم المهنية والشخصية على حد سواء، فيهتمون بأمور مجتمعهم، ويشعرون بأنهم جزء أساسي منه، ويعملون جاهدين في سبيل نشر الخير والصلاح لمجتمعاتهم وللإنسانية جمعاء.

١٩٨١. مخيم الشباب الإسلامي العالمي في ماليزيا. من اليسار لليمين، أنور إبراهيم، ثمَّ أسامة خليفة ثمَّ الشيخ عبد الله مكي، ممثل السودان في الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

الفصل العاشر

المعهد العالمي للفكر الإسلامي في طور التأسيس

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ
طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ
وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ
حِينِۢ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾

[إبراهيم: ٢٤-٢٥]

المشكلة الأساسية: ركود الحاضر تقديراً للماضي

تمرستُ في تأسيس المنظَّمات الدعوية والخيرية، وركزتُ على تنمية الشباب والمجتمع، وها أنا أنحّي ذلك جانباً، بعد عملي الطويل في هذا المجال، لأفكر على مستوى أعلى ونمط آخر من العمل. استفدنا من مهاراتنا في تأسيس منظمة جديدة، ومهارات من قبيل تعليم المنظمات أن تعمل بشكل مستقل عنّا من خلال اعتماد أسلوب محترف، وواعٍ وإستراتيجي في تحقيق الأهداف والغايات، ونصحِها بأهمية إنشاء علاقة عمل مهمة بين أعضائها.

٢٠١١. اجتماع مجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي. في الوسط رئيس المعهد سابقاً عبدالحميد أبو سليمان، وعلى يمينه جمال البرزنجي، وأنا على يساره.

ظهر لنا مفهوم جديد تدريجيّاً. كنّا ما زلنا نريد أن نُحدث فَرقاً في حياة المسلمين ومجتمعاتهم، ولكننا كنّا في هذه المرة نريد أن يتجاوز اهتمامنا حدود ما كنّا نقوم به حتى ذلك الوقت، وأن نتبنى رؤية أوسع تنظر للمستقبل، وتحاول أن تتوصل إلى حلول للمشكلات الكبرى والأكثر توطُّناً في العالَم الإسلامي. وكان من الواضح أن الأزمة، أو بالأحرى البؤس الذي يعيشه العالم الإسلامي يتزايد. بالإضافة إلى ذلك، أظنُّ أن التركيز على المشاريع والمفاهيم الجديدة نتيجة منطقية لنمونا وتطورنا على المستوى الشخصي، وهو الخطوة التالية على طريق التطوير. ولذلك بدأنا في التفكير على مستوى

أكبر وأكثر طموحاً، وكنّا نستلهم بالطبع المهارات والمعارف التي اكتسبناها على مدار السنوات، وكذلك إمكانات الأعداد الغفيرة من المسلمين من مختلف الجنسيات الذين التقينا بهم وعملنا معهم طوال مسيرتنا، وهم رجال ونساء أذكياء ومن ذوي الشأن، وحريصون على خدمة البشرية جمعاء.

أنا شخصيّاً أشعر أن جودة أية منظمة تكون بمقدار الرؤية التي تضعها لنفسها وطريقة صياغتها لهذه الرؤية بالتعاون فيما بين أعضائها، ولا يقتصر ذلك على الأفراد الذين يعملون فيها الآن، بل والأهم الأفراد الذين التقوا في البداية ليعملوا على تأسيسها في المقام الأول؛ ولذلك لا أريد هنا أن أتناول تاريخ المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأسلوب تاريخي جاف؛ بل أن ألفت الانتباه إلى مَن عملوا على تأسيسه، وهم أناس امتلكوا زمام المبادرة وشهدوا تطور المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وعلينا ألّا نخلط بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي والحضارة في ماليزيا.

ولادة المعهد العالمي للفكر الإسلامي

بدأت القصة في عام ١٩٧٧ عندما التقت مجموعة من المفكرين العاملين في مجال الدعوة في منتجع فكري في لوجانو بجنوب سويسرا. كان المكان يتسم بالجَمال الجَبَلي وبحيرته الساحرة، ولذلك كان مكاناً مثاليّاً للاسترخاء والتفكير وتدبُّر القضايا المهمة والعصف الذهني. وشمل اللقاء: التيجاني أبو جديري، وجمال البرزنجي، وطه جابر العلواني، وجمال الدين عطية، وعبد الحميد أبو سليمان، وهشام الطالب،ومحمود الرشدان، وأنا. كما حضرت أيضاً مجموعة منتقاة من العلماء، ومنهم الشيخ محمد المبارك، وإسماعيل الفاروقي، وخورشيد أحمد، والمهدي بن عبود، وخُرام جاه مراد، ومحمود أبو السعود.

كما ذكرتُ من قبل: الأشخاص مهمون جداً من وجهة نظري؛ فهم شخصيات فريدة؛ إذ لم يهتموا بالمكانة الاجتماعية أو المكسب المالي، بل كانوا أناساً ذوي عقلية فذة ووظائف أكاديمية مرموقة، وكانوا يرون بأعينهم التدهور الاقتصادي والروحي الذي يعاني منه العالم الإسلامي، فأرادوا أن يفعلوا شيئاً لمواجهته، أي شيء يمكنه أن يحسّن الوضع ولو قليلاً. وكانوا يتبرعون بوقتهم بصدق وإخلاص ليقدّموا الحلول، وكان شرفاً لي أن أكون من بين هذه الصحبة، وأن أراهم وهم يُعمِلون عقولهم ويقدحون زناد فكرهم. لقد كان مفخرة أن يجتمع كل هؤلاء الأشخاص حول مائدة حوار واحدة في المقام الأول، فقد كانت هذه بداية مبشّرة، وكنتُ أدرك أنه سيتمخض عنها كثير من الخير والصالح العام.

عُرضت الأسئلة التالية للنقاش: ما أكبر تحدٍّ يواجه العالم الإسلامي؟ كيف يمكننا أن نجد حلاً لذلك؟ كيف يفكّر المسلمون؟ كيف يمكننا أن نطور طريقة تفكير المسلمين؟ كيف يمكن دمج الأخلاق الإسلامية والمبادئ الإسلامية الأساسية في العلوم الاجتماعية بحيث يستطيع الفكر الإسلامي أن يعالج القضايا الاجتماعية؟

أكّدت توصيات الاجتماع على الحاجة إلى إنشاء مؤسسة مخصصة لإصلاح الفكر الإسلامي، وتُعنى بما عُرف لاحقاً بـ"إسلامية المعرفة". ومن أساسيات هذه الفكرة فتح باب الاجتهاد، أي إعمال العقل والتدبُّر بالاستناد إلى القرآن والسُّنة لمعالجة المشكلات المهمة، كما كان يفعل المسلمون الأوائل، وليس التمسك المتزمّت بأحكام الماضي لحل مشكلات قضايا الحاضر. فهذا التزمّت أوهن الفكر الإسلامي على مرّ التاريخ وبذر بذور أفوله، مما أدّى إلى نتائج كارثية نعيش آثارها في عصرنا الحالي. وخطا بعضنا في الحال خطوة غير مسبوقة وجسورة، فاستقالوا من وظائفهم للتفرغ لهذا المشروع الفكري. فعلى المرء ألا يكتفي بمجرد الدفاع عن المُثُل العليا، بل عليه أن يكافح في سبيل تحقيقها. وهذا ما فعلناه، فانكببنا على الدراسة وتنظيم المؤتمرات حول العالم، ودارت مناقشات كثيرة للتفكير فيما يمكن فعله.

هنا خرجت فكرة إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلى حيّز الوجود. وحرصنا أن يكون معهداً ذا طابع علمي بحثي أكاديمي، لأننا لسنا جماعة ضغط سياسية، فأردنا أن يكون المعهد منصَّة يلتقي فيها العلماء للنظر إلى العالم من منظورين، منظور الوحي الإلهي ومنظور الواقع والوجود الفعلي، حتى نعالج قضايا العصر الحديث معالجة معاصرة تعزز السلام الاجتماعي. وكانت هذه طريقتنا في استعادة قدر من تلك الحركة الفكرية المفقودة.

قمنا بصياغة رسالة المعهد بعد محاورات ونقاشات كثيرة، وحددنا الأهداف والغايات بدقة وحساب، ولم يعد أمامنا إلّا أن ننفذ فكرة إنشاء المعهد. وتناقشنا حول المكان الذي يمكننا أن ننشئ المعهد فيه. وللأسف لم يكن هناك مجال بالطبع لإنشائه في العالم الإسلامي لأسباب معروفة، فسنخاطر في حالة إنشائه هناك بالخضوع لنوع من السيطرة بشكل أو بآخر، أو بالتعرّض لخطر إغلاقه في أية لحظة. وبما أن مبدأنا الأساس أن ننطلق مما نعرفه، فكان الخيار واضحاً؛ كنّا نريد دولة نعرفها جيداً، وتحترم حرية الفكر، وتتحدث اللغة الإنجليزية (التي هي لغة التواصل العلمي في الوقت الحاضر)، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هي تلك الدولة. فلن تتعرض جهودنا العلمية والبحثية فيها للخطر، ويمكننا فيها أن نعمل بحرية مع الأكاديميين والعلماء المسلمين وغير المسلمين على تحقيق أهدافنا، وقد كان ولله الحمد! وعمَّت الفرحة الجميع عندما تم تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي رسميّاً في بنسلفانيا عام ١٩٨١م/ ١٤٠١هـ، ومقره في ولاية فيرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقف منذور للمعهد العالمي للفكر الإسلامي

إن استدامة الأمور المالية أساس حياة أية منظمة أو مؤسسة، فهي تضع ضغوط استجداء التمويل خارج المعادلة، وتتيح توجيه الطاقات بشكل مركّز نحو تحقيق الأهداف. لم نُرِد أن تضيّق علينا القيودُ المالية أو قلق البحث عن موارد مالية، ولذلك قررنا من البداية أن نبتعد عن طريق التبرعات، وأن نركز بدلاً منها على تأسيس وقف

لتوفير احتياجات المعهد المادية. على أية حال، يميل المسلمون للتبرع للقضايا الخيرية أو لبناء المساجد، مما تكون نتيجته واضحة وملموسة ولها قيمة روحية بالطبع، وليس للقضايا الفكرية المجردة التي يصعب قياس نتائجها وإدراك قيمتها وفهم مسوغاتها بسهولة. ولذلك أخرجنا عملنا من هذه الدائرة. وعلى الرغم من أن جمع التبرعات لم يعد مطروحاً، فإن محاولة إنشاء وقف لمشاريعنا الفكرية والتعليم ومخيمات إعداد القادة والمؤتمرات والندوات لن يكون أمراً سهلاً. كانت رؤيتنا بعيدة النظر، ولذلك كنّا نعرف أننا لا بد أن نكون مقنعين للغاية حتى نحقق ذلك.

ولِمَن لا يعرف، الوقف مشروع خيري يقوم في الأساس على هِبات الأفراد، وليس من التمويل الحكومي. وأدّى إنشاء الأوقاف إلى تحقيق إنجازات عظيمة في المجتمع المدني، فتمّ استخدام التبرعات في تمويل التعليم والرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية وما شابه ذلك. ولعلنا إذا تفحصنا تاريخ الإنسانية سنجد معالم مهمة في الوقف. وفي تاريخنا الحضاري سنجد الوقف عاملاً مهماً في نهوض الحضارة الإسلامية، وفي شتى المجالات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية. وثمة دراسات كثيرة حول أهمية الوقف وأنواعه وتمثّلاته ودوره في البناء الحضاري.

من أهم سمات الوقف الاستقلال التام وضمان استمراريته واستحالة الرجوع في التبرع، وهذا مهم جداً لتحقيق أهدافنا فيما يخص المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لأن ذلك سيسمح لنا بالتخطيط للمستقبل وبإنجاز الأهداف بكفاءة.

ولحسن حظنا، تلقّت فكرة الوقف دعماً من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز وعدد من العلماء المرموقين، وكان ذلك مهماً للغاية لأنه منحنا مصداقية، وجعل الآخرين يثقون في المبدأ في حد ذاته وفينا. وكان ذلك بمثابة المنّ والسلوى المنزلين من السماء، وبادرة عظيمة، وكرماً ينمّ عن الثقة في صحة ما كنّا نفعله وفي قدرتنا على فعله. وكان للمال المستقل أثر كبير، لأنه أمدّنا بالدافعية اللازمة لإطلاق سفينة المعهد العالمي للفكر الإسلامي والإبحار بها. لذلك اختيار السفينة ذات الأشرعة شعاراً للمعهد كان مقصوداً، وكنّا نشعر بالفعل بأننا نشرع في القيام برحلة.

١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC

وبمناسبة الحديث عن شعار المعهد؛ فالشعار لم يأتِ صدفةً أو اعتباطاً كما يقول أهل اللغة، بل كان عملاً مدروساً بعناية من قِبَل مؤسسي المعهد؛ إذ هو تعبير عن هوية المعهد، التي هي بالضرورة تعبير عن هوية الأمة، وعن الرؤية الإسلامية للذات وللوجود ولكينونة المسلم. فشعار لفظ الجلالة مرتبط بالقيمة المركزية العليا للمسلم، وهي قيمة التوحيد، الذي يُعدُّ رأس الأمر في التفكير الإسلامي، وهو جوهر التجربة الدينية، حسب اصطلاح المرحوم إسماعيل الفاروقي. وهذا التوحيد هو الأساس القويم الذي يصوغ للمسلم رؤيته الكلية الكونية، وبأن خطابه الكوني مبني على الانسجام الكلي بين ثلاثية الخالق والمخلوق والخلق؛ أي بين التوحيد (الخالق)، والتزكية (المخلوق)، والعمران (الكون).

أما الآية الكريمة "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" في جانبين يفصل بينها الشراع والسارية، فهي مفارقة بين منهجين وعالمين في التفكير متباينين. وهذه الآية تعبير عن مكانة العلم في رؤية المعهد، وابتعاد منهج المعهد عن الخرافات والشعوذات الفكرية، وبأن أزمة المسلم المعاصر هي أزمة فكرية في الأساس، لذلك نحتاج إلى بناء العقلية الإسلامية المعاصرة بناء فكرياً سليماً، يكون منطلقه الوعي المنهجي. وبهذا الوعي المتمثل في (الذين يعلمون) نعيد بناء العقلية الإسلامية الرشيدة، المتكئة على المنهجية الإسلامية والتكامل المعرفي والتكامل بين القراءتين: قراءة الكتاب المسطور المتمثل في كتاب الله سبحانه وتعالى، وقراءة الكون المنظور بما يتضمنه من عوالم متعددة وردت في القرآن الكريم بصيغة (العالَمين). وبهذه القراءة التكاملية المنهجية يتحقق الوعي بقيمة العلم والعقل والتفكير.

أما الشراع فهو متعلق بالرحلة التي تحتاج إلى سفينة نجاة متصلة بتوجيهات الخالق وتعاليمه في سارية صاعدة نحو السماء ونازلة منه في الوقت ذاته، فالصعود تمثيل لتقبُّل العمل الصالح وبأن المولى هو موئل المسلم، والنزول هو تلقي المعرفة من مصدرها الاساس وهو الخالق. فهذه المعرفة ترسم منهجية قويمة في التفكير، وتضع أفكاراً سليمة، وتُنبت فطرة نقية؛ إذ تُعيننا في الإبحار عبر بحر لجيّ مليء بالأفكار الميتة والمميتة.

أما الخارطة فهي تعني أن خطاب المعهد عالمي كوني، لا يتقوقع ولا يتشرنق في متاهات المذهبية والطائفية والعنصرية المقيتة، التي إن دبّت في أمة تركتها قاعاً صفصفاً. ولا يتخذ المعهد موقفاً مسبقاً من الأمم والحضارات الأخرىٰ، بل خطابه استمرار لعالمية الإسلام كما تأطرت في الخطاب القرآني، وتجلّت في الفعل النبوي. وهذه الخارطة هي المجال الفعلي لعمل المسلم، فهو خطاب دعوي يهدف إلىٰ نشر الحق والخير في المعمورة كلها.

وقد اخترنا تعريف المعهد باللغتين العربية والإنجليزية؛ إذ ترمز العربية (بخطها الكوفي الأصيل) إلىٰ لغة الحضارة العربية الإسلامية، وما منحته للعالم من كنوز علمية ومعرفية ما زالت آثارها وتجلياتها حتىٰ هذه اللحظة. وترمز الإنجليزية إلىٰ لغة المعرفة المعاصرة، التي لها آثار واضحة في العلوم والمعارف الحاضرة. والمزج بين الرمزين دليل علىٰ اهتمامنا بالتراث العربي الإسلامي بوصفه تجلياً حضارياً، والتراث المعاصر بوصفه علماً ومعرفة حاضرة، لا ينبغي تجاوزها تحت شعار التأصيل والهوية، بل ينبغي الإفادة منها بوصفها حكمة وهي ضالة المسلم.

نتسم بالطابع العملي عادةً، ولذلك أردنا أيضاً أن نعتمد علىٰ الاستثمار الذاتي من خلال القيام بأنشطة تجارية توفر لنا هامش ربح نستثمره في الوقف. واتخذنا خطوات عملية في الحال. فبدأنا بالتشجيع علىٰ النشاط الفكري من خلال إجراء الدراسات والأبحاث. وضحينا بوظائفنا في سبيل ما نؤمن به. في عام ١٩٨٣م/ ١٤٠٣هـ، استقلنا من أعمالنا حتىٰ نوفي هذا العمل الفكري حقه. فكان هذا التطور الجديد في عملنا بحاجة دائمة إلىٰ التزامنا ودعمنا وجهودنا الرامية إلىٰ التطوير والتحسين، وكنّا نشعر أن الضغط اليومي، لتحقيق تطلعاتنا الفكرية يتطلب منّا أن ننذر كل طاقاتنا له.

آتىٰ هذا النهج أُكُله. فشهدنا ازدهار هذا المشروع الجديد بمستوىٰ لم نره من قبل. وكانت هناك عدة عوامل وراء ذلك الازدهار، فكون مقر المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن السبب الوحيد في نجاحه. فكما ذكرتُ، كان التمويل عاملاً جوهريّاً، فأثّر في وتيرة تقدم العمل، وعلىٰ تسهيل تحقيق الأهداف المستقلة استقلالاً تاماً عن تحكّم أية جهة، وعلىٰ منع سوء الاستخدام وسوء الإدارة. فكلُّ ما كنّا نحتاجه أن ندير الأمور المالية بعناية، فلم يكن هناك ضغط علينا في سبيل الحصول علىٰ تمويل. وكانت لدينا خبرة طويلة في إدارة هذه الأمور.

هكذا ضربنا مثلاً يحتذي به الشباب فيما يتعلق بطبيعة العمل الفكري وأهمية الأفكار في إرشاد عملهم، مؤكدين على أن هذه العملية بطيئة وصعبة لا تظهر نتائجها بالسرعة نفسها التي نراها في العمل المجتمعي، ولا سيما في ظل الأوضاع البائسة التي يعيشها المسلمون.

في مرحلة الانطلاق، تضافرت جهود ثلاثة علماء كبار لبدء المعهد العالمي للفكر الإسلامي بدايةً قوية، وهم الفاروقي وأبو سليمان والعلواني. فانصبّ اهتمامهم على المرجعية الدينية وهي مرجعية الأمة ومنطلقها الأساس، وأدركوا إسهامات الإنجازات الفكرية الحديثة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، مما عزّز إحياءً إسلاميّاً فكريّاً ممكناً كنّا نحلم به. وأركز في هذا المقام على إسماعيل الفاروقي الذي كان معروفاً في الأكاديمية الغربية أكثر من الأكاديمية العربية. وكان في ريعان شبابه من أبرز المفكرين في العالم، قبل اغتياله هو وزوجته في عام ١٩٨٦ في بيته في رمضان.

إسلامية المعرفة

كنّا نقوم بتطوير فكرة إسلامية المعرفة، ويمكن وصفها ببساطة بأنها تحوُّل في المنظور المعرفي السائد. وكان الهدف من وراء ذلك إدخال الفكر الإسلامي في نطاق العصر الحديث، وفي الوقت نفسه دراسة العلوم الحديثة من خلال الرؤية الإسلامية والمنظور الكُلّي الإسلامي، المتكئ في أساسه على الأصول التأسيسية: القرآن الكريم والسنة النبوية، والإفادة من تراثنا وتراث الآخرين في تطوير العلوم والمعارف. وكنّا بحاجة إلى تحليل يتلاءم مع المناخ الثقافي والاجتماعي الموجود في العالم الإسلامي، بدلاً من أن نفرض عليه مناهج تميل بشدة إلى النموذج الغربي الذي يفسّر الأشياء بطريقة تناسب بيئاته، ولكنه دخيل على التحديات التي تواجه مجتمعات المسلمين، ولا يمكنه أن يتصدىٰ لها. لم نكن نعيد اختراع العلوم بأي شكل من الأشكال، بل كنّا نكيّفها بحيث تأخذ في اعتبارها معايير العالم الإسلامي الأخلاقية والعقدية؛ أي الافتراضات والمبادئ التي يعمل العالم الإسلامي وفقاً لها، ومن ثَمَّ تَسِم أساس المجتمع الإسلامي وهويته الدينية. فذلك سيُمَكِّن العلماء من أن يتصوروا المشكلات بوضوح، ويبلوروا

طرق حلّها. ولم يكن ذلك المنهج يتحدى "المنهج العلمي" (أي الوضعي)، بل يربطه بعملية اختيار المنهج المناسب الملتزم بالقيم الإسلامية، وتسترشد بالوحي. فضلاً عن أن دعوتنا لذلك لا تعني بأي حال من الأحوال إثارة الشقاق، بل تعني فقه الواقع الذي نعيشه، من خلال تقديم تصوّر صحيح لهذا الواقع، ومحاولة التعامل معه تعاملاً علمياً متسماً بالاعتدال، آخذين بعين الاعتبار إرثنا الحضاري الزاخر والبهي، والتطور العلمي والمعرفي الحاضر من جميع الأقوام. فهدفنا التواصل والتراحم لا الشقاق والخلاف، ولعل ما صدر عن المعهد من أدبيات وكتب تمثل هذا المسار. ويمكن الاطلاع على كتاب المرحوم طه العلواني الموسوم بـ " من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف" بوصفه نموذجاً لتفكير المعهد في قضايا الأمة.

لقد شجعنا العلماء، وأفسحنا المجال لأصواتهم، وأتحنا لهم منصة يعبّرون من خلالها عن أنفسهم بحرية بما يتوافق مع هذا التحوُّل في المنظور. وسرعان ما تمَّ إنتاج عدد مميز من الدراسات والبحوث، وكانت كلها تتجه نحو الهدف المنشود. وهكذا أنشأنا حالة من الحياة الفكرية التي كان يفتقدها الفكر الإسلامي في الشرق وفي الغرب.

تُرجمت مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلى عدد من اللغات الرئيسة. وركزنا في البداية على اللغة العربية ثم الإنجليزية، وتلتها الفرنسية، والروسية، والألمانية. وترجمنا المطبوعات أيضاً إلى لغات سائدة في عدة مجتمعات إسلامية، أي الأُردية، والملايوية، والإندونيسية، والبنغالية، والفارسية، والتركية، والأذرية. وبالنسبة لغرب أفريقيا، ركزنا على لغة الهوسا ولغة اليوروبا، وفي شرق أفريقيا ركزنا على اللغة السواحلية.

بعد سنوات قليلة من تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، نشرنا كتاب "دليل التدريب القيادي" (الذي ذكرتُه من قبل، وهو من تأليف هشام الطالب) لمساعدة الرجال والنساء على أن ينظّموا أنفسهم، وأن يكونوا حِرفيين أكفاء في أعمالهم الدعوية والمجتمعية وأعمالهم الأخرى، وسعى كتاب "دليل التدريب القيادي" إلى نشر أفضل ممارسات العمل بين القادة الشباب.

أُفُقٌ وراء آخر

عُقد المؤتمر الدولي الأول للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في إسلام آباد عام ١٩٨٢، وكان ذلك بالتعاون مع الجامعة الإسلامية العالمية إسلام أباد. ولعله أول مؤتمر عالمي عالج قضية إسلامية المعرفة. وعُرضت في هذا المؤتمر أوراق بحثية مهمة من كبار العلماء، تمحورت حول الأزمة الفكرية للأمة وتوعية الأمة بها، والبحث في أسبابها، وأثرها في بناء الشخصية الإسلامية، وضرورة استنهاض الطاقات العلمية والفكرية لبلورة تصوّر معرفي وحضاري مبني على إعادة صلة الأمة بتراثها، والإفادة من المعطيات المعرفية والعلمية المعاصرة.

وعُقد المؤتمر الدولي الثاني للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في كوالالمبور بماليزيا في عام ١٩٨٤. وأُلقيتْ فيه كثير من الأبحاث المهمة التي تدور حول موضوعات العلوم العصرية السلوكية من قبيل الإعلام الإسلامي والاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإنسان.

وعُقد المؤتمر الدولي الثالث للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في الخرطوم بالسودان عام ١٩٨٧، ليعالج قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، والمنطلقات الأساس لتوجيه الأبحاث، والاجتهاد المطلوب للإصلاح والتجديد الفكريين. وكان التخطيط أن يُعقد المؤتمر عام ١٩٨٦، ولكنه تأجل عاماً، بسبب اغتيال الفاروقي وزوجته لمياء الفاروقي عام ١٩٨٦، رحمهما الله.

أدّت دعوتنا لإسلامية المعرفة إلى إحداث حراك علمي، فأدرك العلماء المسلمون أنهم ليسوا مضطرين لأن يقلدوا -كالببغاء- نموذج المعرفة ذا المقاس الواحد الذي كان مهيمناً على الجامعات في كل أنحاء العالم، فأصبح لهم من خلالنا منبر يحررهم من هذه الهيمنة، ويستخدمون خبرتهم وفكرهم في التفكير خارج صندوق ما كانوا يمارسونه حتى ذلك الحين، حتى يضيفوا إليه بُعداً معتمداً على الرؤية الإسلامية وهوية الأمة، دون أن يحسوا بأنهم يرتكبون شيئاً غريباً.

هكذا دعم المعهدُ العالمي للفكر الإسلامي البحث الأكاديمي الذي وسّع نطاق إسلامية المعرفة، مما أتاح للطلاب والباحثين حول العالم نتاجاً معرفياً معتبراً ومميزاً

في هذا المجال البحثي الخصب، سواء أكان في مصر أم تركيا أم الأردن أم ماليزيا أم باكستان أم الهند أم السودان، وكذلك في الدول الغربية، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة. وتمّ تكوين مجموعة بحثية كانت غايتها واضحة وهدفها متناسقاً على الرغم من اختلاف الأدوات والمناهج. وكان التركيز على علوم الشريعة والعلوم الاجتماعية والإنسانية. واستطاع المعهد العالمي للفكر الإسلامي أن يقارب بين المفكرين على الرغم من تباعد أماكنهم، من خلال التكنولوجيا التي كانت تتطور وتتحسن كل عام.

العمل الجماعي

كنّا نعمل بانسجام، وكان ذلك فعّالاً؛ لأن رؤيتنا كانت مشتركة، وتفانينا قويّاً، وتواصُلنا مفتوحاً. في السنوات الأولى، كنّا نعمل على إنجاز مشروعات متعددة، وفي الوقت نفسه نحاول أن نؤسس الوقف، وكنّا نعمل في مكاتب مستأجرة، فكان ذلك كفاحاً مضنياً. ولكن بإنشائنا الوقف، استطعنا أخيراً أن نشتري أرضاً ونبني مقراً لنا في هيرندن بولاية فيرجينيا. وبعد ذلك، أجّرنا جزءاً من مبنى المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مما أتاح لنا مصدراً مالياً إضافياً.

أثناء ذلك، كنّا نقوم بتكوين فريقنا الدولي. كان المعهد العالمي للفكر الإسلامي يحاول دائماً تجاوز الخلافات، ويجمع الناس للعمل معاً، ويركز على الأهداف المشتركة. وكنّا نرى ذلك يتحقق أمام أعيننا من خلال المشروعات المتعددة.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي نموذجاً عالميّاً

من علامات العصر للأسف أنه يتعين علينا أن نستخدم مصطلحات معينة. ولا يشذّ المعهد العالمي للفكر الإسلامي عن هذه القاعدة. فالمعهد، كما يتضح من رسالته، مؤسسة علمية بحثية تعليمية تنطلق من روح الإسلام وتصوراته الكلية، ويعمل على نشر القيم والأخلاق لصالح المجتمع الإنساني كلّه. وعلى الرغم من وضوح ذلك منذ تأسيسه، فإننا مضطرون اليوم لأن نوضّح أيضاً أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي يمثل

إسلاماً معتدلاً ينبذ الأفكار والتفسيرات المتطرفة من جانب، ويرفض التفريط من جانب آخر. وأنا لا أفضل كلمة "معتدل"، وأفضل أن أستخدم تعبير "الإسلام الأصيل"، ولكن عالَم الخطاب المستلَب يفرض علينا أن نستخدم اللغة التي يستخدمها. والأنسب أن أقول: إننا كنّا نريد أن نغني عملية التعلُّم، ولم نكن نروّج بطريقة أيديولوجية لمذاهب دينية أو أية أجندات في هذا الصدد، ولكننا كنّا نريد بصدق أن نوسّع مجال النقاش، ونستكشف حلولاً للتحديات التي تواجه المجتمعات المسلمة حتى نُنشئ تكاملاً داخل المجتمعات، وننشر السلام الاجتماعي. ولذلك لفتنا انتباه المفكرين المسلمين من الشرق والغرب والسودان والأردن، كما رأينا، وكذلك شبه القارة الهندية. كما أن نائب رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بباكستان وخورشيد أحمد وطلابهما تبنَّوا وطبّقوا منهج المعهد العالمي للفكر الإسلامي في إسلامية المعرفة، وكذلك هدفَه الماثل في تحوّل المنظور في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وكان ظَفَر إسحاق أنصاري ممثلاً للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في باكستان، وفي الوقت نفسه نائب رئيس الجامعة الإسلامية العالمية. ولحسن الحظ، كان الرئيس ضياء الحق متعاوناً للغاية، وكان يهتم اهتماماً شخصيّاً بفكرة إسلامية المعرفة. وفي الهند، انضم لجهودنا عدد من الباحثين والعلماء من مختلف المجالات، وكان عددهم قرابة ثلاثة آلاف. ودعوناهم لتجريب منهج المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ونتج عن ذلك أنهم أسسوا الرابطة الهندية للعلماء المسلمين في العلوم الاجتماعية، ولعبت هذه الرابطة دوراً كبيراً في تعزيز جهودنا الإصلاحية. وعلى مرّ العقود من الزمان، كُتب العديد من الدراسات والأبحاث من هذا المنظور في مجالات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد إلخ؛ إذ تناولت قضية إصلاح التعليم والازدواجية والمنهجية، والقضايا المرتبطة بها، في محاولة لبلورة تصوّر علمي فكري معرفي للعلوم مجال الدراسة والبحث والتطوير، وكيفية التعامل مع المشكلات القديمة والمستجدَّة على هذه العلوم. وقد ساعدنا عدداً من الطلاب في تحقيق إنجازاتهم العلمية المتصلة بمنظورنا المعرفي. ومن الأمثلة الأخرى نيجيريا، وهي أكبر دولة إسلامية في أفريقيا، وفيها ثلث عدد المسلمين في القارة بأكملها؛ إذ كوّنا فيها علاقة عمل مع جامعة ميدُغوري University of Maiduguri، فتبنّى أساتذتها مشروع إسلامية المعرفة، وتخرَّجت على أياديهم أجيال من المتخصصين في علم الاقتصاد، وعلوم أخرى ممن يدركون منهج المعهد العالمي للفكر الإسلامي ورؤيته ومساراته البحثية.

مرحباً بالنّقاد

نَقَدْنا برامج، وأجرينا مناقشات، واستكشفنا أفكاراً، ونشرنا كتباً. وكان من الواضح أن النّقاد سيظهرون في مرحلة ما، خاصة من ينتقدون مشروع إسلامية المعرفة، لا سيما أن هذا المشروع جديد على لغة التفكير الإسلامي آنذاك. فعلى الرغم من أن هذا المشروع استهوى فريقاً، فإنه في الوقت ذاته لم يُقنع فريقاً آخر. وكنّا منفتحين على الاستجابات كلها. لقد كان الجو مؤاتياً إلى حدّ كبير، وحظيت جهودنا بردود إيجابية. ولكن الناس مشارب، والآراء تتفاوت، كما ذكرتُ. ولذلك كان من الحكمة، وأحياناً من الشجاعة، أن نفتح الباب عندما يقرعه النقّاد ونرحب بهم للدخول. وكنّا نعرف أيضاً أننا إذا تعاملنا مع النقد على أنه أداة، فيمكننا أن نستخدمه للتحسين والتطوير، وتغيير المسار عند الضرورة. كان ذلك مُرضياً للغاية، بشرط أن يكون النقد (موضوعيّاً) وأصيلاً. وكان هناك بعض النقاد الذين لديهم نيّات تدميرية تجاه الفكرة والمشروع أكثر من كونه تقويماً بنَّاءً، فمع أن نقدهم لنا كان يبدو حسن النية، إلا أنه في الواقع كان سلبيّاً ومقوِّضاً، الهدف منه إيقاع الأذى بنا، وليس مساعدتنا، فتحملنا الهجمات العاتية، وأبحرنا بسفينتنا ونحن نستمد التوفيق من الله والإلهام من ديننا.

أحياناً كان أكثر النقّاد ضجةً أكثرهم ضيق أفقٍ، وكان ذلك مزعجاً بوجه خاص، وسبب ضرراً كبيراً للفكر الإسلامي، سواءٌ أدركوا هذا أم لم يدركوه. فبسبب جهلهم أو تعرضهم لرؤى محدودة، جعلهم يرفضون الاستماع لغيرهم بإنصاف. وإحساسهم بأنهم على صواب دائماً دفعهم إلى منع أية محاولة للتطور الفكري. تحمّلنا الجميعَ، كما آسلفتُ، وتعاملنا معهم بصبرٍ. ويسعدني أن أقول إن كثيراً من التقليديين اقتنعوا بقيمة التكامل بين العلوم الاجتماعية والإنسانية والعلوم المعاصرة وعلوم الشريعة، وهذا ما كان يميز الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها.

من المفهوم أنه في أي دين يتم دائماً النظر إلى الوضع التقليدي على أنه أكثر الأوضاع أمناً، ويقوم أصحابه بحمايته والدفاع عنه بشكل تلقائي. ولكن لا ينبغي لأصحابه أن يهربوا من مواجهة الواقع؛ فلا بد من الالتحام بالعالم الخارجي حسب متطلباته. وهكذا حافظنا على موقفنا، واكتشفنا أننا بمجرد أن شرحنا رؤيتنا بوجه عام، لم يستغرق النقّاد وقتاً طويلاً ليدركوا أننا لا نمثل أي نوع من التهديد للاتجاه التقليدي؛ كما أدركوا أننا

نحافظ على جوهر الدين وفقاً للرؤية النقية التي نتلمسها في كتاب الله الكريم وسنة نبيه المشرّفة؛ وأن نؤسس لمنهجية علمية ومعرفية للتعامل مع تراثنا وتراث الآخرين والعلوم المعاصرة والأفكار المستجدة والواقع بصورة واعية. وعندما أدرك بعض المفكرين التقليديين في النهاية أهمية هذا التكامل بين علوم الشريعة والعلوم الإنسانية والاجتماعية، انتهى بهم الأمر إلى الإدلاء بإسهامات قيّمة فيها.

وفي الوقت نفسه لم نزل نرى بعضهم يعارض بشدة أي إصلاح فكري. فعلى الرغم من كل الحجج ومحاولات الإقناع، فقد رأوا بأن أفضل منهج لحماية الذات هو التقوقع في الماضي وتقديسه والتمسك به حذو النَّعل بالنَّعل، دون مراعاة لسيرورة التاريخ، ولمقاصد الشرع، ولفقه المرحلة والنوازل، والخلط بين التأسيسات القرآنية والنبوية من جهة والجهد والفهم البشري من جهة أخرى. واستخدموا السوابق التاريخية في التعامل مع متطلبات الحياة الحديثة، وهم يظنون، على خطأ، أنهم يقومون بدور الوصي المطلق على الدين. لذلك هاجموا رؤية المعهد العالمي للفكر الإسلامي وأساليبه وأنشطته ومطبوعاته، معترضين على منهجه، دون أن يقرأوا المعهد حقَّ قراءته أو أن يدرسوا أدبياته ونتاجاته وأفكاره بروية وإنصاف وحسن ظنّ.

أينما يسود الجمود، تكثر في العادة الأقاويل والافتراءات. ولذلك زعمت مجلة محسوبة على الإسلام ذات يوم أن حكومة عربية دفعت للمعهد العالمي للفكر الإسلامي مائة مليون دولار لنشر رسالتها في أنحاء العالم الإسلامي، واستهجنتْ منهجنا ووصفته بأنه "الإسلام الأمريكي". لم يضايقني الكلام، فقد كانت أمريكا موطننا، وكانت بلد حريات، ولكن ذلك يتوقف على الزاوية التي ينظر منها المرء للأمور. كانت حملة التشويه تعني بالطبع أننا متحررون/ ليبراليون أكثر من اللازم، وأننا نتبنى مذهباً تأثّر وتشكّل إلى حد كبير بالبيئة العلمانية المادية التي كنّا نعيش فيها. كان أسلوباً رخيصاً في الهجوم على مصداقيتنا؛ لأن بعض الناس يصدقون الإشاعات، ولاحظنا كيف أنهم حرصوا على تجنب مناقشة أفكار المعهد وتصوراته ودوره في بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة، وتجنُّب محاولة الالتحام الفعلي بقضايا العصر وفهمها من خلال الإسقاط المعرفي وتأويل الماضي دون مراعاة الخصوصيات. وقد قام صالح السامرائي آنذاك بالدفاع عن المعهد وقال إنه يعرفنا شخصيّاً ومن نحن، وإن الاتهام

لا أساس له من الصحة، وإن من يوجهون هذا الاتهام عليهم أن يأتوا بدليل على كلامهم. وقابلتُ رئيس تحرير المجلة، وسألته عن المصدر الذي استقى منه الكلام المنشور في المجلة، فقال: "إنه أحمد توتونجي." فقلتُ وأنا مصدوم للغاية: "أنا أحمد توتونجي، وأنا أؤكد لك أن هذا الزعم عارٍ تماماً من الصحة". ومع ذلك، لم تنشر المجلة تكذيباً، ولم نقاضِها. كنّا نعرف أن تلك الواقعة ستليها وقائع أخرى، وأن المهاجمين لن يتوقفوا عند هذا الحد، وأن التفاتنا لكل ما يُقال من نقد غير موضوعي مضيعة للوقت وللطاقة وللموارد، ولذلك توكلنا على الله، وواصلنا طريقنا. وسبحان الله فكأن هذا الذي لمسناه من بعضهم ساعد الناس على تلمُّس جهود المعهد ورؤيته الحضارية. وأستذكر هنا قول الشاعر أبي تمام:

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فـضيلةٍ طويتْ أتاحَ لـهـا لسانَ حـسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ما كان يعرفُ طِيبُ عَرفِ العُودِ

وقد ركّزت فيما سبق على تيار واحد من التيارات التي ناقشت مشروع المعهد، وحاولت أن تتشابك معه فكرياً، وقد أطلتُ في توصيفه، ذلك لأن:

وظلم ذوي القُربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهندِ

هل تتعارض الأشياء أم تتكامل، مثل الليل والنهار؟ عندما نتقدم في العمر، من الحكمة أن نتأمل ماضينا من منظور ما اكتسبناه لاحقاً، فنربط بين هذا وذاك، ونكتشف النمط الذي يحكم شتّى جوانب حياتنا. وعندما يفعل المرء ذلك، سيكتشف حكمة عظيمة، وهي أن الأشياء بطبيعتها متكاملة، مع أننا كنّا ننظر لها من قبل على أنها متعارضة. أقول هذا لأن بعض الناس في عصرنا الحالي جعلوا الدين يبدو كما لو كان على طرف النقيض من دراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويعدّون الجمع بينهما نوعاً من (الزندقة). يحدث ذلك على الأقل في التعليم العالي، وهو ما يهمنا على وجه الخصوص. وذلك يجعل الطلاب ينظرون للعالم نظرة تقوم على الثنائيات المتعارضة. وهذا خطأ، لأنهم في أذهانهم يُخرجون الله عز وجل من المعادلة، فتصير الأخلاق نسبية، بل يصير كل شيء في الواقع نسبيّاً. ينبغي فهم الأشياء ودراستها دون التضحية بالبُعد الأخلاقي. على سبيل المثال، وصل عبد الحميد أبو سليمان للعمل في الجامعة

الإسلامية العالمية بماليزيا عام ١٩٨٨، وكانت مهمته إصلاح التعليم الجامعي فيها من حيث الخطط والأساليب والتكوين إلخ؛ فأصلحه بدرء تعارض الدين والعلم من خلال تأسيس كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية؛ وذلك للتأكيد على مصطلح معارف الوحي؛ إذ ينكر العلمانيون أنَّ للوحي معارفَ، بل يرونها خرافاتٍ وشعوذة مختَرَعة من المتدينين، ولا يصح جعلها من العلوم والمعارف وهكذا تمّ وضع نظام غير تقليدي. وبذلك أتيحت الفرصة لطلاب العلوم الإنسانية والاجتماعية أن يدرسوا علوم الشريعة، وصار بإمكان الطلاب المتخصصين في علوم الشريعة أن يدرسوا مقررات في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وبذلك استطاع خريجو كلا التخصصين أن يقفزوا قفزة نوعية في تعليمهم بالمقارنة بخريجي الجامعات الإسلامية المناظرة.

لا شك في أن الخريجين الذين درسوا علوم الشريعة والعلوم الإنسانية والاجتماعية كانوا أكثر قدرة على فهم مسؤولياتهم تجاه مجتمعاتهم، مقارنةً بالخريجين الذين درسوا تخصصاً واحداً فقط.

"إذا أعطيتَ المرءَ سمكةً"

التزمنا بهذه الفلسفة، فأسّسنا أيضاً مؤسسة سار SAAR (المستوحاة مِن الأثر: من سار على الدرب وصل)؛ وهي مؤسسة خيرية، الغرض منها أن تكون وقفاً غير ربحي للأعمال الخيرية الإسلامية. وكان الشيخ سليمان الراجحي مستعداً للعمل معنا على تطوير مشروعاتها الخيرية، ولكن بشرط أن أبقى أنا في الرياض حتى أعمل معه عن كثب. في تلك المرحلة من حياتي، كنتُ على وشك أن أعود إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكنتُ قد شحنتُ بالفعل كتبي وأغراضي إلى هناك، ولذلك ترددتُ في تلك الساعة الأخيرة فيما يتعين عليّ أن أفعله في خطوتي التالية. وبعد تفكير عميق، قررتُ - بالتشاور مع فريق المعهد العالمي للفكر الإسلامي- أن أبقى في الرياض؛ لأنني شعرتُ بأن ذلك ما كتبه الله لي، واتضح لي فيما بعد أننا توفقنا إلى القرار السليم.

طُلب مني أن أرأس مؤسسة سار، بصفتي مديرها التنفيذي، وكان الشيخ سليمان رئيس مجلس إدارتها. وكان مجلس الإدارة يتكون من مجموعة منتقاة من المصلحين

والمفكرين، أناس يتمتعون بالمُثُل العليا والأخلاق، وكانت لهم خبرة أيضاً في مجال العمل الدعوي والخيري. وسارت الأمور بسلاسة، وقمنا كعادتنا بتفويض الأعمال، مما خفف بالتدريج من أعبائنا، وأتاح لغيرنا فرصة لاكتساب الخبرة وتسهيل نقل المسؤوليات متى اقتضى الأمر.

عمل معنا في سار الدكتور يعقوب ميرزا بكفاءة وجدارة. وكنّا قد عملنا معاً من قبل في اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. ميرزا حاصل على شهادة الدكتوراه في الفيزياء، وكان متخصصاً في تكنولوجيا الليزر، مما يكشف كثيراً عن شخصية الرجل، فعلى الرغم من مهنته التي تضمن له النجاح اختار أن ينذر مهاراته للعمل المرتبط بالدعوة. وكان قد أدار الوقف الإسلامي بأمريكا الشمالية، وأثبت قدرته على تطوير ميزانية الوقف والمساعدة في نموه. وصار عضواً فعّالاً في فريق عمل مؤسسة سار، وسعدتُ بعمله معنا من جديد.

كما أقول مراراً وتكراراً: وَصْفة النجاح سهلة: الاجتهاد والتفاني والإخلاص، ولذلك قدّرتْ مؤسسة سار الأولوية القصوى المعتادة التي تتمثل في تطبيق المُثُل العليا على أرض الواقع. وبالطبع يحتاج المتبرعون إلى أن يثقوا ثقة تامة في إدارة الموارد المالية، ولذلك أرسل الشيخ سليمان وهو أحد كبار المتبرعين مدققَ حسابات من طرفه إلى مؤسسة سار في الولايات المتحدة الأمريكية. قضى مدقق الحسابات عدة شهور في مراجعة الحسابات والتحقق من التزامها بمعايير المحاسبة الدولية. وأنجز مهمته وأصدر تقريره، وهو راضٍ تماماً.

ومن المشروعات التي أسسناها شركة ابن سينا الدوائية في بنجلادش. وكان الهدف من وراء إنشاء ذلك المصنع أن نوفر الدواء بسعر معقول للفقراء. ودخلنا في مشروعات تركز على الأمن الغذائي، بما فيها تربية المواشي والألبان ومزارع الدواجن. كما أننا عملنا في المشروعات العقارية والاستثمارات في التكنولوجيا المتقدمة. ومن ضمنها شركة كمبيوتر اسمها مايلكس، وكانت على وشك إعلان إفلاسها قبل أن نتولاها ونصلح هيكلها الإداري، ونحولها إلى شركة رابحة. وبفضل الله وحسن الإدارة، ارتفع سعر السهم فيها من ثلاثة سنتات عندما اشتريناها إلى اثني عشر دولاراً وأكثر عندما بعناها على مراحل عديدة.

كما ذكرتُ من قبل، كنّا نسعى دائماً جاهدين لاتباع أفضل الممارسات في الإدارة، فكنّا نستثمر في رأس المال الجديد بأقصى ما نستطيع، ونستثمر في الأشخاص المهرة الموثوق بهم. وآتى ذلك أُكله. على سبيل المثال، في مشروعنا الزراعي في زيمبابوي، زدنا مستوى إنتاج الألبان في إحدى مزارعنا إلى ٢٨ لتراً للبقرة في اليوم، وهو معدل غير مسبوق في قارة أفريقيا آنذاك. ونال هذا المشروع جوائز محلية وعالمية.

بذلنا قصارى جهدنا لنجعل المسلمين في البلدان التي نستثمر فيها على دراية بطريقتنا في إدارة الأعمال. وعملنا معهم خطوة بخطوة إلى أن درّبناهم وسلّمناهم المسؤولية. ففي مصنع ابن سينا الدوائي في بنجلادش على سبيل المثال، عندما أصبح المصنع يدرُّ ربحاً، تبرعنا بكل أسهم مؤسسة سار في الشركة لمؤسسة ابن سينا الخيرية في بنجلادش.

كما تقول الحكمة الصينية: "لو تعطي سمكة لرجل فإنه سيأكل يوماً، ولكن لو تعلّمه الصيد سيأكل دوماً".

الاستثمار في الموارد البشرية والأعمال

قد يكون من السهل العثور على رأس المال واستثماره، ولكن ليس من السهل في العادة الاستثمار في البشر. ومع ذلك، الاستثمار في البشر هو الفيصل في كثير من الأمور، فكم من شركة ناجحة لا تعتمد في نجاحها على الأصول المادية بقدر ما تعتمد على العنصر البشري! وهذه النقطة على وجه التحديد هي التي كانت تتسبب لنا في مشكلة من آنٍ لآخر. فقد يكون أهل البر والإحسان كسولين قليلاً، فيسارعون بتمويل المشروعات، ولكنهم نادراً ما يهتمون بمواصفات من يديرها بمجرد أن يتوفر التمويل، وهذا مؤسف للغاية؛ لأن ذلك يؤدي إلى إهدار الموارد أحياناً. على سبيل المثال، من السهل تمويل بناء مدرسة أو مسجد، ولكن ما فائدة ذلك إذا كان المدرسون غير أكفاء أو كان إمام المسجد نصف متعلم؟

كان طريقنا شاقاً؛ لأننا كنّا مسؤولين عن العملية من أوّلها إلى آخرها، ولا سيما إيجاد الأشخاص المناسبين وتدريبهم قبل السماح بالبدء في المشروع، وكنّا نفضل أن

يكون هؤلاء الأشخاص من أهل البلد. فكان لا بدّ أن يكون فريق الإدارة في أي مشروع قويّاً ومتميزاً. وكان ذلك سمة أساسية من سمات نموذج أعمالنا. ولكن اتضح أن العثور على أشخاص من العيار المهني الثقيل ليس بالأمر الهيّن، ولذلك موّلنا المنح الدراسية، واستثمرنا في الموارد البشرية، لأن ذلك من أهم أولوياتنا.

في الولايات المتحدة الأمريكية، دخلنا في مشروع مزرعة دواجن، وكنّا مبتدئين في هذا المجال، ولكننا كنّا مستعدين للمخاطرة. ومن جديد، نجح نموذج أعمالنا وأخلاقيات العمل لدينا، وضربنا أرقاماً قياسية، فحققنا أعلى مستوى أرباح لإنتاج الدواجن بأمريكا على مدار ما يربو على ثلاثة عقود. كيف آل بنا المطاف إلى الاستثمار في صناعة الدواجن؟ في ولاية جورجيا، سنحت لنا فرصة شراء مزرعة دواجن بعد أن اختلف مُلّاكُها السبعة. فاستشرنا بعض الخبراء، وشعرنا بأن المشروع قابل للتطوير، كما أن سعره كان معقولاً. وبعد أن اشتريناه، شرعنا في تطبيق برنامج تجديد وإعادة تنظيم، مما رفع سعة الإنتاج إلى ستة أضعاف وأكثر، وأدّى كذلك إلى خفض تكلفة الإنتاج كثيراً.

بناء الجسور

من خلال أنشطتنا المتنوعة التفت إلينا كثيرون، وعندما تعرضنا لوابل من الدعاية السلبية، ردّ الناس وشهدوا بنزاهتنا.

بنينا كثيراً من جسور التواصل مع مجتمع غير المسلمين. وعندما توفّي ابن مدير مصنع الدواجن في جورجيا إثر حادث سيارة، حضرتُ جنازته. وقبل حضور الجنازة ذهبتُ لأسرته لأكون معهم في فترة الحداد التي تسبق الدفن. أدّى هذا النوع من الاهتمام البسيط والتراحم إلى تكوين الروابط وتقوية العلاقات.

نجاحنا في مجال الأعمال والخدمة المجتمعية الخيرية ونظامنا أثّروا تأثيراً كبيراً في مجتمع المسلمين المحلي الذي كان حجمه يزداد يوماً بعد يوم. كان المسلمون يتخذون أحد البيوت مسجداً، ولذلك ساعدناهم على نقل المسجد إلى مكان أفضل، وقدّمنا

دروساً في اللغة العربية لأطفالهم، مما جعل المكان خلية نحل من النشاط الاجتماعي والتعليمي. وطوّرنا أيضاً علاقات طيبة مع الجيران.

من مشاريعنا الأخرى مزرعة ماشية في تشيلي بأمريكا الجنوبية؛ فقد تولينا إدارة المشروع عندما كان في أزمة خطيرة؛ إذ كان مثقلاً بالديون. وبحمد الله درسنا المزرعة، وحللنا وضعها، وعملنا فيها وخطّطنا لها وأنتجنا الماشية وسوّقناها وجدّدنا المزرعة بالكامل. وزاد إنتاج الألبان إلى المستوى الذي يكفي ثلاثة أرباع احتياجات السوق التشيلي من الألبان، كما لو كانت مزرعتنا نافورة يتدفق منها الحليب. وضاعفنا عدد رؤوس الماشية من ألفي رأس لتغدو أضعافاً مضاعفة عندما بعناها. وكانت الأرباح جيدة في فترة الأعوام التسع التي امتلكنا فيها المزرعة. بالإضافة إلى مزرعة الماشية، استثمرنا أيضاً في مزرعة تفاح في تشيلي، وكان فيها مصنع عصير تفاح، فحسّنّاه، ودمجناه بمصانع العصير الأخرى، إلى أن صار أكبر مصنع في المنطقة.

كل شيء بإذن الله. كنّا نموذجاً يُحتذى به في مجال الأعمال، وبذلنا قصارى جهدنا، وكنّا أمناء، وركّزنا على الإنسان بقدر ما ركّزنا على الربح؛ إذ أنشأنا للمسلمين مسجداً ومركزاً إسلاميّاً في سان دياجو بتشيلي. ووافق الأخ أسامة أبو غزالة، وهو رجل أعمال مرموق، على أن يشارك في التكلفة بنسبة خمسين بالمائة. ويسعدني أن أقول والحمد لله: إن هذا المكان اعتنى على مرّ السنوات بمجتمع المسلمين هناك، واعتنق كثير من أهل البلد الإسلام، واستثمروا أموالاً في المشروعات الخيرية.

لم تكن معنا عصا سحرية تجعلنا ننجح دائماً، فأحياناً كنّا نفشل؛ إذ فشلت بعض استثماراتنا العقارية في الولايات المتحدة الأمريكية عندما انهار سوق العقارات في واشنطن العاصمة (عام ٢٠٠٧ و٢٠٠٨). وتسبب لنا ذلك في مشاكل مالية خطيرة أثّرت في استثماراتنا. ولكننا لحسن الحظ لم نضع كل بيضنا في سلة واحدة، فكانت استثماراتنا متنوعة، ولذلك احتملنا هذه الخسارة.

أيّاً كانت النجاحات والإخفاقات في كل ما كنّا نفعله، كان الهدف من وراء أعمالنا نيل رضا الله، ولذلك لم نبالِ بالكد والإجهاد. ولا أكفُّ عن الاندهاش من الجزاء الذي أنعم به الله سبحانه وتعالى علينا.

آفاق جديدة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي

على الرغم من أن الرؤية التأسيسية للمعهد العالمي للفكر الإسلامي تتمثل دائماً في محاورة المعرفة، فإن المنظور تطوّر في السنوات الأخيرة، ليشمل جانباً تعليميّاً. تهدف مبادرة الارتقاء بالتعليم في مجتمعات المسلمين، وهي المبادرة التعليمية الحالية للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، إلى التعاطي مع الأزمة العالمية في مجال التعليم، فتقدم بحوثاً ووسائل فعالة لتنمية مهارات الطلاب ومعارفهم وقدراتهم وإنتاجيتهم، فتزرع فيهم القيم والأخلاق التي تساهم في تحسين أحوال المجتمعات والإنسانية جمعاء. ويسعى هذا المشروع لإجراء أبحاث ميدانية إحصائية على عدد الدول المسلمة، وبالاعتماد على أدلة موثوق بها عن موضوعات تهدف إلى تحسين فهمنا لهذا المجال أو ذاك، وتهدف كذلك إلى تقديم النصح والإرشاد حول طرق دمجها بشكل عملي في النظام التعليمي العام والديني السائد في مجتمعات المسلمين.

وما زال مشروع النشر والترجمة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي أهم مدخل في المعهد لتناول القضايا الفكرية والتخصصية والمعرفية الأساس التي تناسب زماننا ومكاننا على مستوى المنهج والدلالة. وكان الهدف من وراء ذلك أن نضيف قيمة، وأن نستجيب استجابة مناسبة، ونوسّع مجال الخطاب من خلال إنتاج أعمال مهمة في شكل كتب وأبحاث تُنشر في دوريات المعهد والجامعات.

ويحاول المعهد أن يكون منصة تعليمية وفكرية، وينظّم في هذا المجال ندوات وورش عمل، وملتقيات لطلاب الجامعات على مستوى البكالوريوس، والدراسات العليا. ويتم تنظيم مدارسَ صيفية وشتوية على مستوى العالم، وهي مخصصة في الأساس لطلاب الدراسات العليا المهتمين بتطوير معارفهم وخبراتهم العملية في موضوعات محددة تتعلق بحياتنا المعاصرة، ونجحنا بتنظيم مدارس شتوية لطلاب المرحلة الجامعية الأولى في عدد من الدول. والحمدُ لله من قبلُ ومن بعدُ.

الفصل الحادي عشر

طلبُ رضا الله

"ما أعطي العبد بعد الإسلام نعمة.. خيراً من أخ صالح، فإذا وجد أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به".

الفاروق عمر بن الخطاب

الشيخ سليمان الراجحي

الشيخ سليمان عبد العزيز الراجحي (وُلد في عام ١٩٢٩) ملياردير سعودي ورجل أعمال عصامي. ربما يعرفه العالم الخارجي بأنه من أغنى أغنياء العالم، وربما يعرفه العالم الإسلامي بأنه رجل معروف بالبِرّ والإحسان، ولكنني أعرفه تقيّاً ومجتهداً ومتواضعاً، فلم تُفسده قصة نجاحه وتحوِّله من الفقر إلى الغِنى، وعمل بلا كلل على إنفاق جزء كبير من ثروته في الأعمال الخيرية.

مع أننا عملنا معاً من قبل على إنشاء عدد من المشاريع الخيرية، فإنّ علاقتنا توطّدت بشكل كبير من خلال مؤسسة سار الخيرية؛ إذ زاد عملنا في هذه المؤسسة معاً من احتكاكنا وتقاربنا. كان الإحسان الذي يقدمه الراجحي مَثَلاً إحسانِيَاً؛ يقوم على العطاء المخطط. وأعجبتُ بهذه الخصلة فيه كثيراً، لأنه لم يكن من نوعية الرجال الذين يقبلون على عمل ثم ينصرفون عنه، لم يكن ممن يتبرعون بالمال فيرتاح ضميرهم وكفى، بل يعمل باجتهاد في المشروعات الخيرية التي بدأها، ويشارك في كل تفاصيلها، ويقوم بتحليل وضع كل مشروع وتقويمه، ويوصي بطرق لتحسينه، ويتعامل تعاملاً مباشراً مع العمال المحلّيين لمراقبة الأمور، ويكون قدوة في الدافعية والجهود. كما أنه يطرح أفكاراً لتحسين مصير الآخرين. إنه رجل مبادئ وَرِعة، ويطبق هذه المبادئ في سلوكه، فكان معلِّماً مُلْهِماً لكل من يحتكّون به، وقلما نجد أحداً يتركه دون أن يتعلم منه شيئاً. فكان يعامل الجميع، بداية من المدراء إلى العمال، بتقدير واحترام يكشفان كثيراً عن إيمانه الأصيل.

زرنا معاً نحو ستين دولة على مدار اثنتي عشرة سنة، كل ذلك وهو مسؤول عن إدارة أعماله التي تقدر بمئات الملايين من الدولارات. وعلى الرغم من أنه جمع كثيراً من المال، فإن قِيمه الأكثر تأصُّلاً تتعلق بمجال آخر. وكعادتي كنت أعطيه وصفاً تفصيلياً للمشروع عندما نكون مسافرين بالطائرة معاً إلى بلد ما، فيتصفحه ويدرس أهدافه، وإنجازاته، وتفاصيله، وتاريخه، ومجالات تحسينه، والمشرفين عليه، حتى

يكون مُلماً بتفاصيله عندما نصل، فيكون جاهزاً للعمل. وكما ذكرتُ في موضع آخر أن الأساسات الحقيقية لأي مشروع هي القائمون عليه، وللأسف على الرغم من أن هناك كثيرين من الأشخاص الأذكياء، ولكن من الصعب العثور على الأشخاص المتمكنين الموثوق بهم. وهنا استفدتُ من كل الرحلات التي قمت بها في الماضي وجولة أسفاري حول العالم التي قمتُ بها في عام ١٩٧٠. ففي أثناء محاولاتي لتحسين أحوال الآخرين، التقيتُ بأفضل الأشخاص في تلك المجتمعات وألمعهم، واستطعتُ بعدها أن أستعين بخدماتهم ومواهبهم في عملنا.

المبادئ

يعني العملُ مع الراجحي العملَ وفقاً لمجموعة من المبادئ. وكما ذكرتُ من قبل، من هذه المبادئ أن يبذل المرء قصارى جهده بتفانٍ والتزام، ومنها أيضاً التخطيط، لأن تمويل المشروعات ليس عصا سحرية تجعلها ناجحة وتجعل العالَمَ أفضل، بل لا بدّ من حسن الإدارة والاعتناء بها. ولذلك كان الراجحي يُعطي المشروعَ وقتَه وخبرته وماله. وهناك مبدأ الشفافية التامّة، ليس فيما يتعلق بالتمويل فحسب، بل بكل جوانب العمل، ولذلك كانت التقارير تُكتب باستمرار لإطلاعه على المستجدات في الأهداف والمناهج والأنشطة أوّلاً بأوّل، بصرف النظر عن كون النتيجة إيجابية أو سلبية. فلم يكن موجوداً ليوجّه الانتقادات، بل ليجعل كل عملية أكثر كفاءة وتطوراً وانسيابية من أجل تحقيق أفضل نتيجة نهائية ممكنة.

هناك مبدأ آخر، مبدأ الشورى الذي ينصحنا به القرآن الكريم؛ إذ هو توجيه قرآني مهم، فهناك سورة كاملة في القرآن سُمِّيَتْ الشورى. طبّق الراجحي مبدأ الشورى، فلم يكن مستبداً ولا أنانيّاً بأي شكل من الأشكال في أسلوب إدارته، فكان يؤمن بمشاركة الجميع في عملية اتخاذ القرار. ولذلك كنّا جميعاً نقرأ التقارير، وننسق فيما بيننا، ونبدي آراءنا بناءً على ما لدينا من أدلة، فنتبارى في ذلك، ونقترح اقتراحات بديلة، أو نعدّل اقتراحات قائمة، حسب ما يقتضيه الموقف.

وأخيراً، هناك مبدأ يحكم المبادئ كلها، وهو مبدأ "صفاء النية والإخلاص" والعمل لوجه الله. فعندما يترسخ هذا المبدأ في داخل الإنسان يكسب شيئين: أولهما التواضع الناتج عن التسليم للخالق عزّ وجل الذي يجزينا حق الجزاء في الآخرة، وثانيهما أنه يجعل ما نقوم به شكلاً من أشكال العبادة، فيملك زمامَ قلوبنا، ونؤديه بشغف وإخلاص.

وقد يحرّكُ إخلاصُ النيةِ الجبالَ

سافرنا في رحلة من رحلاتنا الطويلة إلى ثلاثين ولاية في الولايات المتحدة الأمريكية، ونسّقنا الأنشطة في أمريكا اللاتينية فزرنا (تشيلي، والأرجنتين، وكولومبيا ثم باراجواي). وسافرنا من بوينوس آيرس في الأرجنتين إلى أوكلاند في نيوزيلندا في رحلة شاقة استغرقت ثلاثين ساعة من السفر برّاً وبحراً، فأنهكتنا تماماً، وجعلت الأمورَ تختلط عليّ بسبب فروق التوقيت. فلو رآنا ابن بطوطة نفسه لاندهش من مدى رحلتنا وعدد البلدان التي زرناها. يمكنك أن تقول: إننا كنّا أكثر شباباً ومن ثَمَّ أقوى، ولكن الجَلَد الذي تتطلبه هذه الرحلة يُرهق أي شخص بصرف النظر عن عمره؛ فكان الحماس يدفعنا لمواصلة التقدُّم، ونحن ندرك أننا نعمل عملاً لوجه الله، وأن جهودنا لن تضيع هباءً، وستؤدي إلى إحداث تحسين في حياة غيرنا. وسافرنا إلى سيدني ومِلبورن في أستراليا، ثم إلى إندونيسيا التي زرناها عدة مرات، ولاسيما بعد إنشاء شركة الراجحي المصرفية للاستثمار في عام ١٩٨٧.

دارت بنا الأرض مرة أخرى، وكما فعل ابن بطوطة، وصلنا إلى الصين العظيمة. شعرتُ بأنني مستكشف تطأ قدمُه ثقافةً من أقدم الثقافات في العالم، ولكنها ما زالت عجيبة؛ فالقديم فيها يختلط بالحديث على نحو غريب، وهواؤها مفعم بعبق العصور ودخان المصانع الأسود، والأفق حافل بالمباني الشاهقة ذات الطابع العملي، مستطيلات من الخرسانة بلا روح تعلو فوق المعابد الصينية القديمة المتناثرة هنا وهناك، مثل

زهور تصارع للظهور من بين الأعشاب. منظر حزين، لكن العمارة الصينية متفردة في شكلها، وتشد العين بخطوطها الهادئة الصافية التي يمتد انسيابها للمساجد التي بناها السكان المسلمون في الصين. فلا توجد قِباب هناك.

هناك عدد كبير من المسلمين في الصين، وقمنا بزيارتهم لمتابعة حالهم في ثلاث محافظات، وساعدناهم بما نستطيع، كما أننا وفرنا مِنحاً دراسية لبعض الطلاب الصينيين للدراسة في بعض البلدان مثل ماليزيا، وباكستان، ومصر.

٢٠١٦. المؤتمر الدولي الأول عن بلدان الحزام والطريق، أنا في منتصف الصف الأوسط، مع إسماعيل لطفي من تايلاند على يساري، وفريد حسين من كمبوديا، وهو ممثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي والثالث من اليمين. وزوجتي ميسون الأولى من اليمين. داتو جميل الخامس من اليمين.

يمكنني أن أكتب كتاباً كاملاً عن زيارتنا للصين، فهي جزء مغمور من عالم المسلمين. ولكن لا يوجد متسع هنا للحديث عن هذه الزيارة. ومن الصين سافرنا إلى بنجلادش. وأذكر محاولة بعض أفراد المجتمع المسلم هناك إنشاء بنك إسلامي. فبعد أن قرروا القيام بهذه المبادرة، عملوا كل ما في استطاعتهم، واستخرجوا تصريحاً قانونيّاً بإنشائه، وأكملوا كل الأوراق المطلوبة. ولكن الأمور توقفت، لأن التصريح اشترط أن يعمل البنك برأسمال مبدئي قدره ثلاثة ملايين دولار أمريكي. وتمكنوا من جمع نصف مليون دولار من داخل بنجلادش، وجمعوا المزيد من المال من بعض رجال الأعمال

في المملكة العربية السعودية، ولكن كان ينقصهم كثير من الأموال حتى يُكملوا المبلغ الإجمالي. وكاد الوقت ينفد. وكما يقولون، الحقيقة أغرب من الخيال، فعندما تواصلوا معي وعرضوا عليّ المشكلة، وجدتُ نفسي من دون كل الأماكن في مستشفى بالرياض أعقد اجتماعات، وأحاول أن أجمع المال المتبقي، ومعي بعض الإخوة من بنجلادش.

كان ذلك في عام ١٩٨١. حين تعرّض الشيخ سليمان الراجحي وأخوه صالح الراجحي لحادث سيارة خطير وهما في طريقهما لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الصحراء، ونجيا بفضل الله. تحوّلت الأحداث بشكل غريب، فكنّا نرافقهما ونطمئن على صحتهما، وكنّا نجلس بجوار سريريهما ونحن نتصفح الوقائع والملفات والأرقام، والممرضات يقفن بالقرب منّا خارج الغرفة. كان الشيخ مقتنعاً بالمشروع، ووفر باقي المبلغ، فقدم أربعين في المائة من رأس المال المبدئي، وسُجّل باسم شركة الراجحي.

وكما أسلفتُ، كان الراجحي رجلا مُحسناً فذّاً، وهناك أمثلة كثيرة تدل على ذلك، وسأضرب مثلاً واحداً فقط، ففي عام ١٩٨٢ تعرضت بنجلادش لفيضان كبير مات فيه كثيرون، وفقد عدد كبير مصدر رزقهم بسببه، فبادر الشيخ الراجحي وتبرع بأرباح سنة كاملة للبنك لدعم جهود الإغاثة في البلد. كانت بادرة كريمة للغاية تركت أثراً عميقاً في قلبي آنذاك، فهو رجل لا يكتفي بمجرد عقد النية على فعل الخير، بل ينقل النية إلى حيز التنفيذ مباشرة. وبالإضافة إلى الاستجابة لهذه الكارثة الطبيعية، لعب البنك الإسلامي دوراً كبيراً أيضاً في دعم الأعمال الخيرية لمساعدة الفقراء والضحايا، وعندما استفاد الناس من كل ذلك، أدركوا قيمة النشاط الإسلامي. وصار بنك بنجلادش الإسلامي البنك المناظر لشركة الراجحي المصرفية والاستشارية، وأصبح في النهاية أكبر بنك في بنجلادش حتى الآن. كما قام بنك التنمية الإسلامي في جدة بإرسال تبرعاته لبنجلادش عن طريق هذا البنك.

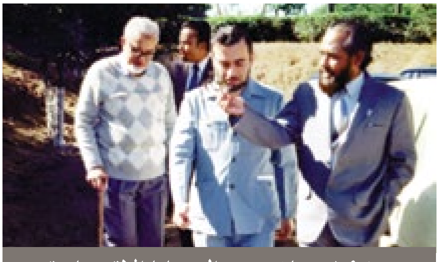
١٩٨٥. نقاش عن القضايا الاقتصادية ومشروعات التنمية مع أول رئيس للبنك الإسلامي ببنجلادش، محمد الأشقر، وهو يقف في أقصى اليسار.

وانهارَ السورُ

١٩٩٥. باكو، أذربيجان. في مؤتمر يلقي الرئيس حيدر علييف خطاباً. أستمع إليه بجهاز ترجمة في أذني. وخالد أبو نحلة على يساري.

حصل حدث غير مسبوق في عام ١٩٨٩، فتجمع حشد كبير من الناس، ليشاهدوا سقوط سور برلين. وعندما انهار ذلك السُّور، التفتت عقولنا لمجتمعات المسلمين التي تقيم خلف الستار الحديدي؛ لأن نهاية انقسام ألمانيا كانت تعني أيضاً نهاية انفصال تلك المجتمعات عن باقي العالم الإسلامي. فعندما سقطت الشيوعية، انفتح أمامنا مجال جديد من العمل، لأن الوصول إلى مجتمعات المسلمين في أراضي الاتحاد السوفيتي السابق صار الآن واقعاً ممكناً. لم نُهدر وقتاً كبيراً، ففي عاميّ ١٩٩١ و١٩٩٢ أنشأنا مكتباً في أذربيجان، دون أن نعرف ما يمكننا أن نتوقعه في المستقبل. لا شك في أن الناس عاشوا سنوات عاصفة من شظف العيش، ولكن لم تكن لدينا فكرة كبيرة عمّا آلوا إليه من جراء ذلك.

المؤمنون أناس لديهم قدرة على التحمل والصمود، ولذلك وجدنا أن شعلة الإيمان ما زالت متّقدة في قلوبهم على الرغم من سياسة الإلحاد التي تبنّتها الدول الشيوعية. وكانت سياسة الجلاسنوست Glasnost أو الشفافية، وسياسة بيريسترويكا Perestroika أو إعادة الهيكلة قد مهدتا الطريق لظهور الأعمال الدعوية بالتدريج. كنّا موجودين لتقديم المساعدة، فدعمنا النهضة الإسلامية الوليدة، وساعدنا المجتمعات بأفضل ما في استطاعتنا.

كانت اللغة عائقاً في البداية، وبدأنا نخاف أن تكون عائقاً كبيراً، ولكننا بفضل الله التقينا أخاً عربيّاً كان يتحدث اللغة الروسية بطلاقة، وكذلك الأذرية والتاتارية وبعض التركية. وكان قد طُرد من روسيا وتعرض للاضطهاد بسبب جهوده في مساعدة المسلمين، ولكنه ذهب ليعيش في موسكو بعد أن مُنح الجنسية الروسية. ثم

عمل عن كثب مع الأعضاء المسلمين في البرلمان الروسي (واسمه الدوما، وكان فيه ستة وأربعون عضواً مسلماً ويمثلهم السيد إرنست سلطانوف). فهو وسلطانوف كانوا شخصيات استثنائية، ويعملون بدأب لتكوين علاقات سلام مع الحكومة الروسية، ليس لمجتمعات المسلمين المحلية فحسب، بل للعالم الإسلامي أجمع.

وهكذا بعد رفع الستار الحديدي سافرت مجموعة منّا إلى روسيا بالتنسيق مع الشيخ الراجحي. بدأنا في موسكو، والتقينا بعدد من الدعاة، ثم زرنا قازان أو كازان في تتارستان. ثم استأجرنا طائرة خاصة لزيارة كازاخستان وقرغيزيا وطاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان وأذربيجان والشيشان وجمهورية قراتشاي تشيركسيا، مما أعطانا نظرة عامة عن منطقة القوقاز، ورسم لدينا خارطة ذهنية عن مجتمع المسلمين ومشكلاته واحتياجاته ومتطلباته. سمعنا منهم قصصاً حياتية مؤثرة، كما عاشوها في العصر الشيوعي، والتقينا بمسؤولين رفيعي المستوى وممثلين لمجتمعات المسلمين. فعلنا ما في استطاعتنا، فقدّمنا المساعدة في أعمالهم الدعوية، وعيّنّا دعاةً ومعلّمين، وترجمنا الأدبيات الإسلامية إلى اللغة الروسية وطبعناها.

لم يختلف العمل الذي عملناه في روسيا والقوقاز عمّا فعلناه من قبل في آسيا أو أفريقيا أو الأمريكتين، باستثناء أننا كنّا نتعامل مع مجتمعات أكثر تشتُّتاً بشكل أو بآخر، فقد قضت هذه المجتمعات عقوداً من الزمان، مثل غيرها من أتباع الديانات الأخرى، تعيش في مناخ يقمع الدين، وبعضها كانت فيه تشريعات مناهضة للدين، وكانت التحديات التي واجهتنا هنا أكبر. بحثنا عن الطلاب الواعدين، وقدمنا لهم مِنحاً دراسية للدراسة في الجامعات، فكفلنا خمسين طالباً ألبانيّاً للسفر إلى كوالالمبور بماليزيا والدراسة في الجامعة الإسلامية العالمية. وبعد ذلك وسّعنا جهودنا في الاتحاد السوفيتي السابق بأن أنشأنا ثلاثة وعشرين مكتباً فيه، وركزنا على توزيع الأدبيات الإسلامية باللغة الروسية، ثم أضفنا لها لغات محلية: الأذرية، والقرغيزية، والكازاخية، والتاتارية.

خصّصنا جزءاً كبيراً من جهودنا لترّجمة المنشورات والكتيبات والكتب وطباعتها وتوزيعها، وقبل ذلك حددنا أولوياتنا في اختيار الأدبيات الإسلامية، واخترنا منها ما يناسب الدول التي تمرّ بمرحلة انتقالية من الشيوعية إلى الديمقراطية.

ثم انتقل تركيزنا من الكتب والكتيبات إلى الأمور التي لها دلالة اجتماعية، بما فيها الصلاة والعقيدة، والأخوّة، والقيم والأخلاقيات الإسلامية. وأنشأنا مخيمات عدة، وكنّا نقيم في المخيمات في كل بلد كي نوفر مصاريف السفر. وفي تلك المخيمات، حددنا أفضل عشرة بالمائة من الطلاب الواعدين، وكفلناهم للدراسة في مصر، والسودان، وباكستان، وماليزيا.

قامت خطتنا الإستراتيجية على تنظيم مخيمات في المناطق التي بها كثافة سكانية كبيرة في الجمهوريات المسلمة التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي السابق. كما أننا وظّفنا كادراً من الشباب القادرين على تحسين حالة الأنشطة الدعوية والخيرية، وقدمنا لهم مِنحاً دراسية وقسمناهم مجموعات، وكل مجموعة مكونة من خمسين عضواً. وأرسلنا بعضهم إلى الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وبعضهم إلى باكستان، ومصر، وسوريا، والسودان. لم نكن نريد أن يقتصر تخصصهم على علوم الشريعة والدراسات الإسلامية فقط، بل اقترحنا أن يتخصصوا في العلوم الحديثة كذلك، سواء أكانت العلوم الطبيعية أم العلوم الاجتماعية. كنّا نريد أن نبذر بذور مواطنين نموذجيين متعلمين قادرين على تطوير مجتمعاتهم، وعلى تعليم أفراد ذلك المجتمع كيف يطبّقون أمور دينهم ومبادئه، ويجعلونها جزءاً أساسيّاً من حياتهم اليومية. فقد عاشوا لفترة طويلة تحت فلسفة إلحادية واسعة الانتشار، وكانوا في حاجة إلى إعادة التأكيد على القيم والمُثُل الدينية ومجمل الرسالة السماوية بحيث تصير جزءاً من شخصياتهم وتركيبتهم النفسية.

وشجّعنا المنظماتِ الإسلامية في الكويت ودول أخرى على أن تقوم بأنشطة في دول الاتحاد السوفيتي السابق. وشاركتْ الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية على سبيل المثال بجهد كبير، كما قدمت منظمات خيرية كثيرة مساعداتها أيضاً.

هجرة العقول، والعلاج

بينما كنّا نحاول من خلال تدريب الشباب أن نُخرج أحسن ما في المجتمع الضعيف، كانت هناك قضية أخرى تُبْطِلُ عملنا. فعندما يهاجر ألمع من في المجتمع وأفضلهم، فمن الذي يبقى ليطوره؟ وأقصد ما جدوى تدريب الشباب وتطويرهم، ليصيروا قوى عاملة ماهرة، ومن ثمّ تهاجر هذه القوى العاملة بخبراتها إلى بلد آخر؟ للأسف، كانت الهجرات الكبيرة للأشخاص المتعلمين المهرة إلى دول كثيرة من الدول الغربية بحثاً عن حياة أفضل ظاهرةً تقوّض جهودنا في تحسين أحوال مجتمع المسلمين، لأن أي مكسب في جانب قد يتضمن خسارة في جانب آخر. فكان الأمر أقرب لملء دلو مثقوب أو لقوتين متعارضتين تلغي الواحدة منهما الأخرى. لا أقول هذا الكلام إدانةً لهم، فمن يستطيع أن ينكر عليهم البحث عن رواتب أعلى، وحياة خالية من القمع السياسي، وتوفير تعليم جيد لأطفالهم، وما شابه ذلك؟ ولكننا كنّا في هذه الحالة أشبه بمن يضطر للاختيار بين المُرّ والأمرّ أو بمن يقع بين المطرقة والسندان: هناك حاجة لبقاء القوى العاملة الماهرة، لتحسين مستقبل البلد، ولكن هذه القوى العاملة في حاجة لأن ترحل لتحسين مستقبل أُسَرِها!

حاول إسماعيل الفاروقي أن يعلّم الناس أهمية قيام المسلم بواجبه تجاه المجتمع. ذكرتُ الفاروقي بإيجاز في موضع آخر، كان عملاقاً من عمالقة الفكر، ومن أبرز العلماء المسلمين في القرن العشرين. وزوجته لمياء الفاروقي عالمة ذائعة الصيت. وقد استُشهدا معاً في بيتهما عام ١٩٨٦. وكان في بلده المحتل فلسطين من رجال الأعمال والمقاولات قبل أن يصير عالماً مرموقاً وحجة كبيرة في دراسات الإسلام ومقارنة الأديان في الأكاديميا الأمريكية. وقد درّس في جامعة سيركيوز في نيويورك، ثم في قسم الدراسات الدينية بجامعة تِمْبِل Temple University في فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا. وتفرّغ لمدة عامين محاضراً وباحثاً في جامعة ماكجيل الكندية McGill University، وهي من أبرز الجامعات المرموقة في مجال الدراسات الإسلامية في الغرب، وكتب فيها كتابه القيّم "الأخلاق المسيحية".

بنسلفانيا ولاية أمريكية كانت تجذب كثيراً من المسلمين المتخصصين في مختلف العلوم الذين كان لهم نشاط ملحوظ في العمل الدعوي. وفيها التقى الفاروقي بعقول إسلامية لامعة، بمفكرين ألمعيين أثّروا فيه تأثيراً قويّاً، فتقاربوا، وانسجم فكره مع فكرهم، وغدا مفكراً إسلامياً مرموقاً.

لم يكن الفاروقي وحده في هذا المجال، ففي عصره كان هناك مفكران آخران، وكانا أيضاً عملاقين من عمالقة الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية في كل من الغرب والشرق، وأثّرا في أجيال عصرهما والعصر التالي. وهما فضل الرحمن خان، وهو من أصل باكستاني ويعيش في شيكاغو، وسيد حسين نصر، وهو من أصل إيراني ويعيش في واشنطن العاصمة.

صار الفاروقي وزوجته قدوتين ونموذجين لنا جميعاً، وكان تلاميذه وزملاؤه وكذلك معجبوه، ولا سيما من الأمريكيين الأفارقة، يسعون ليكونوا في صحبته. وكان يستضيفهم بأعداد كبيرة في بيته، ويدعوهم لتناول الإفطار والسحور في رمضان. لقد نمّتْ هذه البيئة الدافئة الإحساس بالروحانية، وقوّت العلاقات، وشكّلتْ روابط أخوّة قوية.

كان الفاروقي مقتنعاً بأن تلاميذه لا بد أن يشملوا مسلمين من مختلف أنحاء العالم، ولذلك كنّا نحاول أن نجد له نخبة من ألمع الطلاب، ليدرسوا على يديه، ونقدم لهم المنح الدراسية. وبالفعل استطاع الفاروقي أن يُوجّه نخبة من أبرز الطلاب المسلمين في ذلك الوقت.

كان الفاروقي يُعطي علمه وخبرته للآخرين بلا كلل، فكان يسافر على الدوام من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ويجوب مجتمعات المسلمين من ماليزيا إلى المغرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان ذا سمعة وكاريزما كبيرتين، فأحبّ العظماء والأخيار صحبته، ومنهم رؤساء دول ورؤساء وزراء.

كانت جهود الفاروقي في وضع فلسفة إسلامية المعرفة التي تناولناها في الفصل السابق من أعظم وربما أفضل إسهاماته. باختصار، تتمحور هذه الجهود حول إعادة تشكيل العلوم الاجتماعية في العالم الإسلامي بحيث تُبرز إسهامات الحضارة الإسلامية. وساعد، في تأسيس كلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، مع لجنة من المتخصصين في العلوم الاجتماعية برئاسة إسماعيل الفاروقي وعضوية عبدالحميد أبو سليمان وحمودة عبدالعاطي.

كان الفاروقي أستاذاً في مقارنة الأديان، وشملت جهوده المتميزة أنشطته في المؤتمر السنوي لأكاديمية الأديان الأمريكية (American Academy of Religion (AAR. وكانت هذه الأكاديمية تعقد المؤتمرات السنوية والمحاضرات عن اليهودية والمسيحية والإسلام والبوذية والهندوسية. وكان الفاروقي يستضيف قادة هذه المجتمعات الدينية، ويعرّف كل واحد منهم بأفكاره الخاصة بالإسلام. وتجلّت سعة اطلاعه وعمق تأمله في الدين في كتاب كلّفه به المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وهو عبارة عن كتاب تمهيدي عن الإسلام، فألّف لنا كتاباً رائعاً بعنوان "**التوحيد: آثاره في الفكر والحياة.**" كما بذل الفاروقي جهداً كبيراً في شرح المصطلحات الإسلامية، وتحليلها، ونشر المفردات الإسلامية في اللغة الإنجليزية، وكتب كتاباً رائداً في هذا المجال سمّاه: نحو لغة إنجليزية إسلامية Toward Isalmic English.

أود أيضاً أن أذكر زوجته لمياء الفاروقي، فلم تكن عالمة بارزة فحسب، بل كانت صاحبة إنجازات كثيرة، فتشبعت بالأفكار الإسلامية من علم زوجها وحكمته. وتكشفُ أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه في (الفن في الإسلام) كثيراً عن عقليتها الفذة، وأغنتْ هذه الأطروحة مجال دراسة الفن الإسلامي، وقد شاركت زوجها الفاروقي في تأليف موسوعة مهمّة للغاية وهي "أطلس الحضارة الإسلامية"(The Cultural Atlas of Islam). وكانت لمياء توأم روح الفاروقي في الحياة الأسرية والحياة الفكرية. فكان يناقش معها أفكاره المعقدة، وهي من كانت تقرأ كتاباته، وتزوده باقتراحاتها، وتراجع لغته، وتعيد صياغة بعض الجمل، واستطاعتْ أن تتبع منطقه في ذلك. وحسب خبرتي، كان الإنتاج الفكري في منزل الفاروقي منقطع النظير.

فتحت لمياء الفاروقي بيتها وقلبها لكل الطلاب، وكانت أُمّاً لهم جميعاً، وأنشأتْ جوّاً يتسم بتشارك المعرفة والنظرات الثاقبة المتعمقة. كما أنها استكشفت مجالات يجهلها الآخرون، وكشفت عن كنوز من الإسهامات في مجال الفن في الحضارة الإسلامية. كان بحثها دؤوباً، وكتبت كتاباتٍ كثيرة بلا كلل في مجالها. وبدأ الأكاديميون الأمريكيون يعترفون بإسهاماتها التي تُبرز قيمة الفن في الثقافة الإسلامية وما أحرزته الحضارة الإسلامية من تقدم في هذا المجال. وقد كتبت لمياء كتاباً مهماً وغنيّاً عن المرأة في القرآن.

لقد هزّني اغتيالهما، ومررتُ بحالة من الصدمة والذهول؛ بسبب الوحشية التي تملّكت الفكرَ والسلوك الذي اغتالهما، وبسبب المعايير المزدوجة في التعامل مع حادثة الاغتيال آنذاك. وبفقدهما فقدت الإنسانية والبشرية جمعاء فكراً نيراً، كان قد أسهم في بناء المشترك الإنساني الحضاري.

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM

كان أنور إبراهيم عضواً مؤسساً في مجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وعندما كان وزيراً في الحكومة الماليزية، طلب منّا المساعدة في إنقاذ الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، فقد كان مقتنعاً بأن البلد سيستفيد من جودة مستوى الخريجين الذين يمكن للجامعة أن تخرّجهم. وكان أنور ينظر إلى الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا على أنها منتدى يتفاعل فيه الطلاب الماليزيون مع الطلاب من مختلف دول العالم، مما يؤدي إلى تحسين خبرتهم التعليمية، ويكوّن أساساً للتفاعل العالمي الإيجابي.

٢٠٠٦. من اليسار، هشام الطالب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وبجواره أنور إبراهيم رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سابقاً والذي أصبح رئيساً لوزراء ماليزيا عام ٢٠٢٢. وعلى اليمين، عبد الحميد أبو سليمان مدير سابق للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. وأنا على يمينه.

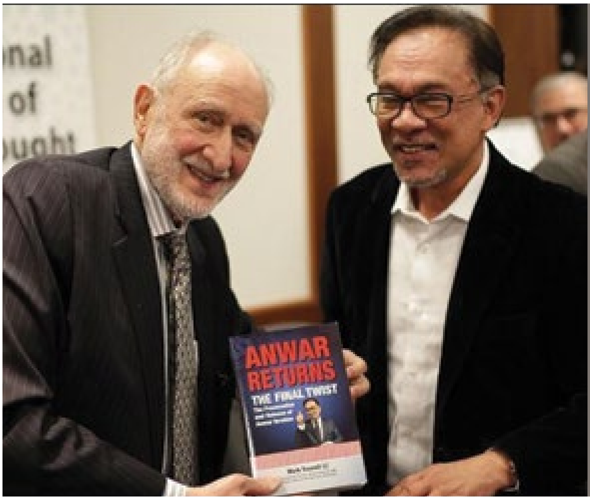

٢٠١٩. أنور إبراهيم رئيس مجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي سابقاً يُهدي نسخة من كتابه "عودة أنور" لهشام الطالب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

هكذا دخلت الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا في نطاق اهتمامنا. ومن أهم المشروعات التي قمنا بها إكمال المناهج الدراسية العامة وعلوم التراث الإسلامي، فأضفنا عُمقاً لتجربة الدراسة كلها. وبدأ العمل، فقمنا بالتخطيط والتحسين والإصلاح، إلى أن استطعنا أن نوظّف تسعمائة عضو هيئة تدريس في مختلف التخصصات. والتحق بالجامعة ما يربو على خمسة عشر ألف طالب من مختلف أنحاء العالم. كانت الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا منذ بدايتها حتى عام ١٩٨٨ كلية صغيرة بها ثمانمائة طالب، ويرأسها محمد عبدالرؤوف من جامعة الأزهر. ولكنها بفضل المنهج الجديد الذي انتهجناه كانت على وشك أن تصبح جامعة عالمية شاملة لها رؤية ورسالة واضحتان. والأهم من ذلك أنها لم تكتفِ بالتركيز على العلوم الاجتماعية والإنسانية، بل وفّقت بين هذه العلوم والعلوم الإسلامية ودراسات الشريعة توفيقاً ناجحاً. وأثمر الجمع بينهما إثماراً أفاد الجميع.

ساعد منصبُ أنور بصفته وزيراً للمالية في ماليزيا في جمع التبرعات للجامعة، وكان هو وعبد الحميد أبو سليمان (مدير الجامعة) يلتقيان لعدة ساعات أسبوعيّاً لمراجعة برامج الجامعة والاتفاق عليها. وبالنسبة للتوظيف، قللنا الأوراق المطلوبة والمتطلبات الروتينية، وسهّلنا الأمر على من يريدون أن يلتحقوا بوظيفة محاضر في الجامعة (مع المحافظة على الكفاءة والجودة)، وقمنا بدفع ثمن تذاكر سفرهم إلى ماليزيا وتوفير سكن لهم.

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا – حرم الجامعة

ينبغي أن يكون مكان الدراسة ملهِماً من الناحية الجمالية والمظهر، وليس مجرد مكان يقوم بالوظيفة الأكاديمية المنشأ من أجلها. فلا بدّ أن يلعب دوراً في العملية العلمية، وأن يمد العقل بالطاقة التي تساعده على التفكير والتأمل، ولذلك تم التخطيط لبناء حرم جامعي جديد للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. وهو الآن مفخرة هندسية رائعة وآية من آيات العمارة الإسلامية الحديثة، ويوجد في وسطه مبنيان، أهمهما مسجد يوجد على يمين مركز الحرم الجامعي، وثانيهما مكتبة مركزية. وتتفرع الكليات من هذا المركز، مثل محاور العجلة، في نسق هندسي جميل. وتوجد مجمعات سكن طلابي منفصلة للطلاب وللطالبات، وكذلك مجمع سكني لأعضاء هيئة التدريس وأُسَرِهم. وهناك مرشدون اجتماعيون إسلاميون في كل دور من أدوار السكن الطلابي، يشجعون الطلاب على العبادة والقيام بالأنشطة الحرة وممارسة الرياضة، كما تنتشر حدائق ومساحات خضراء في مختلف أنحاء الحرم الجامعي، وهي مرافئ سلام وسَكينة. بالإضافة إلى مرافق رياضية وحمام سباحة بحجم الأولمبيات. هناك تناسق بديع في الحرم الجامعي، يتضح في فلسفة جمال تكافئ الطلاب على اجتهادهم في الدراسة، وكان الطلاب يستحقون ذلك.

كما تم الاهتمام بطرق التدريس بعناية فائقة، فأُخِذَت المناهج الحديثة في الحسبان، وتمّ التخلص من أساليب التعليم التي تعتمد على الحفظ والتلقين المجرد. فكانت الغاية تخريج طلاب ذوي روح وعقل وإبداع وصفات قيادية، وليس آلات همها اجتياز الامتحانات للتوصل إلى الوظيفة المرتقبة بعد التخرج. بل حرصنا على تخريج نفوس تُدرك مسؤولياتها الاجتماعية. فالقيم والأخلاق المنعكسة من خلال الدين

تجعل القلب حياً، ومن ثمّ تجعل المجتمع نابضاً بالحياة. ومن هنا لن تكون الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا مباني دراسية كئيبة، بل ستكون رمزاً للعلوم والتعلّم والإيمان والأخلاق. ونجحت التجربة؛ ففي مسابقات المناظرات الدولية، حصلت الجامعة على المركز الأول (في الدول الناطقة بالإنجليزية باستثناء المملكة المتحدة)، وعلى المركز الثاني في المملكة المتحدة، وحصلت على المركز الأول في المسابقة التي عُقدت على مستوى قارة آسيا بأكملها. علاوة على أن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا فتحت أبوابها لأنشطة خارج المنهج الدراسي الأكاديمي، فأي شخص لديه اقتراح جيد يتم دعمه بالموارد اللازمة، لتعزيز مهارته وتطوير مشروعه.

أدّت هذه الإنجازات بالإضافة إلى جهود ومشروعات الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا إلى نمو سمعة الجامعة، فبدأت الجامعات الأخرى تطلب الاستعانة بمناهجها الدراسية. لا يوجد احتكار للمعرفة؛ لذلك كانت الجامعة سعيدة بمشاركة نموذجها، ويمكن لأي أحد على مستوى العالم أن يصل إليه الآن عن طريق الإنترنت. فعلى سبيل المثال، استخدمت جامعة الحكمة للبنات في جدة نموذج الجامعة الإسلامية العالمية في مشروع جامعي.

البوسنة

عندما سقطت الشيوعية، واجه البوسنيون حرباً فظيعة، واحتداد الكراهية الصربية والكرواتية. وأصابتنا شبه الإبادة في مجزرة سربرنيتشا بصدمة نفسية بالغة ونحن نجلس بائسين ونشاهدها أمام شاشات التليفزيون. صدمتُ صدمة بالغة. كيف سينجو أي شخص يعاني من هذه الأهوال؟ ولكن نجاة من تعرضوا لها كانت معجزة حيّة

٢٠١٠. سراييفو البوسنة. مصطفى سيريتش مفتي البوسنة في مؤتمر مستقبل الإيمان في عصر العولمة، ١٩-٢٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٠، وأنا في اليسار.

أمام أعيننا. فمن نجوا ومن فقدوا الأهل والأصدقاء جمعوا شتات حياتهم وبدأوا من جديد، محافظين على إيمانهم بالله، وعلى هويتهم الدينية. وانتفضنا لمساعدتهم، فقد وفَّر عبد الحميد أبو سليمان خمسين منحة دراسية للطلاب البوسنيين. وتعاونّا في ذلك مع مصطفى سيريتش الذي صار فيما بعد مفتي البوسنة ورئيس اتحاد علماء البوسنة، وتعاقدنا معه للعمل للتدريس في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وكلّفناه بالإشراف على طلاب البوسنة. وساعدناهم على تعلم اللغتين العربية والإنجليزية. ولم تتوانَ الجامعة في الاستجابة والدعم في أي وقت كنّا نطلب منها أن تساعد في تحسين مهارات الطلاب البوسنيين. وكانت النتيجة باهرة، فقد تقلّد بعض خريجي الجامعة مناصب مرموقة في البوسنة.

ذات مرة قارن مصطفى سيريتش بين الطلاب البوسنيين الذين تخرجوا في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ونظرائهم الذين تخرجوا في جامعات أخرى في العالم العربي، وقال: إن الطلاب البوسنيين الذين تخرجوا في جامعات عربية كثيرو المطالب، في حين أن الطلاب البوسنيين الذين تخرجوا في الجامعة الإسلامية بماليزيا ليسوا كذلك. فعادة ما كانوا يقولون عندما يزورون مكتبه: "ما الذي يمكننا إنجازه سويّاً؟" هذه الملاحظة البسيطة تنمّ عن الكثير. فقد قال سيريتش: "خريجو الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا يتحملون المسؤولية، وتركيزهم منصبٌّ على الخدمة وتأدية المهام. بارك الله فيهم، سواء أكانوا يقدمون المساعدة داخل البلد أم خارجها."

التحدي الحقيقي

ليس الوصول للقمة هو التحدي الحقيقي رغم صعوبته، لكن التحدي الحقيقي هو مواصلة الرحلة والبقاء في القمّة، فيتنافس من يصل إليها، ويطور جهوده على القمة ويحافظ عليها. بعد كل ما قدمناه من نصائح ودعم، يُثلج صدورنا أن نرى بأعيننا إنجازات الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. ولكن هناك اتجاه يمكنه أن يفتح الأبواب

أمام علماء العالم الإسلامي للتطوير والتحديث والانطلاق، ويتمثل هذا الاتجاه في مذكرة التفاهم التي تم توقيعها بين الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا وخمس جامعات سعودية: جامعة الملك سعود، وجامعة الإمام، وجامعة الملك عبد العزيز، وجامعة أم القرى، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. ووقعت جميع الأطراف على الاتفاقية، مما يدل على النجاح والتميز، ومهد الطريق لتبادل الأساتذة والطلاب والخبرات القيّمة. وما كانت الجامعات السعودية لتُقْدم على هذه المبادرة ما لم تكن مقتنعة تماماً بالمكانة المرموقة التي تتبوؤها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا على مستوى العالم.

قراءتان: الواقع والوحي

كانت غايتنا أن نقدم العلوم الاجتماعية من منظور إسلامي حتى يكون هناك منهج أشمل في تناول المعارف، يأخذ بالحسبان قراءة الوحي. فالدِّين يولّد معرفة، ويشكّل جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان وتركيبته النفسية. فلا يمكن التخلص منه أو نسيانه أو تجاهله لصالح نموذج مختزل ينظر للإنسان على أنه آلة أو مادة فقط. فالإنسان كائن روحاني أولاً وأخيراً، ويعتمد بقاء الإنسان في النهاية على هذا الفهم. فاستبعاد الدين من العلوم الاجتماعية يولّد الفوضى والتشوُّش. ولم نكن نريد لشبابنا أن يلوّثهم وَحْل الأيديولوجيات المتنافسة والرؤى المتعارضة أو تشوّشهم.

وهناك سبب آخر وراء ضرورة الجمع بين الوحي والمعرفة، لأن الوحي يُرشّد المعرفة، ويسمح باتخاذ القرارات على أساس متين يقوم على القيم والأخلاق والمنظور الواضح ومن ثمَّ على الحكمة. قد يكون هذا الكلام قديماً من وجهة نظر الإنسان الحديث، ولكنه ضروري. فإذا ما تُرك الإنسان لتفكيره الشخصي متقيّداً فقط بأحكامه الشخصية، سيبذر بذور الفوضى والتشوش في نفسه وفي المجتمع كله، مما سيؤدي إلى الدمار، دون أن يدرك الإنسان أنه هو السبب في هذا الدمار. ومن الأمثلة على ذلك

تلاشي مفهوم العائلة الذي نشهده الآن، وهي مكوّن أساس في نسيج المجتمع، ولكنه ينسلُّ من هذا النسيج أمام أعيننا. القضية مهمة ودالة للغاية، وتضرب بجذورها في قضايا الدين.

إن التعاضد بين القراءتين ضروري؛ قراءة الوحي، وقراءة الكون؛ إذ تحمينا القراءتان من الوقوع في الوهم، ومن تسويغه بأنّه الحق والحقيقة، وتدفعنا إلى فهم العالم جُملة واحدة. وهذا ما ركّز عليه المرحوم طه العلواني في معظم كتاباته في الجمع بين القراءتين؛ إذ يقول في آخر أعماله (**تفسير القرآن بالقرآن**): "إنَّ قراءة الكون، وهي القراءة الثانية مع قراءة القرآن، غير ممكنة إلا بعد هذه القراءة الأولى، فهذه القراءة الأولى هي التي تحرر العقل من كل أوهامه وتصوراته التي تعيقه عن فهم الكون حوله، ولهذا فهي قراءة مرتبطة بـ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالمنعم عليهم والذين يسيرون على الصراط المستقيم الذي يستقونه من هذا الكتاب المجيد، هم وحدهم قادرون على قراءة الكون، وليس من ضلوا فاستحقوا غضب الله، المبعدون عن توحيده وعمران كونه، والعكس أيضاً صحيح، فقراءة الكون تفضي إلى معرفة وحدة خالقه وموجده وحكمته ورحمته، فهي طريق للهداية نعمة من الله، لذا كان لزاما أن تلهج ألسنتنا بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، الحمد له الذي بربوبيَّته للعالمين حرر عقولنا وشعورنا وهيّأنا للانطلاق لفهم العالم وعمرانه، والحمد لله بما أنعم علينا من قراءة كتابه التي هيّأتنا للقراءة الثانية قراءة كونه، والحمد لله أن هيَّأ لنا القراءة الثانية لتزيدنا إيماناً بوحدانيَّته".

الفصل الثاني عشر

نُبل السلوك القويم

"لا تحْقِرَنَّ من المعرُوفِ شيْئًا، ولوْ أنْ تلْقَىٰ أخاكَ بوجْهٍ طليقٍ"

حديث نبوي، رواه مسلم

كلمات الصلاة مريحة وذات وقع جميل في النفس. وعندما تقترن بحركات الركوع والسجود، تكشف عن روعة النفس البشرية التي تنعكس من وجهة نظري في جمال الروح، تلك القوة الكامنة أو الخفية داخلنا، القادرة على الحركة والعمل والتغيّر والتطوّر، بحيث تشفي كل ما تصادفه وتجمّله.

رأيت بعض التطوّرات الدعوية التي تطهّر بالتدريج العالمَ الإسلامي من طغيان القومية والإقليمية اللتين لم تفعلا شيئاً لعامة الناس سوى زرع الفُرقة بينهم. وكان من هذه التطورات إعادة التأكيد على الهوية، والوعي المشترك بين المسلمين، واستبدال التمركز الفردي حول الذات ليحل محله التمركز حول الإيمان الجمعي. فنحن بوصفنا بشراً، لا يمكننا أن نعرّف أنفسنا في المقام الأول على أساس العِرق من دون أن نواجه الحواجز التي يضعها العرق على طريق الهوية المشتركة. إن عقل المسلم الصادق والناضج يعرّف نفسه على أساس المبادئ الواردة في القرآن الكريم، وهي بوجه عام مبادئ الإيمان. فذلك فقط هو الذي ينمّي المحبة بين البشر، فيغدو فعل الخيرات نوراً نسترشد به حتى في أصغر أفعالنا. إن إخلاص النية لله، وطلب مرضاته في كل شيء، هما رباط هويتنا، وهما الحافز الحقيقي للسلام الإنساني الذي يحلم به كل البشر.

سأحاول أن أؤكد فيما يلي على الدروس التي استفدتُها من رحلتي، والأشياء التي أشعر أنني وزملائي حققناها ولها معنى ومغزى لنا. وبدلاً من أن أقدم قائمة مختصرة بهذه العناصر، سأقوم بإبرازها من خلال كتابتها بحرفٍ غامق أثناء النقاش.

توحيد تنوّع البشر من عناصر حياتي التي أتأملها بوصفها تحديات تغلبت عليها، ليس فقط فيما يتعلق بغير المسلمين، بل وكذلك بالمسلمين، ولا سيما كسب ثقة إخواننا الشيعة؛ لأن ما يجمع البشر معاً أكثر مما يفرّقهم، وهنا تكمن أهمية التركيز على العوامل المشتركة، على العام وليس على الخاص، وكذلك أهمية العزم والإصرار عند مواجهة من يسعون للتفريق بين البشر. وقد التزمنا في كل ذلك بالمبادئ القرآنية دون أن نفرّط في أي شيء من أمور ديننا.

من أعظم الأشياء التي تعلمناها أن **نجتنب سقطات السلطة**. فلم تكن لنا رغبة في السيطرة ولا حب الظهور، لأن فرضيتنا الأساسية كانت تقوم على مبدأ آمنّا به بشدة، وهو "أن نَخدم، لا أن نُخدم". إن الصلاحية الوحيدة التي شعرتُ بها هي صلاحية تقديم الخير للآخرين، وإحداث فرق في حياتهم، وهي قدرة تكمن داخلنا جميعاً بشرط ألّا نخشى أن ننهل منها. ولذلك كانت جهودنا في سبيل خدمة مجتمع المسلمين في صدارة رؤيتنا. والذين تولوا مناصب قيادية منّا بذلوا أقصى جهودهم في هذا الاتجاه، وهم يدركون أن المسؤولية تكمن في المهام التي يقوم بها المرء، لا في اللقب الذي يحصل عليه، وما يتضمنه ذلك من مسؤولية أمام الله العليم. ولذلك عملْنا فريقاً واحداً، بغض النظر عن المنصب، وحَذِرْنا من الرغبات التافهة والتنافس القائم على الاعتداد بالنفس، فتغلبنا على مطالب الأنا الدونية حتى نكون جديرين بالعمل الذي نقوم به.

وبالعودة إلى توحيد التفاوت، لم نُقِمْ حواجز بيننا وبين أصحاب الديانات الأخرى، ولكننا التحمنا بهم بشكل إيجابي، ورحبنا بالنقاش والتعاون معهم، حتى نُنشئ معهم علاقات ودية للغاية، ومن الأمثلة على ذلك، صار المسيحيون العرب المهاجرون أصدقاءنا. وأفادتْنا مواردهم البشرية الكثيرة، بمن فيهم الدبلوماسيون، في توفير احتياجاتنا المتبادلة. وقدّمنا لهم دعوات للمشاركة في مؤتمراتنا، وهم فعلوا معنا الشيء نفسه، وبذلك اشتركوا معنا متحدثين ومشاركين في مؤتمراتنا على سبيل المثال، ودعموا قضايانا العادلة محليّاً ودوليّاً.

كما أننا لم نستبعد اليساريين والقوميين العرب، فكانت الكلمة الوحيدة في عقولنا هي "الجسر"، جسر التواصل والتلاقي، ولذلك واصلنا محاولة بناء جسر معهم بالرغم من رفضهم لرسالتنا الإسلامية، فبحثنا عن طرق الروابط المتبادلة، على أمل أن يجد المضلَّلون الطريق الصحيح. واتضح أننا على صواب في ذلك، لأن العمل المجتمعي والتفاعل المتواصلين آتيا ثمارهما، وساعدا كثيرين على فهم المنظور الإسلامي الذي حُرِّم عليهم في بلدانهم، أو الذي تخلّوا عنه عندما هاجروا. وبدلاً من شكِّهم فينا

وعدائهم لنا، أصبحوا مستعدين للمشاركة في الأنشطة الإسلامية الإيجابية والمثمرة. ومن الشعارات التي أفادتنا كثيراً: "افهمْهم أولاً حتى يمكنهم أن يفهموك".

على الرغم من كثرة مطالب عملنا، كان علينا أن **نفرّغ وقتاً للتفكير**، بعيداً عن العمل، فأتاح لنا ذلك تقويم المشروعات، والنظر في الأمور من مختلف جوانبها، كما أعطانا متسعاً للراحة والتقاط الأنفاس. فعملٌ بهذه الطبيعة يستنفد طاقة المرء تماماً، واندماج المرء فيه بكل حواسه له أثر عكسي وسلبي على المدى الطويل. وما لم يجبر المرء نفسه على أن يأخذ قسطاً من الراحة، ستتضرر صحته وقدرته على العمل. ومثلنا الأعلى وأسوتنا في هذا رسولنا الكريم ﷺ في مبدأ الاعتكاف؛ لفوائده الجمّة.

تعلمنا أيضاً أهمية الزمن في إحداث التغير الاجتماعي، فلا توجد وصفة سحرية سوى العمل الجاد المتواصل إلى أن تبدأ ثمار العمل في الظهور، ولا بدَّ من تعلُّم **الأسلوب الهادئ الصبور**. بالمثل، لا توجد وصفة سحرية تحوِّل الناسَ في الحال إلى عاملين متفانين محترفين ومستعدين، لإفادة المجتمع الإسلامي والمجتمع الأكبر بوجه عام. فلا بدّ من العثور عليهم، وتدريبهم، ومساعدتهم حتى يكونوا كذلك.

تعلمتُ فن **التواصل الجيد** والتفاوض المفتوح، ولذلك فإن اللغة عنصر أساس من عناصر نجاح العمل، فينبغي على المرء أن يكون مهذباً وواضحاً ومُقْنِعاً. فكل شخص مختلف، ولا يعمل كل شخص بالطريقة نفسها، ولذلك علينا أن نضع ذلك في حسباننا، وأن نحترم اختلاف الآراء والأساليب في معالجة المشكلات، وعلينا دائماً أن نزن مزايا الأشياء وعيوبها، فنناقشها بالتفصيل حتى نصل في النهاية من خلال الشورى إلى نتيجة مقبولة للجميع. ودعوة الآخرين للإسلام لا تختلف عن ذلك، كما أنها تتطلب أسلوباً حكيماً ووعياً حاضراً، ولا بد أن تكون تمريناً على الذكاء وحسن الأخلاق، وإدراك حرية التعبير عن الأفكار، دون أن يؤدي ذلك إلى إنشاء الحواجز بين الناس.

من الممارسات الجيدة في هذا الصدد أن يقوم المرء **بتطوير فن الاستماع**. أنصِت

إلى الآخرين، واستمع لما يقولونه، واعرف التصورات الخاطئة وسوء الفهم لديهم واحتياجاتهم النفسية. فما أن تستوعب البيئات التي جاءوا منها وما يقولونه، ستستطيع أن تشاركهم ما يتعين عليك قوله، وستكسب أيضاً احترامهم. فلسنا في حرب هنا هدفها القضاء على الآخر، ولذلك من الدروس القيّمة التي تعلمتُها أن يعرف المرء متى ينسحب. فوفّرنا على أنفسنا وقتاً وجهداً كبيرين بانسحابنا من المواقف التي لا أمل في إحراز تقدّم فيها. عندما يجادل الناسُ بعناد، أو يريدون أن يخرجوا فائزين بصرف النظر عن المنطق أو الدليل، تصير مواصلة النقاش لا طائل من ورائها وتفقد معناها، وهنا لا بدَّ من انتهاء النقاش بشكل مناسب وبطريقة تُظهر حسن الطباع، مما يترك الباب مفتوحاً لاحتمالات المستقبل. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾.

ركّزْ دائماً على الجانب الإيجابي، لا على الجانب السلبي، لأن ضوء الشمعة سيبدد الظلام حوله تلقائيّاً.

التغيّرات الصغيرة قد تؤدي إلى آثار عظيمة، وهذا المفهوم، المعروف أيضاً باسم أثر الفراشة، حافظ على تركيزنا ودافعيتنا. ولذلك تعلّمنا **أن نُعطي قيمة لأي فعل صغير يبدو غير مهم**، ونحن نعرف أنه قد يفيد آخرين بطرق كثيرة. فبدلاً من أن نمضي وقتاً طويلاً جداً في جعل الأشياء كاملة، كنّا فقط ننجز الأشياء، فما أن نلقي بالحصاة في بركة الماء حتى تمتد أمواجها فتحقق أهدافاً تتجاوز أهدافنا المباشرة. من الأمثلة على ذلك الأعمال التي قمنا بها في القرى النائية المنعزلة، فكنّا نُنشئ علاقات بينهم وبين أناس في المدن الكبرى، مما أدّى إلى إنشاء مشروعات أفادت الجميع.

لم نكن نعمل بمعزل عن المنظمات والمؤسسات الأخرى. فكنّا نهتم دائماً بالتكامل **والتعاون والاشتراك في العمل**. فمن خلال مشاركة الجهود والموارد، وفّرنا الوقت والمال، وأنشأنا روابط وعلاقات مع الآخرين، وفي أثناء ذلك سرّعنا وتيرة العمل الذي كنّا نعمله. وتكشّفت أسس النجاح عن أهمية التكامل.

كانت هذه العوامل تُرشّد تأسيس بعض المؤسسات الناجحة التي أنتجت قادة جيدين

مثل فاروق خان (عضو مجلس الشورى في الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية سابقاً). فقد منحه الله مواهب مكَّنتْه من أن يكسب قلوب الناس، فكان عطوفاً ولطيفاً وكريماً ومعطاءً. وأسَّس مع زملائه مسجداً تكلفته ثلاثة ملايين دولار. وانصهر الجميع في شرق أمريكا في بوتقة جهود فاروق خان: الكشميريون، والهنود، والعرب، والأفارقة. جمعتهم جغرافية أمريكا، ووحّدهم الإسلام، وصاروا مجتمعاً واحداً، وأفضى الانصهار والدعم المتبادل إلى التكامل. ويمكننا أن نجد متطلبات كثيرة للنجاح بين مسلمين أفراد، وكذلك بين مؤسسات إسلامية. فبعضهم كان يمتلك الموارد المالية، وبعضهم كان قادراً على التأثير في صانعي السياسات، وبعضهم كانوا مواطنين أمريكيين لأجيال. وأتاح لهم ذلك حقوقاً ليست للأجانب. وهناك مجموعة أخرى من المسلمين استطاعوا أن يكونوا أساتذةً في الجامعات في فروع المعرفة المختلفة.

هناك كثير من القادة الآخرين الذين قاموا بأعمال ممتازة، مثل وارث الدين محمد الذي اختارته الجالية المسلمة لتمثيلها عندما طلب الكونجرس الأمريكي إماماً للدعاء في افتتاح إحدى جلسات الكونجرس. وتبعه في الدعاء مزّمّل صدّيقي، وهو خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية. وصار سيد محمد سعيد، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغويات، رئيساً لاتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، وأميناً عاماً للاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، وشغل منصب رئيس الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية. هؤلاء وغيرهم ساعدوا المسلمين على تحسين مستقبلهم، وأسهموا في مستقبل أفضل للإسلام، وضربوا مثلاً يُحتذى به في التفكير المتَّسق واتخاذ القرارات الحكيمة، وكانت لديهم رؤية تقدُّمية يلعب فيها الإسلام دوراً إيجابيّاً مثمراً في كل مناحي الحياة: الفكرية، والاجتماعية، والروحية، والسياسية، والاقتصادية.

من أجل الإصلاح

تعلمتُ أننا ينبغي علينا ألا نُحجم عن الدفاع عن حقوق الآخرين من خلال المشاركة في العملية السياسية، وخاصة في الديمقراطية. ففي الأجواء الديمقراطية، يمكن للمسلمين أن يحافظوا على حقوقهم أو على الأقل بعضها، وأن يناقشوا قضاياهم صراحة، وأن يكون لهم ممثلوهم في الهيئات التشريعية، وأن يشاركوا في عملية صنع القرار. فاللعبة السياسية تتطلب التخطيط، وتحتاج إلى قادة يتجمع حولهم الناس. ولا بدّ من تطوير هؤلاء القادة، ومن دعمهم دعماً مناسباً. ويحتاج الشباب ذوو العقول الجادة إلى مساعدتنا في مدّ العمل المجتمعي ليصل إلى المسلمين المتناثرين في المدن الصغيرة والقرى حتى يستطيع العاملون في مجال الدعوة أن يفهموا مشكلات الناس، وأن يطلبوا أن تقوم الهيئات الحكومية المعنية بدورها في حل المشكلات المحلية، وتحسين خدماتها، وتقديم البدائل للمجتمع. وأعتقدُ أيضاً أن التغيير ينبغي ألّا يكون هدفاً في حد ذاته. فالمسلمون يستفيدون ويتقدمون عندما يكتسبون خبرة في مجال السياسة، ويوسعون رؤيتهم السياسية. وينتج ذلك عن المشاركة في عملية التصويت الانتخابي، وكذلك عن اختيار كادر من المرشحين المؤهلين، ودفعهم للأمام، وتشجيعهم ونصحهم، وتقديم أجندة إصلاحية؛ ثم متابعتهم فيما بعد ومساعدتهم على القيام بمسؤولياتهم (سواء أكانت هذه المسؤوليات في المجالس المحلية أم في البرلمان). فلو اقتصر العمل الدعوي على داخل المباني الدينية وقاعات الدراسة أو على عمل خيري محدود، فإن ذلك سيبدد الطاقة المتاحة، وسيترك باب التراجع مفتوحاً.

السياسة في أي بلد ديمقراطي هي فن الممكن، وينبغي على المسلمين ألا ينفصلوا عنها، بل عليهم أن يفهموا طريقة عملها، ويشاركوا في العملية السياسية مشاركة سلمية واقعية. أحياناً يكون الإنجاز من خلال جماعات الضغط أكثر فعالية من تأسيس أحزاب مستقلة. وتلك كانت النصيحة التي نصحنا بها مسلمي الهند، وقَبِلوها. وعندما كوّنوا من أنفسهم جماعة ضغط، استمعت الحكومة لمطالبهم وشكاويهم واقتراحاتهم،

ووضعتْ خطة لتلبية احتياجاتهم. فلو كان المسلمون قد انفصلوا عن باقي السكان وشكّلوا حزباً خاصاً بهم، لكان من الأصعب على الحكومة أن تبرر إنفاق نصيبهم من المال على تحسين وضعهم. المشاركة الجادة من جانب الأعضاء المسلمين في الأحزاب السياسية الهندية، وإسهامات المسلمين الإيجابية في حل مشكلات المجتمع الهندي بوجه عام، أدّتا إلى نتائج إيجابية في هذه الحالة.

في مجتمع مدني، تتعدد الطرق أمام المواطنين للدفاع عن حقوقهم، ويمكن لبعض التحسينات الإضافية الصغيرة أن تكون أساساً للتطوير، وتجربةً للتعلم، وقد تتكشف آثارها بطرق غير معروفة. إذا لم يطلب المرء الشيء لن يحصل عليه.

تطلّعْ للعُلا، واسعَ لتطوير نفسك على الدوام. ينبغي أن يكون هذا المبدأ جزءاً لا يتجزأ من أية خطة إستراتيجية، فالناس يخافون كثيراً من المجهول. وللأسف، عندما تظهر العقبات، يتوقف الناس عن العمل، ظانين أن الحاجز كبير ولا يمكنهم اجتيازه. أشعر دائماً أن الخوف أو القلق شيء طبيعي، ولكن بشرط المضي قدماً بصرف النظر عن النتيجة أو العقبات. فما العقبات إلا وسائل تدعونا لحل المشكلات أو التوصل إلى حلول لها. ومع أن بعض الناس أكثر قدرة على مواجهة التحديات، ينبغي عليهم ألا يهربوا من التحديات. ولذلك، تطلّعْ للعلا ولا تخشَ الفشل.

يمكننا جميعاً أن نتعلّم من حرب البوسنة والهرسك، على الرغم من أنها مزعجة لنا جميعاً، وعلى الرغم من أنها من أفظع الأهوال والأفعال التي ارْتُكِبت في حق الإنسانية، ولا سيما مجزرة سربرنيتشا التي صدمت كل المسلمين في كل مكان، خرج أهل البوسنة منها جَلِدِينَ أقوياء قادرين على التعافي بسرعة. فبينما كانوا يدفنون أعداداً غفيرة في مقابر جماعية لإكرامهم بجنازة حُرموا منها، كانوا يعيدون بهدوء بناء مجتمعهم وعالَمهم الممزق. كانوا يتألمون، ومع ذلك كانوا يواصلون الحياة. يصدح علي عزت بيجوفيتش في مقولات متعددة من أهمها: "الشجاعة هي الاستعداد لمواجهة المصائب التي لا مهرب منها برباطة جأش"، "لا يمكننا أن نبلغ الكمال، ولكن شيئاً واحداً يمكننا القيام

به، أن نحاول باستمرار أن نكون أكثر إنسانيّة، أن يحاول كل إنسان أن يكون إنساناً أكثر بقدر الإمكان." "إنني مسلم وسوف أبقى مسلماً، الإسلام بالنسبة لي هو كلمة أخرى لمعاني كل ما هو خير ونبيل، إنه اسم للوعد والأمل بكل ما هو خير للشعوب المسلمة وللعالم".

للأسف، قلما نجد قائداً مسلماً يضاهيه في الإيمان والأخلاق، وجمال الروح، وخدمته لشعبه.

التفتْنا أول مرة للوضع في البوسنة من خلال الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، وكان ذلك في بداية السبعينات من القرن العشرين، وكان المسلمون يعانون بالفعل من القمع على يد نظام الحكم اليوغسلافي الشيوعي، فكان ذلك النظام لا يسمح بأي نشاط ديني. وكان علي عزت بيجوفيتش مسلماً تقيّاً، وهو بطل المستقبل في حرب البوسنة، وكان مقدّراً له أن يقود شعبه، ويعبر بهم سنوات المعاناة الفظيعة، وكان يقاتل بالفعل في سبيل حصولهم على حقوقهم في تلك السنوات المبكرة. وبسبب محاولاته، تعقبه الشيوعيون وسجنوه وعذبوه. وشرفتُ بفرصة لقائه؛ إذ أردتُ أن أؤسس برنامج مِنح دراسية جامعية لأوروبا، وبدأت فكرة مساعدة الطلبة لإكمال دراستهم. كنتُ في ليبيا آنذاك، وتواصلت مع رجل أعمال ليبي كريم كنتُ أعرفه، فموّل برنامج منحة دراسية (حوالي مائتي دولار في الشهر). في ذلك الوقت، كانت المصاريف في أوروبا الشرقية رخيصة، واستطاع فيما بعد أن يعتمد على موارده الخاصة، ويلبي احتياجاته بنفسه. وهو بدوره اقترح أن نجد شخصاً لترجمة كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" من تأليف علي عزت بيجوفيتش. وبذلك التقينا بالرجل نفسه فيما بعد. وتُرجم الكتاب إلى العربية والإنجليزية والفرنسية ولغات أخرى، وكان له تأثير كبير في أناس كثيرين، وعدّه المفكر الكبير عبد الوهاب المسيري من أفضل الكتب التي قرأها عن الإسلام.

لم يقتصر علي عزت بيجوفيتش على الأنشطة الفكرية والتحليلية. وإنما عمل أيضاً على استقلال البوسنة. وكان يده اليمنى في هذه الجهود الفاتح حسنين.

وحضرا سويّاً مؤتمراً نظمتْه الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وشاركا في ندوات المؤتمر لجلب الدعم للبوسنة ولمساعدة مسلمي البلقان بوجه عام. والأخ نفسه قام بعد ذلك بتعريف الجالية الصينية في السودان بالإسلام.

أن يكون المرء أحسن قدوة درسٌ وقيمةٌ. أعتقدُ أن الدين يتغلغل في شتى جوانب حياة المسلمين بما يفوق أي مجتمع آخر. إن كل ما نفعله يرتبط تلقائيّاً بديننا ويؤثر فيه سلباً أو إيجاباً، ونظراً لعِظم الأمانة التي كُلّفنا بحملها، من الواجب علينا ألّا نكون مجرد قدوة حسنة، بل أحسن قدوة، فلا بد أن ينعكس القرآن في كل تصرفاتنا. وقدوتنا بالطبع النبي محمد ﷺ، فهو لم يكتفِ بالكلام عن الصواب، بل فعل الصواب، وأثنى علانية على أعمال الآخرين الصالحة، ولا يكلفنا الكلامُ الطيب والأخلاق الحسنة شيئاً، ولكنهما يصنعان المعجزات.

وهذا يوصلنا إلى **أخلاقيات الاختلاف**. يتطلب منّا الخطابُ المقنع أن نعرف كيف نختلف أو نستجيب للاختلاف باحترام، فينبغي علينا ألا نستصغر أعمال الآخرين. فإذا كنّا لا نوافق على عمل أو فكرة، فيجب علينا أن نبذل قصارى جهدنا لتقديم البديل، لا أن نكتفي بالتقليل بما فعله غيرنا. على سبيل المثال، كان عملنا يستلزم أن نتعاون مع مجموعة مختلفة من مجتمعات المسلمين، ولذلك كنّا حريصين على أن نجتنب الدخول في جدال حول القضايا الصغرى، فكنّا نركز على القضايا الكبرى التي تتشكل من القواسم المشتركة بين الجميع. ليس كل الناس مهرة في العمل الجماعي، ويمكن لبعض المقتنعين برؤيتهم أن يعيقوا انسياب الجهود الجماعية أو أن يشنوا هجمات. وصل إلى مكتبنا تقرير يقول فيه كاتبه عن إحدى الجماعات التي دعمناها بالخارج: "لو كنتُ في موضع المسؤولية، لكنتُ فعلتُ كذا وكذا". وسألتُ نفسي: هل هذا نقد بنّاء أم هذا الشخص زميل حاقد ينفّس عن حقده؟ إن القدرة على التمييز مهمة جداً. واضطررتُ لأن أميّز متى يبذر البعضُ بذور الشك في محاولة منهم لإفقادنا الثقة بغيرهم. وما كان يحدث على المستوى الأصغر كان يحدث على المستوى الأكبر. وهكذا،

تلقّت بعض الحكومات تقارير زائفة عنّا وعن عملنا، الهدف منها إحباطنا شخصيّاً، وإعاقة جهودنا الرامية إلى مساعدة مجتمعات المسلمين. وتعلمنا أن نتحلى بالصبر ولا نتأثر بالنقد بسهولة. فمع أنهم كانوا قساة في اتهاماتهم لنا، ومع أننا كنّا بريئين من هذه الاتهامات، لم يكن لدينا متسع لإهدار وقتنا وطاقتنا في الردّ على كل اتهام. ففي بعض الحالات الضرورية كنّا نرد على الافتراءات. وكنّا نعد معظم الحالات تمويهاً يُراد به تشتيتنا. للأسف هكذا الدنيا، وهذه نتيجة حتمية تنبع من أصحاب القلوب المغرورة والنفوس الحقودة، ولا يخلو منهم أي مجتمع في العالم.

بعد مأساة الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، تعرضت الجالية المسلمة والشباب النشطاء المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية لأسوأ أنواع المعاملة. واشتملت الانتهاكات أحياناً الاعتقالات والسجن بلا سبب، وعرقلة جهود الجمعيات الخيرية الإسلامية (وهي جمعيات خيرية كانت تساعد المسلمين الفقراء وغيرهم لسنوات طويلة)، وظُلِم كثير من المسلمين، ولا سيما حديثو الهجرة منهم. كما أن السلطات أساءت معاملة مؤسسات إسلامية عديدة، واضطرت هذه المؤسسات أن تدفع جزءاً كبيراً من مواردها للمحامين للدفاع عنها ضد الاتهامات الكاذبة الموجهة لها. ولم يكن نشطاء الجالية المسلمة أفضل حالاً من غيرهم، فقد كانوا محاطين بكثير من اليمينيين المتطرفين في بعض الهيئات ممن يتهمون أي ناشط بأنه مجرم، ويكيلون له كل أنواع التُّهم الملفّقة. وكل ذلك ملأ قطاعات كثيرة من السكان المسلمين بالخوف والشك. لقد كان كابوساً فظيعاً.

شهدتْ تلك الفترة تمحيصاً عاماً لكل ما هو إسلامي على نحو غير مسبوق، وأدّى التضليل وسوء الفهم إلى هجمات حوّلت حياة المسلمين اليومية فجأة إلى جحيم؛ إذ عانى عدد كبير من الجالية المسلمة، وتحوّل جزء من عملنا إلى مسارات جديدة.

حدث شيء عجيب وسط كل هذه الفوضى، فقد أدّت الدعاية السلبية إلى زيادة الاهتمام بالإسلام زيادة كبيرة. فبدأ كثير من غير المسلمين يدرسون الإسلام والقرآن،

ويطرحون أسئلة عنها، ويدخلون في نقاشات، ويسعون لمعرفة الحقيقة، مما أدّىٰ إلىٰ اعتناق عدد كبير للإسلام.

من المهم جداً **تخصيص المال بحكمة، والحفاظ علىٰ الشفافية في الأمور المالية**. قد يكون جمع أموال التبرعات شيئاً يسيراً، مع أن له مشكلاته الخاصة، ومنها الجدال مع الذين يبذلون قصارىٰ جهودهم لمنع تخصيص المال للقضايا الخيرية أو التبرع به لها. ولكن إنفاق أموال التبرعات بمجرد جمعها شيء آخر، فكلما زادت أموال التبرعات زادت الحاجة إلىٰ قرارات حكيمة عند تخصيصها، وزاد أيضاً نطاق المسؤولية. ومن الصعب إعطاء أولوية لبعض الاحتياجات دون أخرىٰ، ولا بدّ من القيام بتحليل للمنفعة والتكلفة. علىٰ سبيل المثال، من الأفضل إنفاق مال أكثر علىٰ إنشاء مصنع أدوية لتوزيع الأدوية علىٰ الفقراء، من إعطاء المرضىٰ مبلغاً صغيراً من المال لشراء أدوية مرتفعة الثمن.

كنّا حريصين علىٰ سلامة الإنفاق المالي وعلىٰ تحمل المسؤولية عن إنفاقه، فكنّا نُصدّر التقارير المالية، ونحرص علىٰ أن تكون التقارير بسيطة غير مُعقّدة؛ وكنّا نسجل فيها المال الداخل والخارج، مما أكسبنا ثقة كبيرة، وكان من وجهة نظري أحد العوامل الأساسية التي جعلت كثيراً من المتبرعين يتبرعون لأعمالنا وهم مطمئنون.

هناك سبب آخر يدعو للحرص علىٰ الشفافية بدقة أكثر من المعتاد، وهو السلامة الشخصية. ذلك لأن الهيئات الحكومية تقوم الآن بمراقبة المنظمات الإسلامية من جهة مصادر تمويلاتها ووجوه إنفاقها، وهذا إجراء سليم بالطبع في ظل التطرف المنتشر في العالم، ولذلك من المرفوض رفضاً باتاً التهاون في هذا الأمر لما له من تأثيرات سلبية.

اكتسبتُ خبرة في المنظمات الكبرىٰ من خلال الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، والندوة العالمية للشباب الإسلامي، ومؤسسة سار، مما جعلني أقول لنفسي والآخرين إننا نحتاج إلىٰ قفزة نوعية في العمل الخيري الإسلامي، قفزة تستفيد من جهود وموارد المنظمات غير الحكومية العالمية الكبرىٰ (مثل اليونسكو، واليونيسيف،

والإيسيكو). وينبغي علينا أن نكلف مختصين بكتابة تقارير، سواء أتواصلنا مع هذه الهيئات أم لم نتواصل معها، حتى نفهم المشكلات على أرض الواقع فهماً حقيقيّاً. كما أننا ينبغي علينا أن نشجع الهيئات في بلداننا على أن تضطلع بهذه المهمة. فالباب مفتوح أمامنا جميعاً لتدريب فريقنا ومؤسساتنا للمشاركة في مشروعات تقوم على بيانات واقعية، وتقدم خدمات حقيقية لعامة المسلمين. وعلينا أن نقدّم هذه المقترحات للهيئات الدولية المانحة، ونشارك في حملات لتعليم المحتاجين، وكسوتهم، وإطعامهم، وعلاجهم، وإسكانهم، وتمكينهم. وهناك أيضاً كثير من الشركات متعددة الجنسيات التي تستفيد من الموارد في العالم الإسلامي، وينبغي أيضاً التواصل معها لتردّ الجميل للقوى العاملة التي تستغلها والبلاد التي تستغل مواردَها، بأن تخصص جزءاً من أرباحها، لإفادة هذه القوى العاملة في هذه البلاد.

تدريب الناس: العمل الإسلامي والخيري في حاجة ماسة إلى احترافية وتخصص كبيرين لتحسين الأداء. ولا يعني ذلك الاستغناء عن جهود المتطوعين، لأن كثيراً من العمل الإسلامي اعتمد في الماضي وما زال يعتمد في الحاضر على الجهود التطوعية والخيرية، وإنما يعني أن نُدخل في هذه المعادلة الأشخاص المدرَّبين ذوي المهارات المتخصصة الذين يمكنهم بدورهم أن يُدربوا المتطوعين، حتى يحققوا أفضل إنجاز، ويُخرجوا أحسن ما فيهم. كما أن العمل الإسلامي في حاجة إلى رؤية شاملة تأخذ في حسبانها كل العناصر المناسبة. ولا بدّ أن تستوعب الروابط والصلات بين مختلف جوانب الحياة، وتقترح أعمالاً توفّق بين هذه الجوانب كلها في إطار تكاملي يُدرك الأولويات الشرعية في فقه حديث يكون واعياً بكل التغيرات المعاصرة. فما زال اتجاهنا في العمل بحاجة إلى دراسات أكاديمية تعتمد المنهج العلمي، ويمكن للفقهاء أن يستفيدوا من جهودها الإصلاحية. وبذلك، يمكنهم أن يرتبوا إسهاماتهم الفكرية لتعويض الناقص، وأن يعتمدوا على إسهامات الحضارة الإنسانية ويستفيدوا منها، مما يجعلهم يخطون للأمام خطوات مهمة.

يجب علينا أن نوثّق الدروس المستفادة من العمل الإسلامي، وأن ندرّب الأجيال القادمة، وأن ننقل لهم كل خبراتنا، وأن نقدم لهم برامج تعليمية وبيئات معرفية تدعمهم، وينبغي أن يقوم ذلك على عمل مؤسسي يتجاوز مجرد الجهود الفردية، ويصل إلى مستوى المبادرات الجماعية المنظَّمَة. وعلى الأجيال الجديدة أن تستفيد من دروس الماضي وتتطلع إلى مستقبل مشرق. وفي الوقت نفسه، ينبغي ألا ننسى الجيل الأقدم الذي لديه قدر كبير من الخبرة والمعرفة. وكما نستفيد من جهود الشباب، علينا أن نستفيد أيضاً استفادة قصوى من أصحاب الخبرة، ولا سيما العلماء الأكاديميون. فهناك مشكلة كبرى تواجه بعض الدول الإسلامية، وهي عدم الاستفادة الكاملة من المفكرين والموهوبين فيها، ولا سيما الذين بلغوا الستين من العمر فما فوقها. في الغرب، يظل أساتذة الجامعات يقدّمون إسهامات ويعملون مستشارين في البيئات الأكاديمية إلى أن يبلغوا الثمانين من العمر وربما فوقها.

الاعتدال، لا التطرف. لا نرغب في أن يكون الشباب ضحية للأيديولوجيات المتطرفة، بل أن يكونوا ناضجين في فهمهم للأمور. ولتحقيق ذلك، هم في حاجة إلى قدوة متبحّرة في العلم، ليقتدوا بها، في مجالات الحياة كلها، بما فيها العلماء، ممن يستطيعون أن يربُّوهم ويدربوهم على موازنة القضايا التي قد تواجههم، وعلى تقويمها ومراجعتها، حتى يستطيعوا أن يستخلصوا منها نتائج سليمة ويتخذوا القرارات الصائبة. الشباب مفعمون بالطاقة والعاطفة، وللأسف هناك من يعرفون كيف يستغلون طاقات الشباب وعاطفتهم ويوجهونها وجهة سلبية، فيستخدمون كل أنواع الحيل والخداع لتأجيج الاندفاع والغضب والتفكير المتسرع فيهم، مما قد يعرضهم ويعرض الآخرين للأذى. ولذلك فضّلْنا أن نقوم بدور الناصح والمعلّم ومدرّب الحياة، فندخل حياتهم لنرشدهم بلطف، ونُشركهم، إذا أمكن، في وظائف ذات مسؤولية تلزمهم بأن يتصرفوا تصرفات ناضجة.

يمكننا أن نجد مثالاً جيداً على القدوة في الجمعيات والاتحادات المتخصصة. على سبيل المثال، تم إجراء أول عملية قلب مفتوح في هيوستن بولاية تكساس الأمريكية، وشارك أحمد القاضي من مصر في إجرائها. وصار أول رئيس للجمعية الطبية الإسلامية بأمريكا الشمالية التي تأسست عام ١٩٦٧. وعندما شكّل الأطباء المسلمون هذه الجمعية، وهي جمعية مهنية لتمثيلهم، شكّل العلماء والمهندسون المسلمون جمعيتهم المهنية الخاصة (جمعية العلماء والمهندسين المسلمين بأمريكا الشمالية التي تأسست عام ١٩٦٩، وجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في أمريكا الشمالية التي تأسست عام ١٩٧٢). وبهذه الطريقة نشأتْ منظمات جديدة تمثل المتخصصين في العلوم المختلفة، واستفاد طلاب الماجستير والدكتوراه من هذه الجمعيات المتخصصة.

بمرور الزمن، ونُضجِ حضور المسلمين في أمريكا، وتشكيلِ جمعيات تمثّل الأطباء المسلمين والمهندسين وعلماء الاجتماعيات المسلمين، بدأ المسلمون يهتمون أكثر بحقوقهم السياسية. فأبناء المهاجرين المسلمين الآن جزء لا يتجزأ من المجتمع الأمريكي، وبدأوا مؤخراً في الاتفاق على دخول الساحة السياسية، وتقديم مرشحين منهم على مستويات عدة: على المستوى المحلي، والمقاطعة، والولاية، وعلى مستوى أمريكا كلها. في الحقيقة، كانت هناك ضغوط كثيرة تُمارس على المنظمات الإسلامية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١.

ومن الأمثلة الأخرى المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجهوده على المستوى الأكاديمي في الجامعات في العالم الإسلامي. يحاول هذا المعهد أن يقدم المنظور الإسلامي في سياق العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويسعى للتوفيق بين مخرجات هذه العلوم وروح الدين الإسلامي. ومن مبادئه التأسيسية رفع جودة مخرجات اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا، ولا سيما أن هذه الاتحادات فيها نخبة من أفضل العقول ممن يدرسون في الجامعات الأمريكية. وما أن ينتهي هؤلاء الطلاب من إكمال دراساتهم العليا، يصبحون اللبنات التي نعتمد عليها في بناء مؤسساتنا وجمعياتنا الإسلامية وفي تلبية احتياجاتنا التخصصية.

ينبغي على القادة المسلمين أن يلبّوا هذه الاحتياجات، وأن يعتمدوا على كل الموارد المتاحة في المجتمع. والمسلمون في حاجة أيضاً إلى بناء المزيد من المساجد، فبعض المساجد تضطر لإقامة ثلاث صلوات جمعة متتابعة حتى تستوعب عدد المصلين. وعلى الرغم من التوسعة المتواصلة لكثير من المساجد، يتزايد عدد المصلّين من الرجال والنساء. وفي الوقت نفسه، تزايدت إسهامات المسلمين المالية، ولذلك لا بدّ من القيام بتخصيص أموال التبرعات والبدء في مشروعات. علاوة على ذلك، تواصلتْ بعض المؤسسات اليهودية والمسيحية مع المراكز الإسلامية، وطلبت معلومات عن الإسلام. وزادت الأنشطة الخاصة للتفاهم والحوار بين الأديان. وهناك حاجة كبيرة إلى دعاة مسلمين ليبذلوا قصارى جهودهم للتغلب على الفُرقة بين مجتمعات الأديان الثلاثة، وإيجاد مستقبل أفضل للجميع. أقيمت برامج تدريبية كثيرة لتقديم الإسلام لغير المسلمين، ويتم تقديم الإسلام الآن باستخدام كثير من أنواع الوسائط التقليدية والحديثة: المحاضرات، والمطبوعات، والإنترنت، والمواد السمعية والبصرية، والتكنولوجيا. ونفدت كميات كبيرة من الكتب والكتيبات التي لدى المؤسسات والجمعيات والمنظمات الإسلامية (في أمريكا على وجه الخصوص، وفي الغرب بوجه عام) بسبب الطلب الكبير للتعرف على الإسلام والمسلمين منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

إنشاء ثقافة الخير: لا بد أن نرسّخ ثقافة نشر الخير والإحسان، ونتجاوزَ ثقافة مجرد كوننا أخياراً. فلا بد أن ننتقل من مرحلة كوننا أخياراً إلى مرحلة كوننا دُعاةً للتراحم والعطف والكرم؛ ولا بد من أن ننتقل من مرحلة كوننا أناساً لطفاء صالحين إلى كوننا ناشرين لحسن الأخلاق مصلحين؛ وينبغي ألّا نكتفي بإصلاح أنفسنا، بل نساعد الآخرين أيضاً على إصلاح أنفسهم. هذا هو منهج النبي ﷺ وأتباعه. فليس من الثقافة والقيم الإسلامية أن نهتم فقط بصلاحنا ورفاهنا، أو أن نركز على أنفسنا، ونتجاهل الإصلاح الاجتماعي أو دعوة غيرنا للإسلام. فلم يكن ذلك مقبولاً لدى المسلمين في مسيرتهم الحضارية ولا سيما في قرون الإسلام الأولى، وهم أروع أمثلة يُحتذَى بها في

الالتزام بالدين.

يُسعدني أن أقول: إن الأمور بدأت تتغير للأفضل، فالمرأة المسلمة الآن تزور جاراتها وتسعى للتعرف عليهن، ومن ثمَّ تجسِّد قِيمَها وتقضي على الجهل القائم على مفهوم "بيننا غرباء". وعلى مستوياتٍ مهمة أخرى، بدأ المسلمون والمسلمات يظهرون على التليفزيون، ويتحدثون عن الإسلام، بعد غياب المسلمين لأمد طويل عن هذه الساحة، فيصححون بالتدريج الصورة السلبية التي رسمتها وسائل الإعلام عن المسلمين على مرّ السنوات. بمعنى آخر، المسلمون الآن لا يتقوقعون على أنفسهم، بل صاروا مفوَّهين، ويعرفون وسائل الإعلام، وينفتحون على الآخر، وغدوا فخورين بتراثهم وفخورين بهويتهم، وهذا هو الوضع الطبيعي الذي ينبغي أن يكونوا عليه دائماً.

ولذلك أُسرُّ عند رؤية المسلمين يتوجهون الآن بعيداً عن العلوم الفنية البحتة، مثل الطب والعلوم الطبيعية والهندسة، إلى الدخول في مجالات جديدة مهمة لازدهارنا في المستقبل، ومنها الإعلام والمحاماة والصحافة والعلوم الاجتماعية.

والعمل الدعوي -داخليّاً- منضبط جيداً، ولذلك ليس هناك سبب يدعو لرفض العمل العام في إطار نظام القواعد والقوانين والإجراءات التي تحكم المجتمع، ولا سيما في بيئة ديمقراطية تمنح الحريات.

لكن بالرجوع إلى قضية الإعلام، لا شك في أن صورة العرب والمسلمين في الغرب تعرضت لضربة قوية في الأفلام والصحف، مما يعزز الصور السلبية والتحيزات التي ترسخها طرق أخرى مثل الأكاديمية والروايات الشعبية المبتذلة وما شابه ذلك. واستجابةً لذلك، تواصل المعهد العالمي للفكر الإسلامي مع أقسام الدراسات الشرق أوسطية والإسلامية في أمريكا، وتصفّح المناهج الدراسية، وحدد إيجابياتها وسلبياتها، وكتب تقارير وأرسلها إلى عدة جامعات لمساعدة أساتذة الجامعة على أن يقدّموا أفضل مادة دراسية في محاضراتهم. وبذلك حاول المعهد العالمي للفكر الإسلامي أن يُثري

المعرفة ويغنيها ويجعلها أكثر ملاءمة لواقع الإسلام والمسلمين. فقام بمشروع دراسة متكاملة لمساقات تدريس الإسلام في الجامعات الأمريكية، ونشر الدراسة بتفاصيلها، مع التوجيهات المطلوبة للارتقاء بهذه الأقسام من قِبل ثلاثة علماء أكفاء، هم: ممتاز أحمد، وسليمان نيانغ، وزاهد بخاري. نسأل الله أن يجزيهم خير جزاء على إبداعهم المتميز في إنجاز المشروع. وقد نُشر الكتاب تحت عنوان (Observing the Observer)

التعليم شيء، والمعرفة شيء آخر، فسواء أكنّا نجبر التلاميذ على حفظ المعلومات (الطريقة التقليدية) أم نجلس أمام السَّبورة لحشو المعلومات في عقولهم (الطريقة الحديثة)، علينا أن نسأل أنفسنا في نهاية اليوم: ما الهدف الفعلي من التعليم؟ أي نوع من البشر نريده أن يخرج من قاعة الدرس؟ هناك ضغط على الأطفال للتفوق واجتياز الامتحانات، مما يفصل فكرة كون المدرسة بيئة تعلُّم تنمّي الإبداع وحب العلم، عن فكرة أولوية الدرجات والنتائج بوصفها مقياس ذكاء أبنائنا. بالإضافة إلى ذلك، أين الأخلاق والدين في تجربتنا التعليمية كلها؟ اكتشفنا على مرّ السنوات أن المجتمع الإسلامي يُؤسس مدارس دينية باطّراد حتى يحافظ على الدين والأخلاق. ولكن ذلك لم يكن يعني أن التلاميذ سيَخرجون من المدرسة أناساً أفضل؛ لأن عملية التعلُّم الفعلي تعاني من سوء الطرق التعليمية.

لا نريد أن نتوقف كثيراً عند قضية الحفظ عن ظهر قلب، وهو للأسف الأسلوب الأساس في التعليم في بعض الدول الإسلامية. فهو يُهدر إمكانات بناء مهارات متعددة، وإمكانات تنمية القدرة على الابتكار. وبما أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي كان يركز على التعليم العالي، وعلى البناء الفكري للشخصية الإسلامية المعاصرة، فإن من أولوياته النظر في إصلاح المناهج، ومنها مناهج التدريس المدرسي والجامعي، ومحاولة التعامل بمنهجية تكاملية بين الأصول الأساس للشخصية الإسلامية (القرآن الكريم والسنّة المشرفة)، والعلم الحديث. وبذا يصبح تعاملنا مع القرآن الكريم والسنة النبوية أكثر تفاعلاً وذكاءً من مجرد الحفظ، لننتقل بهذا من مرحلة التلقين إلى مرحلة الوعي والإدراك.

أيّاً كان النقد الذي تعرض له المعهد العالمي للفكر الإسلامي أو تعرضنا نحن له، فهناك شيء واضح: وهو أننا كنّا نحاول أن نتوصل إلى رؤية توفيقية تحافظ على الهوية الإسلامية، وتعيد التأكيد على المعرفة الإسلامية والتراث الإسلامي، وتسمح بظهور منظور يتناول مشكلات العالم الإسلامي الخاصة ويلبي احتياجاته. كما أننا حاولنا أن نوضّح أن العالم الإسلامي سيبقى تحت وطأة السخرية الفكرية ما دام خاضعاً ومتكيفاً مع مطالب المنظور الغربي السائد؛ لأن التقليد الأعمى للغرب، أو أسلوبه الأكاديمي الذي يَحُولُ دون حضور البُعد الديني في دراساته وأبحاثه، لن يحل مشكلات المسلمين الاجتماعية والاقتصادية، بل سيجعلها تستفحل. إن المنظور الثقافي الغربي الذي يهيمن على العالم الأكاديمي قد يصلح للمجتمعات الغربية، ولكن لا يستقيم النظر إليه على أنه المنظور الوحيد، ومن ثمّ إسقاطه على عالَم يعرّف نفسه من منطلقات مختلفة، وبناء عليه فإن هذا المنظور ليس الطريق للإصلاح والتنمية عند المسلمين. فالمجتمع الإسلامي يختلف عن المجتمعات الأخرى في أخلاقياته وأولوياته ومبادئه ومنطلقاته، فهو مجتمع يقوم على عقيدة التوحيد، ويستمد مبادئه من مصدرين أساسيين: القرآن الكريم، والسُّنة النبوية، ويتكئ على إرث حضاري كبير، ورؤية كلية كونية للعالَم. وهكذا عمل المعهد العالمي للفكر الإسلامي على حلّ مشكلة التجديد الحضاري من خلال الالتزام بهذين المصدرين وبالرؤية الكلية الكونية، ونجح هذا المشروع في عدد من الجامعات الماليزية بالإضافة إلى كثير من الكليات والجامعات في إندونيسيا، ناهزت مائتي مؤسسة.

ومن التجارب المهمة في العمل الإسلامي في أمريكا تأسيس مدارس إسلامية كاملة وإنشاء خطوط اتصال بينها. وأدّى هذا الجهد إلى تأسيس رابطة المدارس الإسلامية في أمريكا. ولكن المدارس الإسلامية لا يمكنها إلّا أن تستوعب عدداً صغيراً من مجموع الطلاب المسلمين الأمريكيين، ربما لا تزيد نسبتهم عن خمسة بالمائة. والباقون يدرسون إما في مدارس أمريكية عامة أو خاصة، مما جعل المعهد العالمي للفكر الإسلامي ينشر سلسلة من أدلة المناهج الدراسية، لاستخدامها في المدارس

العامة التي فيها مواد دراسية لحصص العلوم الاجتماعية. وتقدّم هذه الأدلة صورة واقعية عن الإسلام والمسلمين، وتبدأ من سنوات الحضانة حتى المستوى الابتدائي. وطريقة عرض المعلومة فيها بسيطة وجذابة وتستهوي الجمهور غير المسلم. ويقود هذا المشروع عمر كاسولي، وهو حاصل على درجة الدكتوراه في الصحة العامة من جامعة هارفارد Harvard University. وساعد في تأسيس كلية الطب بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وكان نائب عميد لعشر سنوات، وهو الآن أستاذ دكتور في كلية الطب.

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا تحتفي بالنموذج الذي حاولنا أن ننجزه في التعليم العالي، وأنا فخور جداً بالنتيجة. فهي تعمل وفقاً لإطار فكري يجمع ما بين المصادر الإسلامية والعلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة. ويتم إشراك الطلاب في المشروع الأكاديمي من خلال الحوار والنقاش، وبحوث تخلو من الحفظ عن ظهر قلب، وحشو المعلومات. فيتم تشجيع الطلاب على الإبداع والتجريب بعيداً عن قيود التقليد الأعمى وضيق الأفق. وينبغي على كل الجامعات في العالم الإسلامي أن تستفيد من هذا المثل الرائع الذي صنعته الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

بذلنا قصارى جهودنا من أجل تحقيق الدعم المتبادل بين الجامعات الإسلامية، فدعمْنا أساتذة الاقتصاد الإسلامي في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للمساعدة في تأسيس قسم الاقتصاد الإسلامي بجامعة ميدُغوري في نيجيريا، كما وفرنا مِنحاً دراسية لطلاب الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للدراسة في عدد من المؤسسات، بما فيها مركز الاقتصاد الإسلامي الذي أسسه الشيخ صالح كامل في جامعة الملك عبد العزيز بجدة.

أتحنا أيضاً الفرص أمام أعضاء هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للتواصل مع كبار العلماء في الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام أباد في باكستان.

وكان بنك التنمية الإسلامي نعمة، وهو مؤسسة مالية إسلامية تم تأسيسها في جدة لتعزيز التنمية الاقتصادية، والتقدم الاجتماعي في الدول الأعضاء ومجتمعات المسلمين. ونحن ممتنون لكل من أسهم في تأسيس هذا الصرح العظيم الذي أفاد المسلمين على مستوى العالم. وندعو الله بالسداد والتوفيق لأحمد محمد علي الذي كان رئيس البنك، وهو رجل ذو عقلية علمية فذة، وله أثر عملي في أمريكا وفي الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وفي وزارة التعليم السعودية، وفي جامعة الملك عبد العزيز بجدة. أُنْفِقتْ أموال كثيرة، وبُذلتْ جهود كبيرة، في سبيل رفع مستوى التعليم في الدول التي فيها أقليات من المسلمين، والدول التي فيها أغلبية مسلمة. وتشمل مشروعاتُ بنك التنمية الإسلامي التدريبَ والمِنح الدراسية، بالإضافة إلى المبادرات التعليمية. وشاركنا في هذه المشروعات من خلال تقديم الاقتراحات، وإسداء النصح، وتكوين علاقات لبنك التنمية الإسلامي في مختلف أنحاء العالم. على سبيل المثال، أخذ بنك التنمية الإسلامي على عاتقه حل مشكلة نقص الجراحين والمهندسين المسلمين في بعض الدول التي يشكل فيها المسلمون أقلية، وقدم قروضاً بفائدة صفر للطلاب على أن يسددوا القرض بعد تخرجهم لصندوق خيري يساعد غيرَهم في المستقبل على أن يحصلوا على المنح الدراسية نفسها.

١٩٧٨. الهند. من اليمين أحمد محمد علي رئيس بنك التنمية الإسلامي، وأنا في المنتصف، ومنظور عالم رئيس معهد الدراسات الموضوعية في الهند يعرض مشروعات المسلمين التي يتم إنشاؤها في البلد.

٢٠٠٠. إندونيسيا. من اليسار لليمين: أنا، والشخص الثالث محمد عمر زبير الرئيس السابق لجامعة الملك عبد العزيز وعضو المنتدىٰ الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية، ثمَّ أحمد محمد علي رئيس البنك الإسلامي ونائب رئيس المنتدىٰ الإسلامي العالمي لتنمية العلوم والتكنولوجيا والموارد البشرية، والسادس هو حبيب خرزين مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي في إندونيسيا، والسابع هو أحمد لوبز رئيس جامعة الأزهر.

١٩٨٤. الهند، أمام مركز الشباب الإسلامي في كاليكوت. أنا السادس من جهة اليسار، ويليني أحمد محمد علي رئيس بنك التنمية الإسلامي، ويليه منظور عالم رئيس معهد الدراسات الموضوعية.

بالإضافة إلىٰ ذلك، قدم كثير من المحسنين دعماً للمسلمين في الشرق والغرب بمزيج نادر من الحبّ والاحترافية. ويمكنني أن أذكر هنا عشرات المشروعات. فمن خلال تبرعاتهم، قدمنا منحاً دراسية للمسلمين لدراسة الصحافة، وقدمنا أيضاً برامج تدريبية للطلاب أثناء دراستهم، وقدمنا مِنحاً للصحفيين المبتدئين لمساعدتهم في مهنتهم. وفي خلال عشر سنوات أو أكثر، شهدنا صعود صحفيين مسلمين في العديد من وسائل الإعلام في الهند ودول أخرىٰ. وتقَلَّد بعض هؤلاء الصحفيين مناصب مرموقة في بلدانهم أو في الدول التي تم إرسالهم إليها حول العالم.

يقفز قلبي فرحاً عندما أقابل الشباب والشابات ذوي القلوب الصافية والتطلعات العالية والحب الكبير لدينهم. شباب وشابات يفهمون وضع أمتهم الإسلامية، ويشاركون في جهود التطوير والإصلاح. إنهم شباب إيجابيون وقادرون على الإنتاج؛ إذ يذكّرونني بأيامي في المملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية.

عندما أنظر في عيونهم، أُبصر الأسئلة التي تدور في رؤوسهم: كيف نوازن بين دراساتنا وعملنا الإسلامي؟ كيف نوازن بين مهننا التخصصية وعملنا الإسلامي؟ فأضع يدي على كتفهم، وأفتح لهم قلبي قائلاً: أجبتم عن السؤال بأنفسكم! فالسرّ والمفتاح يكمنان في التوازن. ينبغي عليكم أن توازنوا بين محاضراتكم في الجامعة وأنشطتكم في المجتمع، بين العمل الخيري والمسؤوليات الأسرية. يجب عليكم أن توزعوا وقتكم وجهودكم بحكمة. وهذا يسري عليكم في كل الحالات، سواء في دراساتكم الأكاديمية أم في مسيراتكم المهنية. أعود وأقول: **التوازن هو المفتاح، وكذلك تعلُّم القراءة السريعة يوفر عليكم الكثير من الوقت.** ولكن يجب إعطاء الأولوية لمحاضراتكم. أعطوا واجباتكم الدراسية ما تحتاج إليه من وقتكم وجهدكم، ثم خصّصوا ما تبقّى منهما للدعوة والأنشطة الخيرية. فعندما تتفوقون دراسيّاً وتحصلون على أعلى التقديرات، وعندما تبْرعون في مجالكم المختار، تصيرون مثالاً ناجحاً يمكن للناس أن يقتدوا به. إنه نوع تطبيقي من الدعوة يحلّ محلّ جزء كبير من الدعوة بالكلام. نحن لا نريد منكم أن تتقيدوا بالدراسة والوظيفة فحسب، بل ينبغي عليكم أيضاً أن تمدّوا يد المساعدة للمجتمع وتدعموا غيركم. ومع ذلك، لا تقللوا من شأن نشاط أو آخر، بل كوّنوا رؤية شاملة، وحدِّدوا أولوياتكم.

العمل المؤسسي المنضبط هو ثاني سمة أساسية في الذين يريدون أن يشاركوا في العمل الدعوي والمدني. ويتجسد ذلك في سيرة النبي محمد ﷺ. إن روح العمل الجماعي والجهد المؤسسي هما العنصر الذي يجب أن يغلب على جهودنا التطوعية، كي لا نبدأ دائماً من الصفر. فعلى المرء أن يبدأ من حيث انتهى أخوه في هذا النشاط أو ذاك، ويجب أن يكمل الواحد منا أخاه. يجب علينا أن نؤكد على ثقافة القوة في الاتحاد؛ إذ يعمل الجميع معاً، فترتفع دافعية الجميع، ويُنتجون في سنة واحدة ما ينتجه الواحد منهم في عشر سنوات.

٢٠٠٥. بانجي، ماليزيا. أنا وقادة الشباب المسلم من ماليزيا وإندونيسيا في المؤتمر السنوي الرابع والثلاثين لحركة الشباب المسلم بماليزيا، ١٩-٢١ آب/ أغسطس ٢٠٠٥، في معهد تدريب الرفاه الاجتماعي

٢٠١٢. ماليزيا.

٢٠١٢. ماليزيا، مع أنور إبراهيم على اليسار.

٢٠١٢. ماليزيا، أنا الأول من اليسار، مع أنور إبراهيم الثالث من اليسار والرابع حسنين عصام الطالب

باختصار

لو كانت هناك خمسة عناصر يمكنني أن أستخلصها من مجمل خبرتي في العمل الدعوي والخيري على مدى عقود حياتي، فهي الآتي:

١. كُنْ ضليعاً في لغة الناس الذين تعيش وسطهم. فقد كانت من أولى أولوياتي عندما وصلتُ إلى المملكة المتحدة أن أتعلم، بل أتقن اللغة الإنجليزية.

٢. طوّر نفسك حتى تكون قدوة لغيرك في العلم والعمل والسلوك. تعلم كيف تقرأ بسرعة حتى توسّع مداركك وتُفسح الوقت لأنشطتك الأخرى.

٣. حلّ المشكلات على طول دربك. ابحث عن الحلول عندما تواجهك أية عقبة، وحافظ على دافعيتك. حاول أن تجعل غدك أفضل من يومك من خلال التطور المستمر.

٤. هذا العنصر يقوم على العناصر الثلاثة السابقة، وهو: استثمر وقتك بحكمة، وتعاون بروح الفريق حتى تتشارك الجهود وتُعظم المخرجات. حافظ على العلاقات بعناية، وقَوِّ صلاتك بالذين تعمل معهم.

٥. وأخيراً، كُنْ ذا أخلاقيات عمل قوية، وأخرجْ أحسنَ ما فيك. جاهدْ حقاً في سبيل التميّز في كل شيء، والاجتهاد يؤتي ثماره دائماً.

سؤال وإجابة

هناك سؤال من الأسئلة التي تُطرح عادة حول العمل الدعوي يحتاج إلى إجابة: هل يتطلب هذا العمل من الشخص أن يتفرغ له؟ ينبغي علينا أن نميّز هنا بين من يعملون موظفين في مؤسسة إسلامية بوصفهم جزءاً من هيكلها الإداري، ومن يعملون في مناصب الإرشاد والقيادة. فالفئة الأولى يعملون عملاً مهنيّاً مقابل راتب. وهذا يتباين مع جهود فئة الإرشاد والقيادة، ويتم القيام بها بشكل أفضل من خلال الجهود التطوعية

التي لا تتطلب تفرُّغاً لها. ومن الأفضل لمن ينتمون إلى هذه الفئة أن يعتمدوا على مهنتهم للحفاظ على معاشهم، وأن يتطوعوا بأي وقت يستطيعون التطوع به للعمل الدعوي، للأسباب الآتية:

أولاً: إن نجاح المرء في مهنته أو نشاطه الاقتصادي المقترن بالأخلاق الإسلامية من أهم جوانب الدعوة بشكل عملي، ونحن في أمسّ الحاجة إلى هذا النوع من الدعوة الآن.

ثانياً: ينبغي أن يكون العامل في مجال الدعوة مستقراً من جهة مصدر دخله الخاص. ومن الخطر أن تصير الدعوة "وظيفة"، ففي هذه الحالة يصير العامل في مجال الدعوة مثل أي موظف بيروقراطي آخر يُعيق النجاح.

نحن في حاجة إلى عاملين في مجال الدعوة لا يمثلون عبئاً على الموارد، ونريد منهم أن يكونوا قادرين على التطوع بجهودهم بإخلاص. ونحتاج أن يكون مثل هذا العمل جزءاً من ثقافة يشارك فيها الجميع فرديّاً وجماعيّاً؛ إذ تصير القلوب قلباً واحداً وتتضافر الجهود. ولا ضرر من وجود بعض الأشخاص المتفرغين على مستوى القيادة، مادامت مدة بقائهم في هذا المنصب لا تتجاوز فترة محددة مثل ثلاث سنوات على سبيل المثال. وينبغي على الشباب أيضاً ألا يخشوا اكتساب أكبر قدر ممكن من الخبرة حتى يؤسسوا المشروعات التجارية والمؤسسات، ويعملوا في شراكات مع آخرين.

من المهم تماماً أن يلتقي العاملون في مجال الدعوة بوصفهم إخوة وأخوات، ويشكلوا جماعات عمل نشطة، فيتعاونوا كأسرة واحدة تطوِّر نفسها، ثم تساعد في تطوير الآخرين. وفي الوقت نفسه، يُعد نسيان المرء لأسرته العضوية التي تتكون من زوجه وأبنائه واحتياجاتهم، من السَّقطات التي ينبغي تجنُّبها؛ فأسرتنا لها حق علينا. وينبغي أن يكون لدينا مستوى عالٍ من الناشطية، بموجبه يشارك كل أفراد الأسرة في هذا العمل بشكل أو بآخر: الأسرة الصغيرة المكونة من الأبوين والإخوة والأخوات في حالة الشباب، أو من الزوج والأبناء في حالة المتزوجين، أو أفراد العائلة الممتدة. ينبغي أن تشجعنا عوائلنا وتحفّزنا على موازنة عملنا، ولكن لا بدّ أن نوليها دائماً مكانها المناسب في قائمة أولوياتنا.

الدائرة الداخلية

إذا ألقينا حصاة في الماء، سيشكل الماء مويجات في سلسلة من الدوائر. وفي الحياة، تُعدُّ الأسرة هي الدائرة الداخلية والأولى في وجودنا، وكل شخص آخر المويجات التي تتفرع وراء هذه الدائرة الأولى. لذلك، الناس الذين يستفيدون استفادة مباشرة من وجودنا، ومن القدوة التي نصنعها، ومن القيم التي نرسّخها ونعيش بها، هم الأشخاص الذين يوجدون بجوارنا مباشرة، أي أُسرنا وعائلاتنا. كيف يمكن للمرء أن ينجح خارج بيته إذا كان فاشلاً في داخله؟ أعطِ لأسرتك أكثر مما تعطيه لأي شخص آخر، وركّز على تطويرها وإيمانها وقيمها. وعلّم أبناءك حب الله وحب الإنسانية، وعلّمهم مسؤولياتهم المدنية وحقوقهم. واحفظهم من سقطات الحياة، وعلّمهم كيف يتعاملون مع المشكلات، وكيف يحلّونها. وفوق كل ذلك، حافظ على شعلة الإيمان متّقدة لديهم جميعاً.

خاتمة

تأمُّلُ الحياة....لا شيء يهم سوى مرضاة الله

كَبُرْنَا، أنا وزملائي، ولكن العمل متواصل، وسيستمر نقياً بإذن الله بعدما نرحلُ عن هذه الدنيا. فالمنهل العذب كثير الزِّحام. وقد أكرمني ربي بأن أتاح لي فرصة الاعتناء بهذا المنهل العذب بأقصى ما أستطيع، مسترشداً برؤية تعني على المستوى الشخصي أن الحياة رحلة تقدُّم داخلي وروحي عن طريق العمل والجهد، وعلى المستوى الخارجي تصنع الخير الاجتماعيَّ لأكبر عدد ممكن من الناس. وسأبقى حريصاً على رفد الآخرين بكل تجاربي وخبراتي تحقيقاً لقوله ﷺ: "إن قامتِ الساعةُ و في يدِ أحدِكم فَسيلَة، فإن استطاعَ أن لا تقومَ حتى يغرِسَها فليغرِسْها"

حاولتُ أن أجعل الدين شفاء للمجتمعات المُفَتَّتَة والشباب الحائر، وجعلتُ المعرفة والمسؤولية المدنية تقومان على الإيمان، وهذه نقطة محورية في برامج تنمية الشباب. كما حاولتُ أن أستبدل بالإيمان الفاتر بالله شعوراً قويّاً بوجوده، وأن أعيد الدين إلى التعليم العالي بوصفه جزءاً فكريّاً وجوهريّاً من طريقة دراستنا للعالم ولأنفسنا؛ أنا والفريق الرائع من الرجال والنساء الذين رافقوني في هذه الرحلة، وهم أناس يتّسمون بالحكمة والصدق والتفاني والإيمان، وضَحُّوا بأوقاتهم وطاقاتهم وحتى وظائفهم في سبيل هذه القضية الجديرة بالتضحية من أجلها.

ولعلي صرتُ حكيماً بفضله تعالى، وتعلمتُ أن نتحكم في الأمور بإحكام شديد للغاية. ينبغي علينا أن نبذل قصارى جهودنا، ثم نتوكل على الله سبحانه وتعالى، وأننا ينبغي علينا ألا ندع هذه اللحظة الثمينة تُسرق منّا، وأقصد باللحظة ذلك الجزء من الزمن الذي نقضيه قبل أن تُردُّ الروح إلى بارئها.

كانت رحلة صبر وصمود وحل مشكلات، يجمع ما بين أجزائها حب لله يقوم على الشغف والتوحيد، ونذرنا لوجه الله رؤية واضحة متفانية، تهدف إلى مساعدة الإنسانية جمعاء.

هذا ما ألهمني الله به، وهذا معنى كون الإنسان خليفة في الأرض. حاولتُ في هذا الكتاب أن أقدم وصفاً أميناً للرحلة، كما عشتُها وكما فهمتُها.

اللهم اجعل هذا الكتاب مصدر إلهام لكل من يقرؤه.

والحمد لله رب العالمين

صور مناسبات اجتماعية وأحفال تكريم

١٩٩٠. إندونيسيا. حفل زواج ابن السيد/ لقمان هارون، من شخصيات الدعوة الإسلامية في إندونيسيا، وهو الأول من جهة اليسار مع زوجته. وبجوارهما أنا وزوجتي ميسون.

١٩٩٢. هيرندن فيرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية. المناسبة خطوبة ابني محمد. في الصف الأمامي من اليسار، هشام الطالب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ثم أنا، ثم مصلح محمد الصوّاف والد خطيبة محمد، ثمَّ طه العلواني. وفي الصف الخلفي، أزهر الطالب، ورفيدة مصلح الصوّاف خطيبة محمد، ثمَّ محمد توتونجي.

١٩٩٣. عمّان، الأردن. تجمُّع عائلي. من اليسار، عصام الطالب، هشام الطالب، إلهام توتونجي، أحمد توتونجي، عز الدين الطالب، عبد الرزاق توتونجي، أحمد طه العلواني، عبد الستار توتونجي، وإنعام الطالب.

١٩٩٤. السعودية. حفل زواج ابني محمد. من اليسار عبد الحميد أبو سليمان، وبجواره الشيخ سليمان الراجحي والدكتور حازم حمدون.

١٩٨٧. الرياض . حفل زواج عبد المنعم توتونجي، وهو الخامس من اليسار وقوفاً. عدنان عمر الأول من اليسار، وعبد الجبار البياتي الرابع، ومحمد عبيد السادس. الشيخ عبد الله سليمان الراجحي في الخلف وبجواره ابنه سلطان.

١٩٩٧. أمريكا . الواقفون في الخلف: من اليمين ابنتي إلهام، وزوجها أحمد طه العلواني ويحمل ابنته هديل، ثمَّ عبد الرحمن عرفان توتونجي، وابنتي هدى، وابني محمود، وابن أخي عرفان توتونجي وزوجته غزوة البياتي. والجالسون في الصف الأمامي من اليمين: رفيدة الصّواف زوجة ابني محمد وفي حِجرها ابنتها ريما؛ ثمَّ زوجتي ميسون، وأنا، ثمَّ ابني محمد، ثمَّ عبد الجبار عرفان توتونجي.

١٩٩٨. الرياض . من اليسار محمد توتونجي، عبد المنعم توتونجي، أحمد ديدات، رياض أبو سليمان، وأنا. الأول من اليمين أحمد العلواني زوج ابنتي.

٢٠١٨. زيارة خاصة للشيخ محمد أمين سراج في إسطنبول بتركيا، مع ابني محمد توتونجي والزميل رشاد إيرول.

١٩٩٠. الرياض. من اليسار لليمين جمال البرزنجي، وعبد الله الراجحي وأنا.

٢٠١٣. الرياض . غانم الجميلي، سفير العراق السابق، يكرمني بعد محاضرتي التي ألقيتُها في السفارة العراقية في الرياض.

٢٠١٨. كوالالمبور، ماليزيا، المنتدى العالمي للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM، حفل جائزة الإنجاز المتميز مدى الحياة. من اليسار لليمين، البرفيسورة زليخا قمر الدين، مديرة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سابقاً، وأنا، ووكيل رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM البروفيسور عبد العزيز برغوث.

٢٠١٨. كوالالمبور، ماليزيا، المنتدى العالمي للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM، حفل جائزة الإنجاز المتميز مدى الحياة. الضيوف الذين يكرمونني في وسط الصف الأمامي، بمن فيهم مروة قاوقجي على يميني وهي سفيرة تركيا في كوالالمبور، وأبواها، ويمثلان منظمة التعاون الإسلامي.

٢٠١٨. كوالالمبور، ماليزيا، المنتدىٰ العالمي للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM، حفل جائزة الإنجاز المتميز مدىٰ الحياة. من اليسار، البروفيسورة زليخا قمر الدين، مديرة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM سابقاً، وأنا، ووكيل رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM عبد العزيز برغوث من الجزائر.

٢٠١٨. كوالالمبور، ماليزيا. من اليسار: أنا، ثم داتو جميل عثمان ممثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي في شرق وجنوب شرق آسيا، ثمَّ وان عزيزة بنت وان إسماعيل أول امرأة تتسلم منصب نائب رئيس وزراء في ماليزيا ووزيرة المرأة والأسرة والتنمية المجتمعية وزوجة أنور إبراهيم. أهديها كتاباً عن التعليم العالي.

٢٠١٨. كوالالمبور، ماليزيا. أجلس في الوسط مع قادة منظمة الشباب الإسلامي بماليزيا في اجتماع مع جماعة وضح WADAH للمساعدة في رفع مستوى معيشة المسلمين الماليزيين.

٢٠١٨. كوالالمبور، ماليزيا، المنتدى العالمي للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM، حفل جائزة الإنجاز المتميز مدى الحياة. أخاطب الجمهور.

٢٠١٨. كوالالمبور، ماليزيا، المنتدى العالمي للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا IIUM، حفل جائزة الإنجاز المتميز مدى الحياة. أخاطب الجمهور.

٢٠١٨. كوالالمبور، ماليزيا، تسلّم الدكتوراه الفخرية من جامعة يونيسل Unisel University.

هذا الكتاب

هو سياحةٌ في الدعوة والفكر والعلم والمعرفة والإدارة؛ إذ نتلمسُ فيه بناء الذات، ومحاورة الآخر، لتشييد معمار إنساني حضاري للبشرية جمعاء، مستلهمين الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية في تأسيس المشترك الإنساني.

وهو خطابٌ مؤسَسٌ على نَفَسٍ دعوي، ومنهج علمي، وتأصيل معرفي، وتخطيط مؤسسي. وهو يمزج بين التنظير والتطبيق، والقراءة والتجربة، والعلم والعمل، والحكمة والممارسة، والمقصد والواقع، والتفكير داخل الصندوق وخارجه. ويتكئ على إرث عظيم من التفكير الإسلامي القويم، الذي يتخذ من فقه الواقع، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، وفقه البدائل، وفقه النوازل، إلخ، شعاراً له ومناطاً لعمله.

وهو كشفٌ عن مسيرة الفرد بحضور الكُل، ونكران للذات والأنا في العمل الجماعي، ونموذجٌ لعمل الفريق المتناغم، المتعاون، المتآخي، المضحّي.

وهو متنٌ لدروسٍ من حياتي، مما تعلمتُه وعلّمتُه وعايشتُه ومارستُه؛ إذ إنّ رحلتنا في الحياة نعيشها لفكرة زرعها الله في قلوبنا؛ فنبذل الجهود المضنية لتحقيقها، ونضرب في الأرض شرقاً وغرباً لإيصالها. وتتجافى جنوبنا عن المضاجع لخدمة البشرية جمعاء، منطلقين من قوله عليه الصلاة والسلام "أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم للناس". والله نسأل أن يجد القارئ في عملنا هذا ثمراً طيباً نافعاً، يعينه على شق طريق النجاح والفلاح.

أحمد توتونجي

مفكر وقيادي في العمل الخيري والدعوي على مستوى العالم؛ وُلد عام ١٩٤١م في مدينة أربيل شمال العراق، أنهى دراسته الثانوية في بغداد، وحصل على منحة تفوق من وزارة النفط العراقية للدراسة في إنجلترا، ونال عام ١٩٦٣ شهادة البكالوريوس في هندسة النفط والتعدين من جامعة برمنجهام. وسافر إلى أمريكا لإكمال دراساته العليا؛ إذ درس تخصص هندسة استخراج النفط في جامعة ولاية بنسلفانيا، فحصل على شهادة الماجستير عام ١٩٦٤، وشهادة الدكتوراه عام ١٩٧٠.

أسهم في تأسيس كثير من الهيئات والجمعيات والمؤسسات الخيرية والأكاديمية والفكرية والمجتمعية على مستوى العالم، لا سيما في أمريكا الشمالية وكندا والمنطقة العربية. ومن أهمها: جمعية الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة وإيرلندا الشمالية (MSS)، والاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية (IIFSO)، واتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا (UMSO)، واتحاد المنظمات الطلابية الإسلامية (FOSIS) في المملكة المتحدة وإيرلندا الشمالية، واتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا (MSA). وشارك في تأسيس عدد من المؤسسات الخيرية والوقفية مثل: الوقف الإسلامي في أمريكا الشمالية، ومؤسسة سار الخيرية في ولاية فرجينيا، والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الكويت. كما شارك في تأسيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض.

وكانت له إسهامات في تأسيس بعض المؤسسات الفكرية والأكاديمية مثل: قسم هندسة النفط في جامعة الرياض (الملك سعود حالياً) وكان رئيساً له مدة عشر سنوات، وقسم هندسة النفط في جامعة الفاتح من سبتمبر في ليبيا، وعضو مؤسس للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بمشاركة عدد من العلماء والمفكرين.

ISBN 978-1-945886-07-2

9 781945 886072